طارق علي

كتاب صلاح الدين

ترجمة: طلعت الشايب

رواية

طارق علي
ترجمة: طلعت الشايب

كتاب صلاح الدين

خماسيّة الإسلام (2)

رواية

الكتب للنشر والتوزيع

كتاب صلاح الدين

THE BOOK OF SALADIN

خماسيّة الإسلام

Tariq Ali 1998 ©

الطبعة الأولى: 2013

الطبعة الثانية : 2015

رقم الإيداع: 13262/ 2011

الترقيم الدولي: 978-977-6306-06-6

الغلاف: حاتم سليمان

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع

13 شارع 254 – دجلة– المعادي – القاهرة.

تليفون: 20225196569+ - 20225170678+

بريد إلكترونى: info@kotobkhan.com

موقع إلكترونى: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Translation Copy Right ® 2015 Al Kotob Khan for Publishing Distribution The Moral Rights of the author has been asserted. All rights reserved.

إهداء

إلى روبين بلاكبيرن

(المؤلف)

✱

خريطة الشرق الأوسط أواخر القرن الثانى عشر

توضيح من الكاتب

تمثل إعادة بناء أي شخصية روائيًا، مشكلة للكاتب. هل لا بدَّ من إغفال الدلائل التاريخية الحقيقية لصالح قصة جيدة؟ لا أظن ذلك. والحقيقة أن المرء كلما أمعن في استكشاف الحياة الداخلية المُتخيَّلة للشخصيات، تزداد أهمية أن يظل وفيًّا للحقائق والأحداث التاريخية، حتى في حال الحملات الصليبية، حيث قدّمت الحوليات المسيحية والإسلامية - في غالب الأمر- تفسيرات مختلفة لما حدث بالفعل.

سبَّب سقوط أورشليم أمام الحملة الصليبية الأولى في عام 492 هـ/1099م، صدمة مذهلة للعالم الإسلامي الذي كان في ذروة مجده. وكانت دمشق والقاهرة وبغداد مُدنًا كبرى وحواضر متقدّمة، يبلغ عدد سكانها مجتمعة ما يقرب من المليوني نسمة. في الوقت الذي كان عدد سكان مدينة مثل لندن أو باريس لا يزيد على خمسين ألف نسمة. اهتزّ الخليفة في بغداد للسهولة التي اجتاح بها المدُّ البربري جيوش المسلمين. وقُدِّر أن يكون ذلك احتلالا طويلا.

كان "صلاح الدين" هو المقاتل الكردي الذي استعاد أورشليم في عام 574 هـ/ 11م. والشخصيات الذكورية الرئيسية في الرواية مُؤسّسة على شخصيات تاريخية، من بينها "صلاح الدين" نفسه وإخوته وأبوه وعمّه وأبناء عمّه. و"ابن ميمون" هو الطبيب والفيلسوف اليهودي المعروف "ميمونيدس"، أما الراوي و"شادي" فهما شخصيّتان من صنعي، وأتحمّل مسئوليتهما كاملة.

النساء: جميلة وحليمة وغيرهنّ، كلهن من صنع الخيال. والنساء، على أي حال، موضوع مسكوت عنه، غالبًا، في تاريخ العصور الوسطى.

كان لصلاح الدين -كما يُقال- ستة عشر ابنًا، ولكننا لا نجد شيئا مكتوبًا عن إخوتهم أو أمّهاتهم.

ظل الخليفة الحاكم الديني والدنيوي منذ صدر الإسلام، وكان يتم اختياره بالتوافق بين الصحابة. وأدّت النزاعات الطائفية داخل الإسلام إلى خصومات، وقسَّم المذهب

الشيعي الورثة السياسيين للرسول. واعترف المسلمون السُنّة بالخليفة في بغداد، ولكن الحروب الأهلية والانتصارات الشيعية أسفرت عن قيام الخلافة الفاطمية في القاهرة، بينما وصل الفصيل السني الذي أزاحه العبّاسيون إلى قمة مجده بقيام الخلافة في قرطبة بإسبانيا الإسلامية.

أدّى انتصار "صلاح الدين" في مصر إلى سقوط الأسرة الفاطمية، ووضع المنطقة كلها تحت السيادة الاسمية للخليفة في بغداد. وعُيِّن "صلاح الدين" سلطانًا على سوريا ومصر، ليصبح أقوى قائد للعالم العربي في العصور الوسطى. وفي آخر الأمر، تمَّ تدمير الخلافة في بغداد على يد جيش المغول في عام 656 ه/ 1258م، ولم يعد لها وجود إلى أن أعيد إحياؤها - شكلا في الخلافة العباسية بالقاهرة زمن سلاطين المماليك (في عهد الظاهر بيبرس)- في تركيا العثمانية.

طارق علي

يونيو 1998

القاهرة

(1)

• عندما أصبحتُ الكاتب الثقة للسلطان بتزكية من ابن ميمون

مرّت سنوات كثيرة دون أن أفكّر في منزلنا القديم. مضى زمن طويل على ذلك الحريق. منزلي وزوجتي وابنتي وحفيدي ذو العامين، كانوا كلهم أشبه بحيوانات محبوسة في قفص. ولولا مشيئة القدر لكنت أصبحت، مثلهم، رمادًا! كم تمنّيت مرارًا لو كنت معهم لأشاركهم نفس المصير!

يا لها من ذكريات مؤلمة! احتفظت بها في أعماقي. إلا أنني اليوم، وأنا أبدأ كتابة هذه القصة، تستيقظ بداخلي بقوة صورة تلك الغرفة المقبّبة حيث كانت البداية. عجيبة هي سراديب الذاكرة! تظل الأشياء التي ننساها طويلا مخبأة في زوايا مُظلمة، ثم تظهر في النور فجأة... الآن أستطيع أن أرى كل شيء. كل شيء يرد إلى ذهني واضحًا كأنني ما زلت أعيشه.

كانت ليلة باردة من ليالي شتاء القاهرة، وكنا في عام 1181 حسب التقويم الميلادي. كان مواء القطط هو الصوت الوحيد المسموع في الشارع. مرّ الحاخام موسى بن ميمون بمنزلي، وهو صديق قديم للعائلة، بحكم عمله كطبيب خاص لها، بعد عودته من زيارة للقاضي الفاضل. فقد كان هذا الأخير متوعّك الصحة منذ بضعة أيام.

جلسنا نشرب الشاي في صمت، بعد أن انتهينا من تناول الطعام. مِن حولنا الأبْسِطَة الصوفية متعدّدة الألوان والوسائد المغطّاة بالحرير والساتان. ووسط الغرفة استقرّت مجمرة مستديرة كبيرة مليئة بالفحم المتوهّج، تتصاعد منه موجات هادئة من الحرارة. وبدت القبة، من فوقنا، كأنها سماء مضيئة من فرط انعكاس اللهب عليها.

كنت أفكر في حديثنا السابق. فقد كشف صديقي عن جانب غاضب ومُحبَط في

شخصيته أدهشني وطمأنني في الوقت نفسه. كان قديسنا إنسانًا مثل أي إنسان آخر. أما ما يبدو عليه خلاف ذلك فمظاهر تفرضها الضرورة. كنا نتحدّث حول الظروف التي اضطرت ابن ميمون للفرار من الأندلس، ليبدأ رحلته الطويلة، التي امتدّت خمسة عشر عامًا، من قرطبة إلى القاهرة، قضى منها عشرة أعوام في مدينة فاس المغربية. حيث اضطرت أسرته كلها للتظاهر بأنها من أتباع نبيّ الإسلام. كم كان ابن ميمون غاضبا من هذه الذكرى! فأكثر ما كان يزعجه الخداع! كما كان النفاق ضد طبيعته.

لم أكن قد سمعته يتحدّث بمثل هذه الطريقة من قبل. لاحظت ما طرأ عليه من تغيّر. عيناه كانتا تلمعان، يلوّح مكوّرًا قبضته وهو يتكلّم. تساءلت بيني وبين نفسي ما إذا كانت تلك التجربة هي التي أثارت مخاوفه تجاه الدين. خصوصًا دين السلطة. تلك العقيدة المفروضة بحد السيف.

كسرت الصمت قائلاً:

"هل يمكن أن يكون هناك عالم دون الدين يا ابن ميمون؟ لقد كان لدى القدماء آلهة كثيرون، وكانوا يستخدمون عبادتهم في محاربة أتباع بعضهم بعضا. أما الآن..فلنا إلهٌ واحد، وبدافع من الضرورة لا بدَّ من أن نحارب من أجله. ومن ثم أصبحت هناك حرب تأويل لكل شيء. كيف تفسّر فلسفتُك هذه الظاهرة؟"

أثار السؤال فضوله، ولكن قبل أن يجيب سمعنا طَرقَة قويّة على الباب.. اختفت معها ابتسامته.

"هل تنتظر أحدًا؟"

هززت رأسي. انحنى بالقرب من المجمرة ليدفئ كفيه. فقد كنا نشعر بالبرد رغم الحِرَام الصوف الذي كنّا نتدثّر به. عرفت بالبديهة أن تلك الطَرقة المتأخرة على الباب من أجل صديقي. تنهّد ابن ميمون وهو يقول: "لا يدقّ الباب على هذا النحو سوى رسول رجل قوي. ربما تكون صحّة القاضي الفاضل قد ساءت، ولا بدَّ من أن أذهب إليه".

دخل خادمي أحمد الغرفة وهو يرتجف. حاملا في يده مصباحًا. يتبعه رجل متوسّط الطول. ملامحه غير واضحة وشعره خفيف الحُمْرَة. كان متدثّرًا بحِرام ويسير بعَرَجٍ بسيط في ساقه اليمنى. لمحتُ موجة خوف مفاجئة تعبر وجه ابن ميمون، عندما قام وانحنى أمام الزائر. كنت أرى الرجل للمرة الأولى. لم يكن القاضي بطبيعة الحال. فقد

كنت أعرف القاضي جيدًا. قمت أنا أيضا وانحنيت. ابتسم زائري عندما أدرك أنني لا أعرفه.

"معذرة لتطفّلي في مثل هذه الساعة، لقد أبلغني القاضي أن ابن ميمون موجود في مدينتنا، ويقضي الليلة في منزلك العامر. أليس هذا هو منزل إسحق بن يعقوب؟" أومأتُ بالإيجاب.

قال الغريب بانحناءة بسيطة: "أرجو أن تعذرني لمجيئي دون سابق إنذار. لا يتيسّر لي دائمًا لقاء عالمين في يوم واحد. فقد كنت مترددًا بين مزايا ليلة أنام فيها مبكرا، وحديث مع ابن ميمون. ووجدت أن كلماتك ربما تكون أكثر فائدة من النوم...وها أنا ذا".

"مرحبًا بأصدقاء ابن ميمون في أي وقت. تفضّل بالجلوس. هل ترغب في وعاء من الحساء؟"

قال ابن ميمون في صوت هادئ: "أعتقد أنه سيكون مفيدا لصحتك يا أمير الشجعان".

أدركت أنني في حضرة السلطان. كان ذلك هو يوسف صلاح الدين شخصيًا. في منزلي. ركعت على ركبتي ولمست قدميه.

"سامحني يا سيدي لأنني لم أعرفك. عبدك يرجو عفوك". ضحك وجذبني لكي أقف.

"لا يهمني أمر العبيد كثيرًا! إنهم أقل ميلاً إلى التمرد، وأكون شاكرًا لو قدّمت لي بعض الحساء".

بعد أن تناول الحساء، سألني عن أصل الآنية الخزف التي قدّمت له فيها الحساء.

"أليست مصنوعة من صلصال أرمينيا الأحمر؟" أومأت بالإيجاب وأنا مندهش.

"كانت لدى أمي آنية تشبهها تماما، لم تكن تستخدمها إلا في الأعراس والمآتم، وكانت تقول: إنها من قريتها في جبال أرمينيا".

فيما بعد، في تلك الليلة، قال السلطان لابن ميمون إنه في حاجة إلى أن يوظّف لديه كاتبًا يكون محل ثقة. شخصًا يُملي عليه مذكّراته، إذ أن سكرتيره الخاص مشغول بالمكائد من كل نوع، ولم يكن السلطان يثق به تمامًا. كان يشوِّه معاني الكلمات ويُحرّفها

لكي تناسب احتياجاته المستقبلية الخاصة.

قال السلطان وهو ينظر في عيني ابن ميمون مباشرة: هناك أوقات تكون حياتنا معرّضة خلالها للخطر في كل لحظة، الأعداء محيطون بنا، ولا همَّ لنا إلا المحافظة على حياتنا. عندما يسود السلام فقط يكون لدى المرء ترف أن يبقى مع أفكاره الخاصة.

سأل ابن ميمون: مثل الآن؟"

"مثل الآن" ردّد السلطان: "أنا في حاجة إلى شخص أستطيع أن أثق به. شخص لا يُحجِم عن كشف الحقيقة بعد أن أستحيل ترابًا".

قال ابن ميمون: "أعرف ذلك النوع الذي تريد يا سيدي، ولكن طلبك يُمثّل مشكلة، أنت لا تستقر في مدينة واحدة طويلا، فإما أن يتنقل الكاتب معك، أو سيكون علينا أن نجد كاتبا آخر لك في دمشق".

ابتسم السلطان.

"ولم لا؟ وخاصة أن مدينة ثالثة تلوح لنا. أتمنى أن أزور القدس قريبًا، وحيث إنني المؤلف فلا بدَّ من أن أضمن ألا أُكرّر نفسي".

لم نستطع أن نُخفي دهشتنا أنا وصديقي. ويبدو أن ذلك قد أعجب ضيفنا الجليل! ذلك أن أورشليم، أو القدس كما يسميها العالم الإسلامي، لا تزال محتلّة. ومن ثمَّ فقد كشف السلطان لتوه، وفي بيتي، عن نيّته تحرير أورشليم. خصوصًا وأن غرور الفرنج وعجرفتهم قد زادا على كل حدّ.

كنا -نحن الذين نعيش في هذه المنطقة- في حال عداء وصراع مع الفرنج الذين جاءوا من وراء البحار، على مدى أكثر من ستين عامًا، وكانت أورشليم قد سقطت في أيديهم في عام 1099م. حيث دُمّرت المدينة القديمة وغرقت شوارعها في دم اليهود والمسلمين. هنا كان الصدام بين البرابرة وعالمنا أكثر ضراوة منه في المدن الساحلية. ذبحوا كل يهودي وكل مسلم. انتفض الناس رُعبًا في المساجد والمعابد عندما انتشرت أخبار تلك الفظائع في البلاد. لعنوا البرابرة القادمين من الغرب وتعهّدوا بالثأر. لعلَّ الوقت قد حان. ولعلّ ثقة هذا الرجل القويّة لها ما يُبرّرها.

تسارعت دقّات قلبي.

"صديقي ابن يعقوب الذي شرف معي بزيارتكم هذه الليلة واحد من أبرز العلماء الثقات في جماعتنا، ولا أجد من هو أفضل منه ليكون كاتبًا لك. لن يبوح بكلمة واحدة لأحد".

"أنا في خدمتك يا سيدي بشرط واحد".

" تكلَم!"

"لقد قرأتُ كثيرًا عن الملوك القدامى، الحاكم يتم تصويره عادة إما إلهًا أو شيطانًا، ويتوقّف ذلك على ما إذا كان كاتب القصة واحدًا من البلاط أم عدوًا. هذا النوع من الكتب عديم القيمة. عندما تنام الحقيقة والكذب متعانقين في فراش واحد، يكون من الصعب الفصل بينهما. لا بدَّ من أن يُسمح لي –سموّكم- بأن أسأل أحيانًا، وهو ما سوف يساعدني في استيضاح معنى حدث ما في حياتك. قد لا يكون ذلك ضروريًا، ولكننا جميعا نعرف ما يُثقل كاهلك من هموم، وأنا.. ".

"تستطيع أن تسأل كما تشاء عمّا تشاء. أعطيك هذا الحق. ولكنني لا أجيب دائمًا. وهذا حقي".

انحنيت.

"وحيث إنك ستجيء إلى القصر بانتظام، لن يكون تعيينك سرًا. أنا أقدّر التكتّم والدِقّة. وهناك من حولي، بمن فيهم القاضي الفاضل الذي نُجِلُّه، من سيحسدونك. الفاضل على أية حال كاتب موهوب وله معجبوه. يكتب ما أُمليه عليه، ولكن لغته منمقة تكثر فيها المحسّنات البديعية التي تثقل على ذوقي. يزيّن الأفكار أحيانا بعبارات يكون من الصعب معها تبيّن معناها. إنه يتلاعب بالكلمات، وساحر يُجيد التخفّي.

أريدك أن تدوّن ما أقول بكل ما تستطيع مِن دقّة. دون تزويق من أي نوع. احضر إلى القصر غدًا، وسنبدأ مبكّرين، والآن أستأذنك لدقائق معدودة، فأنا أودّ أن أستشير ابن ميمون في أمر خاص".

غادرت الغرفة.

بعد ساعة تقريبًا، عندما ذهبت لأسألهما ما إذا كانا يرغبان في وعاء من حساء الدجاج، سمعت صوت صديقي واضحًا "لقد قلت كثيرًا لقاضيك: إن ما نشعر به من

عواطف يحُدِث تغيّرات جوهرية في صحتنا. ما تشعر به ويجعلك على تلك الحالة من الاستياء لا بدَّ مِن أن يهدأ. لا بدَّ من اكتشاف السبب وعلاجه. هل قلت كل شيء؟"

لم تكن هناك إجابة، وبعد دقائق غادر السلطان منزلي ولم يعد إليه بعد ذلك. كان رُسُله يجيئون من وقت لآخر حاملين الهدايا لأسرتي، وبالأغنام والماعز احتفالاً بعيد الأضحى.

منذ تلك الليلة، إلى يوم أن غادر إلى أورشليم، كنت أرى السلطان كل يوم. أحيانًا لا يتركني أعود إلى منزلي. بعد أن خصّص مكانًا لإقامتي في قصره. وفي غضون الشهور الثمانية التالية، ملأ السلطان يوسف صلاح الدين بن أيوب كلّ حياتي.

(2)

● لقائي بشادي وبداية إملاء السلطان مذكّراته

نبّهني ابن ميمون إلى أن السلطان معتاد على الاستيقاظ مبكرًا. يقوم قبل الفجر، فيغتسل ويتناول فنجانا من الماء الدافئ، قبل أن يمتطي جواده إلى تلال المقطم في ضواحي القاهرة. حيث يجري بناء القلعة. عادة ما يفرض السلطان، باعتباره مغرما بالعمارة، رأيه على رئيس البنائين. فهو الوحيد الذي يعرف أن سبب البناء الجديد لم يكن الدفاع عن القاهرة ضد الفرنج، وإنما حماية السلطان من العصيان الشعبي.

كانت القاهرة مدينة مضطربة، كبرت بسرعة واجتذبت المشرّدين والساخطين من كل نوع. لذلك بدت القاهرة مخيفة لحكّامها. هنا أيضًا، يختبر السلطان مهاراته ومهارات جياده، وأحيانا يأخذ ابنه "الأفضل" -أكبر أبنائه- معه. كان الأفضل في الثانية عشرة من العمر، وكانت تلك أطول مدة قضاها في القاهرة. ومن ثم استغلّ السلطان الوقت في تعليمه فنون القتال. فالأسر الحاكمة، في نهاية المطاف، تقوم أو تنهار في ساحات القتال. هكذا تعلّم صلاح الدين من أبيه أيوب، ومن عمّه شيركوه.

عندما عاد السلطان ذلك الصباح، وجدني في انتظاره. لمستُ جبهتي صامتا، تحية له.

"لقد جئتَ في الوقت المناسب يا ابن يعقوب"، قال وهو يثب من على حصانه. بدا متوهّجًا، يغطّيه العرق، عيناه تلمعان مثل عيون الأطفال، وعلى وجهه بدت علامات السعادة والرضا.

"هذه بداية طيبة لعملنا يا صديقي، سأتحمّم وألحق بك في المكتبة لنتناول الفطور معًا. يمكن أن نمضي ساعة قبل أن يجيء القاضي. شادي سيريك الطريق".

صحبني من ساعدي مقاتل كردي مسنّ في العقد التاسع تقريبا ذو لحية بيضاء مثل ثلوج الجبال، قادني بهدوء إلى المكتبة. أخذ يتحدّث عن نفسه في الطريق. عاش مع والد السلطان قبل أن يولد يوسف، وقبل أن ينتقل أيوب وشقيقه شيركوه إلى سهول بلاد الرافدين.

"كنت أنا، شادي، من علَّم سلطانك كيف يركب حصانًا ويستخدم سيفًا قبل بلوغه الثامنة من عمره. كنت أنا، شادي، الذي...

في الظروف العادية، كان يمكن أن أستمع إلى الرجل المسنّ وأسأله عن التفاصيل، ولكن أفكاري ذلك اليوم كانت في اتجاه آخر. تلك زيارتي الأولى للقصر، ومن الحمق أن أنكر أنني متوتر جدًا. لقد صعد نجمي فجأة، وأنا على وشك أن أصبح من خلصاء أقوى حاكم في عالمنا.

أُخِذتُ وأنا أجد نفسي في أشهر مكتبة خاصة في مدينتنا. كتب الفلسفة وحدها تزيد على الألف كتاب. كل شيء هنا، من أرسطو إلى ابن رشد، من الفلك إلى الهندسة. يأتي ابن ميمون إلى هنا عندما يريد أن يرجع إلى الوصفات الطبية للكندي وصلاح بن كيسان وأبي الفضل داود. وبالطبع إلى وصفات أعظمهم، المعلّم.. الرازي نفسه. هنا أيضًا، يتمنّى ابن ميمون، أن تُحفظ كتبه ومخطوطاته بعد وفاته.

عندما دخلت المكتبة بهرتني ضخامتها، وسرعان ما انتابتني أفكار كثيرة.. كبيرة. هذه المجلدات هي مستودع قرون من العلم والدراسة. هنا، يوجد قسم خاص يضم كُتبًا لا تجدها في مكان آخر. كتب مُتّهمة بالبدع والهرطقة. بعبارة أخرى.. كتب يمكن أن تفتح العقول المغلقة. ويمكن الاطلاع على هذه الكتب فقط في قاعات القراءة في دار الحكمة، بشرط أن يكون القارئ على استعداد لأن يمنح الكُتبي هدية سخية. وحتى بعد ذلك، ليس كل شيء ممكنا.

مثلًا كتاب "سيرة البكري" لأبي الحسن البكري، وهو سيرة لنبي الإسلام، اختفى من الدكاكين والمكتبات العامة. وذلك بعد أن اتهمه أحد شيوخ الأزهر بالتلفيق. وقال في خطبة الجمعة إن ابن البكري يُشوى في نار جهنّم لأنه مُجدّف.

هنا، أمامي الآن يوجد هذا الكتاب المُحرّم. ارتعشت يداي عندما تناولته من فوق الرفّ وبدأت أقرأ سطوره الأولى. بدا مألوفًا جدًا بالنسبة لي. شردت فلم ألحظ شادي الذي كان راكعًا يصلي. كما لم ألحظ قدوم السلطان الذي قطع عليَّ استغراقي الحالم.

"أن تحلم وتعرف خيرٌ من أن تصلي وتظل على جهلك، هل توافقني على ذلك يا ابن يعقوب؟"

"معذرة يا سيدي! لقد كنت....

أشار لنجلس. جاء الفطور. بدا السلطان مهموما. أصابني التوتر فجأة. أكلنا في صمت.

"ما أسلوبك في العمل؟"

فاجأني السؤال.

"لم أفهم قصدك يا سيدي!".

ضحك.

"تعال يا صديقي. لقد أخبرني ابن ميمون أنك عالم تاريخ وامتدح لي محاولتك كتابة تاريخ شعبك. فهل سؤالي صعب بحيث لا تجيب عنه؟"

"أنا أتبع أسلوب الطبري العظيم. أكتب بتسلسل زمني دقيق. أتحرّى دقّة كل واقعة مهمّة، بأن أتحدث مع أولئك الذين اكتسبوا معرفتهم على نحو مباشر، وعندما يصبح لديَّ أكثر من رواية للواقعة من رواة مختلفين، أنقل ذلك كله للقارئ".

انفجر السلطان ضاحكًا.

"إنك تناقض نفسك. كيف يمكن أن يكون هناك أكثر من رواية لحقيقة واحدة؟ صحيح.. يمكن أن يكون هناك واقعة واحدة... رواية واحدة صحيحة لها، وأكثر من رواية زائفة".

"مولاي يتحدّث عن الحقائق، أنا أتحدّث عن التاريخ".

ابتسم.

"هل نبدأ؟"

أومأت برأسي وتناولت أدوات الكتابة.

"هل نبدأ من البداية؟"

قال: "أظن ذلك... مادمت مشدودًا للتسلسل الزمني. أقصد أنه ربما كان من الأفضل أن نبدأ بأول رؤية لي للقاهرة. أليس كذلك؟"

"البداية يا سيدي السلطان. البداية. بداياتك. ذكرياتك الأولى".

... ...

من حسن الحظ أنني لم أكن أكبر إخوتي. لذلك لم ينتظر أحد مني الكثير. ومن ثم كنت أتمتّع بقدر من الحرية يتيح لي الانفراد بنفسي لوقت طويل. حتى مظهري وسلوكي لم يكونا يمثلان أهمية لأحد. هكذا كنت طفلا عاديًا جدًا. الآن تراني سلطانا تحيط بي كل رموز السلطة. ذلك كله يترك أثره فيك وربما يجعلك في خشية. قلق أنت، تخشى أن تتجاوز بعض آداب السلوك، ربما، فيتدحرج رأسك في التراب. هذا الخوف عادي. إنه تأثير السلطة في رعايا السلطان. ولكن هذه السلطة نفسها يمكن أن تحوّل أضعف شخصية إلى شخص كبير. انظر مثلا، لو أنك عرفتني عندما كنت صبيا أنا وشاهنشاه أخي الأكبر، لما تخيّلت أنني يمكن أن أصبح سلطان مصر ذات يوم، ولكنتَ محقا في ذلك. لقد تآمر القدر والتأريخ لكي يجعلا مني ما أنا عليه اليوم.

الشخص الوحيد الذي كان يأنس فيَّ شيئا، كانت جدتي لأبي. عندما كنت في التاسعة أو العاشرة، شاهدتني أنا وجماعة من أصدقائي نحاول أن نقتل ثعبانا. وكنا -كما الأولاد- نتنافس في تلك الأفعال الحمقاء، نحاول أن نمسك بثعبان من ذيله، وندوّره في الهواء قبل أن نحطّم رأسه على حجر أو ندوس بقوة على رأسه بأقدامنا، كما يفعل الشجعان منا. عندما رأت جدتي ذلك المنظر صرخت في:

"يوسف! يوسف بن أيوب! تعال هنا فورا!" فرّ الأولاد بعيدًا، أما أنا فسرتُ نحوها ببطء متوقّعًا صفعة على أذني. كان لجدتي طبع أسطوري غريب. هكذا أخبرني شادي. ذات يوم صفعت والدي على وجهه وكان رجلا كبيرا. لم يجرؤ أحد على السؤال عن سبب ذلك الفعل العلني. ترك والدي الغرفة، ويقال إن الأم وابنها لم يتبادلا كلمة واحدة لمدة عام، وفي آخر الأمر كان أبي هو الذي اعتذر.

اندهشت لمّا وجدّتها تضمني وتقبّلني في كلتا عيني على التوالي. قالت "أنت شجاع يا بني، ولكن.. انتبه! بعض الثعابين يمكن أن يردّ الضربة، حتى وأنت ممسك به من

ذيله". أتذكر أنني ضحكت وشعرت بالارتياح، ثم أخبرتني بحلم لها قبل أن أولد:

"كنت لا تزال في بطن أمك، وأعتقد أنك كنت كثير الحركة..تركل كثيرا. كانت أمك تشكو أحيانا وتقول إنها تشعر بأنها ستلد مُهرًا. ذات ليلة حلمت أن ثعبانا ضخما يستطيع أن يبتلع شخصا يزحف تجاه أمك التي كانت ترقد عارية في الشمس. فتحت أمك عينيها وبدأ العرق يغمرها. حاولت أن تتحرك ولكنها لم تستطع أن ترفع جسدها. كان الثعبان يزحف نحوها ببطء، وفجأة انشق بطنها، مثل باب مغارة سحرية، عن طفل يمشي وبيده سيف، وبضربة واحدة قطع رأس الثعبان، ثم نظر إلى أمه وعاد إلى بطنها. ستكون محاربا عظيما يا بني. مكتوب ذلك في طالعك، وسيكون الله هاديك".

كان أبي وعمي يضحكان من جدتي وأحلامها الساذجة. ولكن حتى في ذلك الوقت كان لذلك التفسير تأثيره الإيجابي فيَّ. كانت جدتي أول إنسان يأخذني على محمل الجد.

يبدو أن كلماتها أثّرت فيّ. لاحظت، بعد ذلك الحادث، أن عمي أسد الدين شيركوه، بدأ يراقبني باهتمام. كان مهتما على نحو شخصي بتدريبي على ركوب الخيل واستخدام السيف في القتال. هو الذي علّمني كل ما أعرف عن الخيل. هل تعرف يا ابن يعقوب، أنني أعرف سلالات كل الخيول العظيمة في جيوشنا؟ يومًا ما سأحدّثك عن الخيل.

عندما أغمض عيني، وأستعيد ذكرياتي الباكرة، فإن أول ما يرد إلى ذهني أطلال المعابد اليونانية القديمة في بعلبك، وأحجامها، التي تجعل المرء يرتعد إعجابا ورهبة. كانت البوابات المؤدية إلى البهو ما زالت قائمة في مكانها. كانت بحق... بنايات للآلهة! وكان أبي باعتباره ممثلا للسلطان العظيم زنكي سلطان الموصل، هو المسئول عن القلعة والدفاع عنها ضد خصوم السلطان. تلك كانت المدينة التي نشأتُ فيها. كان القدماء يسمونها هليوبوليس وهناك كانوا يعبدون زيوس وهرمس وأفروديت.

كنا ونحن أطفال نلهو هناك، فنقسّم أنفسنا إلى مجموعات تحت أقدام تماثيلهم، ونختبئ من بعضنا بعضًا. لا شيء يخلب خيال الطفل كما تفعل الآثار القديمة. كان في تلك الأحجار، سحر عجيب. وكثيرًا ما كنت أسرح في أحلام اليقظة عن تلك الأيام. حتى في ذلك الحين، كان عالم القدماء بالنسبة لي لغزا كاملا! وبالنسبة لنا كانت عبادة الأصنام تجديفًا وهرطقة قُضي عليهما بفضل الله ورسوله. على الرغم من ذلك كانت معابد وصور أفروديت وهرمس، على نحو خاص شيئًا يبعث على البهجة. كنا نفكر دائمًا كم كان سيكون جميلا وممتعا لو أننا عشنا في تلك الأيام. كثيرا ما كنا نختلف على الآلهة.

أنا شخصيا كنت من عشاق أفروديت. شقيقي الأكبر توران شاه كان يحب هرمس. أما بالنسبة لزيوس فقد كان كل ما بقي من تمثاله الساقان. لم تكونا جميلتين. أعتقد أن بقية التمثال أُستخدمت في بناء القلعة التي كنا نعيش فيها آنذاك.

حاول شادي، الذي كان يخشى التأثير المفسد لبقايا الماضي تلك، أن يخيفنا من تلك الآثار. قد تحوّل الآلهة البشر إلى تماثيل وأشياء أخرى، دون أن تفقد عقولها. كان يخترع الحكايات عن الجن والشياطين وغيرها من المخلوقات الشريرة، التي تجتمع في تلك الأماكن عندما يكتمل القمر بدرًا. يدبّرون كيف يخطفون الأطفال ويأكلونهم. مئات، بل ألوف الأطفال أكلهم الجنّ هنا على مرّ العصور. هكذا كان يقول لنا شادي بصوته العميق، وعندما يرى الرعب في أعيننا يخفّف من أقواله... لن يصيبنا مكروه ما دمنا في حفظ الله ورسوله.

غير أن حكايات شادي لم تزدنا إلا سحرًا وفتنة! سألناه عن الآلهة الثلاثة. بعض الدارسين في المكتبة سألوا صراحة، أيضًا، عن القدماء ومعتقداتهم. كالبشر آلهتهم وإلهاتهم يحاربون ويعشقون. لهم مثل بقية البشر نفس المشاعر. ما يميّزهم عنا هو أنهم لا يموتون. يعيشون في جنتهم الخاصة إلى الأبد، وهي مكان مختلف تمامًا عن جنتنا. أتذكر أنني سألت جدتي ذات ليلة "هل ما زالوا في جنّتهم إلى الآن؟"

غضبت وقالت:

"من الذي ملأ رأسك بكل هذا الهراء؟ سيقطع أبوك ألسنتهم. لم يكونوا سوى تماثيل أيها الغلام الغبي. الناس في تلك الأزمنة كانوا أغبياء. يعبدون الأصنام! في هذا الجزء من العالم الذي نعيش فيه، حطّم نبينا عليه الصلاة والسلام التماثيل وأزال آثارها".

لم يكن كل ما يُقال لنا يزيدنا إلا فتنة على فتنة بتلك الأشياء. لا شيء كان يمكن أن يبعدنا عنها. ذات ليلة، وكان القمر بدرا، قرر الأطفال الأكبر سنا بقيادة أخي أن يزوروا معبد أفروديت. قرروا أن يذهبوا من دوني، ولكنني سمعتهم يتهامسون وهدّدت بأن أخبر جدتنا. ركلني أخي بشدة، ولكنه أدرك خطورة ألا يأخذوني معهم.

بدا الجو شديد البرودة في تلك الليلة، وعلى الرغم من تدثّرنا بأحرمة من الصوف كانت أسناني تصطك وأرنبة أنفي منملة. أظن أننا كنا ستة أو سبعة أولاد. خرجنا ببطء من القلعة. كنا خائفين، ولا أنسى تذمّرهم عندما اضطررت للتوقف مرتين لإفراغ مثانتي الممتلئة. وعندما اقتربنا من أفروديت أصبحنا أكثر شجاعة. لم نكن نسمع شيئا

سوى نعيب البوم، ونباح الكلاب. لم يظهر أي جن.

وبمجرد أن دخلنا فناء المعبد الذي كان يغمره ضوء القمر سمعنا ضوضاء غريبة. كدت أموت رعبا وتشبثت بتوران شاه. تقدّمنا ببطء نحو الضوضاء. رأينا أمامنا ظهر شادي ممدّدا.. عاريًا وهو يتمايل بقوة على نحو إيقاعي للأمام وللخلف، وشعره الأسود يرفرف في الريح. كان يجامع مثل الحمار. بمجرد أن تأكدنا أنه هو، لم نتمالك أنفسنا فانطلقت ضحكاتنا في الفناء الخالي مدوّية لتطعن شادي مثل الخنجر. التفت نحونا وراح يكيل لنا السباب. ركضنا مسرعين. في اليوم التالي واجهه أخي:

"ليلة أمس كانت مؤخّرة الجن جميلة... أليس كذلك يا شادي؟"

توقف صلاح الدين وضحك لتذكّره ذلك. وكأن الحظ أراد أمرًا... في اللحظة نفسها دخل شادي المكتبة حاملا رسالة. قبل أن يتكلّم انفجر السلطان ضاحكًا. نظر إلينا الرجل مرتبكًا واستطعت أنا بصعوبة بالغة أن أتحكّم في ملامحي، على الرغم من أنني كنت أكاد أنفجر من الضحك بداخلي.

على سبيل تفسير الموقف، أخبر السلطان شادي بالقصة التي كانت تُروى لحظتها فاحمرّ وجهه، وتحدّث بالكرديّة في غضب مع صلاح الدين، ثم خرج من الغرفة مندفعا.

راح السلطان يضحك ثانية.

"لقد هدد بالانتقام، سيروي لك حكايات عن شبابي في دمشق، وهو واثق من أنني نسيتها".

انتهت جلستنا الأولى.

تركنا المكتبة. أشار إليَّ السلطان بأن أتبعه. كانت الغرف والممرّات التي سرنا فيها مفروشة بأنواع مختلفة من الحرير والقصب والمرايا المعلّقة في أطر من الذهب والفضة، وكان الخصيان يقفون حراسة على كل حَرَم. لم أكن قد رأيت في حياتي مثل هذا الترف.

تركني السلطان بعض الوقت مشدوها. سار مسرعا، ورداؤه يخفق في الهواء من أثر حركته السريعة. دخلنا قاعة المقابلات الرسمية. كان يقف أمامها حارس نوبي وإلى جواره سيف معقوف، انحنى ونحن ندخل. جلس السلطان على منصة مرتفعة مغطاة

بحرير أرجواني تحيط بها الوسائد المغطاة بالساتان والقصب المذهب.

جاء القاضي إلى القصر ليقدّم تقريره اليومي واستشاراته. تمّ استدعاؤه إلى القاعة، وعندما دخل وانحنى هممت بمغادرة المكان، ولكن السلطان، لدهشتي، طلب مني أن أبقى. كان يريدني أن أستمع وأراقب وأدوّن كل شيء.

كثيرًا ما رأيت القاضي الفاضل في شوارع المدينة يسبقه ويتبعه حرّاسه وحجّابه رموز القوة والسلطة. وجه الدولة. ذلك هو الرجل الذي يرأس ديوان الإنشاء وقاضي قضاة الدولة، الرجل الذي يكفل الإدارة السلسة والمنتظمة لمصر. لقد خدم لدى الخلفاء الفاطميين ووزرائهم بنفس الحماسة التي يعمل بها الآن مع الرجل الذي أطاح بهم. كأنه يجسّد استمرارية مؤسسات مصر. يثق السلطان به مستشارا وصديقا. ومن ناحيته لم يحجم القاضي أبدا عن تقديم أي مشورة، حتى وإن لم يكن مرحّبا بها. كذلك كان مسئولًا عن تدبيج الرسائل الرسمية والشخصية بعد أن يعطيه السلطان فكرة عما يودّ أن يقوله.

قدّمني السلطان باعتباري كاتبه الخاص جدا، فقمت وانحنيت أمام القاضي الذي ابتسم.

"تحدّث عنك ابن ميمون كثيرًا يا ابن يعقوب، إنه يقدّر علمك ومهاراتك، وهذا يكفيني".

أحنيت رأسي عرفانًا. كان ابن ميمون قد حذّرني من أن القاضي قد استأثر بالسلطان، وأن ظهوري يضايقه، وربما يكون ذلك كفيلا بإزاحتي من هذا العالم دون صعوبة تذكر.

"وموافقتي أيها الفاضل..." سأل السلطان "ألا يعني ذلك شيئا بالمرّة؟ أعرف أنني لست مفكرا بارزا، ولا شاعرا مثلك، ولست فيلسوفا ولا طبيبا مثل صديقنا ابن ميمون، ولكن المؤكد أنك تعترف لي بأنني أجيد الحُكم على الرجال. أنا الذي اخترت ابن يعقوب".

أجاب القاضي "سموّك تسخر من خادمك المتواضع"، أخذ يتكلم بقدر من الضيق كأنه يقول إنه ليس في حال تسمح بالجدال اليوم.

بعد قليل من المشادات الكلامية التي رفض بها أن يستفزه سيده، قام القاضي الفاضل بتلخيص أبرز أحداث الأسبوع الماضي. كان ذلك تقريرًا روتينيًا عن الجوانب الأقل

أهمية في إدارة الدولة، ولكن كان من الصعب ألا تسحرك بلاغته وقدراته اللغوية. كل كلمة مختارة على نحو دقيق، كل عبارة مسبوكة جيدا، والخاتمة مسجوعة بسلاسة. لم يكن القاضي يحتاج في أي لحظة لأن ينظر في ورقة. يا لها من ذاكرة!

بدا السلطان معتادا على أداء القاضي، فكان يغمض عينيه لفترات طويلة في أثناء خطاب مستشاره المتقن.

"والآن نأتي إلى أمر، أحتاج فيه إلى قرارك يا سيدي. أمر خاص بمقتل أحد ضباطك على يد ضابط آخر".

تنبّه السلطان تمامًا.

"ولماذا لم أُبلغ بذلك من قبل؟"

"الحدث الذي أتكلّم عنه وقع قبل يومين. أمضيت الأمس كله أتحرّى الحقيقة. والآن أستطيع أن أروي لك القصة كاملة".

"وأنا مصغٍ أيها القاضي".

وبدأ القاضي يتكلم.

(3)

● جموح العاطفة: حكاية حليمة وحكم السلطان

مسعود الدين -كما تتذكّر- واحد من أكثر ضباطك شجاعة. حارب معك في أكثر من معركة، قتله قبل يومين، رجل أصغر منه بكثير، هو: كامل بن ظفر، أحد رجال السيف البارزين. جاءتني حليمة بالخبر، وهي نفسها سبب الصراع بين الرجلين. الآن هي مختفية في حمايتي، إلى أن يتم الفصل في المسألة. لو رآها السلطان سيفهم لماذا مات مسعود ولماذا سيواجه كامل مصيرًا مشابهًا، إنها جميلة.

كانت حليمة يتيمة وطفولتها، أيضًا، لم تكن سعيدة. كأنها كانت تعرف الآثام والفتن المُقدر لها أن تتفجر منها! وبمجرد أن استوت صبية بهرت الكل بحسنها وذكائها وطيشها. أصبحت خادمة في بيت كامل بن ظفر، تعمل عند زوجته وترعى أطفاله. وكان كامل يستطيع أن يفعل بها ما يشاء. فيشبع رغبته منها عندما تغلبه الرغبة. أو يتخذها محظية. غير أنه أحبّها. ولم تكن هي، بدورها، تطمع في الزواج منه. هو الذي أصرّ. فتم الزواج على خير وجه.

ومع ذلك ظلت حليمة تتصرّف وكأن شيئًا لم يكن. فلا تمكث في البيت طوال اليوم. تخدمه في البيت، ولا تغادر المضيفة عندما يزوره أصدقاؤه الرجال. قالت لي إنه على الرغم من أن كامل رجل طيب يراعي مشاعرها، فإنها لم تكن تشعر نحوه بمثل ما كان يشعر به نحوها من عاطفة مشبوبة. لقد كانت تنظر للزواج على أنه علاقة تصبح من خلالها ملكا له طوال حياته. نعم يا سيدي، كانت تلك هي الكلمة التي استخدمتها.. "ملكا له". وكان مسعود قد رأى حليمة لأول مرة في بيت صديقه كامل الذي فتح قلبه له. وبالطبع حدّثه عن حبه لحليمة، وكيف أنه لا يستطيع العيش دونها. كان الرجلان يتحدّثان عنها كثيرا، وعرف مسعود الكثير عن جمالها وفتنتها.

في المرات التي كان يأتي فيها مسعود لتناول الشراب في غياب صديقه، كان يقبل كوبا صغيرا من الشاي من يد حليمة. كانت تتكلم معه كندٍ له، وتمتعه بأحدث القصص والطرائف من السوق، وكان ذلك عادة على حساب القاضي يا سيدي. وأحيانا تصوب السهام نحو الخليفة في بغداد... ونحوك يا سيدي.

بدت تصرفات حليمة صادمة لكل من أم كامل وزوجته الأولى، وكانتا تشكوان بمرارة، ولكن كامل لم يتحرك.

كان يقول لهما "مسعود مثل أخي، أنا أخدم تحت إمرته في جيش يوسف صلاح الدين المجيد. أسرته في منزلهم في دمشق، وبيتي هنا هو بيته. تعاملا معه وكأنه فرد من أسرتنا. حليمة تفهم مشاعري أكثر منكما. إذا كان مسعود يثير استياءكما، ابتعدا عن طريقه، فأنا لا أريد أن أفرضه عليكما".

لم يفتح أحد الموضوع بعد ذلك.

كانت حليمة هي التي بدأت الخطوة الأولى، لا شيء أكثر إغواءً من الفاكهة المحرَّمة! ذات مساء، بينما كان كامل وبقية الأسرة في عزاء والد أولى زوجاته، وجدت حليمة نفسها وحيدة. ذهب الخدم والحجّاب المسلحون برفقة سيدهم إلى المأتم. أما مسعود، مسعود الذي لم يكن محل اشتباه، والذي لم يكن على علم بحدث الوفاة في العائلة، فقد جاء لتناول الطعام مع صديقه. وجد حليمة تستقبله مرحّبة في الفناء الخالي. لا بدَّ من أن تكون قد ذكّرته بأميرة فاتنة من أميرات القوقاز، عندما ألقت الشمس الغاربة بأشعتها على شعرها البنّي فأضاء.

لم تصف لي بالضبط كيف انتهى ذلك المساء بمقاتلنا النبيل مسعود بإراحة جسده الفارع على جسدها، ورأسه يضغط برفق على صدرها الأشبه بالدراق. أعرف أن سموك سوف تتخيّل كل التفاصيل، فخيالي المحدود لن يستطيع إرضاءك. سرت عاطفتهما المشبوبة، أحدهما تجاه الآخر، مثل السم البطيء.

على مر الشهور، أخذ مسعود يتحيّن الفرص كي يرسل كامل في مهام خاصة. كان يرسله إلى الفسطاط، أو للإشراف على بناء القلعة الجديدة، أو لتدريب صغار الضباط على استخدام السيف...أو في أي مهمة أخرى قد تخطر على باله القلق.

أخبرتني حليمة أنهما وجدا مكانا يلتقيان فيه، لا يبعد كثيرا عن حي المحمدية الذي

يسكنانه. عندئذ بدأت أم كامل ترسل وراءها، دون أن تدري، خادمًا يتبعها إلى أن استقرت لقاءاتهما. وذات يوم تظاهرت بالمرض، وبأنها تحتضر وأرسلت من يبحث عن ابنها كامل. عاد كامل مسرعًا إلى المنزل وتنفّس الصعداء عندما وجد أمّه بخير. ولكن ما بدا على وجهها أنبأه بكل شيء. لم تنطق الأم بكلمة واحدة. أومأت برأسها للخادم الجاسوس ابن الثانية عشرة، وطلبت من ابنها أن يتبعه. كان كامل يريد أن يترك سيفه ولكنها قالت له إنه قد يحتاجه عاجلا.

سار الولد بخطى سريعة، وكامل يتبعه مذهولاً. كان يعرف أن أمّه تكره حليمة.. وكان يعرف أنه سيجدها حيثما كان ذاهبا، ولكنه لم يكن مستعدا لما رآه عندما دخل الغرفة. مسعود وحليمة عاريان على الأرض، غارقان في النشوة!

صرخ كامل. صرخة مروّعة. تئن من الغضب والخيانة والغيرة... ستر مسعود نفسه ونهض. والندم يشوّه وجهه. كان يعرف جزاءه فوقف منتظرًا عقابه. أغمد كامل سيفه في قلب صديقه.

لم تصرخ حليمة. خطفت عباءتها وغادرت الغرفة. رأت دم عشيقها المتدفق يطير صوب زوجها. أما الولد فكان يلاحظ كل شيء. رأى سيّده وهو يعاقب جسد صديقه الميت. رآه وهو يقطع ذلك العضو الآثم، وبعد أن هدأ غضبه قليلا جلس كامل يبكي. بدأ يكلّم صديقه الميت. أراد أن يعرف لماذا اعتبر مسعود جسد حليمة أهم من صداقتهما. صرخ في الجسد الميت: "لو طلبتها مني لأعطيتها لك".

عند هذه النقطة من قصة القاضي، قاطعه السلطان.

"كفى أيها الفاضل، لقد سمعنا كل ما نحتاج أن نعرف. إنه لأمر مؤسف! أحد أفضل فرساني يموت. لم يقتله الفرنج وإنما أقرب أصدقائه. لقد بدأ يومي بداية طيبة يا ابن يعقوب، ولكنك أفسدته الآن بهذه القصة المؤلمة. ليس هناك حل لهذه المشكلة. حلّها موجود فيها.. أليس كذلك؟"

ابتسم القاضي في أسى.

"إلى حد ما.. نعم! حلّها موجود فيها، قولك صحيح بالطبع، إلا أن تلك جريمة كبيرة من وجهة نظر الدولة. إنها مسألة انضباط. لقد قتل كامل واحدًا من كبار الضباط، ولو بقي دون عقاب فإن الخبر سينتشر، وسوف يؤدّي ذلك إلى هبوط معنويات الجند، وعلى

نحو خاص السوريين الذين يحبّون مسعود. أعتقد أن العقاب ضروري. ما كان ينبغي عليه أن يقوم هو بتطبيق القانون. العدل في مملكة سموّكم مسئوليتي.. أنا وحدي. وأنت فقط من يستطيع أن يلغي قراري. ما قولك في هذا الأمر يا سيدي؟"

"كما ترى أيها الفاضل".

"أطلب رأس كامل".

"لا" صرخ السلطان. "اجلده إن شئت، ولكن ليس أكثر من ذلك. فعل ما فعل تحت وطأة انفعال جارف، حتى أنت يا صديقي، يمكن أن تجد صعوبة في ضبط النفس في ظرف كذلك".

"كما يريد السلطان".

بقي القاضي جالسًا. كان يعرف بالسليقة ونتيجة سنوات في خدمة السلطان، أن صلاح الدين لم يفرغ من القصة. بقينا للحظات دون أن يتكلّم منا أحد. ثم قال الصوت المألوف:

"خبّرني أيها الفاضل.. والبغيّ ماذا حدث لها؟"

"تصوّرت أنك ربما تريد أن تسألها بنفسك، ولذا سمحت لنفسي بأن أحضرها إلى القصر. سوف تُرجم حتى الموت بسبب الزنا. لا بدَّ من أن يصدر السلطان الحكم. سيكون قرارا يشيع بين الناس. أما الناس في الأسواق فيظنون أن بها مسًّا من الشيطان".

"لقد أثارت اهتمامي، أي نوع من الحيوان هي؟ أدخلها عليَّ بعد أن تغادر".

انحنى القاضي، وكأنّه لا يراني، غادر الغرفة.

قال السلطان "أما الذي ما زلت لا أفهمه يا ابن يعقوب، فهو لماذا عرض عليَّ القاضي هذا الأمر، لعلّه لم يكن يريد أن يخاطر بإعدام ضابط مصري دون موافقتي. أعتقد أن ذلك هو السبب، ولكن ينبغي ألا نستهين بالقاضي، إنه جَمَل ماكر.. وأنا واثق من وجود دافع خفي".

في هذه اللحظة دخل حاجب، وأعلن أن حليمة بالخارج. أومأ السلطان فأدخلوها لتمثل

أمامه. خرّت على ركبتيها وانحنت تلمس قدميه بجبهتها.

"كفى!" قال السلطان بصوت أجش لحاكم يجلس على منصّة القضاء: "اجلسي أمامنا".

عندما جلست كنت أرى وجهها لأول مرة. كأن مصباحا أضاء الغرفة. لم يكن جمالا عاديا. على الرغم من حزنها، كانت عيناها المليئتان بالدموع تلمعان وتشعّان ذكاء. مثلها لن يذهب هكذا للجلاد! لا بدَّ وأنها ستقاتل. المقاومة منقوشة على وجهها.

عندما استدرت للسلطان والقلم مشرع في يدي أنتظر أن يتكلم، بدا هو الآخر مسحورا برؤية تلك الصبية! لا بدَّ أنها في العشرين..على أكثر تقدير. كشفت عينا صلاح الدين عن رقّة لم أرها من قبل، وإن كانت هذه أول مرة أتامله في حضور امرأة! حدّق فيها بحدّة يمكن أن تخيف أي شخص آخر، ولكن حليمة نظرت بجرأة في عينيه مباشرة. فكان السلطان هو من حوّل بصره أولا. كسبت حليمة الجولة الأولى.

قال: "أنا في الانتظار، قولي لماذا لا أسلّمك للقاضي الذي سيقضي برجمك حتى الموت بسبب تلك الجريمة".

بدأت بنبرة أسى: "إذا كان الحب جريمة يا أمير الرحمة فأنا أستحق الموت".

"ليس الحب أيتها الحقيرة، ولكنه الزنا. خيانة زوجك أمام الله".

هنا توهّجت عيناها وتبخّر الحزن وبدأت تتكلم. صوتها تغيّر كذلك. كانت تتكلم بثقة دون أي أثر للشعور بالذلّة. استعادت توازنها وتحدّثت مع السلطان بصوت الواثق، وكأنها تتكلم مع ندٍ لها.

"لا أستطيع أن أفهم كم هذه الحياة ضيّقة على شخصين. عندما لم يكن مسعود معي، كانت ذكراه تعذّبني. لا يهمني أن أعيش أو أن أموت، وسوف أستسلم لعقاب القاضي. يمكن أن يجعلهم يرجمونني حتى الموت، ولكنني لن أستجدي الرحمة أو أصرخ ندما أمام الوحوش. حزينة ولكنني لست نادمة. كانت مدة السعادة القصيرة أكبر مما كنت أتصوّره ممكنا في هذه الحياة".

سألها السلطان ما إذا كان لها أقارب فهزّت رأسها. بعدها، طلب من حليمة أن تروي قصتها.

... ...

... ...

كان عمري عامين عندما باعوني في السوق لعائلة كامل بن ظفر. كانوا يقولون إنني يتيمة، وجدني تجار أكراد ملقاة على بعد أميال. أشفقوا عليّ، ولكن شفقتهم لم تدم أكثر من عامين. ولم تكن أم كامل بن ظفر تطمع في الإنجاب ثانية. عاشت في بيت أبيها، بعد وفاة زوجها، كما قالوا لي آنذاك. وهذا الأب الطيب اشترى لها طفلا من الشارع. كنت جزءًا من تلك التجارة الموسمية. هذا هو كل ما أعرفه عن ماضيَّ.

آنذاك كان كامل في العاشرة أو الحادية عشرة. كان طيبا ومحبّا، حتى في ذلك الوقت. يهتم بمطالبي، يعاملني كأخته، بخلاف أمّه. لم تستطع أبدا أن تحدّد ما إذا كانت تربيني كابنة لها، أو كجارية من العبيد، ولكنهم ربّوني كي أكون خادمة لها. لم تكن حياة سيئة رغم شعوري الدائم بالوحدة. فلم تكن الخادمات الأخريات تثقنَّ بي أبدا.

كل يوم، كان يأتي شيخ إلى المنزل يعلّمنا حكمة القرآن، ويحدّثنا عن أعمال النبي والصحابة. وسرعان ما توقف كامل عن حضور تلك الدروس. كان يذهب لركوب الخيل ورمي السهام مع أقرانه. وفي أحد الأيام أمسك الشيخ بيدي ووضعها بين فخذيه. صرخت. جاءت أم كامل مندفعة إلى الغرفة.

قال المعلّم وهو يردد اسم الله إنني غير محتشمة... وفاجرة. صفعتني على وجهي أمامه مرتين واعتذرت له. عندما عاد كامل إلى المنزل أَخْبَرْتُه بالحقيقة. غضب من أمه ولم يسمح للمعلم بالاقتراب من منزلنا بعد ذلك. لقد كانت غاضبة لتعاطف كامل معي، وسرعان ما وجدت له زوجة. اختارت له زنوبيا ابنة أختها، التي تكبرني بعامين.

بعد زواج كامل، كان عليّ أن أكون في خدمة زوجته. أحببتها. كنا نعرف بعضنا منذ أن دخلت البيت وكنا كثيرا ما نتشارك أسرارنا. وعندما ولدت زنوبيا ابنا لكامل كنت سعيدة مثلهم تماما. كنت أرعى الطفل وأحببته كما لو كان ابني. كنت أحسد زنوبيا التي حباها الله بكميات وفيرة من اللبن.

كل شيء كان على ما يرام، حتى أم كامل أصبحت ودودا مرة أخرى، إلى أن كان ذلك اليوم عندما انتحى بي كامل جانبا ليقول لي إنه يحبني.. وليس كمجرد أخ. الله شاهد على ما أقول. كانت مفاجأة لي. في البداية خفت، ولكن كامل أصرّ. كان يريدني. قاومت

لمدة طويلة. كنت أشعر نحوه بميل شديد ولكن دون عاطفة. ميل لم يكن من شأنه أن يترك أثرا.

لا أعرف ماذا كان يمكن أن يحدث، ولا كيف كان يمكن أن ينتهي الأمر لو لم تحاول أم كامل أن تزوّجني ابن السقّاء. كان جلفًا، ولم يكن يروق لي. إلا أن الزواج، كما تعرف سموك جيدا، ليس اختيارا للنساء. لو أن سيدتي قررت مصيري لكنت تزوجته. غضب كامل عند سماع الخبر. أعلن أن ذلك لن يحدث، وطلب الزواج مني فورًا. صُدمت أمه. أما زوجته فاعتبرت اختياره لي إهانة لها.. أن يتخذ من خادمته زوجة ثانية! قاطعتني المرأتان شهورًا.

لك أن تتخيّل حالتي. لم يكن هناك من أتحدّث معه عن مشكلات حياتي. كنت أبكي في فراشي ليلا توقا إلى الأم التي لم أعرفها يومًا. كنت أفكر في الخيارات المتاحة أمامي بهدوء. فكرة الزواج من ابن السقّاء كانت تشعرني بالمرض. كان من الأفضل أن أموت.. أو أن أهرب، عن أن أتحمل لمسة منه. كان كامل، المحب والطيب دائمًا، هو البديل الوحيد الممكن. وافقت على الزواج منه.

بدا كامل سعيدًا وكنت راضية. لم أشعر بالتعاسة على الرغم من كراهية زنوبيا واحتقار أم كامل. خصوصًا أم كامل التي عاملتني كأنني نفاية من الشارع. ماضيها معلّق فوق رأسها مثل سحابة. لم تنس أبدا أن زوجها، والد كامل، تركها ليتزوج من أخرى وهي حامل منه. ذات ليلة غادر القاهرة.. بلا عودة. قالوا لي إنه كانت له أسرة في بغداد حيث يتاجر في الأحجار الكريمة. لم يذكروا اسمه أمامي أبدا، على الرغم من أن كامل كان كثيرا ما يفكر فيه. ما رويته يا سيدي هو ما يخص أمه من القصة.

لكن القصة لها رواية أخرى تُروى في المطبخ والجميع يعرفونها. أخبرني الخدم بها، فقط، عندما اقتنعوا بأنني لن أنقل الحكاية للسيدة. الحقيقة أن والد كامل هرب من مدينتنا عندما اكتشف، بعد عودته من رحلة طويلة في الخارج، أن زوجته خانته مع تاجر محلّي. وأن الطفل الذي في بطنها لم يكن ابنه. كامل أكد لي ذلك بعد أن تزوّجنا. عرفت أمه أنني على علم بذلك وملأها الحقد والكراهية. الله أعلم بما كان يمكن أن يحدث لنا كلنا.

ثم كان مسعود، بعينيه الأشبه باللوز، وشفتيه بطعمهما العسلي، الذي دخل حياتي. كان يحكي لي عن دمشق وكيف حارب في صفوف السلطان يوسف صلاح الدين بن

أيوب. لم أكن أستطيع مقاومته.. ولم أكن أريد. ما كنت أشعر به نحوه شيء لم أجرّبه من قبل.

تلك هي قصتي أيها السلطان العظيم. أعرف أنك ستعيش دون مكروه، وسوف تحقق انتصارات كثيرة، وستحكمنا، وستصدر الأحكام، وأنك سوف تطمئن إلى أن أولادك سيكونون كما تتمنى لهم. إن نجاحك هو الذي وضعك حيث أنت. هذه المخلوقة الجاهلة العمياء الشريدة الماثلة أمامك تضع ثقتها فيك، ومشيئة الله لا بدَّ نافذة.

... ...

... ...

بينما كانت حليمة تتكلّم، كان صلاح الدين يستوعب كل كلمة، يلاحظ كل خلجة، ويرقب كل رمشة عين. بدت حليمة كقطة برّية.. محاصرة.. أخذ يتفحصها بنظرات القاضي المحايدة المجرَّدة من العاطفة، وكأن وجهه قُدَّ من حجر. طول تحديق السلطان أفقد الفتاة رباطة جأشها. هذه المرة هي التي أنزلت عينيها من عليه.

ابتسم السلطان وصفّق بيديه. دخل شادي، المخلص الأبدي، وتحدّث معه السلطان بالكردية التي لا أعرفها. لمس الصوت وترًا عميقا في حليمة. أذهلها الاستماع إليهما يتحدّثان بلغتهم. كانت تنصت باهتمام.

قال السلطان "اذهبي معه، سوف يتأكد من أنك ستبقين بمنأى عن حجارة القاضي".

قبّلت قدميه، وأخذها شادي من ساعدها إلى خارج الغرفة.

"قل لي بصراحة يا ابن يعقوب، شريعتكم أشبه بشريعتنا، هل يمكن أن تتركوا إنسانا جميلا يُرجم حتى الموت؟"

هززت رأسي.

"أما أنا، فلا يا سيدي، ولكن معظم المتشدّدين في ديننا قد يشاركون القاضي الفاضل رأيه".

"المهم أن تفهم أيها الكاتب الطيب أن القاضي الفاضل لم يكن يريد قتلها فعلا. تلك هي المسألة. كان يريدني، أنا، أن أتخذ القرار. هذا هو كل شيء. لو أراد لحسم الأمر بعد أن

يكون الوقت قد فات للتدخّل. عندما طلب مني أن أستمع إلى قصتها كان يعرف أنه لا يسلّمها لقدرها المجهول. إنه يعرفني جيدا. كان واثقا من أنني سأُبقي عليها. وإن أردنا الصدق، أعتقد أن سحر حليمة قد غلب قاضينا كذلك. أعتقد أنها ستكون آمنة في الحرملك".

"لقد كان يوما مرهقا، وأحسب أنك ستشاركني الطعام".

(4)

• مقتل السلطان زنكي على يد خصيّ • مصائر أسرة صلاح الدين تتغيّر • حكاية شادي

وصلتُ إلى القصر صباح اليوم التالي في الموعد المحدد، وأخذني شادي إلى المكتبة. لم يكن السلطان قد ظهر بعد. رحت أشغل نفسي بالمجلدات التي لم أكن أعرفها حتى ذلك الحين.

وعند الظهيرة، أخبرني رسول جاء بصحبة شادي، أن السلطان مشغول ببعض شئون الدولة، وأنه ليس لديه وقت اليوم. كدت أنصرف عندما غمز لي شادي بعينه. كنت دائمًا حذرا من ذلك الشيخ الأحدب الذي لا يزال معجبا بنفسه، يصبغ لحيته بالحنّاء، ويزيّت رأسه الأصلع على نحو يبدو مزعجا في ضوء الشمس. لا بدَّ من أن الارتباك بدا على وجهي.

"شئون الدولة؟"

ضحك الرجل العجوز ضحكة عالية خشنة متشككة، وكأنه يجيب لنفسه عن السؤال الذي طرحه.

"أعتقد أن نصير الضعفاء لم يذهب للتفتيش على القلعة كما ينبغي أن يفعل في مثل هذه الساعة. لعله ذهب يستكشف فتحات وشقوق تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر!".

صدمني قوله بدرجة ما، ولم أكن واثقا ما إذا كان ما أزعجني أكثر هو كلمات شادي، أم الرسالة التي كانت تحملها. هل يمكن أن يكون ذلك صحيحا؟ كانت سرعة السلطان على ظهر الحصان أسطورية، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي ما إذا كانت حركته في

غرفة النوم تتسم بالمهارة ذاتها. وحليمة؟ هل استسلمت راضية دون مقاومة أو حتى على الأقل برجاء التروي قليلا؟ أكان إغواء أم اغتصابا؟ ربما كانت القصة حقيقية. كنت شغوفا بمعرفة المزيد ولكنني أحجمت عن التعليق، فلم أكن أريد أن أشجّع شادي على التمادي. ضايقه ذلك. لقد كان يحاول أن يزيد الألفة بيننا بالحديث إليَّ عن أسراره، فاعتبر عدم رَدّي صدًا له.

أسرعتُ بالانصراف عائدا إلى المنزل.

اندهشت عندما وجدت السلطان ينتظرني في المكتبة صباح اليوم التالي. ابتسم عند دخولي ولكنه أراد أن يبدأ على الفور دون إضاعة الوقت في المزاح. وكأنني أمسكت بعين عقلي بلمحة من حليمة، قبل أن تجبرني نبرة السلطان المألوفة على التركيز في كلماته، وبدأت يدي تتحرك على الورق، وكأن قوة أكبر مني تدفعها.

... ...

... ...

دائمًا ما يأتي الربيع إلى بعلبك مثل رحالة عائد، لديه من القصص ما يرويه. في الليل، تبدو السماء كاللحاف المرصّع بالنجوم، وفي النهار تبدو شديدة الزرقة. أما الشمس فكانت تبتسم لكل شيء. كان من عادتنا أن نستلقي على العشب نستنشق عبير براعم اللوز، وعندما كان الطقس يميل إلى الدفء ويقترب الصيف، نتنافس في القفز إلى بحيرة الماء المنعش، التي ترفدها جداول صغيرة من حولها. تحيط بالبحيرة مجموعة من الأشجار، كنا نعتبر موقعها سرًا خاصًا بنا، على الرغم من أن كل أهالي بعلبك يعرفونها.

ذات يوم، وبينما نحن نَسْبَح، رأينا شادي قادما نحونا بسرعة. كان لا يزال يستطيع الركض، وإن لم يكن مثلما كان في شبابه. وكثيرًا ما كانت جدتي تحدثنا كيف كان يستطيع أن يجري من قرية جبلية إلى أخرى على مسافة تزيد على العشرين ميلا. حيث ينطلق بعد صلاة الفجر ويعود في موعده ليقدّم الفطور لجدي. كان ذلك منذ زمن طويل في دوين، قبل أن تنتقل عائلتنا إلى كريت.

طلب منا شادي أن نخرج من الماء وأن نعود بأسرع ما نستطيع إلى القلعة. وذلك بأمر من والدنا. هددنا شادي بعقاب شديد إن لم ننفّذ تعليماته فورًا. بدا القلق على وجهه،

فصدقناه هذه المرة.

عندما سأل أخي توران شاه عن سبب ذلك الاستعجال، حملق شادي مغضبًا وهو يقول: يريد والدكم أن يحدّثكم عن كارثة أصابتنا في الصميم. ركضنا بأسرع ما نستطيع ونحن منزعجون، أتذكّر أن توران شاه كان يُتمتم ببضع كلمات عن الفرنج، وأنهم إذا كانوا على الأبواب فإنه سوف يقاتل، حتى وإن كان عليه أن يسرق سيفا.

وعندما اقتربنا من القلعة سمعنا أصوات بكاء النساء وعويلهنَّ المألوف. أمسكت بيد توران شاه ونظرت إليه في توتر شديد. لاحظ شادي ذلك وفهم جيدًا ما كان يساورني من قلق.

همس في أذني، وهو يحملني على كتفيه، ببضع كلمات: "والدك بخير، وسوف تراه بعد دقائق".

كان السلطان زنكي العظيم هو الذي توفّي، وليس والدنا. زنكي حامي العقيدة. قتله خصيّ سكران وهو نائم في خيمته على الفرات. في الوقت الذى كان يخوض فيه حربا مقدسة ضد الفرنج. ولأن السلطان زنكي هو الذي عيّن أبي قائدا لبعلبك، فقد كان أبي يخشى، بعد مقتله، أن نرجع من حيث أتينا.

كان زنكي هو الذي هزم الفرنج واستولى على الرها التي كانوا يسمّونها إيديسا، بعد حصار دام شهرا. وغدت المدينة جوهرة في سيف عقيدتنا. أما الآن فنحن نتطلع شوقًا إلى القدس ومسجد الخليفة عمر.

ما زلت أذكر كلمات الشاعر التي كان يتغنّى بها الجنود والعبيد دائمًا، وكنا نشاركهم الغناء. وأحسب أنني إذا بدأت في الغناء فستتدفق الكلمات.

فارس وسط موجة من الفرسان

يتدفقون فوق الأرض مثل شلال،

رماحه تخاطب العدو،

كأنها ألسنة مخضّبة بالدم.

رحيم وعفو،

ولكن ليس في لهيب القتال.

لأن القوة، في وطيس المعركة والغضب،

هي القانون الوحيد.

ولأن والدي كانت تجمعه بالسلطان زنكي علاقة ودّ، فقد استاء جدًا للطريقة التي مات بها، وللسبب الذي أودى بحياته. بعد مرور سنوات، روى لي شادي القصة الحقيقية.

... ...

... ...

كان زنكي من عشاق النبيذ، وليلة وفاته شرب زجاجة كاملة. ثم أرسل في طلب جندي شاب كان قد وضع عينيه عليه في أثناء الحصار. وبدا أن السلطان يستخدم الصبي ليطفئ شهوته.

كان ياروكطاش، الخصيّ الذي قتل زنكي، يحبّ ذلك الصبي. لم يستطع أن يتحمّل فكرة أن يلوّث رجل مسن، على عجل، ذلك الجسد المنحوت مثل تمثال. ومن ثم تتبّع الصبي، في نوبة غيرة، وراح يراقب ما يحدث. وبعد أن سقى الحراس نبيذًا تسلل، وهم نيام، إلى خيمة سيّده، وطعنه هو وعشيقه وجسده لا يزال دافئا في حضنه. لقد كانت جريمة حب.

يزعم كتّاب التاريخ أن الخصي وأصدقاءه سرقوا نبيذ زنكي وقتلوه في نوبة سُكر شديدة، خشية افتضاح أمرهم. لكن هذه الرواية لا معنى لها. لقد أخبرني شادي بالحقيقة التي لا بدَّ وأن يكون قد سمعها من أبي أو عمّي. ما كان شيء ليخفى على هذين الرجلين إلا ما ندر. حينذاك لم أكن أعرف الكثير عن هذا الأمر، بل لعلي لم أكن أعرف شيئا بالمرة، ولا كنت مهتما بعالم الكبار. مرة أخرى، كنت مستفيدا من عدم كوني الابن الأكبر. وحده شاهنشاه كان يتمتّع بهذا الامتياز. كان عليه أن يجاور أبي في صلاة الجمعة، وعند مناقشة أمور أخرى. كان يتم تدريبه على فنون الحكم. وكنت أنا وتوران شاه نجد صعوبة أحيانا في أن نمنع أنفسنا من الضحك عندما بدأ شاهنشاه يقلّد طريقة أبينا في الكلام.

آنذاك كان قد أصبح احتلال مدننا الساحلية، حتى القدس التي يطلق عليها الفرنج مملكة أورشليم، بالنسبة لي إحدى حقائق الحياة اليسيرة. وكنت أسمع أبي وعمي شيركوه يتحدثان معا وكأنهما يقصدوننا بكلامهما. تلك كانت طريقتهما للتأكد من أننا نفهم خطورة ما جرى في بلادنا.

كثيرًا ما كانا يتحدّثان عن بداية وصول البرابرة، وكيف أنهم كانوا يأكلون لحوم البشر، ولا يستحمّون. ودائمًا ما كانوا يحكون قصصًا حزينة عن القدس. عندما أراد البرابرة القضاء على المؤمنين. حتى أبناء شعبك يا ابن يعقوب، وأنا واثق من أنك تعرف ذلك أكثر مني، جمعوهم كلهم في هيكل سليمان. أُغلِقت المخارج وأشعل الفرنج النار في الهيكل. كانوا يريدون محو الماضي وكتابة مستقبل القدس التي كانت -ذات يوم- لنا جميعا نحن أهل الكتاب.

مِن بين هذه القصص التي هزّت كياني بينما كنت طفلًا كانت قصة القدس. فقد كانت قسوة البرابرة تخرس الجنود كأنهم تجرّعوا سمًا. لذلك لم تغب القدس أبدًا عن خيال طفولتنا. وكان من عادتنا أن نمتطي خيولنا ونتظاهر بأننا ذاهبون لطرد الفرنج من القدس، فينتهي الأمر بطرد شادي من المطبخ. ليس هذا اليوم ببعيد يا ابن يعقوب. سرعان ما يعود شعبنا إلى القدس. وستعود لنا صُوْر وأنطاكية وطرابلس.

لم نكن نشك في هزيمة الفرنج، ولكن كيف لنا أن نخرج منتصرين والمؤمنون منقسمون على هذا النحو المشين؟ بداية، كان هناك خليفتان. واحد في بغداد يحكم اسما، والثاني في القاهرة وكان ضعيفا. سقوط الخلافة أدى إلى قيام ممالك صغيرة في كل مكان. قال لنا أبي في يوم وفاة زنكي: إن لم نتحد فلن يُهزم الفرنج. كان يتحدث كقائد عسكري ولكن كلماته كانت صحيحة بمعنى روحاني أوسع. كانت العداوات في صفوفنا عميقة. وكنّا أشد ضراوة في قتال أقراننا أكثر منا في مقاومة الفرنج. هذه الكلمات بقيت بداخلي دائمًا.

سألت السلطان: "وماذا عن أبيك؟ لم تتحدّث عنه بعد. أي نوع من الرجال كان؟"

"كان أبي أيوب رجلا حسن الطباع، حذرا ومطمَئنًا. عندما كان يحاول أن يشرح لنا شيئا، كان يسأل بصوت هادئ: "واضح؟" "هل فهمتم؟"

ربما كان أبى سيقنع، في عالم أكثر هدوءا، بأن يكون مسئولا عن مكتبة كبرى، أو عن إدارة حمامات القاهرة العامة. أراك تبتسم يا ابن يعقوب! تعتقد أنني أهوِّن من شأن

خصال أبي؟ لا، كل ما أودّ قوله هو: إننا مخلوقات أقدارنا، وحياتنا تتحدّد بالأزمان التي نعيشها والظروف التي تقرّر مسيرة حياتنا.

عندك ابن ميمون مثلا، لو لم تُجبر عائلته على مغادرة الأندلس لَأصبح وزير غرناطة. ولو لم تُحتلّ القدس لكنت تعيش هناك الآن، وليس في القاهرة.

النبيّ نفسه، كان من حسن الحظ أن يأتيه الوحي في الوقت الذي كانت فيه إمبراطوريتان في بداية اضمحلالهما.. أليس كذلك؟ في غضون ثلاثين عامًا من وفاته، نجح المؤمنون بفضل الله، بما يفوق الخيال. وإذا كنا لم ننجح في ترقية بلاد الفرنج فإن ذلك خطؤنا نحن. كان خطأ إنسانيا، ذلك الذي منعنا من تنقية وتطهير أرواح الفرنج. كان النبي يعرف أن التوكل على الله فقط لن يكون كافيا. ألم يقل "اعقلها وتوكل"؟ لا بدَّ من أن تفهم يا ابن يعقوب أن أبي لم يكن يحبّ كثرة الترحال. كان رجل استقرار على خلاف جدّي، الذي كان، بالمناسبة، يُسمى شادي أيضا. وعلى خلاف عمي شيركوه. الاثنان لم يكونا يشعران بالرضا أبدا في مكان واحد. أعدائي يشيرون إلى أبناء عائلتنا بوصفهم مغامرين ومُحْدَثي نعمة. حتى النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعتبرونه دعيّا، ولذا لا يزعجني الاتهام. أما عن كوننا مغامرين، فأحسب ذلك صحيحا. المغامرة هي الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن تتقدم به في هذه الدنيا. إذا بقيت ساكنا في مكان واحد تحرقك الشمس. تموت. غير أنني أعرف أن أبي كان يفضل أن يبقى في دوين، في أرمينيا.

لم تكن أخبار مقتل زنكي مجرد مصيبة شخصية. كانت تعني متاعب واضطرابات. لم يضيّع ابناه وقتا طويلا لتثبيت حكمهما في الموصل وحلب. لم يكن والدي يثق كثيرا في قدراتهما. ثبت أنه كان على خطأ بالطبع، ولكن من ذا الذي كان يعرف آنذاك أن نجم نور الدين، المتزمّت، سيصعد على هذا النحو؟

سرعان ما تحقّقت مخاوف أبي. في غضون أسابيع كانت جيوش حاكم دمشق على أبواب بعلبك. المقاومة، كما كان يعرف أبي، لم تكن مُجدية. كان يرى أن ليس ثمة سبب لسفك دماء المؤمنين. تفاوض على الاستسلام وكان الناس ممتنين لذلك.

بعد سنوات، وبينما كنت أنا وأبي نمتطي جيادنا خارج دمشق، استحال الأفق فجأة إلى لون الذهب الأحمر. لاحظ أبي ذلك قبلي، فكبحنا جماح الخيل، إجلالا لجمال الطبيعة الفريد، ربما لمدة طويلة. ظللنا صامتين طوال طريق عودتنا. سحرتنا تلك السماء التي

تبدّل لونها مرة أخرى مع بدء ظهور النجوم الأولى. ولمّا وصلنا باب الشرق، تكلم أبي بصوته الهادئ:

"ننسى عادة أن معظم الناس يرون حتى الحرب الضرورية كارثة. إنهم يعانون في الغالب أكثر منا. لا تنس ذلك أبدا يا بني. لا تدخل معركة إلا إذا لم يكن هناك مفر من ذلك".

لماذا ننسى حقائق مهمة، ثم يكون علينا أن نجهد أنفسنا لنتذكرها، بينما تبقى أحداث أخرى ماثلة في الأذهان؟ ما زلت أذكر ذلك اليوم. إنه حاضر في ذهني دائمًا. مات شقيقي الأكبر شاهنشاه فجأة قبل سنوات، ولم يكن أبي قد أفاق من الفاجعة بعد. كان لا يزال مذهولًا. ولم تكن علاقته بتوران شاه حميمة لسبب ما. فتوران شاه، أخي الذى أحبه، شخص عنيد وطائش من وجهة نظر أبي. سمعت أمي ذات يوم وهي تصرخ فيه "توران شاه، ألا يكفي ما تسبّبه من ألم لأبيك حتى تزعجني أنا أيضًا؟ دائمًا تأتي المصائب من جوارك.. هل تسمعني؟"

ومن كثرة التوبيخ واللوم لم يعد يخشى شيئا. وربما ضحك لو لامته أمي. والنتيجة أنني أصبحت محل اهتمام أبي بعد خيبة أمله في توران شاه.

كنت في السادسة عشرة من العمر عندما أهداني صقر صيد وجوادا مطهّما من الكوفة. ربما تكون تلك المرة الأولى التي يهتم فيها أبي بي. أخذ يعاملني معاملة الندّ. نناقش مسائل كثيرة. يفضي إليَّ بمخاوفه ويحدّثني عن همومه، وعن المستقبل، وعن زمن لن يكون موجودًا فيه. كان يرشدني.

مجرد فكرة أنه سيموت ذات يوم جعلت قشعريرة تسري في جسدي، وبدأت أرتجف. كنت أريد أن أضمّه وأقبّل وجنتيه، أن أبكي على كتفه، أن أصرخ "لا أريدك أن تموت أبدا"، ولكنني تمالكت نفسي. هناك حدٌّ مقدّس بين الأب والابن لا يمكن أن تتجاوزه العواطف. تبقى الشفاه صامتة ويظل القلب عاجزا.

أدركت ذلك كله بعد أن تركنا بعلبك بسنوات. لم يسلّم أبي القلعة دون شروط. كان قد كوفئ بإقطاعية من ثماني قرى بالقرب من دمشق، ومبلغ كبير من المال، ومنزل في قلب المدينة القديمة. ومرة أخرى تعيّن علينا أن نرحل. حزنت لفراق المعابد القديمة والجداول. نشأت على حبّ بعلبك حيث الحياة هانئة وآمنة. أتذكر ذلك كله إلى اليوم وابتسامة على شفتي. غير أن دمشق.. هي التي صنعت مني بطلا.

... ...

... ...

رحّبت بتوقّف السلطان عن الكلام كي أريح يدي المتعبة قليلا. لاحظ حالتي فنادى خادمه. أعطى توجيهاته أن أستحمّ وأتطيّب بالزيت، وأن تدلّك يداي ويستريح كل أصبع، وأن يقدّم لي الطعام بعد ذلك، وأن أستريح حتى يعود.

أراد أن تكون هناك جلسة مسائية في اليوم نفسه. لا بدَّ أن يمتطي جواده ويذهب ليتفقّد عملية بناء القلعة الجديدة. قلعته. ارتدى ثيابًا خاصة لهذه المناسبة. دُهشت لما رأيت حليمة تدخل في هيئة مختلفة تمامًا قبل أن أنصرف من أمامه مباشرة. لم تكن تلك المنتحبة ذات العيون الحزينة التي استمعنا إلى قصتها واجمين قبل أيام قليلة. دخلت في ثقة أذهلتني. فهمت الكثير من الألغاز التي حيّرتنى. لم يأخذها عنوة إذن. إنما خلبت لبّه.

تريد حليمة الآن أن ترى القلعة بصحبته. أدهشت جرأتها صلاح الدين. رفض. ألحّت بإصرار وهدّدت بأن تتنكر في ثياب جندي وتتبعه. فجأة، غضبت عيناه وبدت الصرامة على وجهه. تكلّم بصوت خشن محذّرًا إياها من الخروج من القصر دون إذن منه. لا تزال حياتها معرّضة للخطر خارج تلك الجدران الحصينة. بالأمس فقط جُلد كامل على الملأ، فيما طالب الجمع الذي ضمّ نساء كثيرات برجمها. لم يلق خبر احتمائها بالقصر ترحيبا من الناس.

لا تزال في عيني حليمة نظرة تحدٍ، ولكن إرادة السلطان انتصرت. اقترح عليها، في محاولة ترضية، أن تتناول الغداء معي. نظرت إليَّ بازدراء وتركت الغرفة. غمغم السلطان بضجر: "يُخيّل إليَّ أحيانا أنني أفهم الخيل أكثر مما أفهم البشر. حليمة أكثر عنادًا من مُهرة. إذا تواضعت وتناولت الطعام معك هذا المساء، فأنا واثق من أنك ستقدّم لها نصيحة حكيمة".

لم تمنحني حليمة شرف صحبتها ذلك اليوم. أصابتني خيبة أمل. وصول شادي وأنا على وشك أن أبدأ تناول غدائي لم يصلح مزاجي. لم أكن في حال تسمح بالاستماع إلى حكايات ذلك الشيخ، ولكن اللياقة تفرض عليَّ أن أدعوه للطعام، وشيء أدّى إلى شيء آخر، فسرعان ما راح يستعرض مآثره. دائمًا ما تؤسس فروسيته الفريدة فضاءات حكاياته.

لم أكن قد أمضيت معه وقتا طويلاً، قبل هذا اللقاء، ولا كنت آخذه على محمل الجد. إلا أنني الآن وأنا ألاحظه يتحدث أكتشف في خصاله شيئًا يُدهشني، شيئا يجعل الكل يعامله باحترام شديد..الخدم والسادة على السواء. كان يرفع ذراعه اليمنى ويرفع حاجبه مثل صلاح الدين عندما يتكلّم.

ملاحظة لم توقفني كثيرًا. لعل شادي قد أمضى وقتا أطول من أي شخص آخر مع السلطان، ولعل الصبي قد اكتسب بعض صفات التابع. إلا أنه عندما واصل كلامه عادت الفكرة، وهذه المرة قاطعته:

"يا عمنا المحترم، لدي سؤال. إنك تتحدث كثيرا عن مآثرك ومغامراتك السابقة، ولقصصك قيمة كبيرة في مساعدتي على فهم السلطان. إلا أنني أريد أن أعرف عنك شيئا ما. من كان أبوك؟ وأمك؟ ليس فضولًا وحسب، وإنما... "

قاطعني بحدة.

"أنت يهوديّ وقح! لقد قتلت بيدي هذه رجالا لأسباب أوهى من ذلك".

لا بدَّ من أن يكون وجهي قد اعتراه شحوب، لأنه انفجر في الضحك فجأة.

... ...

... ...

لا أصدق أنك تشعر بالخوف من رجل طاعن في السن مثلي، وحيث أن ما تكتبه لن يُنشر إلا بعد مماتنا جميعًا، فسوف أجيب عن سؤالك. كانت أمي امرأة فقيرة من دوين، الابنة الوحيدة لحطّاب كان يزوّد كثيرا من البيوت الكبيرة في المنطقة بالأخشاب. ماتت أمها في أثناء ولادتها، ولم يتزوج أبوها بعد ذلك. كان ذلك حدثا نادرا في تلك الأيام، ولكن أحدا لم يكن قد سمع به عندما كان جدي صغيرا قبل أكثر من مائة عام. كان ضخما مثل مارد، وكانت قدرته على استخدام الفأس معروفة للقرى المجاورة كلها تقريبا. كان يستطيع اجتثاث شجرة أسرع من أي شخص آخر في تلك المنطقة من العالم.

أصبح جدّي صديقا لطباخ شاب في بيت صلاح الدين بن مروان جد السلطان، وفكر أن ذلك الرجل هو الشخص المناسب لابنته ذات الخمسة عشر عامًا. تزوجا. أصبحت

أمي جزءا من أهل بيت ابن مروان. لم أقل لك بعد أيها الكاتب إن أمي كانت معروفة بجمالها، مثلما كان جدي معروفا بقوته. حدث ما كان لا بدَّ أن يحدث. لمحها السيد وأخضعها لإرادته. لم تقاوم. أنا النتيجة. عندما وُلدت كان المرحوم أيوب والد السلطان وعمه شيركوه قد تخطّيا العاشرة من العمر. أمهما كانت سيدة قوية.. ذات بأس شديد. عندما علمت بالخبر، أصرّت على إعطاء الطباخ وأمي، وكنت ما زلتُ في بطنها، مبلغا من المال وأرسلتهما للعيش في قرية مجاورة.

رضخ شادي بن مروان لإرادتها، وعندما وُلِدتُ أسمتني أمي شادي.. لكي يُغضب ذلك الجميع. كان يمكن أن تنتهي قصتي هنا، لولا أن زوج أمي مات وأنا في السابعة من العمر. كان أبا طيبا وكان يعاملني مثل ابنه الذي يصغرني بعام واحد. لا أعرف كيف وصل الخبر إلى ابن مروان. كل ما أعرفه أنه جاء ذات يوم ومعه حاشيته إلى قريتنا، وتكلم مع أمي على انفراد. الله وحده أعلم بما دار بينهما. كنت مشغولا بالفرجة على الخيول وسروجها المزركشة.

في نهاية حديثهما نادتني أمي. ضمّتني إليها بشدّة. قبّلت عيني وهي تحاول أن تحبس دموعها. قالت لي إنني منذ ذلك الوقت سيكون عليَّ أن أعمل في بيت شادي بن مروان، وأن أطيعه طاعة عمياء.

ضايقني ذلك كثيرًا وظللت أبكي شهورا، افتقدتها بشدة، كنت أذهب لزيارتها مرة أو مرتين كل عام، فتطعمني الكعك الذي كنت أحبّه. كانت تصنعه من طحين الذرة المحلّى بعسل النحل الجبلي.

لم أعرف شيئا عن أبي الحقيقي إلا ونحن نغادر دوين متجهين إلى تكريت. كنت قد ذهبت لوداع أمي، وكنت أعرف أننا لن نرى بعضنا مرة أخرى. كان معها أخي وزوجه وأطفالهما، وعرفت أنهم يحبّونها ويعنون بها، ولكن الحزن كان ما زال يملؤني. ونحن نفترق، طبعتْ قبلة على جبهتي وقالت لي كل شيء. لا أذكر كيف كان شعوري آنذاك. حدث ذلك منذ وقت بعيد.. بعيد جدا. كنت مسرورا وغاضبا.

أكدت رواية شادي شكوكي. كنت شغوفا بأن أوجّه إليه المزيد من الأسئلة. قبل أن نتكلم دخل السلطان يحيط به ابناه. قدّمهما إليَّ ولكن كان من الواضح أنهما قد جاءا يبحثان عن شادي. أشرقت عيناه لرؤيتهما. وهو يأخذهما همس السلطان في أذني "هل حدث؟"

هززت رأسي، أما هو فانفجر ضاحكًا.

(5)

● حكمة ابن ميمون ووصفاته الطبّية

ذات مساء، بعد يومين طويلين مرهقين مع السلطان، عدت إلى المنزل لأجد راشيل زوجتي في نقاش عميق مع ابن ميمون. كانت تشكو مر الشكوى مني لمعلّمنا الكبير، الذي تعرف نفوذه ومدى ما يتمتع به من تقدير في بيتنا. عندما دخلت إلى الغرفة سمعتها تقول له إن طول الوقت الذي أمضيه في القصر يؤثر في تفكيري وطباعي وموقفي من البشر الأقل حظا في هذه الحياة. الشيء الأهم هو اتهامها لى بإهمال واجباتي نحوها ونحو أسرتنا.

ردّ عليها ابن ميمون وهو يمسّد لحيته "هذا أمر ينظر فيه القاضي، هل أنقل شكواك إليه وأطلب منه أن يعاقب ابن يعقوب؟" ضَحِكي أغضب راشيل فتركت الغرفة. وجهها جامد مثل الخبز البائت، الذي أُضطرت لتقديمه لضيفنا، بما أنه جاء على غير انتظار. بدا ابن ميمون مرهقًا. واجباته تجاه القاضي ثقيلة لاسيّما أنه يعيش في الفسطاط التي تبعد نحو ميلين عن قصر القاضي. فلا بدَّ وأن يزوره كل صباح ليقضي له حوائجه وحوائج أبنائه وأهل البيت من الحريم.

هكذا كان يقضي معظم الوقت في القاهرة، ليعود متأخرا في المساء. فيجد، كالعادة، مرضى في انتظاره من كل صنف ولون، يهودًا وغير يهود، وأعيانًا وفلاحين، أصدقاء وأعداء، أطفالا وأجدادا. كل أولئك كانوا زبائنه. فالطلب على ابن ميمون كبير بفضل نجاحه. وعدد مرضاه يتزايد يومًا بعد يوم. ولأنه كان طبيبا أمينا، لم يكن يرد أحدًا.

أحيانًا يأتي لقضاء الليل في منزلنا "بجودريا" عندما يكون في حاجة إلى الراحة. لاسيّما وأن منزلنا قريب من قصر القاضي. كان يستريح في جوارنا، وينعم بالهدوء

التام على حد قوله. اعتذرت له بشدة عن غضب راشيل.

"انتبه يا ابن يعقوب، زوجتك امرأة صالحة، ولكن قوتها الداخلية وحبها لك بدءا يفتران. لن تتحمل غيابك إلى ما لا نهاية. يبدو أنك تقضي جلّ وقتك في القصر. لماذا لا تقول للسلطان إنك في حاجة للبقاء مع أسرتك أيام السبت؟"

"أنت على حق يا صديقي، ولكن ألم يكن أنت من رشّحني لصلاح الدين؟ أعترف أنني أشعر أحيانا أنني سجين، ولكنني أكذب لو قلت إنني لست سعيدا. في الواقع، أنا أحب هذا السلطان، أحب أن أكون إلى جواره على حصاني ونحن ندخل مملكة أورشليم، كما أود أن أشهد سقوط المدينة في أيدي جيوشنا عندما تعود المدينة لتصبح القدس مرة أخرى، وعندما نستطيع الصلاة في ساحة المعبد. لقد غربت شمس مجدنا في أورشليم. وسوف تشرق من هناك مرة أخرى. حياتي كلها فداء ذلك اليوم. إن عهدا جديدا مشرقا يقترب من مدينتنا المقدسة. ثقتي كبيرة في صلاح الدين. وبفضل حكمته وحسن تدبيره ستعود أورشليم".

أومأ الحكيم برأسه.

"أنا أفهمك تمامًا، ولكن احتياجات راشيل لا تقل أهمية عن رغبتك في أن تكون جزءًا من التاريخ. لا بدّ من أن توازن. السعادة مثل الصحة الجيدة، لا نفتقدها إلا حين تختفي".

دخل ابن ميمون لينام بعد هذا الحوار.

جلست وحدي أفكّر في نصيحته. كيف أحقق توازنا بين عملي وأسرتي؟ تريدنى راشيل أن أعود إلى المنزل لأستأنف كتابى الذي بدأته عن تاريخ شعبنا. ذلك بالنسبة لها أهم بكثير من أن أكون كاتب البلاط.

لم تدرك أن ابن ميمون هو الذي أبعدني عمدًا عن عملي. وذلك خشية أن تثير أبحاثي غضب الحاخامات. لم يكن يريدني، إشفاقًا من وضعنا الضعيف في هذا العالم، أن أثير خلافًا مع علماء ديننا الذين يقتصر فهمهم لماضينا على النصوص المقدسة. يتفق ابن ميمون معي في الرأي بأن تحرك شعبنا غربا بدأ قبل سقوط المعبد، أو حصار ماسادا بوقت طويل. فلطالما تبادلنا الحوار حول هذا الأمر.

عندما خرجت إلى الفناء لأدخل بيت الراحة، فاجأتني السماء مرصّعة بالنجوم

المضيئة، فوقفت محدقا فيها لمدة طويلة. رأيتها تتخذ أشكالا مختلفة و.. يا إلهي!! كأنني أشاهد جمال حليمة الهادئ منعكسا في عنقود من النجوم المشعّة! حليمة خلبت لبّي! ترفض أن تغادر خيالي. لماذا لم تشاركني الطعام اليوم عندما طلب منها صلاح الدين ذلك؟ ولماذا طلب منها ما طلب؟ هل يعتبرني أحد الخصيان؟ هل تشاركه فراشه الليلة أم تراه قد شرب حتى الثمالة، وانتقل إلى واحة أخرى؟

كان الوقت متأخّرًا، ولكن تلك الأسئلة ظلت تدق رأسي وأنا في طريقي إلى غرفة النوم. لا تزال راشيل مستيقظة.. وغاضبة. تحدّثت معها بصوت هادئ، ولكنها رفضت أن تجيب عن أسئلتي. لم تستجب لرغباتي. جفانا النوم تلك الليلة. رقدنا صامتين في انتظار النهار.

يبدأ ابن ميمون –عادة- يومه بفنجان من الماء الدافئ، وبحكم صحبته واظبتُ على نفس الطقس.. فالماء الدافئ، كما يقول، يُطهّر الأمعاء ويهيئ الجسم لصدمة نهار جديد. وصفات ابن ميمون وقائية بالأساس. سر نجاحه الطبي يكمن في الأهمية التي يعلّقها على ما نأكل.. ومقدار ذلك. ثمانية فناجين ماء يوميا في أشهر الشتاء، وضعف هذه الكمية صيفا ضرورية من أجل صحة جيدة.

كان ابن ميمون صارمًا في مثل هذه الأمور. الجدل فيها ممنوع. قد يكون من الأسهل مجادلته حول المزايا أو العيوب النسبية في ديننا. لم يكن ذلك يزعجه بالمرة، ولكنه كان مصرًّا على قداسة وصفاته الطبية، ولم أكن أفهم سببا لكل ذلك الحزم. ربما يتعلّق الأمر بكونه يتعيّش من مهنة الطب. لو ذاعت كلمة واحدة عن عدم تأكّده من نجاعة علاجه، فلربما اتجه مرضاه وجهة أخرى. لكن ذلك لم يحدث أبدا. أقبل عليه المرضى لأنهم يعرفون أن علاجاته ناجعة.

وقتها كان ابن ميمون مشغولا بإعداد مرهم للقاضي، وانتشرت رائحة البصل والثوم في الغرفة. خلطهما بالخردل، ونبات عطري يُسمّى الأفسنتين، والزرنيخ، ومسحوق اللوز المر، والخلّ. شعرت بالغثيان، فأسرعت لأفتح الباب المؤدي إلى الفناء ليدخل بعض الهواء النقي. ابتسم ابن ميمون.

سألته "هل القاضي مريض، أم تراك تحضّر سمًّا له؟ تكاد الرائحة وحدها تقتلني!".

"لا.. ليس مريضًا، ولكن مِزاجه ليس على ما يرام".

"ولم؟"

"بدأ شعره يتساقط. لا يريد أن يصبح أصلع تمامًا، ربما يكون أكبر منا سنا، ولكنه ما زال مزهوّا مختالا. لعله يضع عينيه على بغيّ شابة".

"لو وقعت عيناه على فتاة صغيرة، لقدّموها له على طبق من ذهب، ساعتها لن يكون لتساقط شعره أية أهمية، فما جدوى هذه الخلطة ذات الرائحة الخبيثة؟"

"هذا المرهم سوف يقوّي ويكثّف ما بقي من الشعر، وربما يجعله ينمو مرة أخرى".

"ولماذا هو قلق هكذا؟ سقوط الشعر دليل نضج في مكان لا يبعد كثيرا عن هنا، كان الملوك القدامى والكهنة يحلقون رؤوسهم تعبيرا عن قوتهم".

"صحيح، لكن نبي المسلمين كان غزير الشعر، لم يكن يحب أن يصيبه الشيب. فكان يصبغه بمزيج من شقائق النعمان وزيت الآس، أو هكذا عرفوا من كتب التراث".

كنت على وشك الاعتراض على تأكيده، ولكنني فهمت من النظرة التي بدت على وجهه أنه ليس مستعدًا للإجابة عن أية أسئلة أخرى، عن العلاج الطبي الذي يحضّره لإعادة الشباب لقاضينا.

راح ابن ميمون، بدلا من ذلك، يتحدّث عن مهارات القاضي في الإدارة، وحسّه بالعدل، وقدرته على الاعتراض، حتى على قرارات السلطان، وقيمة ما يقدّمه، قبل ذلك كله، للحاكم من مشورة.

ونحن نغادر منزلي متجهين نحو القصر، فاجأني ابن ميمون:

"أجبني بصدق يا ابن يعقوب .. هل سلوت راشيل؟"

هززت رأسي منكرًا بشدة. إلا أن دقات قلبي تسارعت، وكأن قلبي يؤنبني! ارتبك ذهني. عجزت عن الكلام. أما هو فواصل استجوابي:

"هل أنت متأكد من أن الجدائل الوافرة الدافئة لتلك الإضافة الجديدة لأهل بيت السلطان، لم تخلب لبّك؟"

هززت رأسي ثانية. كيف عرف يا تُرى بأمر حليمة؟ لقد احتفظت بأفكاري ومشاعري لنفسي. لم أكن حتى واثقا من مشاعري. كيف، بحق السماء، توصّل ابن

ميمون إلى هذا الاستنتاج؟ أخذت لبعض الوقت لدرجة عجزت معها عن الكلام، وبعد أن تمالكت نفسي طلبت منه أن يشرح لي مقصده. في البداية هزّ كتفيه ولم يرد. فصمَّمت.

"بحكم عملي استمعت إلى شكاوى الكثير من ربّات البيوت. وشكوى راشيل ليست جديدة. إنها قصة قديمة. طلبت مني أن أصلّي لأجلها. رفضت. قلت لها: "أن تعرفي وتنامي، خير من أن تصلي وتكوني جاهلة".

"لم ينم كلانا ليلة أمس. ضميري مستريح. روحي لا يثقلها ذنب".

"وقلبك؟"

"قلبي يحلم. أنت تفهم ذلك جيدا. أليس عالما بلا أحلام أسوأ من جهنم؟"

"تكلّم معها يا ابن يعقوب. تحدث إلى راشيل. أشرِكها في أحلامك، القدر لم يسمح لشعبنا بالكثير من طعم العسل".

وافترقنا.

(6)

● ذكريات شباب صلاح الدين في دمشق ●وشادي يحكي عن أول مرة تذوّق فيها السلطان لذّة الجماع

أُبلغتُ أن أتبع الخادم إلى غرفة نوم السلطان. كان مستلقيًا، وعندما دخلت قام وجلس متكئا على وسائد من كل لون وشكل. ابتسم ابتسامة واهنة. كان صدره ثقيلا وحلقه ملتهبا. عرضت أن أعود عندما يشعر بالتحسن، ولكنه هز رأسه بشدة مُصرًّا على عدم إضاعة اليوم.

"الحياة قصيرة يا ابن يعقوب. قد يشاء الله أن ينتهي أجل أي جندي منا في أثناء الحرب".

وقفت صامتا وأنا أشاهد الخدم يجهّزون له الدواء. قام أحدهم بغلي الزنجبيل حتى استحال لون المزيج للأسود. استنشقه السلطان ثم حوّل وجهه بعيدًا. أما الخادم الثاني فقام بتحلية المزيج بكمية كبيرة من عسل النحل. هذه المرة، قطّب المريض جبينه وراح يرتشف ببطء، ثم أشار إليهم بترك الوعاء. انحنى الخادمان وانصرفا، وبينما هما يخرجان دخل شادي، وراح يتحسّس جبهة السلطان.

"عظيم! أنت غير محموم. عليك بشرب المزيج كله. أما بالنسبة لك يا ابن يعقوب فلا بدَّ أن تقلل من حضورك. ينبغي أن يريح لسانه اليوم".

انصرف شادي قبل أن يسمع رد السلطان الذي ابتسم ولعنه!

... ...

كم أفتقد المدينة القديمة! كلما شعرت بالمرض تذكرت غرفتي الصغيرة في دمشق. كنّا نعيش في منزل في الجزء الغربي من المدينة، لا يبعد كثيرا عن القلعة. بينما كنت راقدا في فراشي ذات يوم، مريضا بحمى بدت وكأنها من فعل الشيطان نفسه، دخل شادي عليَّ، مثلما فعل الآن تمامًا وتحسس جبهتي، ثم همس في أذني: "فلتستعد قوتك يا ابن أيوب. استعد قوتك".

تلك كانت طريقته الخاصة في إبلاغي بمصيبة أصابت عائلتنا. لم أكن في حالٍ جيدة لأفهم الرسالة، وأتذكر أنني حلمت أحلاما رديئة تلك الليلة. ومع شروق الشمس كانت الحمى قد فعلت فعلها. في ذلك اليوم نفسه جاء والدي إلى غرفتي ليبلغني أن جدّتي قد توفيت. بكيت بصوت مسموع، ولا بدَّ أن بكائي قد هزّ أعماقه. فهذه هي المرة الأولى التي يضمّني والدي فيها بين ذراعيه، ويمسّد شعري بحنو بالغ.

واساني ببعض الكلمات. قال: إن الله، من فضله، قد أسبغ عليها عمرًا مديدًا، وإنها قد غادرت تلك الحياة الدنيا غير نادمة. وكانت آخر كلماتها لي عنك يا بني. قال أبي: إنها وبَّخته لقلة اهتمامه بي وبمستقبلي. أخذ، وهو يخبرني بذلك كله، يتحسس تلك التميمة التي تراها معلّقة على صدري.

في البداية، علّقتها جدتى حول رقبته، وكانت تخلعها عنه كل عام لتطيل الخيط، بينما تتمتم برقى لآلهة مجهولة -لم أسمعها تدعو الله في تلك الشعائر الخاصة- كي تهبني القوة. إنها تميمة الحظ السعيد. أعتز بها بسببها، إلا أنها أصبحت كذلك جزءا مني. قبل أن أشارك في أي معركة، وفي كل معركة، أمسك بها في قبضتي وأحكها على صدري، قبل أن أتضرع إلى الله صامتا كي ينصرنا.

في دمشق، كبرتُ وأصبحتُ رجلا. اشتقت لحرية بعلبك في الأشهر الأولى. كانت دمشق مليئة بالأخطار. لم يكن يمر يوم دون أن نسمع خبرا عن اغتيال شخص مهم، أو عن شخص يلوذ بالفرار.

طباع والدي، كالعادة، ساعدته كثيرا. عهد إليه أتابك دمشق بالقلعة. بذلك أصبح والدي مسئولا عن حماية المدينة. صعوده المفاجئ خلق له أعداء كثيرين من الأعيان المحليين، وكان معظمهم من نسل المؤمنين الأوائل، كانوا يعادونه صراحة وينظرون إلينا جميعا باحتقار. لم يكن أبي وعمي شيركوه بالنسبة لهم أكثر من مغامرين أكراد وانتهازيين مهرة، باعوا خدماتهم وأرواحهم لمن دفع أكثر. من الصعب إنكار أن

احتقارهم لنا كان ينطوي على شيء من الحقيقة.

عندما جئنا، كان يحكم دمشق معين الدين أُنُرْ، وكان قد طلب من والدي أن يعيد تنظيم دفاعات المدينة، بعد أن أزعجته الانشقاقات المتزايدة بين قادته. كان معين الدين عدوًا للسلطان زنكي وابنه نور الدين، وكان عمي شيركوه قائدا عسكريا يعمل تحت إمرة نورالدين مباشرة. ما كان هذا الأمر إلا ليجعل من أي تركماني مخلص لأُنُر وسيده أبيكْ ساخطًا غاضبًا. في النهاية، كان من الصعب إخفاء أننا عشيرة مترابطة. كان أبي وشقيقه مترابطين مثل المقبض والسيف، بصرف النظر عن كونهما خصمين. إلا أن أُنُر كان يثق بوالدي. وعلى فراش مرضه -كما قيل لنا- نصح السلطان أبيك بأن يُبقي على خدمات والدي.

لم يكن أبيك مقتنعا تماما. كان رجلا ضعيفا. شرِّيب نبيذ، وزير نساء. ومن السهل أن يتلاعب به مستشارو السوء. على الرغم من أنني يجب أن أعترف، في موقف كهذا، بأن مخاوفهم لم تكن بلا أساس. فلو أن نور الدين هاجم دمشق، أكان والدي سيرفع السلاح ضد جيوش يقودها أخوه شيركوه؟ ذلك هو السؤال الذي أرّقهم ليل نهار.

كان والدي بارعًا في ارتداء الأقنعة! وكان رجل بلاط عظيمًا. أي أنه كان يجيد الاستماع التام ولا يتكلم كثيرا. عندما أخبره أبيك بما يُقال ابتسم قائلا:

"ربما كانوا محقّين في شكهم في ولائي، ولكنك الحكم الوحيد. إلى اليوم لم أنبس بغير الصدق، وإذا كان وجودي يقلقك فأنا على استعداد لأن أرحل أنا وأسرتي غدا. بمجرد أن تصدر أمرك".

اختار القائد الأعلى لدمشق أن يُبقي على خدمات والدي. تلك غلطة كلّفته عرشه، ولكنها وحّدت المؤمنين، وقرّبت اليوم الذي نستعيد فيه أرضنا من الفرنج.

أعرف ما يدور برأسك يا ابن يعقوب. تتساءل بينك وبين نفسك عما كان يمكن أن يحدث لو كنا طُردنا من دمشق. لا أشك كثيرا في أن النتيجة النهائية كانت ستكون واحدة... ولكن، ليس قبل سفك دماء كثيرة. فلم تكن تصرفات أبي بدافع من مصلحته ومصلحة أسرته وحسب. والحروب التي خاضها مؤمنون ضد مؤمنين كانت، في الحقيقة، بغيضة على نفسه. بل كان من نتائج تلك الخصومات قيودًا فُرضت علينا فرضًا. مُنعنا من السير بخيولنا بمفردنا. وحُرّم علينا التجول في المدينة ليلًا. وحذرونا من ارتياد الخمّارات، وهدّدنا أبي بالجلد إن نحن خالفنا أوامره.

وبحكم الصحبة المفروضة عليّ، عرفت لعبة "الجحفة"[(1)]. قررنا أنا وأخي العادل أن نستفيد من الحراس الكثيرين المفروضين علينا. كنا نخرج على خيولنا عند شروق الشمس من باب الجابية، يعلمنا الجنود المبارزة بالسيف، وبعد استراحة قصيرة ووجبة خفيفة يعلموننا القتال على متون الخيل، وبعد هذا التدريب كنا نسلي أنفسنا بتعليمهم الجحفة.

أليست حقيقة عجيبة يا ابن يعقوب، أن المرء كلما أرهق نفسه أكثر، يقلّ شعوره بالتعب؟ فبعد ساعتين من ركوب الخيل، كان يمكن أن أبقى على ظهر الحصان طوال اليوم. أما في الأيام التي لم يكن باستطاعتي مغادرة المنزل، كنت أشعر بالكسل والإرهاق. مثل اليوم. أطبائي يحمدون الله لأن الأمر كله يتعلّق بتدفق الدم في الجسم، ولكن، هل فعلا يعرفون؟

سكت السلطان. ظننت أنه استغرق في التفكير، ومن ثم أخذت أُجري بعض التنقيحات على النص، وعندما كانت الريشة جاهزة، نظرت إليه لنستأنف عملنا. عيناه مطبقتان تمامًا. لقد استغرق في سبات عميق.

فاتني، من قبل، أن أشير إلى أن صلاح الدين بن أيوب كان يرى بعين واحدة فقط. لم يكن قد أخبرني بعد كيف فقد الأخرى، وكان ابن ميمون قد نبّهني إلى حساسية الأمر. ومن ثم فليس من الكياسة أن أشير إليه مهما كانت الظروف. وحيث إنني كاتب منضبط فقد طردت كل فضول عن ذهني. والحقيقة أنني أصبحت معتادًا على عيوبه، ونادرًا ما كنت أفكّر في ذلك.

إلا أنني عندما رأيته مستغرقًا في النوم وعينه المريضة مفتوحة، خُيّل إلى أنه نصف مستيقظ ويرى كل شيء.

غمرني شعور غريب. أردت أن أعرف كيف ومتى فقد عينه. هل حدث ذلك في طفولته؟ وإن كان، فكيف؟ ومن المسئول عن ذلك؟ وكيف أثّر ذلك كله في قدرته على القتال؟ شلال من الأسئلة انهمر على عقلي.

لم أدرِ كم مر من الوقت وأنا أحدّق في السلطان النائم. نبّهتني ربتة على كتفي إلى وجود شادي الذي تجده دائمًا في كل مكان. وضع أصبعًا على شفتيه علامة على ضرورة الصمت، وأشار إليَّ بأن أتبعه إلى خارج الغرفة.

وأنا جالس في الفناء أستمتع بشمس الشتاء، أغمس الخبز في اللبن، وأقضم الفجل والبصل، سألت شادي عن تلك العين. ابتسم ولم يُجب. ألححت.

"سيخبرك صلاح الدين بنفسه. هذا هو الأمر الذي لا نتحدّث فيه".

"ولم لا؟"

لزم الرجل الصمت. اللهم إلا أنه مسح آثار اللبن من على شاربه وتجشّأ. قلت لنفسي لعله في حالة لا تسمح له بالكلام. لعل شيئا يضايقه. ولكنني كنت مخطئًا. كانت حُرمة الكلام عن العين الواحدة سبب الخرس الذي بدا عليه.

سألني ما إذا كنا قد وصلنا إلى حكاية وصول أيوب وأسرته إلى دمشق في الحكاية التي أدوِّنها. أومأت برأسي. فقال بابتسامة خبيثة: "أخبرك السلطان إذن عن مغامراته الشبابية!".

"ليس بعد!".

"ليس بعد! ليس بعد!" راح يقلّدني ساخرًا ثم انفجر ضاحكًا.

"لن يخبرك. ذاكرة المسنّين تخطئ دائمًا. ينسون ماضيهم بسهولة شديدة، ولكن من حسن حظك أيها الكاتب الهمام أن شادي ما زال حيًا. فلنتناول قليلا من لحم الضأن أولا، وبعدها سأقصّ عليك حكايات دمشق التي لن يتذكّرها سلطاننا العظيم مرة أخرى".

وبعد أن فرغنا من طعامنا، بدأ الشيخ يتكلم.

... ...

... ...

"لن أضجرك بحكاياتنا عن زياراتنا الأولى للمسجد الأموي، حيث كان الخلفاء العظام يلقون خطب الجمعة، وحيث ارتجف الجمع المحتشد غضبًا عندما أمسك معاوية بالقميص المخضّب بدم الخليفة عثمان المقتول. سأترك ذلك كله للسلطان".

ضحك شادي بصوت مسموع كأنما قال نكتة. كثيرًا ما كان يضحك في أثناء تعليقاته، اعتدت على ذلك. ابتسمت وأومأت في أدب لأتفادى نظرة اللوم الطويلة التي كثيرًا ما أتعرّض لها عقب تلك الانفجارات الضاحكة. وبعد أن شرب فنجانًا آخر من

مخيض اللبن، ومسح الآثار المتخلّفة من على شفتيه وشاربه بلسانه محدثًا صوتا، راح مرة أخرى يحكي حكايته.

"كان الوقت حارًا ذات مساء صيفي، وكان الجميع قد هجعوا التماسًا للراحة. كان سلطانك في الرابعة عشرة من عمره أو ربما أصغر قليلا. استغل حرارة الجو وخالف تعليمات أبيه وذهب إلى الإسطبل. امتطى جواده المفضّل دون سرج وغادر المدينة بمفرده. تصوّر، لطيشه، أنّه يمكن أن يخرج من البوابة دون أن يعرف أحد. كانت مخاطرة، بما أن أعداء أبيه يملئون المدينة. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يكبح جماح الشباب؟

خُدع حراس البوابة. كانوا يعرفون أن أبناء أيوب لا يخرجون بمفردهم، ولكن أحدهم انطلق إلى المنزل وأبلغ عن خروجه. أيقظوا أيوب وأبلغوه بالأمر. الغريب أنه بدا سعيدًا أكثر منه غاضبًا من عصيان ابنه. رأيته يبتسم.

طلب مني أن أخرج بحصاني وراء صلاح الدين، ولكن في هدوء تام. كانت التعليمات أن أتبعه وأراقبه حيثما ذهب.. ولكن من على بُعد. بعبارة أخرى.. أتجسّس عليه دون أن يشعر. وقد كان.

لم يكن من الصعب اقتفاء أثره. خارج باب الجابية -كما سترى عندما يأخذك السلطان معه يوجد ميدان كبير يقطعه نهر. عندما تقف على أسوار القلعة، تزغلل عينيك أشعة الشمس الغاربة ويصبح الميدان أشبه بسجادة كبيرة خضراء من الحرير الفاخر. هناك كان صلاح الدين وشقيقه يلعبان الجحفة. وهناك كانا يتسابقان بالخيول ويتعلّمان استخدام السيف والقوس والسهم. كان يحيط بالنهر أيكة كبيرة من أشجار الحور.

من على بُعد، رأيته يرمح حاسر الرأس دون حماية. ثم رأيته يلجم حصانه وينزل من فوقه. فعلت مثله وربطت حصاني في شجرة، ثم سرت نحو الصبي بحذر كي لا يراني، إلى أن وجدت موقعًا خلف بعض الشجيرات. من هنا كنت أراه ولا يراني. أعرف أن صبرك قد بدأ ينفد مع عجوز أحمق مثلي، ولكنني أوشكت على الانتهاء من الحكاية.

خلع صلاح الدين ثيابه وقفز في الماء. أخذ يسبح مع التيار مرّة، وعكسه مرة أخرى. ضحكت في سرّي. يا له من صبي غريب! لماذا لم يخبرنا بأن كل ما يريده هو أن يذهب للسباحة؟ سيصحبه بعض الحراس إلى أن ينتهي. وتنتهي القصة.

أوشكت أن أذهب إلى ضفّة النهر لتحيّته عندما ظهرت، فجأة، امرأة، لا بدَّ وأنها كانت تراقبه هي الأخرى. رأيتها تسير إلى حيث كان قد ترك ثيابه. حملَتْها وطوتها ثم جلَستْ تنتظره حتى ينتهي من السباحة. سبح نحو الشاطئ وقال لها شيئا. لم أتبيّن الكلمات لأنني كنت قد ابتعدتُ عندما لمحتها. رأيتها تضحك وتهزّ رأسها. كان مصرًا. وفجأة رأيتها تقوم وتخلع عنها ثيابها وتقفز معه في الماء.

كانت امرأة.. جميلة جدا.. يا ابن يعقوب! في ضعف عمره تقريبًا. الباقي بمقدورك أن تتخيّله. بعد أن انتهيا من السباحة جففا نفسيهما في الشمس، ثم امتطت تلك الساحرة صبيَّنا، وراحت تعلّمه كيف يكون الرجل. سبحان الله يا ابن يعقوب! لم يكونا يشعران بأي خجل. تحت السماء الصافية، تحت بصر الله في علاه، كانا يتصرّفان مثل الحيوانات.

كنت أنتظر صابرًا، أحاول أن أسجّل كل شيء في ذهني كما أمرني سيدي. انصرفتْ هي أولا. أما هو فظل مستلقيًا هناك لمدة قصيرة، ثم ارتدى ثيابه. عند هذه المرحلة، كما قد يبدو لك، كان يمكن أن أكشف عن نفسي. وساعتها أكون قد انتقمت لنفسي من حادث بعلبك..ولكني نفَّذت التعليمات. ركبت حصاني عائدا إلى المدينة دون أن أنتظر حتى يستعيد صلاح الدين توازنه. وعندما عدت إلى المنزل، طمأنتُ أباه بأن كل شيء على ما يرام.

أراد أيوب، عليه رحمة الله، أن يعرف كل شيء. وكان يمكنني أن أقول له كل شيء بالتفصيل.. وبكل سرور. لقد رويت لك القصة باختصار أيها الكاتب الهمام، ولكنها كانت آنذاك حاضرة في ذهني بكل تفاصيلها.

دُهشت عندما صفّق أيوب بكلتا يديه وانفجر في الضحك. لعلّه استراح لأنها كانت بغيّا، ولم تكن مهرة صغيرة.. أو أحد جنوده! ثم اكتسب وجهه صرامته المعتادة وهدّدني بمصير مرعب، لو أن كلمة واحدة بلغت مسامع صلاح الدين.

لم يكن من السهل عليَّ أن أبقى صامتا. كنت أشعر دائمًا أنني قريب من الصبي، وكان يمكن أن يزلّ لساني في مواقف مختلفة ويخالف التعليمات. ولكن كان هناك شيء ما في نبرة أيوب، يحذّرني من مغبّة مخالفة أوامره، وقد أطعته رغم الإغراء الشديد".

سألته "أتعني أن السلطان لا يعرف شيئا مما حدث حتى الآن؟ هل هذا ممكن؟"

ابتسم شادي ابتسامة عريضة.

"انتظرت اللحظة المناسبة. أخبرته ليلة زفافه. كان في حالة بهجة، وضحك كثيرًا، ولكن كان يجب أن أكون على دراية به أكثر من ذلك. بعد شهر، وكنت أعتقد أنه نسي الأمر كله، طلب مني تفسيرًا لما حدث. كان مقطّب الجبين. أخبرته. أبدى دهشته لأن أيًا من والديه لم يتحدّث معه في الأمر. هززت كتفي. وما شأني أنا بذلك**!**".

(7)

• عيد الربيع في القاهرة، وعرض ماجن لخيال الظلّ في حي التركمان

مرّت أسابيع وولّى الشتاء، وعلى الرغم من ذلك لم يأت الربيع بعد. لم تصلني كلمة واحدة من حليمة، وأخذ الوله العاطفي يتلاشى رويدًا رويدًا. توقّفت عن تعذيب قلبي بالحنين إليها عملا بنصيحة ابن ميمون. مرَّت أيام ولم تقع عيناي عليها. أما راشيل فقد استعادت حيويتها. تكيّفت حياتنا على نظام جديد.

انشغل السلطان مع أهل الثقة من أعضاء الأسرة، يناقش خطة تحرير القدس. ذلك هو الوقت الوحيد المحظور عليَّ فيه دخول غرفة مجلسه. وذلك حفاظًا على سرية المداولات. إنها محادثات من طراز خاص. فأي طيش أو تباهٍ أحمق، كما كان السلطان يقول، يمكن أن يكلّفنا جيشًا بكامله ويؤخّر قضيتنا عقودًا. ولكنني أكذب لو قلت إنني لم أكن مستاءً لذلك. كنت أعتقد أنني أصبحت محل ثقة الحاكم، ولا بدَّ أن السلطان لاحظ ذلك، لأنه حاول أن يهدئ من كبريائي الجريحة قائلاً:

"يا ابن يعقوب، ما تكتبه يعرفه القاضي وثلاثة أشخاص آخرون. لو أذنت لك بحضور مجلسنا العسكري سيعرف الكل مَن تكون، وسيكون لذلك خطورته. قد يعتقد أحد إخوتي أو أبناء عمي أنك تحتفظ بسر خلافتي. قد يعذّبونك أو يقتلونك، ثم يزيّفون وثائق يدّعون فيها ما يريدون أن يصدّقه الناس. هل فهمت؟"

أومأت وأحنيت رأسي اعترافًا بصواب كلماته.

استقبل أهل القاهرة ضباب الصباح الباكر في الربيع كعادتهم من مئات السنين. أصبحت المدينة في قبضة أهلها. تتلاشى الفوارق بين الناس أول أيام الربيع. تلاميذ المدارس والمعاهد إما أنهم يبقون خارجها يستعدون لاحتفالات المساء، وإما يجيئون

إليها يخطفون معلميهم ويحتفظون بهم رهائن إلى أن يحصلوا على فدية. تُنفق النقود على الطعام والشراب الذي يوزّع على الفقراء مجانًا طوال اليوم.

طوال السنوات الأخيرة، كنت أتجنّب الشوارع، وعلى وجه الدقّة منذ أن ألقى بعض المعربدين راشيل في فسقية، لكي يروا صدرها بوضوح تحت ثيابها المبتلّة. لم تكن اعتراضاتها قوية مثلي، ولكنني عقدت العزم هذا العام على قضاء اليوم كله مع عامة الناس. من يا تُرى سيكون مادّة مزاحهم هذا العام؟ لقد استهدفوا القاضي الفاضل على مدى السنوات الثلاث الأخيرة، يضحكون على أشعاره ويسخرون من تكلّفه، ويقلّدونه وهو يتكلّم في قاعة المحكمة.

أما ابن ميمون فلم يتخلّف عن احتفال واحد بالعيد. فقد اعترف بأن المحاكمة الهزلية التي عقدوها لحمار متّهم بالتبوّل على أحد الشيوخ، أغرقته في الضحك. بعد أن استمع التلميذ الذي يقوم بدور القاضي إلى الادعاء واستجوب الحمار، أصدر حكمه. يُجرّس الحمار ثم يُقطع قضيبه إلى خمسة أجزاء، تُرَصُّ على طبق كبير وتُقدم للشيخ المُهان. ثم إن على الحمار أن ينهق أمام الخلق خمس مرات على الأقل في اليوم. ولما سُئل الحمار عن رأيه في الحكم ضرط ضرطة كبيرة!

قال لي ابن ميمون في تلك المناسبة إن "أفكارهم وأفعالهم ليست عميقة بأي حال، ولكن لا ينكر شعبيتها سوى أصم أو أعمى".

ذهبت أنا وراشيل إلى حيث سيتجمّع الموكب الكبير. ملأ الشبان الشوارع مرحًا وهم يضعون على ذقونهم لحى مدببة. بينا يتبارى حواة الأفاعي والمشعوذون للاستحواذ على الاهتمام، مع لاعبي الأكروبات والبهلوانات والسحرة. ومرح الأطفال في كل مكان يشيع جوًا من البهجة، حتى بين الوقورين من الناس.

اشترينا أقنعة نمور، وغطّينا وجوهنا، ووقفنا وسط نمور أخرى مقنَّعة من كل الأحجام. بدأنا نتبادل التحية عندما مدّ أحد النمور يديه، وبدأ يتحسّس صدر راشيل. ضربت اليدين فجرى النمر بعيدًا!

من يا تُرى سيفوز بلقب أمير عيد النيروز هذا العام؟ كانت راشيل أول من لاحظ المرشّحين للإمارة. تسلّق شاب حائطًا من الأكتاف، وبدأ يقدّمهم واحدًا واحدًا. وقد أخذ الجمهور يعبّر عن رأيه فيهم الواحد تلو الآخر. ووسط تهليل وتصفيق أُختير شاب متنكر في ثياب راقصة، يضع على وجهه ألوانًا صارخة وفي صدره بطيختين

صغيرتين، ليكون أميرًا. اقتادوه نحو بغلة الاحتفال التي صُبغت بالأحمر والأصفر والأرجواني لتلك المناسبة، ولم ينسوا أن يلوّنوا كفلها بالأخضر!

جاء أمير الاحتفال ممسكًا بمروحة في يده ليركب البغلة وسط رقص وغناء الجميع، بمن فيهم أنا وراشيل. أخذ الأمير يهوّي على نفسه بالمروحة بشكل مبالغ فيه، وكأنّ حر الصيف يخنقه. فجأة، خرج من وسط الزحام، والناس يهللون، أربعة رجال عراة إلا من مآزر بسيطة تستر عوراتهم، أجسادهم مدهونة باللون الأبيض. اثنان منهما يحملان قطع الثلج وأباريق الماء البارد، يغرقون بها الأمير، أما الآخران فيسقيانه من إناء حساء ساخن. الطريف أنهم لفّوا كتفيه ببطانية لحمايته من البرد!

بعد انتهاء الطقس، اتخذ الأربعة أماكنهم أمام بغلة الاحتفال وبدأوا الضراط. كل واحد منهم يجتهد في أن يصدر ضرطة أكثر قوة وضجيجًا من سابقه. وعمَّ الصمت ونحن نجهد أذاننا ونصيخ السمع لمتابعة موسيقى المضرطين الموهوبين! هذا الضراط الموسيقى أهم ما يقدّم في تلك المناسبات، أما الانفجار الختامي الذي أحدثوه معا، فقد حظي بالكثير من التصفيق والهتاف والضحك. الغريب أن أداءهم بدا مُعديًا، فراح الأولاد الصغار يحاولون تقليد هذا الفن بقية المساء. الحمد لله، كان نجاحهم محدودًا ولم نكن مضطرين لأن ندعو الله ليرسل نسمة من السماء لتطهير الجو.

أخيرًا بدأ الموكب في التحرك. وأعطى البطء المتعمّد المشاركين الوقت والفرصة لشراء واستهلاك زجاجات صغيرة من النبيذ من الباعة على جانبي الطريق. كنا متجهين إلى الميدان الكبير نحو قصر السلطان. هل يظهر ويُحيّي الجموع؟ تلك هي المرة الأولى التي يكون موجودًا فيها في القاهرة في أثناء احتفال كهذا.

ذات مرة، ومنذ سنوات مضت، ظهر القاضي الفاضل رمزيًا لمدة قصيرة ليستقبله عرض من ألف قضيب. انسحب القاضي سريعًا، ورفض أن يخطب في الجمع. لم يُقدم القاضي على المغامرة، هذا العام، لوجود السلطان في القاهرة. لا يتحمّل أن يترك الاحتفال يتحوّل إلى عربدة. كان مفتّشوه قد ظهروا في الشوارع في الليلة السابقة يصحبهم المنادون الذين حذّروا المحتفلين سوء العاقبة. وجاء رد الناس على نفس الدرجة من العنف، فقد اختاروا مخنّثًا ليجعلوه الأمير.

عندما وصلنا إلى الميدان خارج القصر، خفتت الجلبة وكأن الكل قد شعر في وقت واحد بحضور السلطان. كان يمتطي حصانه، يحيط به حرسه الشخصي. وعندما اقترب

أمير الاحتفال، تقدّم صلاح الدين على جواده ليقابله. تبادلا كلمات لم يسمعها سوى المخنّث، بعدها ترددت مئات الحكايات ذلك المساء. رأينا السلطان يبتسم ويعود إلى القصر.

تُواصل العربدة طقوسها حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكن الكثيرين منا كانوا مرهقين وجائعين، فبدأنا نشق طريقنا عائدين إلى المنازل، والشمس تميل إلى الغروب. وبعد أن نزعت أنا وراشيل قناعينا واشترينا بعض النبيذ لنأخذه معنا إلى المنزل، اقترب مني وجه بدا مألوفًا لي. انحنى على أذني وهمس:

"إذا كنت تريد أن تشاهد تسلية حقيقية هذه الليلة يا ابن يعقوب، اذهب إلى حي التركمان خلف الأزهر مباشرة. لا تذهب إلى باب زويلة هذا العام، خيال الظل سيكون شيئا غير عادي".

وقبل أن أردّ، كان الرجل قد اختفى. لماذا كان وجهه مألوفا لي؟ أين رأيته من قبل؟ عجزي عن تحديد أي شيء بدأ يزعجني. تذكّرته بعد ذلك ونحن نتناول عشاءنا، وجعلتني الذكرى ألهث. كان أحد الخصيان. اسمه ألماس، يعمل في جناح الحريم. رأيته ذات مرّة يتحدّث مع شادي، أو يهمس في أذن السلطان. لا بدَّ أن يكون جاسوسًا أرسلوه يراقب لاعبي خيال الظل، ويقدّم تقريره عن عروضهم. لقد حدّثني بتكتمٍ كما لو كنا متواطئين على أمر ما. تُرى هل كانت رسالته المهموسة بأمر من السلطان؟ كان اللاعبون عادة يعرضون أمام باب زويلة. هل كان ألماس يريد أن يبعدني عن شيء ما؟ استسلمت، وقرّرت أن أعمل بنصيحته.

اقتربت الاحتفالات من نهايتها الطبيعية، وأنا أسير عبر متاهة من شوارع مضاءة بالمصابيح نحو باب زويلة. واصلت سيري حتى حي التركمان، مطمئنا إلى أن لا شيء غير عادي يجري هناك. رأيت الميدان مضاء والناس يأكلون ويشربون ويتحدّثون عما جرى هذا اليوم.

كما تقول حكايات الثرثرة في ذلك الحي، أطرى صلاح الدين زينة الأمير، وسأل إن كان يستطيع هو وأصدقاؤه حضور الاحتفال بالتحرير المنتظر للقدس. عند هذه النقطة الحرجة فقد قائدنا المخنّث لسانه تقريبا، وأومأ برأسه كطفل في حضرة ساحر.

انبعثت رائحة الحشيش حولي من أماكن مختلفة، وهي بالمناسبة ليست سيئة أبدًا. وعلى مسافة قريبة مني رأيت ستارة كبيرة من الشاش، وخلفها أطياف الموسيقيين

والممثلين يستعدّون لأول عروض المساء.

بدأت المسرحية عند منتصف الليل. كانت القصة عن فتاة جميلة فاجأها زوجها الغاضب وهي بين أحضان عشيقها. أخذ أفراد الجمهور المكروب يتنهّدون أسى وتعاطفًا عندما قام الزوج بذبح العشيق، وسحب زوجته ومضى.

سيطر مصير الزوجة على النقاش خلال الاستراحة. هزّ الميدان جدال غاضب صاخب. هل كان ينبغي أن يقتلها زوجها أيضًا؟ لماذا قتل العشيق بينما كانت الغلطة غلطة زوجته في المقام الأول؟ ثم لماذا القتل أصلا؟ الحب عاطفة سامية لا تعرف قانونا، والله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يمنع ميل شخص لآخر.

مع تقدّم المساء أدركت أن ما كنا نشاهده لم يكن قصة عادية. كأنني كنت أعرف كل تلك الشخصيات. أم تُرى كان خيالي هو الذي يعمل فَشُبِّه لي؟ لكن انفعال الجمهور وتوتّره يعني أنني لم أكن الوحيد الذي اكتشف تلك المصادفة. لست الوحيد الذي شُبِّه له.

تبدّدت شكوكي مع بداية الجزء الثاني من العرض. حُكم على الزوج بالجلد علنًا عند باب زويلة، وأُرسلت الزوجة الخاطئة إلى الواعظ الأعرج صاحب العين الواحدة. ذلك الذي أغواها بدلا من أن يعظها. وفي هذه اللحظة بدأت الستارة تهتزّ بقوة. شاهدنا ظلّ عملية مضاجعة. ثمرة خيار ترمز إلى قضيب الواعظ، وثمرة يقطين ترمز إلى فَرْج ضحيّته. غالبًا ما يشارك الجمهور بالتصفيق والضحك عندما تصل مثل تلك المسرحيات إلى ذروة الفسوق. هذه المرّة لم يحدث شيء من ذلك. راح الموسيقيون يدندنون بلحن جنائزي، كأنما يقولون لنا إنه لم يكن زواجًا سعيدًا.

بدا الجو في أثناء الاستراحة الثانية أكثر وجومًا وكبتًا. يتحدّث الناس همسًا. لم تكن تلك مصيبة مثل بقية المصائب التي اعتادتها المدينة، كان واضحًا للجميع أن الواعظ الأعور ليس إلا صورة تنكّرية للسلطان. ذلك هو السبب الذي دعاني الخصي لآتي من أجله هذه الليلة. أكان ذلك انتقام حليمة؟ شعرتُ بيد على كتفي، استدرت لأجد وجه ألماس المبتسم.

"ما رأي عالمنا المحترم في التمثيلية؟"

"مَن الذي كتبها؟ مَن؟"

"ألا يمكنك أن تخمّن؟"

هززتُ رأسي.

قال "أعتقد أن المؤلّف سيتّضح قبل نهاية العرض".

شيء ما في طريقة كلامه أشعرني بقشعريرة في جسدي. شعرت بأنني لا بدَّ أن أنصرف فورًا، وألا أنتظر النهاية. كنت أودّ أن أعرف كيف ستنتهي، إلا أنني كنت خائفًا كذلك.

يثق السلطان بي. لو اكتشف أنني كنت حاضرًا تلك المسرحية ولم أقدّم له تقريرًا مفصّلاً، فلربما أصبح ولائي له محلَّ شك. إن بقيت إلى النهاية سيكون عليَّ أن أبلغ السلطان. إذا انصرفت سيكون ذلك دليلا كافيًا على أنني وجدتها مسرحية رديئة، ولا تستحق تقديم تقرير حولها.

أومأت وداعًا إلى ألماس الذي لم يستطع أن يُخفي دهشته، وانصرفت.

(8)

• حكاية الشيخ الذي أجبر أخته على الزواج من عشيقه، حتى يستبقيه معه في المنزل، والعواقب الكارثية لذلك

"يحسُن أن تتوجّه من فورك إلى قاعة المقابلات يا ابن يعقوب. السلطان في انتظارك ومزاجه ليس رائقًا هذا الصباح".

أقلقتني لهجة شادي، ولكنني لم أفهم من عينيه شيئًا. لعله ذنب حضوري المسرحية. أسأت تفسير لهجته. بدا السلطان متجهّمًا، بالفعل، ولكنه لم يكن بمفرده. كان القاضي الفاضل جالسًا قبالته. ابتسما عند دخولي، فاطمأننت. انحنيتُ واتخذت مكاني تحت عرش السلطان مباشرة.

قال السلطان: "وعليك السلام يا ابن يعقوب، أنا سعيد لأنك لم تنتظر حتى الفصل الأخير من عرض ليلة أمس في حي التركمان. كنت أنا والفاضل نستغرب ذوقك وحكمك".

صوَّب القاضي نظرته المتجهّمة نحوي مباشرة، ولكنني لم أحوّل عينيّ عنه. ابتسم بشفتيه وبقيت عيناه جامدتين.

"الخصيّ الذي خان ثقة السلطان أُعدم هذا الصباح. إذا تمشّيت هذا المساء سترى رأسه يزيّن باب زويلة".

أومأت برأسي استحسانًا. هل ينبغي أن أسألهما عن سبب إصرار ألماس الأحمق على فعل ما فعل، وأدى إلى قطع رأسه، أم تُرى من الأفضل أن أظلّ صامتا؟ انتصر الفضول. نظرت إلى الفاضل.

"لماذا قرر ألماس ...".

"الإجابة في المسرحية. فتنته تلك المغوية ذات الشعر الأحمر، وكانت قد زجرته عدة مرات. الخيال كان طريقه الوحيد لامتلاكها".

"كفى"، قال صلاح الدين عابسا: "لدينا أمور أخرى أهم كي نناقشها. ابدأ أيها الفاضل، وأنت استعد للكتابة".

رفع القاضي كوب الشاي بالنعناع إلى شفتيه، وجرعه دفعة واحدة، كما لو كان في حاجة إلى مزيد من الطاقة. لم يكن الفاضل في صحّة جيدة. أخبرني ابن ميمون أن نظام غذائه ليس صحّيًا. وزنه يفوق سنه بكثير، كما كان يشكو من تورّم ركبتيه، واليوم كان يتوقّف كثيرا ليلتقط أنفاسه وهو يتكلم.

"قبل أيام قليلة سُلِّمت امرأة شابة، لم تبلغ العشرين بعد، إلى أحد المفتشين التابعين لي، عن طريق والد زوجها، متّهمة بالزنا. المرأة اعترفت بأن لها عشيقًا، ولكنها أصرّت على أن السبب هو رفض زوجها مجامعتها. في شريعتنا، لا يُعتبر ذلك مبرّرًا للزنا. لذا حكمت عليها هي وعشيقها بالرجم حتى الموت".

"إنها الشقيقة الصغرى للسيد البخاري، أحد شيوخنا الأجلاء. إنها قصة تملأ قلبي حسرة يا أمير الشجعان، أما القرار النهائي فلك. ينتظر الشيخ البخاري قرارك. لقد سمحت لنفسي بأن أجئ به إلى هنا. وربما يكون من الأفضل أن تستمع إلى القصة منه، بدلا مني. سيكون لكلماته ثقل أكبر من فمه. ماذا يفضّل السلطان؟".

بقي صلاح الدين صامتًا. كان يفكّر. ولكن فيم يا تُرى؟ لعله كان يفكر ما إذا كان من الأفضل أن يترك الأمر للقاضي حتى يكون هو الملوم على ما قد لا يكون قرارًا مُرضِيًا.

"ائِتوا بالبخاري. سوف نستمع إلى قضيّته".

بعد دقائق أدخلوا القاعة رجلا طويل القامة قوي البنية. بدا متصابيًا بشعره المصبوغ. خرَّ راكعًا ليلمس قدمي السلطان برأسه.

قال السلطان بصوت هادئ: "يؤسفني أن نلتقي في هذه الظروف يا بخاري. ما زلت أتذكّر جيدًا حضورك جلسات نقاشنا المسائية قبل سنوات. كان ما قلته آنذاك محل

تقديري، ولهذا السبب بالتحديد وافقت أن أستمع إلى قصّتك بنفسي. اشرح لي لماذا ينبغي ألا تعاقب أختُك، كما حكم قاضينا الرحيم".

نظر الشيخ إلى حاكمه ممتنًّا، وظهرت على وجهه ابتسامة حزينة عندما بدأ يروي قصته:

"إذا كان هناك من يستحق العقاب يا سيدي السلطان فليس أختي، بل أنا. أنا الوحيد الملوم للمصيبة الكبرى التي نزلت بها، قبل خمس سنوات دخل زائر غريب الغرفة المزدحمة حيث كنت أشرح وأعلّق على الأحاديث التي رواها جدي الأكبر. سامحه الله! لم يكن لديَّ أدنى فكرة بأنني كنت على وشك أن ألوّث سمعة سلفي العظيم. لفت الوافد الجديد انتباه كل الحاضرين. كان شابًا بهي الطلعة. عينان رماديتان تتلألآن، تضيئان وجهه الشاحب. شعره لون الحنطة. لاح على وجوه المؤمنين سؤال صامت. مَن هو؟ كان قد جاء إلى القاهرة طفلا على ظهر سفينة تجارية من بلاد الفرنج. وأبوه كان تاجرا من جنوة مات فجأة. رفض بحارة السفينة أن يتحملوا مسئوليته. فالإبحار مع يتيم، في عرفهم، فأل سيئ. خرافات ساذجة. تبنّى الولد، الذي كان في السابعة أو الثامنة من عمره آنذاك، أحد التجّار في شارع تجّار السيوف. تعهدته وعنيت به زوجة التاجر الأولى التي لم يكن لديها أطفال. فنشأ ما شاء الله، كابن من أبناء الأسرة. كان من الطبيعي أن يُختتن، وحصلت أسرته الجديدة على خدمات أبي دانيال حلاق سمّوكم ليقوم بذلك.

أسموه جبريل وأسعده ذلك كثيرا، إذ أن ذلك الاسم هو الصيغة الأصلية للاسم جابرييل الذي سمّوه به فور مولده. وبمجرد أن تعلّم لغتنا، حدّثته أمه بالتبنّي كثيرًا عن أمه الحقيقية وعن شقيقاته اللاتي كان يفتقدهن كثيرا. وعدوه أن يؤمّنوا له العودة إلى جنوة عندما يكبر. تعلم تعليمًا راقيًا، وسرعان ما أصبح من الصعب القول إنه ليس واحدًا منا.

شبّ ليصبح عالم منطق ذكيًا، تجتذبه كثيرا كتابات أصدقائنا في الأندلس. شغفه بالمنطق هو الذي جعل أصدقاءه يدلّونه على محاضراتي. كانوا يعتقدون أنني أستطيع شفاءه من داء الهرطقة، والحقيقة أن ذلك كان ممكنا، لولا أنه كان شابًا فائق الحسن. ظهوره المفاجئ قلب كياني.

كان يأتي مرتين في الأسبوع ويجلس تحت قدمي، يتشرّب كل كلمة أنطق بها بعينيه

اللامعتين اليقظتين المتسائلتين دائمًا. هل كان خيالي هو الذي صوّر لي، أم تُراني أبصرت ذات مرة لمحة عذاب في هاتين العينين الرماديتين؟

وبينما كان الآخرون يطرحون أسئلة مهذبة لاستيضاح بعض الأمور في نهاية حديثي، كان ذلك الجبريل الصغير يسألني على نحو يجعل الإجابة عن أسئلته تُغيّر تركيبة تفكيري.

ذات يوم جاءوا كلهم متأخرين إلى الدرس. أصابني الذهول عندما رأيتهم. كانوا مخمورين، وكان جبريل عاريًا تمامًا. كان زملاؤه يضحكون، ولم يكن يبدو عليه أنه يدرك أنه سبب الضحك. عندما طلبت منه أن يفسّر الأمر قال إنهم جميعا حاولوا شحذ ذاكراتهم بشرب جرعة قوية من نقيع جوز الكاجو المخمّر. فقد الآخرون السيطرة على أنفسهم. أما هو، كما قال، فبقي متزنًا. غطّيته بملاءة ووضعته في السرير.

لا أستطيع أن أكذب على السلطان، ولا على قاضيه العظيم، ولا بدَّ وأن أعترف بأن تصرّف ذلك الصبي سحرني. عندما يكون حاضرًا أتكلم وكأنني أتوجّه بكلامي له وحده.

كنت تحت سيطرة ذلك المرض القديم الذي جاء به إلى عالمنا اليونانيون عبدة الأصنام والروم الملاعين. أصبح جبريل، من خلال خطأ غير مقصود، مصدرًا لكل ما أنا فيه من بؤس. غيابه كان يسبب لي صداعًا فوق الاحتمال، كنت أركع وأسأل الله لماذا تعذّب عبدك بكل هذه القسوة؟

جاء ذات يوم وكنت وحدي بالمنزل، ولا بدَّ من أن تكون قد ظهرت على وجهي كل العواطف التي كان قلبي يحاول كبحها. كان رد فعله جيدا. باح بمشاعره نحوي. فليسامحني الله.. أصبحنا عشيقين. تأجّج رغبته كان يثيرني. كان يحملني إلى السماء السابعة.. ذقنا الفاكهة المحرّمة. أصبح ضميرنا هاوية بلا قرار. لم يعد هناك ما يهم.

أرى على وجه قاضينا المبجّل أن صراحتي لا تثير سوى الاشمئزاز. لن أستفيض في ذلك الأمر.

أرجو أن تحاولا فهمي

لم أعد أستطيع العيش دونه. بدأت أفكر كيف يمكن أن أعيش مع جبريل باستمرار. جاءتني الفكرة ذات يوم عندما رأيته يتحدث مع أختي. فتاة جميلة. كان واضحًا لي أن

مشاعرها نحو جبريل لا تختلف كثيرًا عني نحوه. فلم لا يتزوجها؟ هكذا يمكن أن يعيش معنا بشكل مُعلن دون خوف من ألسنة السوء. وإن شئتما الحقيقة، كنت أودّ اقتسامه مع أختي.

قَبِل جبريل الفكرة. تمَّ الزفاف. انتقل إلى منزلنا. بدت أختي غير سعيدة منذ الأسبوع الأول للزواج. منحها جبريل عزاءً باردًا. لم يكن يشعر بأي ميل نحو النساء. ولا حتى شرارة ضئيلة. هنا يكمن السبب الرئيسي لهذه المأساة. اتخذت أختي عشيقًا، ونعمت أنا وجبريل بسعادة كبيرة.

كنا نعيش لأنفسنا، كانت أنانيتنا تتزايد كل ساعة بدل أن تنحسر. لم يكن هناك شيء يهمّنا. قد تضع الخماسين الرمال فوق رأسينا! قد تجفّ حلوقنا! قد تطارد النجوم بعضها بعضا في سماء الليل! أختي تجلس صابرة في الشباك تنتظر الرسالة التالية من حبيبها. يأتي الخريف ويذهب. يتبعه شتاء مطير. لم نشعر أبدًا ببرد الليل. لم يعكّر صفونا نباح الكلاب. كان يعرف كيف يحب، وعلمني فضائل الخضوع والامتثال.

يعلم الله كيف اضطرب قلبي عندما أرسل القاضي الرحيم، متَّعه الله بالصحة، في طلبي، والباقي أنتما تعرفانه.

رأسي أضعه تحت قدميك يا سيد الراحمين، افعل به ما تشاء. عقابك أنا به راضٍ. ولكن أستحلفك بالله أن ترفع الذلَّ عن أختي. لقد عانت الكثير جرّاء خطيئتي".

أطرق السلطان محدّقا في الأرض. بدا عليه التأثر، بقدر الحب الذي وصفه الشيخ. أما أنا والقاضي فكنا ننظر كلانا للآخر. كيف سيفصل في هذه القضية؟ هل يطلب أن يرى جبريل ويجعله خادمًا في القصر؟

"هناك شيء واضح بالنسبة لي أيها السيد البخاري. أختك لا تستحق العقاب. القاضي سوف يتأكّد من الإفراج عنها اليوم. كما سيتأكّد من أن الرجل الذي تحبّه سوف يتزوّجها أمام الله وعلى بركته. أما بالنسبة لك أنت وجبريل فالمسألة أكثر تعقيدًا. لعلك باعتبارك رجل دين يمكن أن تساعدني. هل هناك بين الأحاديث ما يمكن أن يفيدنا في الفصل في قضيتك؟ أنا نفسي درست معظم الأحاديث، ولا أعتقد أن هناك سوابق في هذا الشأن.

وبينما تفكر في طلبي، وتستفتي غيري من العلماء، أعتقد أن الوقت قد حان لكي توفّي

أسرة جبريل بوعدها له، فترسله في رحلة إلى مسقط رأسه ليرى شقيقاته. وليكن ذلك غيابًا طويلا. هل ما أقصده واضح؟"

كان شيخنا الملتحي قد جاء إلى القصر عاقدًا العزم على إنقاذ أخته من الرجم. وتوقّع أن يُضحّي برأسه، وربما برأس عشيقه الشاب كذلك. انثالت دموع العرفان على وجنتيه شلالا لتغرق لحيته عندما أدرك أن السلطان قد عفا عنه. انحنى يقبّل قدمي صلاح الدين.

بعد انصراف الشيخ وهو مطمئن غاية الاطمئنان، لم ينطق أحد. جاء وقت الغداء ونهضتُ مستأذنا. واندهشت عندما أمرني السلطان بالبقاء لتناول الغداء معهما.

خرجنا من القاعة شبه المظلمة ليستقبلنا الأفضل أكبر أبناء السلطان. تقدم مندفعا يحتضن والده، قبل أن ينحني للفاضل ولي. بدا صلاح الدين متجهّم الوجه.

"لماذا لم تخرج اليوم لركوب الخيل؟"

"كنت نائمًا، والآخرون خرجوا دوني".

"ليست تلك هي القصة التي سمعت. قيل لي أنك أطلقت على شادي وعثمان سيلا من الشتائم عندما جاءا لإيقاظك. صحيح أم لا؟"

ضحك الفاضل.

"صحيح وغير صحيح. عثمان حاول إيقاظي بصبّ ماء بارد على رأسي، بينما وقف شادي وراءه مبتسمًا. في ظروف كهذه يا أبي من الصعب أن أُمسك لساني، أو أن أذهب معهما لركوب الخيل".

لمعت عينا الصبي اليقظتان بمكر.. نظر الأفضل في عيني والده مباشرة يستكشف رد الفعل. ابتسم صلاح الدين ومسّد رأس ابنه.

"هذا المساء ستأتي معي إلى القلعة".

"متى ستنتهي يا أبي؟"

"بعد أن أموت وتجلس مكاني إن شاء الله، سوف تحتفل باستكمالها. أتفهم؟"

اكفهرّ وجه الصبي. أمسك بيد والده وأومأ برأسه. احتضنه السلطان ووجّهه إلى

خارج القاعة.

لا يمكن وصف الطعام الذي وُضع أمامنا بالوليمة بأي حال من الأحوال. كان الناس يمتدحون تقشّف ذوق السلطان مقارنة بالخلفاء في بغداد، أو حتى مقارنة بحكام القاهرة السابقين. ولكن هذا الإعجاب لم يكن عامًا. فقد كان أهل المنزل، وبخاصة شقيقه العادل، يتهكّمون على بساطته، ولا يشاركونه الطعام في معظم الأحيان. كان يأكل مرة واحدة في اليوم، مرة واحدة في المساء.

قدّموا لنا بعض خبز القمح وحساء الفاصوليا وطبقًا به خيار وبصل وثوم وجنزبيل، ولا شيء أكثر من ذلك. القاضي يعاني من عسر هضم مزمن، ولم يكن مسموحا له بتناول الفاصوليا حسب تعليمات ابن ميمون. حتى لا تتفاقم مشكلته. وبينما أكلت أنا والسلطان بشهية، كسر القاضي لقمة وقضم خيارة وشرب كوبًا من عصير التمر الهندي.

بدا القاضي مستاءً إلى حد ما ونحن نأكل. سأله السلطان ما إذا كان عدم تنوّع الطعام هو السبب.

"السلطان يعرف أنني ألتزم بتعليمات ابن ميمون الطبية، لقد وضع لي نظامًا غذائيًا صارمًا يرغمني على تقليل كمية ما أتناول من طعام. لا! ليس الطعام هو السبب، إنما كرم سموك الزائد".

لم يكن القاضي سعيدًا بالعفو عن السيد البخاري. شعر بأن العفو يترك سابقة سيئة. استمع السلطان صامتًا إلى شكواه. نُظفت الطاولة، ووُضِعَ أمامنا طبق فاكهة كبير. لم يكن السلطان قد ردّ ولا تكلّم منّا أحد. شعر القاضي بثقل الصمت فانحنى وانصرف. لحظة خروجه من الغرفة انفجر صلاح الدين ضاحكًا.

"أفهم حيله كلها. ما يقلقه ليس مسألة البخاري، بل الحقيقة أنه سعيد بقرارنا. هل تعرف يا ابن يعقوب أن القاضي الفاضل كان عادة ما يحضر دروس البخاري؟ كان قريبًا منه. ولكن إذا تذمّر الناس لأن الشيخ قد تُرِكَ هكذا ببساطة، فسوف يتنهّد القاضي ويوافق من يتحدثون معه قائلا: إن المشكلة هي السلطان. أحيانا يكون طيب القلب أكثر من اللازم، كما أنه سوف يصرّ على أن نتعامل بحزم من الآن فصاعدًا لتأكيد سلطتنا.

والآن، خبّرني يا ابن يعقوب، ولتقل الصدق، هل كان ما تناولناه الآن من طعام

كافيًا، أم كنت تفضّل أن تنافس شادي في التهام فخذ خروف؟ الصدق.. يا ابن يعقوب".

قررت أن أكذب.

"أكثر من كافٍ يا أمير الكرم والجود. كأنها وجبة أعدّها ابن ميمون بنفسه! الوظيفة الوحيدة للطعام في نظره هي أن يحفظ علينا صحتنا العقلية والجسدية. عندما يشاركنا الطعام لا تقدّم زوجتي اللحم أبدًا".

ابتسم صلاح الدين.

(9)

●حكاية الفتى صلاح الدين، وسُكْره في الحانة عندما تخلّت عنه حبيبته من أجل رجل أكبر منه سنًا ● عمّه شيركوه يصطحبه في مهمة قصيرة لفتح مصر ترويحًا عنه ● صلاح الدين يصبح الوزير في بلاط الخليفة الفاطمي

أتصدّق يا ابن يعقوب؟ ما كنت أريد أن أترك دمشق! فقد نشأتُ على حب تلك المدينة. عرفت كل شارع وكل حي، بمفردي طيلة الوقت وبصحبة أخي أحيانًا على الرغم من تحذيرات والدي. اشترينا ثياب باعة جائلين، وكان ذلك التنكّر الساذج درعنا ضد القتلة المتوقّعين. هكذا كنت أجول في المدينة وقتما أشاء.

في ليالي الصيف، والقمر بدر فوق قبّة المسجد الأموي، كنت أشاهد عمّالا حفاة يحملون "الطابوق" على الألواح الخشبية فوق رءوسهم. لا بدَّ وأنهم كانوا يقومون ببناء منزل من خمسة طوابق لأحد التجّار. كنت أحبّ إلقاء الأحجار في مصارف المياه القديمة خارج أسوار دمشق. رأيت النساء ذوات الأعين الصافية مثل ماء البحر تُباع وتُشترى في السوق بحقائب من الدنانير. القاهرة في قلبي، ولكن دمشق، دون شكّ، هي قلب عالمنا. أصبحت مخاوفها مخاوفي وهمومها همومي.

حتى الآن، ما زالت بعلبك هي موطني المفضّل، ولكنها تبدّلت. ولعلّك تعرف السبب، أليس كذلك أيها الكاتب الطيّب؟ لقد حكى لك شادي حكاية حبّي الأول. تبدو محرجًا. فضّلت أن يحكيها هو بدلا مني، فذاكرتي أصبحت غائمة. ما أتذكّره جيدا هو يوم أن تَرَكَتْني. لا لأنها فارقتني، وإنّما لأن شيئا أكثر أهمية من حياتنا التافهة كان يجري خارج المدينة.

كانت تكبرني بعشر سنوات، تقريبًا، أو أكثر. غمرتني بالسعادة وعلّمتني كيف أستمتع بجسد امرأة. ذات يوم تواعدنا أن نلتقي بعد شروق الشمس، إلا أنني عندما ركبت حصاني إلى الغابة بجوار النهر، لم أجدها هناك. انتظرت وانتظرت. لم يكن هناك أثر لها. كنت على وشك الانصراف عندما جاءت لاهثة ووجهها منتفخ من البكاء. أدركت أن ذلك اللحن الرومانسي قد انتهى. قبّلت وجنتي، ثم عيني. لقد وجدتْ رجلا يقاربها في العمر. وكنت أبدو صغيرًا بالقياس إليه.

من الطبيعي أن أشعر بالاستياء، ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل كي أسكن ألمي؟ لم أستطع البوح بسرّي لأحد. وكنت أظن، في عالم الأحلام الذي كنت أعيشه آنذاك، أن لا أحد يعرف سرّي. كان سرّنا الخاص.

وهكذا ركبت حصاني عائدا إلى دمشق يتملّكني شعور بالغضب والغيرة. بكيت بدموع الغضب والحزن. كنت شارد الذهن مشغول البال، ولا أشعر بأي شيء آخر. ذهبت إلى المنزل وبدّلتُ ثيابي وأيقظتُ أخي. ذهبنا إلى الحانة الوحيدة في المدينة التي تفتح أبوابها قبل الغداء. كان يديرها بعض الأرمن في الحي المسيحي. لم يسألوا أي أسئلة، بل إنهم قدّموا لنا أفضل نبيذ في دمشق. لم يكن من ذلك النوع الذي يستورده التجار من بلاد الإفرنج. لكنه كان مأخوذًا من عنب الطائف الممزوج بكَرم مكة، غرس مرتفعاتها الجبلية. يُقال إن نبيذ الطائف قوي. يجعل القزم ماردًا.

عندما دخلت أنا والعادل كانت الحانة خالية تقريبًا. لم يكن هناك سوى نفر قليل من الخصيان، جاءوا ليستريحوا بعد ليلة صعبة في مكان ما بالمدينة، وكانوا ثملين فلم يشغلوا أنفسهم بنا.

بدأنا نحتسي النبيذ الذي حرّمه القرآن. لاحظ العادل حزني، لكنه لم يجرؤ أن يسأل عن السبب. كان يختلس نظرات سريعة يربّت بعدها ذراعي كأنه يواسيني. كان يعرف. فطرته أخبرته عن حالي. لأنّه، كما سمعت، يغشى مواخير الذكور، وقلبه معلّق بعازف ناي شاب. أقصد أنه كان يستطيع أن يشعر بمأساتي، لكنه لم يكن يعرف السبب الحقيقي لحزني.

سرعان ما فعل النبيذ فعله. بدأ شكل النادلة يتبدّل أمام عيني. أغزال أرى أم ماذا؟ لم أعد أشعر بما يدور من حولي.

أخذنا نرتجل أغنيات عن نساء خائنات وانتقام عشاقهن واستياء القاضي. كنا نأكل

دون أن نعرف ماذا نأكل. واصلنا الغناء وانضم إلينا الخصيان هذه المرة. لا أتذكّر كم من الوقت بقينا هناك، إلا أنني أستطيع أن أتذكّر شادي، ملاكي الحارس، وهو يهزّني بقوة من ذراعي ليوقظني. لو أنني أغمضت عيني الآن، سأجدني ما زلت أرى وجهه المضطرب وأسمعه يهمس: "يوسف صلاح الدين.. يوسف صلاح الدين.. لقد حان وقت العودة إلى المنزل".

ما زالت هذه الذكرى تجعلني أرتعد خجلا. أتعرف لماذا يا ابن يعقوب؟ لأن نور الدين سلطان حلب العظيم، الابن الأكبر للفارس المقتول زنكي، كان يومئذ على أبواب دمشق يريد أن يستولي على المدينة، يرافقه عمي شيركوه. وكان أبى أيوب بالداخل يقود جيوش أعدائه حكام دمشق.

وكان عمي قد أرسل رسولا سرًا قبل أسبوعين كي ينبّه أبي. كلا الرجلين كان يعرف أنهما لن يحاربا بعضهما بعضًا. وكل ما كان يشغل بال أبي، كالعادة، هو تجنّب إراقة الدماء. فتفاوض على تسوية يقبلها حاكم دمشق، وأفلتنا من حمامات الدم. تسلّم نور الدين المدينة دون أن ينازعه أحد. كل ذلك كان يجري وأنا غارق في سُكري أجترّ أحزاني.

رجعت في الوقت المناسب لأرى شيركوه يعانق أبي على أسوار القلعة. ظننت، في البداية، أنهما طيفان، ولكن عمي حملني من على الأرض ليحتضنني بقوة، لدرجة أن بطني آلمتني بشدة. شعرت بغثيان. خذلني نبيذ الطائف فتقيّأت على قدميه. كل ما أتذكّره هو نظرة الهلع على وجه أبي وقهقهة شادي.

كان نور الدين أولّ حاكم يمتلك خطة لتوحيد المسلمين وطرد الفرنج. وكان يؤمن بأنه ما لم يكن هناك خليفة واحد يكون مصدرًا للسلطات كلها، فسوف يظل الفرنج يلعبون على ضعفنا وعلى ما بيننا من خصومات. كان نور الدين مختلفًا تمام الاختلاف عن والده الشهير زنكي. فبينما كان زنكي يترك لفطرته أن تقوده، كان ابنه يستشير قادته وأمراءه. يدرس كل التفاصيل.. والخرائط التي تُعد له خصيصا قبل أن يتوصّل إلى قرار. وعلى خلاف أبيه، لم يترك قطرة نبيذ واحدة تلوّث شفتيه.

عقد نور الدين العزم على الاستيلاء على مملكة أورشليم، ولكي يحقق هذا الهدف كان في حاجة إلى مصر قوية يمكن الاعتماد عليها، يكون حاكمها قويًا بما يكفي للتصدي لمحاولات الفرنج الاستيلاء على القاهرة. كانت مصر لديها ثروة عظيمة وحكام

ضعاف. عروس جميلة في انتظار عريس.

أتذكّر أن السلطان كثيرًا ما كان يسأل عمي شيركوه "هل هناك أخبار من مصر؟" وكان شيركوه يهزّ رأسه وعلى وجهه تعبير غريب: "لا تتوقع أخبارًا طيّبة من هناك يا سيدي. خليفتهم العاضد، ذلك المدَّعي، أدمن البانجو والمواخير، وتحيط به أمهات وجدّات يتآمرن ويكدن لبعضهن بعضا طوال الوقت. الوزير هو الذي يحكم.. وفي الغالب يخلفه من يقتله".

وذات يوم جاءت أخبار من مصر. كنا في صيف العام 1163م عندما حدث اهتياج كبير في القصر. أُعلن أن الوزير شاور، الذي كان قد أُزيح قبل وقت قصير، هرب هو وزوجته إلى دمشق. بعد أيام قليلة، جاء رسول رسمي من القاهرة يحمل رسالة من الوزير الجديد ضرغام. جاء الرسول حاملا صندوقًا كبيرًا من العاج المرصّع بالجواهر، به قطع من الألماس الذي لا تقع عيناك على ما هو أجمل منه في مدينتنا.

ابتسم نور الدين وأعطى الصندوق لمساعده، مع تعليمات بأن يُودِعَه خزانة الدولة. عرضت الرسالة المرفقة مغريّات أخرى، وناشدت سلطان دمشق أن يقوم بتسليم شاور. استدعى نور الدين أبي وعمي للتشاور. "أظن أن الوقت قد حان للاستيلاء على مصر. لا يمكن أن نتخيّل دولة يناشدنا حكامها -وليس وزيرا مخلوعا- أن نساندهم؟ قد يقدّمون نفس العرض للفرنج. لابدَّ من الوصول إلى القاهرة والإسكندرية قبل العدو. شيركوه.. سوف تقود جنودنا بشجاعة أسد جبل".

عامِل شاور كما يتعامل مسافر مع تمرة كثيرة العصارة في مسيرة طويلة في الصحراء. بمجرد أن تنتهي منه، الفظه كما تُلفظ النواة. لا تتأخّر. لقد وعدنا بثلث قمح القاهرة. اربطه من لسانه. قيّده بوعده".

صمّم شيركوه أن يأخذني معه. كنت مترددًا. ليس لأنني كنت أكره فكرة القتال. الحقيقة أنني كنت قد نشأت واعتدت على لقاء مجموعة من الأصدقاء معظم الأمسيات. كنا نتكلم في أفكار هرطقية وننشد الأشعار. وفي بعض الليالي أذهب سرًا إلى مكان بالقرب من الحمامات العامة أختلس النظر، وعمل ما هو أكثر من ذلك قليلا مع امرأة شابة ليس في وسعى أن أتزوّجها.

ضايقتني نوعًا ما موافقة أبي المتحمّسة على طلب عمي. لم يكن هناك وقت للوادع. ولم أكن أغيب عن ناظري شادي لحظة واحدة. أخذنا طريقنا إلى القاهرة خلال ثلاثة

أيام من اتخاذ القرار. كان أبي وشيركوه يكملان بعضهما. أسد الجبل لا يُقهر، لكنه متهوّر قليل الحذر. أما أبي فماكر ولكنه يقظ دائمًا. يجيد تنظيم الإمداد بالمؤن. بفضله يفي صانعو السيوف والخيام باحتياجات شيركوه. كان يتأكّد من وجود كل ما يلزم الحملة.

وهكذا بدأت الرحلة التي انتهت أخيرًا في هذا القصر. لو أن شخصًا ما كان يمزح في ذلك الوقت ويقول إنني سأكون السلطان ذات يوم، لظلّ عمي وشادي يضحكان طوال الطريق إلى مصر.

لا أحد يستطيع التحكّم في مصيره يا ابن يعقوب. الله يوجّهنا وجهة معينة، وشجاعة ومهارة قادتنا يمكن أن تغيّر مسار معركة، لكن الكثير في آخر الأمر يتوقّف على الأقدار. من يعيش ومن ينجو في ميدان القتال، المسار الذي سيمضي عليه القتال هو الذي يقرّر مصيرنا، إلى حد كبير. هذه الحقيقة الأولية تعلّمتها في أثناء حملتي الأولى.

سرنا خمسة وعشرين يومًا متخذين طريق الوادي القديم إلى العقبة على البحر الأحمر، وهناك وقفنا أطول وقفة قبل التقدّم نحو القاهرة.

ليس أمرًا سهلا يا ابن يعقوب أن تسير بأكثر من تسعة آلاف رجل، ومثلهم من الخيول والجمال من دمشق إلى القاهرة، وتجنّبهم مفارز الفرنج التي تقوم بالسلب والنهب. كان بالإمكان أن نهزمهم، ولكن ذلك كان من شأنه أن يشغلنا ويؤخّر مهمتنا.

يعرف أدلّتنا من البدو كل الطرق والمدقّات عبر الصحراء. يضمّ جيشنا خمسة عشر دليلا. ليسوا في حاجة إلى خرائط في أيديهم ولا إلى نجوم في السماء لكي ترشدهم. يعرفون موقع كل واحة.. حتى أصغر بئر ماء، وبغير ذلك مستحيل أن نعيد مَلْء قِرَب الماء. الجنود كلهم يخشون العطش أكثر مما يخشون العدو وهم محقّون في ذلك. ربما يكون مضجرًا الآن أن أستدعي أو أن أصف لك كل التفاصيل، ولكن في أثناء تلك المسيرات يكتشف القادة الجيّدون حقائق كثيرة عن الرجال الذين يقاتلون معهم. الرجال أيضا يتعلّمون أشياء كثيرة، ويكتشفون حتى طريقة التعرف على أمزجة خيولهم.

علّمني شادي كيف أعنى بالخيل. إلى اليوم، يمكنه أن يعرف متى يمكن أن يشعر الحصان بالدوار ويرى العالم يدور أمام عينيه الغائمتين على نحو غريب. تخيّل لو أن ذلك حدث وسط المعركة! علّمني شادي، كذلك، كيف أُقطر حليبًا حلوًا ومدرارًا من حلمتين دافئتين لمُهرة.

في الليل، نوقد نارًا ونجلس حولها نغني، كي نرفع من روحنا المعنويّة. ومع أني كنت أنام في خيمة مثل معظم الرجال، إلا أنني كنت أحسد الأدلاء البدو والجنود الذين كانوا تحت إمرتهم وهم يغطون أنفسهم بالبطاطين، وينامون على الرمال، ويشربون نبيذ البلح من زمزميات مصنوعة من جلد الجمال، ويروون لبعضهم الحكايات عن الصحراء قبل انتصارات نبيّنا. كانوا ينامون وضوء القمر يسطع على جباهم.

سرنا خمسة عشر يومًا قبل أن نصل إلى مقصدنا. انتظرنا أنصار الوزير القاهري ضرغام عند تلّ بسطة التي تبعد مسيرة نصف يوم عن بلبيس. وحرص عمي شيركوه المحنّك على ألا يفقد أيًا من رجاله دون سبب يستحق. قال ل "شاور" حيث إن ذلك شأن مصري، فلا بدّ، باعتباره المدعي، أن يتولّى هو وأتباعه المعركة، أما هو –شيركوه- فلن يتدخّل إلا عند الضرورة. انتصر شاور. وعزل الخليفة في القاهرة ضرغام. دخل شاور المدينة من باب زويلة وعاد وزيرًا. حينذاك فقط، بدأ يتحقق ما توقعه نور الدين بذكائه وحنكته.

بمجرد أن أصبح في السلطة، بدأ القلق من وجودنا يستبدّ بشاور. كان من الأفضل لو أنه نفّذ ما كان يجب عليه بموجب الصفقة. ساعتها سيكون من الصعب على نور الدين ألا يستدعينا إلى دمشق. لكن شاور، الأحمق المغرور كطاووس، تصوّر بدلا من ذلك أنه يمكن أن يتحالف مع الفرنج لهزيمتنا. بعث برسالة إلى أمالريك ملك أورشليم، وهو رجل تورّط، قبل ذلك، في مكائد مع المنكود ضرغام. وأخذ في الوقت نفسه يختلق الكثير من الأعذار كي لا تدخل قواتنا القاهرة. واشتعل شيركوه، الذي كان ينتظر في الفسطاط على أحرّ من الجمر، غيظًا. كان يميل إلى تجاهل حنكة الحرب فيُغير على المدينة ويأسر شاور. لكن الاحتياجات المادية والإدارية لعملية كتلك، كانت كبيرة.. وعليه يمكن أن تكون خسائرنا كبيرة كذلك. قادته لم يوافقوا على تلك المغامرة، نظر إليَّ في قنوط وسألني: "وأنت، ما رأيك يا صلاح الدين؟"

كنت ممزّقا بين الولاء العائلي وحسن التصرف. فكرت جيدا، وفي النهاية كنت ضده. اندهشت لمّا تقبّل رأيي دون أن تشتعل سورة غضبه، بل لعلّ تعقلي راق له. وبينما نحن نتحدث جاء رسول بأخبار عن قوة إفرنجية بقيادة أمالريك تتقدّم نحو بلبيس.

أدرك ملك الفرنج، بالضبط مثلما أدرك نور الدين، أنه إن لم يستولِ على مصر، فقد نستولي نحن عليها، وبذلك تكون نهاية مملكته في أورشليم. ولم يكن الفرنج يخشون من بين كل سلاطيننا وأمرائنا أحدًا مثلما يخشون نور الدين. وكانوا على صواب. فقد كان

نور الدين عازمًا كل العزم على طرد الفرنج من أراضينا. وأشعرته الغيرة والحميّة التي تضطرم بين جوانحه أن الاحتلال إهانة شخصية له.

لم يف شاور بوعده حسب الصفقة التي عقدها معنا. أمرني شيركوه بأن آخذ نصف قواتنا وأحتل بلبيس. فعلت كما أُمرت. لجأ شاور إلى أمالريك كي يساعده، ولحق بي شيركوه مع بقية الجيش. ثلاثة أشهر كاملة يا ابن يعقوب ونحن نمنع الفرنج من دخول بلبيس.

ثلاثة أشهر كاملة في بلبيس. لم يكن ذلك تصوّري عن الحياة السعيدة. بعد أن أدرك نور الدين أننا لن نستطيع أن نقاوم أكثر من ذلك، فاجأ الفرنج وواجههم خارج قلعة حارم بالقرب من أنطاكية. كان انتصارًا كبيرًا. سحقنا الفرنج الذين فقدوا قرابة عشرة آلاف رجل. وقع بولدوين صاحب أنطاكية وكونت طرابلس أسرى في أيدينا. أخبار هزيمتهم أخافت أمالريك فجنح للسلم. حافظنا على كرامتنا. قادنا أسد الجبل عائدين منتصرين إلى دمشق.

لم أكن أعرف معنى الحرب قبل ذلك. بعد أن رأيت شيركوه يقود الجيش تعلّمت أشياء كثيرة، ولكنني كنت مرهقا. أمضيت معظم أيام الأسبوع الأول لعودتي في الحمّامات، أتحمّم بالزيت. وفي المساء شعر ونبيذ في الحانة. ثم حدث شيء غريب بعد ذلك يا ابن يعقوب. أصبحت قلقًا. عدم وجود هدف لوجودي اليومي بدأ ينغّص حياتي. أصبحت أتوق لساحات القتال. لقد رأيت الفرنج وجهًا لوجه، والآن تعود إليَّ فجأة كل قصص الطفولة التي سمعتها منذ أن غزوا أراضينا واحتلّوها. كيف حطمتنا الأقدار كأننا قطع من زجاج؟ بُعثرنا كالشظايا المنثورة!

تذكّرت صوت شادي يهمس خائفا "أتدرون ماذا فعل الفرنج في المعرّة يا أبناء أيوب؟ لقد أمسكوا بالمؤمنين ووضعوهم في أواني الطبخ المملوءة بالماء المغلي. قاموا بشي الأطفال الصغار على السفود وأكلوهم. إنهم الوحوش المفترسة التي التهمت بلادنا".

أقول لك الحقيقة؟ لم أصدّق شادي. ظننت أنه كان يقول ذلك كي يخيفنا، فلا نضيع أي درس من دروس الفروسية. ولكنها الحقيقة. الحقيقة الحقّة التي لم يزيفها أي ادّعاء. لقد قرأت مؤلفات مؤرّخي الكفّار. ولا بدَّ أنك تعرفها أنت أيضًا. أليس كذلك؟

عظيم! إذن أنت تفهم قوة الغضب الذي كان يملأ صدري عندما رأيت الفرنج لأول

مرة في مصر. هذا الغضب لم يخفّف منه تدليك جسمي بالزيت.. ولا نبيذ الطائف.. ولا النساء. كنت أشعر أن ذلك كله لا يعدو شيئا، مقارنة بما ينتظرني من مهام.

قبل أن يستولي نور الدين على دمشق، لم يكن هناك سلطان يشعر بالضرورة الملحّة لطرد الفرنج واستعادة قبة الصخرة وهيكل سليمان لأهل الكتاب. قبل نور الدين كان أمراؤنا وسلاطيننا سعداء بمسالمة العدو -وكما يقولون يا ابن يعقوب- "اليد التي لا تستطيع أن تقطعها قَبِّلها.. وادع الله أن يقطعها". لكن ذلك لم يكن سلوك نبينا. ألم يقل "اعقلها وتوكّل"؟

... ...

... ...

انفجر السلطان ضاحكًا فرحًا بنفسه. من الطبيعي أن أكون قد رأيته يضحك قبل ذلك، وإن على نحو متحفظ وبما يليق بأمير. الآن كان يضحك على سجيته. قول النبي الذي بدا مثيرًا بالنسبة لي جعله يضحك ويضحك. انثالت الدموع على وجهه. عندما عاد إلى نفسه ومسح دموعه من على وجهه ولحيته، بدأ يوضّح ما يقول:

"تبدو مندهشًا أيها الكاتب. فكرت فيما يكون قد جعل النبي يقول ذلك، وبرقت في ذهني صورة لأولئك المؤمنين الأوائل الذين كانوا قد اجتمعوا للصلاة. تركوا جِمالهم في الخارج، ثقة في قدرة الله، ليكتشفوا بعد ذلك أنها سُرقت. حادث كهذا لم يكن ليقوّي إيمانهم بالله. أليس كذلك أيها الكاتب؟

يكفينا هذا اليوم! لا بدَّ أن أناقش مشكلة التأخّر في دفع الضرائب مع القاضي الفاضل، إنه يعتبرها كارثة تُهدّد البلاد".

رجوته أن يعطيني ساعة واحدة أخرى، "الخط الذي تسير فيه رواية السلطان يبدو اليوم مستقيمًا وواضحًا، أخشى أننا إذا توقّفنا يا سيدي الآن، قد لا نعود إلى هذا الجزء مرة أخرى. ألا يمكن أن نكمل حتى سقوط شاور وعودتك إلى القاهرة؟"

تنهّد صلاح الدين وعبرت جبينه تقطيبة. ثم أومأ برأسه واستمرّ، ولكن ليس بنفس الاسترخاء المعتاد. بدأ يتحدث بسرعة، وكان لا بدَّ من أن تسرع أصابعي كي تلاحقه.

أمر كهذا يحتاج، في العادة، إلى خمسة كتبة لكي يدوّنوا كلمات السلطان، وبعد أن

ينتهي يقارنون بين ما كتبوه، ثم يستقرّون على صيغة واحدة. وحدي كنت أقوم بكل هذا.

... ...

... ...

لم ينس شيركوه خيانة شاور قط. كان يردّد "هذا الشاور ناكح الماعز استخدمنا ليصل إلى السلطة، واستخدم الفرنج لكي يحيّدنا".

وذات يوم قال نور الدين وهو يخاطب مجلس الحرب لقد حان الوقت كي يعود شيركوه وصلاح الدين إلى مصر. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يذكر فيها اسمي في حضور جميع الأمراء. انتفخ صدري زهوًا. سُرَّ أبي سرورًا عظيمًا، رغم حرصه على كتمان انفعالاته كالمعتاد. انحنى شيركوه صادعًا بما أُمر.

وهكذا بدأت مغامرتنا الكبرى. أبلغتنا عيوننا أن شاور عقد صفقة مع أمالريك ضدنا. ذلك هو حال عالمنا يا صديقي! مؤمنون يتحالفون مع كفار ضد مؤمنين. جمع شاور وأمالريك قواتهما وكانوا في انتظارنا خارج القاهرة.

كان شيركوه، الذي علّمني كل ما أعرف عن الحرب، قائدًا بارعًا. رفض أن يقاتل على الأرض التي اختاروها. وبدل ذلك عبرنا النيل. سرنا في اتجاه الشمال من القاهرة، وضربنا خيامنا بالقرب من أهرام الجيزة، والنهر العظيم يفصل بيننا وبينهم.

من هذا الموقع بعث شيركوه برسالة إلى شاور. كأنني أراه أمامي الآن. كان يزأر مثل الأسد وهو يقرأ الرسالة على الجنود أولا.

"أعداؤنا الفرنج تحت رحمتنا. إنهم مقطوعون عن قواعدهم. فلنوحّد قواتنا لنقضي عليهم. لقد حان الوقت، وربما لا تلوح لنا مثل هذه الفرصة مرة أخرى قبل وقت طويل".

زأر رجالنا استحسانا وموافقة. وترددت صحية «الله أكبر» عالية مرات ومرات، أو هكذا بدا لي ذلك اليوم. صيحة مدوّية، فكأن الأهرام اهتزّت من فرط دويها. وودّ كل جندي أن يكون رسول شيركوه إلى شاور. كل الأعين كانت تتطلع. فمن منهم يختاره شيركوه؟

وقع اختياره على حارسه الشخصي ناصر، وهو رامٍ كردي شاب، عيناه الحادتان

أنقذتا حياة شيركوه مرات ومرات.

تسلّم شاور الرسالة وعرضها من فوره على حليفه أمالريك. ولكي يبرهن على ولائه للفرنج، أعدم ناصر، وأعاد رأسه إلى شيركوه غارقا في الروث. لا أعتقد أنني رأيت عمي غاضبًا مثلما رأيته ذلك اليوم. وبينا كانت الشمس تميل إلى الغروب والجنود يتوضؤون لصلاة المغرب. قطع عليهم شيركوه وضوءهم. كان عاريًا إلا من قطعة قماش تستر عورته. خطف رأس ناصر وأخذ يجري بها كالمجنون يُريها للكل. كان ناصر محبوبًا. فبكته الأعين بدمعٍ غزير فاضت به مياه النيل ذلك المساء.

هزّت الصيحات المدوية المعسكر وهو ما زال ممسكا برأس ناصر. امتطى شيركوه حصانه. وبينا كان آخر شعاع للشمس يصبغ شعره صاح غاضبًا: "قسما برأس هذا الشاب الذي جاء مثلي من الجبال لأطيحنّ برأس شاور. لن يحمي حياته أحد. لا الفرنج ولا الخصيان ولا خليفته. أقسم أمامكم جميعا، ولتذهب روحي إلى الجحيم إن لم أفعل".

ران صمت مطبق، ونحن نقف مأخوذين بكلماته. مرّ في خواطرنا موت ناصر، وقسوة القدر وفراق الوطن. فكرنا، كذلك، في أنفسنا. لقد أعلن شاور الحرب فمن سيكسبها؟ بينا نفكر في ذلك كلّه انساب صوت ناي حزين في الفضاء، والبدو يرددون رثاءً، تفجّعًا على ناصر، وفاضت مياه النيل مرة أخرى.

بعد أن فرغنا من العشاء تلك الليلة، رأينا عمي شيركوه يذرع الأرض جيئة وذهابا أمام خيمته، كمن أصابه مسّ من الجنون. كنت جالسًا على الرمال أحلم بدمشق وأراقب النجوم. لم أر في حياتي سماء كتلك وأنا أنظر مستلقيا تحت سفح الأهرام. قطع عليَّ رسول شرودى. استدعاني عمي شيركوه.

عندما وصلت كان القادة والأمراء مجتمعين. أشار شيركوه إلى مكانٍ خالٍ. جلست دون أن أحدس ما يجري. أبلغنا شيركوه، وسط دهشة الجميع، أنه لن يواجه شاور وأمالريك خارج القاهرة، ولا حتى هنا، حيث عسكرنا. فكر، بدلا من ذلك، في الاستيلاء على الإسكندرية، المدينة الميناء. شهق الجميع لفرط جسارته وتهوّره. أخذ شيركوه، على ضوء المصابيح، يرسم خطته على الرمل ويعطي تعليمات مفصّلة لكلٍ منا. كان يعرف أن أمالريك يتقدّم كي يطوّقنا ويدمرنا. وأدرك شيركوه أننا لا بدَّ أن نخوض معركة قبل أن نصل إلى الإسكندرية. كُلفت بقيادة الوسط، مع أوامر بالتقهقر لحظة أن يقوم العدو بالهجوم. لم يكن شيركوه، بخلافي، يترك شيئًا للمصادفة. لذا، يا

ابن يعقوب، ما زلت أعتقد أنه كان أعظم قادتنا العسكريين قاطبة. ولستُ، بالقياس إليه، شيئًا مذكورًا.

قابلنا العدو عند قرية البابين، وعندما هَمَّ أمالريك وفرسانه بالهجوم عليَّ، تظاهرت بالخوف، وتقهقرنا. فرد الفرنج راياتهم وقبلوا التحدي. بدأت المطاردة. لم يكونوا يدركون أن الميمنة والميسرة في جيشنا كانتا في وضع يمكنهما من تطويقهم. عند إشارةٍ متفقٍ عليها، أمرت بتوقّف قواتنا واستدرنا لمواجهة الفرسان. سرعان ما اكتشفوا أنهم مكشوفون ومعزولون، ولكن الوقت كان قد فات. لم يتمكّن من الهرب سوى نفر قليل منهم، ومن أسف أن أمالريك كان من بينهم.

لم يسمح لنا شيركوه بالاحتفال بالنصر. وفي ذلك اليوم نفسه بدأ زحفنا شمالا في الاتجاه العام للإسكندرية. كانت المرة الأولى التي أرى فيها البحر. ولو تركوني لجلست هناك بالساعات أستنشق هواءه وأتشرّب جماله. لكن شيركوه اعترض. كنا مرهقين جسديًا وذهنيًا. وخفّف البحر توتّرنا وتعبنا. عادت إليَّ السكينة مرة أخرى. دخلنا الإسكندرية بعد أيام قليلة. استقبلنا أهلها بالزهور والهتاف. فقد أثار تحالف شاور مع الفرنج استياءهم الشديد.

كل ما أتذكّره هو الزهو والاعتداد بالنفس على وجه شيركوه، والدموع في عيني، والفرح لاستقبالنا كمنقذين. ذلك هو كل ما أتذكّره. لم يتكلّم كثيرًا في ذلك اليوم. يعرف أن الوقت ضيق. لكن المدينة خرجت عن بكرة أبيها للترحيب بقدومنا. ولا بدَّ أن يرسل إليها رسالة ودّ وأمل. بدا وجهه مجهدًا. لم ينم منذ ليلتين. كان يكفيه سِنة من النوم وهو على حصانه. ومشهد الناس أيقظه. وقف على سور خارج القلعة. صمت الحشد وتكلّم شيركوه:

"عندما أنظر إليكم أرى النجوم فوق جباهكم، ما أفعله وما نفعله جميعا يستطيع كل واحد أن يقوم به. عندما يفهم شعبنا هذه الحقيقة اليسيرة سينتهي الفرنج. أتحدّث إليكم كلكم وليس إلى المؤمنين فقط. كلكم تحت رعايتي، وسوف نحميكم، ولكن الفرنج في الطريق بالفعل. لنحتفل، ولكن لنستعد أيضا".

كان ذلك هو عمي الذي تحدَّث بتلك الكلمات القليلة ذات المغزى الكبير. غلبتني مشاعري، عندما نزل عانقته وقبّلت وجنتيه. همس في أذني بكلمات طيبة. قال إنه يتقدّم في العمر وسرعان ما سيأتي عليَّ الدور كي أقاتل مكانه. قال إنه فخور بما أبليت في

القتال. لا أعرف ماذا كان يمكن أن يقول أكثر من ذلك، لولا أن جاءت الرُسل بأخبار عن الفرنج.

اضطرب شاور وأمالريك من السرعة التي انتقلنا بها من الجنوب إلى الشمال، وكانا يحشدان جيشًا جرّارًا لسحقنا. الآن يفتقد شيركوه وجود أبي. كان في حاجة إلى من يُخطط للدفاع عن المدينة، ويتّخذ التدابير لمواجهة حصار الفرنج، وتأمين الطعام وتوزيعه، ويتأكّد من وجود قاذفات اللهب في مواقعها من الميناء ليمنع سفن الفرنج من إنزال الفرسان خلف خطوطنا. كُلِّفت أنا، لغياب أبي، بكل تلك المهام.

وكما تقول يا ابن يعقوب، فقد دخل هذا الحصار التاريخ. ليس لديَّ ما أضيفه سوى أن أعترف لك بأنني كنت مستعدًّا للموت. زايلني الخوف ولم أعد أبالي. طوّقتنا سفن الفرنج من الخلف، وفرسانهم خارج أسوار المدينة، والمنجنيق يطلق النار والأحجار. أردت أن أموت ميتة نبيلة، مثلما كان يتمنّى كل فرد من أفراد جيشنا. لم أكن أريد أن نموت جوعًا أو مرضًا، وقد تفشّت آثارهما في المدينة بعد أن أُصيبت بالشلل. مرة أخرى كان شيركوه هو الذي رفض التفكير في الاستسلام، أو خوض معركة خرقاء نهلك كلنا فيها بسبب تفوّقهم العددي.

لم يكن لجسارة شيركوه نظير. ترك المدينة تحت قيادتي، ثم أخذ مائتين من أفضل مقاتلينا وخرج تحت جنح الليل. انطلقوا عدوا بأقصى سرعة مخترقين صفوف العدو المدهوشة، متّجهين صوب القاهرة. كان شادي معهم، وكان يحكي عن ذهاب شيركوه إلى الفلاحين يتكلّم معهم بلهجة يفهمونها ويحبونها، واصفا شاور وأمالريك بأنهما مثل روث الجمال والخيل، فكانوا يضحكون، وهكذا أقنع الشباب منهم بأن يلتحقوا بجيشه.

بعد أن أقلق الفرنج هذا التطوّر، وافقوا على رفع الحصار، وغادرنا نحن الإسكندرية دون أن نخسر جنديًّا واحدًا. كذلك انسحب الفرنج، أما شيركوه الذي كان يدرك أنهم يفوقوننا عددًا، فقد عاد بنا جميعا إلى دمشق. تنبّأ شيركوه في تقريره الذي قدّمه إلى نور الدين في حضوري، بأن شاور وأمالريك سوف يتقاتلان في غضون عام واحد -وكما قال- فإن ذلك سيكون الوقت المناسب كي نعود.

صدقت توقّعاته، فقد رفض شاور أن يدفع لأمالريك الغنيمة التي وعده بها، وقرر الفرنجي أن يلقّنه درسًا.

وذات يوم وصل رسول من القاهرة. كان جاسوسًا زرعه شيركوه في صفوف

شاور، وشهد المفاوضات بين هذا الأخير وأمالريك، إذ طلب الفرنجي أن يأخذ بلبيس مقابل المساعدة التي كان سيقدّمها لشاور ضدنا.

لكن ابن شاور، الذى أغضبته بجاحة أمالريك، صرخ فيه: وهل تظن بلبيس قطعة جبن تلتهمها؟ وردّ عليه أمالريك: بالضبط! بلبيس جبن والقاهرة زبد.

ولم يسفر غضب شاور وابنه عن مروءة تذكر! فقد أخذ أمالريك بلبيس، فقتل واستعبد أهلها، وأحرقها بكاملها، ثم انطلق للاستيلاء على القاهرة. ولكي يعطل شاور حلفاءه القدامى، قام بإحراق المدينة (الفسطاط) القديمة تمامًا. فرَّ الناس إلى حيث نحن الآن، وسط القاهرة الجديد. ظلت النيران مضطرمة خمسين يومًا كاملا. أراد شاور أن يسترضي أمالريك مرة أخرى، فأغراه بالذهب، وبإطلاق يده في البلاد، ولكنه لم يغيّر رأيه.

عند ذلك أرسل الخليفة العاضد رسولا إلى سلطاننا. استدعاني نور الدين وأخبرني بما كان يدور. فأرسلني إلى حمص لأحضر شيركوه، وعندما رجعنا أمرنا بالعودة إلى القاهرة. كنت مترددا. كنت ما زلت أرى المعاناة على وجوه أهل الإسكندرية. لم أكن أريد أن أشهد حصارًا آخر. فانتحى بي شيركوه جانبًا:

"هل أنت ابن أخي أم ابن كلب؟ وهل تظن أنني أستمتع بالمعاناة؟ هذه المرة سوف نستولي على القاهرة. أريدك معي. اذهب وجهّز خيلك".

فعلت كما أُمِرت. عندما سمع أمالريك بانطلاقنا قرّر الانسحاب، بعد أن أدرك أن أهالي القاهرة سوف يقاومونه على طول الخط، بالرغم من ألاعيب شاور. دخلنا المدينة شتاء العام 1169م. وكما حدث في الإسكندرية قبل عام، رحّبوا بنا، وقدّموا للجياد التي كنت أمتطيها أنا وعمي في طريقنا إلى القاهرة أطيب الطعام. قابلنا شاور في هذه القاعة نفسها التي نجلس فيها. وقف عندما دخلنا، أنا وشيركوه، وتظاهر بالترحيب بنا، ولكن عيناه لم تجرؤان على النظر في عيني عمي. خرَّ على الأرض يقبّل قدمي شيركوه. سألناه ما إذا كان الخليفة في انتظارنا، وأومأ برأسه في صمت بالإيجاب.

قال شيركوه: "خذنا إليه إذن يا ناكح الماعز".

أخذنا إلى قصر الخليفة عبر ممرات مقببة وقاعات كثيرة مزيّنة كلها خالية. كانت هناك طيور إفريقية ملوّنة تصدر أصواتا صاخبة. مررنا عبر حديقة بها أسود صغيرة

مستأنسة، ودب ونمران أسودان صغيران مربوطان في شجرة. لم يبال شيركوه بما رأى. ولكن يصعب القول إنني لم أنبهر. حاولت أن أقلّد عمي وأتظاهر أنا الآخر بعدم الاكتراث. بعدها دخلنا قاعة كبيرة ذات سقف مقبب. كانت القاعة مقسومة بستارة سميكة من الحرير الأحمر الداكن، عليها دوائر من الذهب الخالص، ومجوهرات الواحدة بحجم البيضة.

انحنى شاور أمام الستارة، ووضع سيفه على الأرض. لم نفعل مثله. ارتفعت الستارة ببطء، وظهر العاضد.

هذا الشخص المذعور المثير للشفقة، الذي يبلغ الثامنة عشرة بالكاد، بعينيه الداكنتين تظلّلهما دلائل الإفراط في الترف، يحيط به الخصيان وكل مظاهر البذخ الفاحش. هذا هو إذن الخليفة الفاطمي! هكذا فكّرت بيني وبين نفسي. أمر الخليفة شاور بالانصراف، فانسحب الوزير المهزوم مثل كلب نتن.

لم يُضع شيركوه وقتا: "طلبتَ أن ننقذ القاهرة، وها نحن! قبل أي شيء آخر، أطلب رأس شاور. هو الذي جلب الموت والخراب على شعبنا".

أومأ الخليفة الفاطمي برأسه. تكلّم بصوت مخنوق كأنه مخصي مثل بقية حراسه.

"أهلا وسهلا بكم في القاهرة، ويسرّنا تعيينكم وزيرًا لنا".

انحنى شيركوه قبولا وغادرنا القصر. في اليوم التالي وبإذن مكتوب من خليفتهم، قمت بنفسي بفصل رأس شاور عن كتفيه، وألقيت به تحت قدمي شيركوه. كان قلبي يرتجف ولكن يدايَّ كانتا قويتين. قال بصوت أوهنته ذكرى أفضل رماته: "والآن ثأرنا لناصر".

بعد شهرين من ذلك اليوم، اكفهرت السماء. أصابت عائلتنا مصيبة. مات عمي شيركوه. لم أكن الشخص الوحيد الذي بكى عندما انتشر الخبر بين صفوف الجند. كان شيركوه قائدًا محبوبًا. حتى أمراء دمشق الذين كانوا يسخرون من طريقة كلامه بلغة القرآن من وراء ظهره، غمرهم الحزن. من سيقودنا الآن بعد أن توفّي أسد الجبل؟

في حياتنا، نكون كلنا مستعدين لاستقبال الموت في أي لحظة، ولكن موت شيركوه لم يكن ضروريًا. أودت شهيّته بحياته. دُعي لوليمة فجلس يأكل لمدة ثلاث ساعات متواصلة. وضعوا أمامه كل ما يمكن أن تتخيّله من أطايب الطعام: خروف كامل

مشوي، ماعز وسمّان. وشيركوه يحب الطعام حبًا جمًا. حتى وهو طفل صغير كانت جدتي تمنعه بالقوة عن الأكل. كل هذا تذكّرته وأنا أراقب عاداته وتصرفاته. كان يتباهى بأنه يستطيع أن يأكل ويشرب أكثر من أي رجل آخر في جيشه. لم يكن يستطيع أن يتوقف. يا له من مشهد حزين وبائس. حاول شادي ثلاث مرات أن يوقفه. حذّره همسًا، ولكن عمي كان في عالمه الخاص. اختنق بالطعام. ضربه شادي بقوة على ظهره وجعله يقوم ليقف، ولكن الوقت كان قد فات. فقد الوعى ومات أمام أعيننا. حضنت شادي وبكينا طوال الليل ونحن نحرس جسده الذي غُسّل وكُفن ووضع على سرير بسيط. توافد جنوده، ومعظمهم من قدامى المحاربين الذين قاتلوا إلى جواره وأنا طفل، في جماعات صغيرة لإلقاء نظرة أخيرة عليه. كان مشهدًا غريبًا أن ترى أولئك الجند الأشدّاء، الذين كان الموت جزءًا من عملهم اليومي، يبكون مثل الأطفال.

بعد منتصف الليل، تركونا وحدنا. تذكر شادي حدثًا قديمًا قبل أن أُولد، وأخذ يبكي مرة أخرى. تذكّرت شيركوه. تذكرت عينيه اللامعتين الممتلئتين بالضحك وهو يغني لأطفاله ولنا ونحن نقترب من سنّ الرجولة. ذات مرة، عندما اكتشف أنني أغشى الحانات سرًا، استدعاني إلى حجرته. كان وجهه صارمًا. خفت. قال بحدة: "أتشرب؟" هززت رأسي، "لا تكذب يا ولد". أومأت. انفجر ضاحكًا، وراح يردّد قول ابن سينا، وجعلني أردده وراءه: "النبيذ عدو طائش وصديق حصيف، قليله ترياق وكثيره سم ثعبان، الإفراط فيه ضرر كبير، وفي الاقتصاد فائدة أكبر".

المفارقة أنه لم يتّعظ من حكمته. كان الموت هو الثمن الذي دفعه لإفراطه في تناول اللحم والنبيذ. منذ ذلك اليوم الذي رأيته يموت فيه أصبحت أنفر من وجود اللحم بوفرة على مائدتي. والآن.. هل فهمت لماذا أصرّ على اتّباع نظام غذائي متوازن يا ابن يعقوب؟ لقد شعرت يوم كنا نأكل معًا أن الطعام لم يعجبك. على أية حال سوف نناقش ذلك في وقت آخر. لنكمل.

في اليوم التالي، بقي أمراء دمشق بعد دفن شيركوه متباعدين عني. كانوا يتجمّعون في جماعات صغيرة ويتهامسون. لم أكن أعرف سبب عدم رضائهم، حتى وقت متأخر في ذلك المساء.

نظر إليَّ مستشارو الخليفة الفاطمي على أنني صغير، قليل الخبرة ضعيف. كنت في نظرهم شخصًا يمكن أن يتلاعب به البلاط. استدُعيت إلى القصر وأُنْعم على بلقب "الملك الناصر". لا بدَّ من أنهم كانوا يتضاحكون فيما بينهم، معتقدين أنهم وجدوا لعبة

في أيديهم. كنتُ مدركا لهذا التشريف، إلا أنني كنت أشعر بالضياع دون شيركوه. شعرت أنني نهر تغيّر مجراه، فاقد للاتجاه، وأنا أرقب المشهد الجديد.

كنت في حاجة لأن أتكلّم مع شيركوه، أو مع أبي الذي كان مع نور الدين في دمشق. تساءلت بيني وبين نفسي عما يمكن أن يقوله سلطاننا العظيم عندما يعلم بترقيتي. كان أمراؤه المتغطرسون من أبناء السلالة النبيلة شديدي الاستياء لأن كرديّا بسيطًا من الجبال، لا يستطيع في رأيهم أن يتحدّث بلغة القرآن جيّدا، أصبح وزير مصر. عزمت على أن أبعث برسالة إلى نور الدين، أؤكد له فيها أنه قائدي لا الأمير الفاطمي. كان نور الدين هو آخر شخص في العالم أريده أن يكون ضدي. فعمامة الوزير البيضاء المطرّزة بالذهب وُضعت على هذا الرأس. وسيف مرصع بالجواهر وُضع في يدي. ومهرة جميلة ذات سرج ولجام مرصّعين بالجواهر أُعطيت لي. سرت على رأس ركب احتفالي وسط كثير من الغناء والموسيقى. جئنا في النهاية إلى هذا القصر، إلى هذه القاعة التي نجلس فيها الآن. هذا مكان جيّد لنكون فيه، ووقت ملائم نُنْهي عملنا اليوم عنده يا ابن يعقوب.

أنا سعيد لإصرارك على أن ننتهي من هذه القصة بالتحديد. ولكنني أرى أن أصابعك قد تيبّست. سيكون على زوجتك أن تدلّكها لك بالمرهم هذه الليلة، ولا بدَّ من أن الفاضل الوفي سيغضب مني. لم يسبق أن جعلته ينتظر طويلا هكذا.

(10)

• ذكر ما جرى عندما التقيت حليمة سرًا، لأستمع إلى قصّتها • حليمة تحكي عن حياتها في الحرملك، وعن تألق وذكاء السلطانة جميلة

في اليوم التالي، جاء رسول من القصر. كان يحمل سلة فاكهة وهدايا أخرى لزوجتي وطفلتي ورسالة لي. غادر السلطان والقاضي المدينة ليوم أو يومين، وسُمح لي بفترة راحة من أعبائي. اضطربت بعض الشيء. بدا لي أنه كان يجب أن أُخّير بين أن أصحبهم أو لا. أين ذهبا؟ ولماذا؟ لعلَّ القاضي أراد أن يعاقبني لأنني استأثرت بصلاح الدين لمدة طويلة أمس. كيف يمكن أن أكتب القصة الحقيقية للسلطان إذا كنت أُستبعد من جدول عمله اليومي على هذا النحو؟

عمَّ الفرح المنزل بعد انصراف رسول القصر. لم أكن قد رأيت مريم منذ أسابيع تقريبًا، وغضبت أمها غضبًا شديدًا لتأخري عن حفل عيد ميلادها العاشر، قبل أسابيع قليلة. حتى ابن ميمون وبّخني على ذلك. فرحت راشيل، بالطبع، بإجازتي المؤقتة. عادت علاقتنا لطبيعتها، ولكنها ظلت مستاءة لطول بقائي في القصر. وعلى الرغم من ذلك كانت ترحّب بالهدايا التي تصل إلى منزلنا بانتظام بداعٍ ودون داعٍ! لم يكن القصر هو الذي يرسل هذه الهدايا، وإنما تجّار ورجال بلاط يعتقدون أنني من ذوي الحظوة عند السلطان.

منذ بدأت عملي كاتبًا شخصيًا لصلاح الدين لم ننفق دينارًا واحدًا على الطعام أو الزيت، ناهيك عن الحرير والساتان الذي كان بعيدًا عن متناول أمثالنا من الناس. أما الآن فراشيل ومريم تلبسان مثل نبلاء البلاط. عندما واجهت راشيل بذلك كله ضحكت

دون أي شعور بالحرج وقالت "لا شكّ أن تلقّي مثل هذه الهدايا يهوّن من ألم انفصالنا، مع أنني ما زلت أعتقد أنني لو وضعتك في كفّة ميزان كبيرة في السوق، ووضعت الهدايا في الكفة الأخرى لرجحت كفتك".

كنا نتجوّل نحن الثلاثة في الشوارع، مساء اليوم نفسه، نشاهد المعروضات في المحلات المختلفة، عندما ناولتني امرأة لم أتعرّف عليها ورقة صغيرة، وانسلت مسرعة قبل أن أتمكن من سؤالها. لم تكن الرسالة موقّعة، ولكنها كانت تحثّني على الحضور إلى مكتبة القصر في اليوم التالي. تصوّرت أنا وراشيل أن تكون الرسالة من شادي بتعليمات من السلطان، ولكنني كنت في حيرة من أمر اختيار الرسول. كان يداخلني هاجس ما يقول إن الرسالة ليس مصدرها شادي أو السلطان.

عندما دخلت المكتبة في اليوم التالي، أخبرني أحد الخدم أن صلاح الدين والفاضل لم يعودا بعد. وبينما أنا جالس أنتظر الشخص الذي أرسل لي الورقة، سمعت خلفي ضوضاء خفيفة، فاستدرت لأرى الأرفف الخشبية على أحد الجدران تهتزّ. خَطَوْتُ إلى الأمام متوتّرًا نوعا ما، لأجد أمامي مجموعة من درج السلم تحت الأرض وطيفًا يصعد ببطء. فاندهشت لمّا وجدتها حليمة مفترة الثغر عن ابتسامة. كان ألماس، الخصي الذي أعدمه السلطان، قد أخبرها بوجود ممر سري بين الحرملك والمكتبة بناه جدّ العاضد، ذلك الخليفة الذي لم يكن ليمانع أن يكون لزوجاته أو محظياته طريق إلى المكتبة.

كان من الخطر أن نتكلّم في المكتبة. أبدت حليمة رغبتها في أن نلتقي مساءً في غرفة صديق بالقرب من الحمامات العمومية. ستقابلني نفس المرأة التي سلّمتني الرسالة بعد ساعات قليلة لتدلّني على المكان.

بدا الأمر كما لو أنني أُلقي بنفسي وسط بحر هادر الأمواج. قد يُوضع رأسي تحت حد السيف فورًا إن قابلتها ولم أبلغ السلطان. وهل تظل حليمة على قيد الحياة إن أنا أخبرت صلاح الدين؟

ربما كان ينبغي أن أتجاهل الدعوة. وبينما كنت أسير في الفناء رأيت شادي، فجاء وعانقني بدفء حقيقي. لم أكن قد قابلته منذ مدّة. كان هو الآخر مستاءً لأن صلاح الدين ذهب من دونه، ولكنه قال إنه سيعود إلى القصر هذا المساء.

جلسنا في الشمس نتكلّم، كأننا صديقان حميمان. سألني عن كتاب صلاح الدين، فأخبرته أين وصلنا. أكد لي رواية صلاح الدين عن وفاة شيركوه. أثارت الذكريات

أشجان الرجل المسنّ. حملتُ قدري على كفي وأبلغت شادي بأمر لقائي بحليمة، فاندهشت لمّا وجدته يضحك بينه وبين نفسه.

"حذارِ من تلك المُهْرَة يا ابن يعقوب. حذارِ! إنها خطرة. ستركبها قبل أن تعرفها، وسترمح بك في الصحارى وأنت مربوط على ظهرها. دمها كردي، ودعني أقل لك إن تلك النسوة الجبليات صاحبات إرادة قوية. لا أعرف ماذا تُضمر لك، ولكن أيا كان فلن تتركك تقاوم. حين تقرر مثيلاتها أن يفعلن شيئا، لا يسمحن لأحد بأن يوقفهن".

أكّدت له براءة حليمة وبراءتي.

"كل ما تريده هو أن تحكي لي قصتها. أليس ذلك عملي؟" أفصحت نظرته الماجنة عن عدم اقتناعه.

"اذهب وقابلها. لا تخش السلطان. إذا عرف قل له إنك أخبرتني وافترضت أنني أبلغت الخبر. مثل هذه الأمور لا تزعج صلاح الدين. كل ما في الأمر هو أنه إذا اكتشف أحد في الحريم هذا السر، ستكون حليمة في خطر. أما أنت فكن حذرًا يا صديقي. إنها جميلة جدًا.. ولكنها حامل كذلك في ابن السلطان".

أذهلني الخبر. غرقت في موجة غضب وغيرة. لماذا يكون لحاكم، مهما كان كريمًا، الحق في امتلاك جسد أي امرأة يجدها مرغوبة بشكل مؤقت؟ لاحظت شادي وهو يمعن النظر في سحنتي المصدومة، ويهزّ رأسه بابتسامة تعاطف وتفهّم. تمالكت نفسي نادمًا على رد فعلي غير المنطقي إزاء الخبر. وأنا عائد متجه نحو بوابة القصر، خُيّل إلى أنني أسمع شادي يهمس في أذني: "حذارِ يا ابن يعقوب! حذارِ!" مجرد خيال.

يعتقد ابن ميمون أن المرء عندما يكون في حالة انفعال عاطفي شديد، فإنه يرى ويسمع أشياء مُتخيّلة مرتبطة بحالته. حكى لي مرة عن رجل قُتل حصانه المفضّل تصفية لحساب قديم. فأخذ الرجل يرى طيفه هنا وهناك. كذلك الأمر مع من تحب، بصرف النظر عن البوح بذلك أو عدمه. غير أنني لم أعد أرغب، على نحو مفاجئ، في رؤية حليمة. تمنّيت لو أنها ماتت. لم يستمر هذا الشعور سوى دقائق قليلة على أكثر تقدير، وأنا واقف أنتظر في المكان المحدّد بالقرب من الحمامات العمومية خلف شارع مُجلّدي الكتب. أحسست بالخجل من نفسي.

رأتني المرأة –الرسول- من بعيد وأشارت إليَّ فتبعتها. كانت سريعة الخطى،

وخشيت أن تغيب عن ناظري، فلم أدر أي سبيل سلكت. لم تكن لديَّ أي فكرة عن الحي الذي دخلت فناء أحد منازله المتواضعة. كان المنزل خاليًا. وجّهتني إلى غرفة صغيرة، ولأنني كنت غارقا في عرقي ومقطوع النفس، قدّم لي خادم إبريق ماء. لم أنظر إليه عن كثب حتى تكلّم بصوت غريب جعلني أتصوّر أنه ربما كان خصيّا.

"هل تود أن تستريح قليلا؟"

"لا! لا! أنا بخير".

انتظرت. استمر الخادم يحدق فيَّ كأنه يعرفني. أزعجتني وقاحته ولكنني تكلفت ابتسامة واهنة. انفجر هو ضاحكا وخلع غطاء رأسه ليكشف عن شعر حليمة المائل للحُمرة. لقد جاءت متنكّرة في زي رجل.

"حتى أنت يا ابن يعقوب يا من حَّدقت فيَّ طويلا ذلك اليوم في القصر عندما كنت أروي قصتي؟ حتى أنت لم تعرفني؟ هذا، على أي حال، يعطيني أملا".

راحت تصفّق بيديها كالأطفال، تعبيرًا عن سعادتها. ثم ضحكت ضحكة عميقة غمرني إيقاعها مثل شلال. زادت سرعة دقاّت قلبي. كنت سعيدًا لأنها غابت لمدة بعد هذا المشهد. كذلك كنت في حاجة إلى بعض الوقت كى أستعيد توازني. ذكَّرتني مرة أخرى بأميرات القوقاز الأسطوريات عندما عادت في رداء موشّى من الحرير الأخضر والأزرق، وبأكمام واسعة وأساور ذهبية. زايلني الغضب الذي سبق لقاءها. وكيف يظلّ المرء غاضبًا في حضرة هذا الجمال؟

"هل أصابك الخرس أيها الكاتب؟".

ابتسمت وهززت رأسي.

"لماذا في رأيك، طلبت حضورك؟"

"تصوّرت أن هناك شيئا تريدين أن يصلني، وكما ترين فقد أحضرت أدواتي معي كي أدوّن كل كلمة".

تجاهلَتْ كُلَّ مظاهر خضوعي واستسلامي.

"لماذا لم تنتظر حتى نهاية مسرحية خيال الظل؟ أخبرني ألماس أنك انصرفت قبل

الفصل الأخير".

تنهدت.

"أنكرت عيناي وأذناي إهانة السلطان على الملأ. لقد نشأت على حبّه واحترامه".

فجأة، تبدّل وجهها. أحرقتني ومضات مثل البرق خرجت من عينيها المشحونتين بالغضب. أحرقتني في الصميم. أصابني الخرس أمام غضبها. ارتشفت بعض الماء ثم عددت ثلاثين مقطعا عرضيا على أصابع اليدين، وبعد أن هدأت عادت السكينة والرقة إلى ملامحها. كانت تتأوّد دلالا.

"هل تعزف على العود أيها الكاتب؟".

هززت رأسي.

"ستعزف لنا منصورةٌ إذن. عندما يكون المرء حزينا، يغدو صوت العود مثل خرير الماء لمسافر عطشان في الصحراء".

بدأت خادمتها تداعب الأوتار، لتعمّ الغرفة سكينة سحرية. ثم بدأت حليمة تتكلّم. كانت تتكلّم ببطء وقلمي يتحرك بإيقاع تام مع كلماتها. كنت في حالة من النشوة لدرجة أنني لم أكن أعي ما تقوله تقريبًا، وإلى أن عدت إلى المنزل لم أكن قد فهمت فحوى ما قالت.

... ...

... ...

جفاني النوم عدة ليالٍ بعد ذلك. كان صلاح الدين يدخل غرفتي ويجامعني برغبة قوية تُثيرني حتى وأنا لا أشعر برغبة شديدة فيه. وبعد أن ينتهي أترك جسده النائم وأقوم لأغتسل. لم أكن أريد أن أحمل منه.

لا بدَّ من أن أقول الحقيقة. بعد الليالي الأولى كنت أغمض عيني عندما يركبني صلاح الدين، وأتخيّل أنه مسعود. تبدو مصدومًا أيها الكاتب. أم تراك تظن أن عدم احتشامي قد يكلّفك حياتك؟

لا تقلق. لن أنبس بكلمة عن لقائنا، ولكنني أريدك أن تعرف كل شيء. أم تُرى يقلقك أن تراني متذمّرة من سلطانك وأحلم بالانتقام؟ لماذا؟ لقد أنقذ حياتي وأصبح سيدي وتاج

رأسي. أنا ممتنة لذلك، ولكنه في فراشي رجل مثل أي رجل.

الرجل الوحيد الذي أحببته بحق، هو مسعود. وما زلت أحبّه رغم موته. لو كان هنا لغامرت بحياتي وحياتك كي أنام بين ذراعيه مرة أخرى. تمنّيت في قرارة نفسي أنا أكون حاملا منه ثم أنسب الطفل لصلاح الدين. هل يمكن أن يشفي الذهب من الحزن أيها الكاتب؟ أنا أفكّر طوال الوقت في مسعود. أعذّب نفسي بتخيّله في الجنة بين ذارعي حورية أكثر إغراء وفتنة. ما زلت معه بقلبي. أقول لنفسي دائمًا إننا لم نفترق. تقضّ مضجعي كثيرا. عيناه المبتسمتان، نظرته الصافية، لمسة يديه وهي تمسّد جسدي. كل ذلك يسكن أحلامي وأعرف أنه لن يتبدد.

كان ذلك في الأسابيع القليلة الأولى، في الهزيع الأخير من الليل عندما كنت أسمع الآخرين يتحدّثون بصوت عال قلقين على حياتهم ومستقبلهم وعليَّ. كانوا يسخرون مني. أعتقد أنهم كانوا يظنّون أنني أحب السلطان، وأنه عندما ينتقل ليغذّي نفسه في مرعى جديد، فإن الضربة ستصيبني بالشلل، وأبقى وحيدة أضمّد جراح قلبي. كم كانوا مخطئين! وما أقل معرفتهم بي في تلك الأيام الباكرة! كان ذلك قبل ستة أسابيع فقط يا ابن يعقوب.. كأنها أبد.

مرت الأسابيع الأولى في عذوبة، على الرغم من أن وضع أحدث محظية في الحريم ليس تجربة سارة. نجمة.. زوجة صلاح الدين الأولى من علية القوم، ولكنها سيدة قبيحة. ابنة نور الدين. كان يقول لي إنها منفّرة ولكن ذلك لم يكن ليمنعه من أن يضع بذرته فيها. الزواج -كما يمكن أن تتخيّل- لم يكن المقصود به المتعة. كان له هدف واحد، وتحقق ذلك عندما ولدت له ثلاثة أبناء على التوالي. كذلك شعرت هي بأنها قد أدّت واجبها، ولم تبرح دمشق.

أصبحت زيارات صلاح الدين أقل فأقل والحمد لله، وعندما حملت توقّف عن المجيء تماما. عند هذه المرحلة أصبحنا أكثر مودّة. دهشت عندما دخلت الحريم ووجدت أنه لا يضم الكثيرات. هناك ثمانون محظية غيري وزوجتان، بلا تمييز حقيقي بيننا بالنسبة للاستمتاع بمزايا البلاط، سوى أنه لكل منا ستة من الخدم للسهر على احتياجاتنا، بينما لدى كل زوجة ثمانية أو تسعة.

اكتشفت في الأسبوع الأول أن هناك امرأة مهيمنة على جناح الحريم. هذه المرأة هي جميلة، عازفة عود كريمة الأصل من الجزيرة العربية. أرسلها شقيق السلطان هدية له،

فسحرت بجمالها ومهاراتها صلاح الدين. وحيث إنك لن تراها يا ابن يعقوب، فدعني أصفها لك. متوسطة الطول، أي أنها ليست طويلة مثلي. سمراء. شعرها أسود فاحم. لون عينيها يتبدّل بين الرمادي والأخضر بحسب موقع رؤيتك لهما. أما بالنسبة لقوامها فماذا يمكن أن أقول؟ ستصاب بالارتباك مرة أخرى! سأتوقف. ولو كان عزف منصورة قد خلب لبك، فلا بدَّ من أن تستمع إلى عزف جميلة. العود ينطق في يدها. عندما يضحك نبتسم، عندما يكون حزينا نبكي. فكأنه يتمثل بشرًا سويًا بين يديها. جميلة هي التي تبث الحياة في عقولنا. كان أبوها سلطانًا مستنيرًا. كان مفتونًا بها، وصمّم على أن تتعلّم مثل أشقائها. رفض أي محاولة لتقييد تعلمها، وما تعلمته تحاول أن تعلمنا إياه.

ابتهجتُ وانتعشتُ عندما بدأت تتكلم عنا بأسلوب جريء. ليس عنا نحن الحريم، وإنما عنا نحن النساء. كان أبوها قد أعطاها مخطوطة لابن رشد الأندلسي، وكانت تحدّثنا عنه باحترام وإجلال. روت لنا كيف انتقد ابن رشد فشل بلادنا في اكتشاف واستغلال إمكانيات النساء. كان يقول إن المرأة أُستخدمت، بدل ذلك، بغرض الإنجاب والرضاعة وتربية الأطفال. لم أكن قد سمعت مثل هذا الكلام طيلة حياتي، ومن تعبير وجهك أقول.. ولا أنت أيها الكاتب.

قالت لنا جميلة إن أحد الخلفاء الفاطميين في القاهرة منذ عدة سنوات، ويُدعى "الحاكم"، قام من نومه ليعلن أن النساء هن مصدر كل الشرور. وأصدر من فوره أمرًا بمنع النساء من السير في الطرقات. وحتى يتأكد من أنهن سيبقين في بيوتهن حظر صناعة أحذية النساء. ثم قام بتعبئة كل الزوجات والمحظيات في القصر في أقفاص، وألقى بهن في النهر. وقالت لنا جميلة إنه على الرغم من أن الحاكم كان قد فقد عقله، فإن المثير للدهشة أن جنونه كان موجها ضد النساء بالتحديد.

أصبحتُ وجميلة صديقتين. لا تخفي إحدانا شيئا عن الأخرى. أدقّ أسرارها أسراري، وأدقّ أسراري أسرارها. ولدت جميلة لصلاح الدين طفلين، ونادرًا ما يأتي الآن ليراها. في البداية استاءت مثلي، ولكنها الآن تتنهّد ضجرا عندما يجيء. كم هي متقلّبة عواطفنا؟ لا أعرف كيف يمكن أن يكون شعوري لو لم تكن ذكرى مسعود قوية بداخلي؟ جميلة تعتقد أن مسعود مجرد خيال جامح، أقوم بإنعاشه وتغذيته كي أحافظ على سلامه عقلي. أعرف أن الماضي يفقد قوة سيطرته على القلب، ولكن ذلك لم يحدث لي بعد، وجميلة تتركني في الوقت نفسه أحلم. أحيانا تشجّعني على ذلك، حيث لم يكن لها مسعود! وتشجّعني كذلك على التوقف عن إزالة شعر عانتي.

صديقي الوحيد الآخر هو ألماس الخصيّ. يقبع في الحريم منذ مدّة طويلة. من قبل أن يأتي صلاح الدين إلى هنا. يا لها من قصص.. تلك التي كان يرويها يا ابن يعقوب!

اللهم احفظنا! لا أجرؤ على تكرارها.. حتى لك.. ربما كنت أستطيع لو أنك كنت خصيّا.. ولكن تلك حماقة. عفوا! ليس من حقي أن أتكلم معك هكذا.

كان ألماس شاعرًا بحق. ما زلت لا أفهم أي شيطان تملكه. لماذا كتب مسرحية خيال الظل تلك؟ لقد قُتِلَ لأنه قال الحقيقة، ذلك أنه وصف حب إحدى نزيلات الحريم للأخرى في الفصل الأخير، الفصل الذي خشيت، لفرط جبنك، أن تشاهده، أم تراها حاستك السابعة التي حذّرتك بأنه سيكون خطرا؟ وصف حب إحدى المحظيات لخادمتها. أعتقد أنه كان يقصد منصورة لأن العود يظهر كثيرًا. المؤكد أنني لم أكن أنا المقصودة لأنني لم أتحرك في هذا الاتجاه بعد، على الرغم من أنني إن فعلت فلن يكون سوى حضن جميلة الدافئ هو ما يريحني. توقّفت عن إزالة شعر جسدي في إشارة لها على أنني مستعدة لاتخاذ خطوة كهذه. أنا أقترب من اتخاذ القرار. أوشكت أيام الحزن أن تنقضي.

ها أنا ذا أرى علامات الاشمئزاز على وجهك. من المؤكد أن رجلا محنّكًا مثلك يا ابن يعقوب لا تصدمه مثل هذه التفاصيل. القاهرة ودمشق، ناهيك عن بغداد، مليئة بمواخير الذكور التي يغشاها شبان مُرْد يشبعون كل ما تتصوّر من رغبات. كل هذا مسموح به. ولكن السماء تنطبق على الأرض لمجرد ذكر أن هناك نساء يتشمّمن مسك بعضهن بعضًا.

أظن أنني يجب أن أتوقّف. تبدو كمن سيختنق غضبًا، ولن يسامحني صديقك ابن ميمون إن تسبّبت في مرضك.

لقد خاب ظني فيك أيها الكاتب، وأعتقد أنني لن أدعوك مرة أخرى.

قبل أن أجيب، صحبتني منصورة إلى الباب وإلى الفناء مباشرة. استدرت كي ألقي نظرة أخيرة على حليمة، فلم أجد أثرًا لها. آخر ما أتذكّره منها هو تلك النظرة الغريبة المشوبة بالازدراء. هكذا ودّعتني.

سرت في الطريق على غير هدى، فاسد المزاج!

(11)

● شادي وقصة الشيخ الأعمى ●وكيف تغلّب صلاح الدين على منافسيه

لقائي السرّي بحليمة هزّ أعماقي. شعرت بالامتهان، ولكنني عندما رحت أستعيد كلماتها بدقة، لم أجد فيها ما يستحق الاستياء. لا بدَّ أن قرارها بمقاطعة جنس الرجال، بعد مسعود، أذهلني عن نفسي. لم يكن رد فعلي أمرًا شخصيًا. كنت مصدوما بالإنابة عن كل الرجال، أو هكذا على الأقل كنت أواسي نفسي.

لم يكن شادي ممن يقتنعون بسهولة. كان ينتظرني قلقًا في القصر. عاد السلطان ولكنه لم يكن ليراني إلا بعد ذلك في المساء. أراد شادي أن يعرف أخبار لقائي بحليمة، وقد كان. لم تبد عليه أي بادرة قلق أو انزعاج.

قال وهو يضحك "بوسعي أن أحكي لك من القصص عن الحريم ما يجعلك تموت خجلا نيابة عنهن، أما أنا فقد عشت طويلا لأعرف أننا نحن البشر الأكثر تقلبا من بين مخلوقات الله جميعا. لا تثقل قلبك بمشكلات النساء يا ابن يعقوب. دع جميلة وحليمة يعشن في سعادة. فلن يكنَّ، في نهاية المطاف، حرّتين مثلي أو مثلك".

أدهشني موقف شادي غير المهتم، إلا أنني شعرت بالراحة كذلك. قلت له كل شيء. لو اكتشف السلطان سرّنا، فلن يلومني وحدي! تبدّد خوفي، بعد أرق ليلة كاملة، واستعدتُ مرحي. رأيت شادي يضحك بينه وبين نفسه. عندما سألته عن سبب ابتهاجه بصق بصوت عال قبل أن يتكلم.

"هناك شيخ أعمى يعظ الناس بكلام فارغ على بعد أميال قليلة من باب زويلة. شيخ

من ذلك النوع الذي يتكسّب بالدين. يستغلّ عماه ذريعة ليتحسّس كل أعضاء الرجال من ذوي الأصوات الناعمة، وطوال الوقت يُردّد الأحاديث. الناس يتركون له هدايا كثيرة.. أطعمة وملابس ونقودًا، وأحيانا مجوهرات. قبل ستة أشهر أحضر له أحد التجار شالا يدفّئه في المساء. الشيخ أعجبه الشال. كان يضع أحد أطرافه في حلقة صغيرة ثم يجذبه من خلالها بقوة، لكي يرى تلاميذه نوعية الصوف الممتازة. ذات مساء، دخل رجل منزله بعد أن كان قد انتهى من صلاته. كان الشيخ جالسا على بساط قديم يلعب بمسبحته ويبسمل ويحوقل، إلى آخر ذلك الدجل الذي يخدع به البسطاء والسذج.

تمتم الزائر ببعض الأدعية ووضع صرّة تحت قدمي الشيخ. سأل الشيخُ الغريب، فرحًا بالهدية، عن اسمه، ولكنه لم يتلق إجابة. تكلّم الغريب بعد هُنيهة قائلا:

"قل لي يا شيخنا، هل أنت أعمى حقا؟"

أومأ الشيخ برأسه.

"أعمى تماما؟"

أومأ الشيخ بقوة مستاءً هذه المرة.

قال الرجل بصوت هادئ واثق: "لو أنني أخذت الشال من فوق كتفيك إذن فلن تعرف من أنا؟"

أدهشت الفكرة الشيخ وابتسم، بينما كان اللص المقدام يأخذ الشال وينصرف من المنزل في هدوء. اندفع الشيخ وراءه بعصاه وهو يسبّه بأكثر الألفاظ والصفات فحشًا. كلمات وعبارات لا أريد أن أكرّرها على مسمعك. فيما بعد، اتضح أن الصرّة التي تركها اللص للشيخ كانت مليئة بزبل حمام مغطّى بالقش.

أخذ شادي يضحك ثانية، وانتقلت عدوى الضحك إليَّ فابتسمت، ولكنه حدس عدم إعجابى بالقصة. فتضايق وبصق من فوق رأسي تعبيرًا عن استهجانه، ثم حدّق في عيني وغمز، ضحكت وعاد الصفاء بيننا.

تعطّف السلطان ولاحظ، في المساء، وجودي. كان رائق المزاج، وعندما سألته ما إذا كانت رحلته مع القاضي ناجحة، تنهّد.

"ليس من بين واجباتي إقناع الناس بدفع الضرائب للدولة، ولكن الفاضل أصرّ على

ضرورة وجودي في الشمال، وعلى أي حال لم يكن مخطئا. كان لظهوري هناك الأثر المطلوب. جمعنا في يومين ضرائب كانت متأخرة لمدة عامين، والآن.. دعنا نكمل قصتنا. أين توقفنا؟

ذكَّرته كيف أصبح وزير مصر.

... ...

... ...

أقلقني تضليل بعض أمراء دمشق للسلطان نور الدين. نادرا ما كانوا يُخفون حسدهم وازدراءهم لي. كنت قد بعثت برسالة إلى نور الدين وانتظرتُ الردّ. جاء الرد بعد أسبوع. كشفت لهجة الخطاب عن توتر أعصابه بسبب تصعيدي في مصر. كنت لا أزال الأمير صلاح الدين قائد الجيش. على الفور، أرسلت رسالة أؤكد له فيها أنه، نور الدين، وليس سواه هو سلطاني، وأنني لا أطيع سوى أوامره وحده. رجوته كذلك أن يسمح لأبي أيوب وبقية أسرتنا أن يجيئوا للعيش معي في القاهرة. كنت أشعر من دونهم بالوحدة والغربة. وبعد عدة أشهر استجاب لرجائي. لم أكن قد رأيت أبي وأمي منذ عام تقريبًا. فرحنا كثيرا باجتماع شملنا بتوفيق الله.

أخبرت والدي بأنني على استعداد للتخلّي له عن المنصب والسلطة، إذا ما رغب في ذلك. رفض، مصرًّا على أن اختيار الله قد وقع عليَّ، ومن الخطأ الاعتراض على مشيئته. أقنعته، على الرغم من ذلك، بأن يكون الخازن، سرّ السلطة ومفتاحها. فمن الصعب امتلاك السلطة الحقيقية دون السيطرة على الخزانة. إذ أنهم اختاروني وزيرًا باعتباري ضعيفًا وليست لي أطماع شخصية، ثم ما لبثوا أن شعروا أن السلطة تتسرّب من أيديهم شيئا فشيئًا. بخلاف الخليفة العاضد الذى كان شخصية ضعيفة يتلاعب به الخصيان. لاسيّما خصي نوبي اسمه ناجح، قلبه أسود مثل لونه. مفضل عند العاضد. يزوّد سيده بالأفيون والتقارير الكاذبة.

ومع ذلك، فالخليفة كان يطمح أن يصبح هو نفسه الوزير، ولكنه شعر بأنه قد يكون من الأسهل أن يحتفظ بالسلطة في البلاط من خلالي. ذات مساء أبلغني الجواسيس، الذين زرعهم "الفاضل"، أن الخصيّ النوبي ناجح بعث برسالة سرّية إلى الفرنج. طلب منهم الخليفة، في رسالته، أن يتظاهروا بالهجوم على القاهرة على أن أخرج لملاقاتهم فيباغتنى ناجح وأعوانه من النوبيين من الخلف.

قرّرت أن أتخلّص من ناجح، عملا بنصيحة الفاضل، بقتله على وجه السرعة. ولكن كان من الصعب تنفيذ ذلك وهو في القصر دون أن يثير مشاكل كثيرة. لا بدَّ أن تعرف أن ناجح كان وراءه عشرات الألوف من النوبيين وكأنه إله. إلا أننا اكتشفنا أنه كان له عشيق من الذكور، اعتاد لقاءه بانتظام في بيت ريفي بعيد عن القصر. انتظرنا اللحظة المناسبة، ولما حان الوقت كان ناجح وعشيقه قد أُودي بهما إلى الجحيم.

كان أبي قد علّمني أن جيشين تحت إمرة قائدين مختلفين لا يمكن أن يتعايشا طويلا. لا بدَّ أن يقضي أحدهما على الآخر عاجلا أو آجلا بمشيئة الله. في تلك الأيام كان الصراع على السلطة يجري على أشدّه. أبلغت الخليفة الفاطمي بأن رجاله قد اتصلوا بأعداء نبيّنا، وأن الخصيّ ناجح قد أُلقي القبض عليه وتم إعدامه. كما أبلغته أن سلطاني نورالدين يريد أن يكون الدعاء في خطبة الجمعة بالأزهر للخليفة الحقيقي الوحيد المقيم ببغداد.

عندما سمع ذلك، بدأ الصبي المسكين يرتعد. عقد الخوف لسانه. لم ينطق. لم أقل له إن نور الدين يريدني أن أتخلّص منه دون إبطاء.

صباح اليوم التالي، تصدّى النوبيون لي مسلحين بين القصرين. كانت سيوفهم المعقوفة تلمع في الشمس وبدأوا يهينون جنودي. كان بين رجالنا جنود سود كثيرون، ولكن النوبيين الأوغاد وجّهوا إلينا الإهانات والسباب. نصحني أبي ألا تأخذني بأولئك الشياطين رحمة. عندما رأوني على حصاني خارجًا لملاقاتهم، بدأ جنودهم يهتفون بحقد، وسمعتهم يرددون "كل البيض شحم، كل السود فحم مشتعل".

استعد رماتنا لإطلاق سهامهم، إلا أنني بعثت برسالة إلى النوبيين وتساءلت: إذا كان البيض شحمًا، فكيف يمكن أن يتآمر ناجح مع الفرنج ويخوننا؟ كلنا سواسية أمام الله. اِستسلِموا وسلِّموا أسلحتكم وإلا سنسحقكم. لطم أحد المتمردين رسولي على وجهه، سال الدم وبدأت المعركة.

دام القتال يومين كاملين. كان النوبيون يضرمون النار في المنازل والشوارع كي يُبطئوا تقدّمنا. في اليوم الثالث أصبح واضحًا أن الله وهبنا نصرًا آخر. وبعد أن أحرقنا المنصورية، ذلك الحي الذي كان يقطنه معظم النوبيين، أدركوا أن المقاومة باتت حماقة. كان نصرًا غاليًا يا ابن يعقوب، ولكن المكافأة كانت تستحق كل نَفْسٍ فقدناها، لأن مصر أصبحت تحت سيطرتنا تماما.

أبدى أمراؤنا رغبتهم في إسقاط الخليفة الفاطمي وإعلان ولاءنا الفوري للخليفة الشرعي في بغداد. تعاطفت معهم ولكنني استشرت أبي على انفراد. حذره جعله ينصحني بتفادي المزيد من إراقة الدماء. ذكَّرني بأن الخليفة العاضد هو الذي وضع عمامة الوزير على رأسي. ربما كانت أهدافه غير شريفة، ولكن تصرفًا غير كريم من جانبنا سيكون أكثر إساءة لجماعتنا. لم أكن مقتنعا تماما بفكرته. ألححت على والدي، وفي النهاية، وبعد التأكد من أن أحدًا لم يكن يسترق السمع خارج الغرفة، همس في أذني:

"هذا الخليفة البائس سوف يساعد في أن يظل نور الدين في وضع الدفاع عن النفس. اقض على الخليفة كي تصبح السلطان. ماذا سيظن نور الدين، سلطان دمشق وحلب، إذا قمت بهذه القفزة؟ أنا أعرفه جيدًا. سوف يسأل نفسه، كيف يتسنَّى لواحد من أصغر أمرائي، كُردِّي من الجبال، صبي، أبوه وعمه من حجّابي، كيف يتسنّى لمحدَثِ النعمة هذا أن يدّعي لنفسه منصب السلطان دون أن يعرضه عليَّ أولا؟ كن صبورًا يا بني. الوقت في صالحك. الآن، هو وقت تثبيت سلطتك. إخوانك وأبناء عمّك لا بدَّ من أن يشغلوا المناصب الحسّاسة في الدولة، وعندما يتناول الخليفة الفاطمي وجبة كبيرة من الأفيون لينام النوم الذي لا يقظة منه، في ذلك الوقت لا بدَّ من أن نتأكد أن الخلافة تنتقل في هدوء".

"أي خلافة؟"

"خلافتك. لحظة أن يموت سوف تلغي هذه الخلافة ويعلن من على منبر جامع عمرو بن العاص أن هناك اليوم خليفة واحدا. هو ذلك المقيم في بغداد. الخطبة ستكون باسمه، والدعاء سيكون له، وأنت، صلاح الدين سلطانه في مصر".

كان أبي، رحمه الله، ناصحًا ملهما. ثبت مرة أخرى أنه كان محقًا. مرض الخليفة. وأعطيت من فوري التعليمات بتغيير الدعاء. اعتبارًا من ذلك اليوم أصبح الدعاء في مدينتنا للخليفة الشرعي الوحيد. سافرت الأخبار إلى بغداد، وكان فرحًا كبيرًا. تلقّيت من الخليفة الراية العباسية السوداء وسيفًا رسميًا. كان شرفًا كبيرًا.

بعد يومين، مات آخر خلفاء الفاطميين. أعطيت تعليماتي لقراقوش، أحد أذكى الرجال في القاهرة في ذلك الوقت، وأحد المستشارين لديَّ، بأن يبلِّغ أسرة العاضد أنَّ عهدهم قد انقضى. على مدى ثلاثة قرون تقريبًا، حكم الخلفاء الفاطميون هذا البلد. فعلوا ذلك باسم ملّتهم الشيعية المهرطقة. أخيرًا دالت دولتهم وأقمنا صلاة شكر لله ورسوله.

أصبحتُ السلطان بموجب مرسوم مكتوب من الخليفة في بغداد. تقبّل نور الدين صعودي، ولكن ربّما تكون مبالغة إن قلت إنه كان سعيدًا. تلقّيت استدعاءين للقائه في دمشق، ولكنني كنت مشغولا بقتال الفرنج. كانوا في حالة انزعاج شديد عندما أصبحت مصر تحت حكمنا. استوليت على عدد من قلاعهم، بما في ذلك العقبة، وهي قلعة رئيسية تؤمّن طريق الحجيج إلى مكة.

أوحى بعض مستشاري نور الدين إليه بأنني أُشغل نفسي بمناوشات مع الفرنج، تهرّبًا من إطاعة تعليماته بالعودة إلى دمشق. ثرثرة كيدية ولا شكّ. فقد انزعج الفرنج لأننا نسيطر على الإسكندرية ودمياط، الميناءين اللذين كانوا يريدونهما في أيدٍ صديقة. كانوا خائفين، وكانوا محقّين في خوفهم من أن أستغل سيطرتنا على هذه الموانئ لقطع خط اتصالهم بأوروبا. سيكون معنى ذلك انتهاء احتلالهم لأراضينا، وتحوّلهم إلى تراب في الوقت المناسب. اقترح قراقوش هجومًا مباغتًا، ولكن وضعنا لم يكن قويًا. علمنا أن الإمبراطور في اسطنبول قد أرسل أكثر من مائتي سفينة محمّلة بالجنود لحصار دمياط.

وتوالت التقارير عن قيامهم ببناء الكثير من الأبراج المتنقلة استعدادًا للحصار، وعن عدد الفرسان الذين تحت إمرة أمالريك. وبعد أن تأكّدنا من صحة كل تلك المعلومات، أرسلنا بها إلى دمشق.

يُقال عني أحيانا يا ابن يعقوب إنني لست حازمًا بما يكفي في اللحظات الحرجة. ربما كان ذلك صحيحًا. لقد ورثت الحذر والحرص عن أبي، وهناك كثيرون في صفوفي ممن يفضّلون لو أنني كنت قد ورثت جسارة عمي شيركوه وإقدامه. أنا أعي هذا العيب، وأحاول أحيانا أن أجمع بين الصفتين. ليس من السهل دائمًا أن تتّخذ قرارات تؤثر في حياة كثير من الناس.

ما جعل من نور الدين قائدًا عظيمًا بحق، هو قدرته على فهم حقيقة واحدة مهمة، وهي أنه ما لم يوقع بالفرنج هزيمة ساحقة حاسمة، لن يحيا شعبنا في سلام قط. وحتى نتمكن من ذلك، كان كل شيء مكرّسًا لهذا الهدف الوحيد. أما قلقه مني، فتلك مسألة جانبية أقل أهمية.

عندما وصل رسلي إلى دمشق وأبلغوه بالخطر الذي يتهدّدنا، لم يتردّد لحظة. أعدّ جيشًا ضخمًا وأرسله إلى مصر. وبفضل هذا الجيش هجمنا على الفرنج في فلسطين، كي نحوّلهم عن دمياط. وهبنا الله النصر. ساعدت عاصفة شديدة مفاجئة على إغراق

السفن التي أرسلها إمبراطور اسطنبول وزوج أخت أماليريك. جاءت النعامة اليونانية إلى هنا بحثًا عن قرنين فعادت، مضطرة، بلا أذنين. كان نور الدين رجلا أعظم مما كنت أتمنّى، وكل ما حققته، أنا مدين له بالفضل فيه.

... ...

... ...

لاحت على وجهه ابتسامة غريبة، كانت مزيجًا من البهجة والزهو والحسد والحزن وهو ينطق بهذه الكلمات الأخيرة. لعلّه كان يفكر كيف أنه أمرٌ يدعو للسخرية أن يكون هو، صلاح الدين، الذي يستعدّ للاستيلاء على أورشليم، وليس سيده الكبير الحاكم. كان ذلك الرجل الذي عليه أن يصلّي عند قبة الصخرة ويعيدها إلى رعاية المؤمنين.

كنت أودّ أن أطرح عليه أسئلة كثيرة. كنت أودّ أن أسأله عن نور الدين، ولكن بدا على وجهه انشغاله بأمور أخرى، وفجأة قطع عليَّ أفكاري.

"اذهب لتناول الطعام مع شادي، ولكن لا تذهب بعيدا، ستذهب معي، بعد الظهر، إلى القلعة".

انحنيتُ وخرجتُ. كنت وأنا أعبرُ القاعات إلى الفناء مأخوذًا ببساطة الرجل. فرغم أسباب الثراء والنعمة التي تحيط به تخلّى عن طقوس البلاط التي اصطنعها الخلفاء. كانت مظاهر الترف والسلطة لا تزال هناك، كأنه كان يريد أن يرى أمثالي من العامة أن الاثنتين مطلوبتان دائمًا معًا. إنهما معًا حليفان قديمان ولا شيء يمكن أن يغيِّر تلك الحقيقة.

اشتُهر صلاح الدين بكرمه. وكان ذلك أحد أسباب شعبيته بين جنوده، كما كان ملبسه بسيطًا. يهوى امتطاء جواده المفضّل دون سرج. لا شيء يشعل أحلام المجد المُنتظر قدر ملمس عرق الحصان. قال لي ذات مرة إن أفكاره العسكرية تأتيه وهو على ظهر حصانه العاري، يرمح عبر المروج أو الصحارى. كأن إيقاع عَدو الحصان، كما قال، يتناغم مع وثبات أفكاره.

بعد مدّة قصيرة، جلست أتناول أنا وشادي الطعام المكوّن من لحم الضأن المطهو مع البازلاء الطريّة كالزبد. ادّعى شادي أنه صاحب الفضل في صنع هذه الوجبة الشهية. هدّد الطهاة بسلقهم في الزيت إن هم قدّموا لحمًا عسير المضغ مرة أخرى. كم كان اللحم

الطري طيب المذاق!

أخبرت شادي بابتسامة صلاح الدين الغريبة عندما كان يتكلم عن نور الدين، وطلبت منه تفسيرًا لذلك. صهل الرجل مثل حصان مثقل القلب.

"أحيانا يمكن أن يكون سلطاننا ماكرًا. كلنا كنا معجبين بنور الدين. كان رجلا نقيًا. لم يلوّث شرفه شيء. ولكن صلاح الدين كان يمقت سلطته. ذات مرة، وأظن أن ذلك كان في حصار إحدى القلاع الفرنجية، انضم إلينا نور الدين بنفسه وعاد سلطاننا إلى القاهرة. ادّعى أن هناك خطر تمرد من بقايا الفاطميين. ببساطة.. تهرّب من نور الدين. كان يخشى لقاءه وجهًا لوجه. لم؟ لأنه كان يعلم أن نور الدين قد يأمره بالعودة إلى دمشق. صلافة صلاح الدين ضايقت نور الدين. هكذا كان يرى الموقف. تابع يتصرّف كأنّه ندّ. كان لا بدَّ من تلقينه درسًا. قرر أن يزحف إلى القاهرة.

الآن، دعني أقل لك شيئا يا صديقي، لقد كنت حاضرًا، وكذلك كان أيوب عندما أبلغنا السلطان، في اجتماع لأمراء وقادة الجيش، أن نور الدين في الطريق. صاح ابن عمّ صلاح الدين المُقرب إليه مندفعا: لا بدَّ من مقاومة نور الدين مثلما نقاوم الفرنج تماما. ابتسم صلاح الدين مهاودًا ابن عمه، ولكن أيوب، بحدة سيف دمشقي، نادى الولد وصفعه على وجهه بشدة. هكذا أمام الكل. ثم وقف وقال لصلاح الدين "دعني أقل لك شيئا أيها الولد، إذا جاء سلطاننا نور الدين إلى هنا، فسوف أنزل من على حصاني وأقبّل قدميه. إذا أمرني بقطع رأسك سأفعل دون تردد، حتى لو اختلطت دموعي بدمك. هذه الأراضي أراضيه، ونحن خدمه. ابعث له برسالة اليوم يا صلاح الدين. دعه يُرسل إليك رسولا على جمل يقتادك إليه من حبل حول عنقك إلى حيث هو. الآن، انصرفوا كلكم، ولكن فلتفهموا شيئًا واحدًا، نحن جنود نور الدين، ويمكنه أن يفعل بنا ما يشاء".

انصرف الكل من الاجتماع، ما عدا أنا وصلاح الدين. أنّبه أيوب بعنف لإظهاره طموحه أمام الأمراء الذين لا يتمنّون شيئًا قدر إزاحته من منصبه. بدا صلاح الدين بائسًا، وكأنَّ حبيبا هجرهُ وتركه مجروحَ الفؤاد.

ظلّ أيوب يراقبه لبعض الوقت، تاركًا البؤس يلوّن ملامحَه، ثم قام وعانقَه. قبَّل جبهتَه وهَمس "أنا أعرفُ نورَ الدين جيدًا. أحسِبُ أنَّ رسالةَ خضوعِك سيكون لها تأثيرها. إذا فشلت لأيِّ سبب في تهدئته سأقاتل معك".

والآن، هل تفهم يا ابن يعقوب؟ عندما رأيت تلك الابتسامة على وجه السلطان، ربما

كان يفكر أيضًا في حصافة أبيه. إنه وحده الآن. أيوب أصبح في ذمّة الله. شيركوه لم يعد موجودًا. أحيانا، عندما أحمل إليه الشاي بالنعناع في الصباح يقول: "أنت ما تبقّى من الجيل القديم يا شادي. ألا تذهب وتموت عني أنت كذلك."

كأنني أريد يا ابن يعقوب... كما لو كنت أريد.. أريد أن أرى القدس. المدينة التي يسمّيها شعبك أورشليم. أريد أن أكون إلى جواره ونحن نصلي عند قبة الصخرة. أنا لا أصلي كثيرا كما تعرف، ولكنني سوف أصلي في ذلك اليوم. لا شكّ عندي أنه آت مثلما لا أشكّ في شروق الشمس وغروبها. صلاح الدين عاقد العزم على الاستيلاء على المدينة، مهما كان الثمن. يعرف أنها ستكون ضربة في القلب لاستقرار الفرنج. ويعرف كذلك أنه إذا نجح فلن ينسوه أبدًا. بعد أن تُثري عظامنا التربة، سوف يتذكر المؤمنون اسم ذلك الصبي الأعرج الذي علّمته كيف يستخدم السيف ذات يوم. من سيذكر اسم نور الدين؟"

(12)

• السلطان يزور القلعة الجديدة، لكنه يقطع زيارته للقاء برتراند صاحب تولوز، المهرطق المسيحي الذي فرّ من أورشليم، اتّقاءً لغضب فرسان الهيكل

لأني لا أجيد ركوب الخيل، فلم يكن السلطان متحمسًا لاصطحابي في جولاته التفقّدية، أو في زياراته المنتظمة للإشراف على بناء القلعة الجديدة. أزعجه ذلك. لم يكن يُعجبه هذا الجانب في شخصيتي. لم يكن يعجبه أن يكون أحدنا مفتقدًا لمهارة ركوب حصان، أو فاقدًا للرغبة في قيادته. ومن ثمّ لم يكن يتحدث كثيرًا في حضوري عن الخيل. كانت درايته بالخيول واسعة لا يضاهيها سوى درايته بالأحاديث. وكثيرًا ما كان يقطع حكاياته كي يصف حصانًا بعينه جاءه هدية من شقيقه في اليمن، ويأخذ في الكلام عن أصله وسلالته، وعندما يراني شردت ببصري يتنهد ويضحك ويعود لحكايته.

دارت هذه الأفكار برأسي وأنا راكب ضمن حاشيته عبر المدينة، بعد أن أحاطني بفرسان مهرة من الجانبين خشية أن يرمح حصاني فجأة. لم يحدث شيء من ذلك، وسرعان ما أصبحت معتادًا على مشاق التجربة. أعرف أن ظهري سوف يؤلمني نهاية اليوم، إلا أنني سعيد لأني ركبت بصحبته.

أما هو، فكان فارسًا متمرّسًا. وأنا لا أقصد بذلك سياسته لحصان حرب، إنما أتحدّث عن حصان من مرتبة أقل. وهذا النوع لا يتكلّف صلاح الدين في قيادته ما يتكلفه الراكب من انتباه أو توجيه. فالرجل يترك للحصان أن يتحرك بسرعته المعتادة، لا سريعًا ولا بطيئًا. وبوخزة خفيفة من كعبه يزيد الحصان من سرعته، مما كان يضطرنا

كلنا إلى مجاراته. أحيانا كان يبدو لنا أن الحصان وراكبه مخلوق واحد، مثل تلك المخلوقات المُتخيّلة التي كان يتغنّى بها الإغريق في أشعارهم.

بدأنا من باب زويلة، وبعد مدّة قصيرة مررنا عبر شوارع مزدحمة بالناس. سارع الناس إلى إلقاء ما بأيديهم لينحنوا أو ليحيوا حاكمهم، ولكنه لم يكن يشجّع مظاهر الخنوع، وكان يفضّل أن نمضي لمقصدنا دون إبطاء. أراد أن يتجنّب المتوسلين والمنافقين من طبقة التجّار الذين امتلأت بهم الشوارع.

بعد وقت قصير، مررنا بأطلال في المنصورية، حيث وقف الجنود النوبيون أعوان الخصي ناجح وقفتهم الأخيرة قبل طردهم من المدينة. وبأمر السلطان تُرك الحي المهدم على حالته تحذيرًا وعِبرة لكل من تسوّل له نفسه الخيانة في المستقبل.

وفجأة كبح جماح حصانه. كان الرَكْب يضمّني أنا وثلاثة من كتّاب البلاط، لنقل تعليمات السلطان للقاضي الفاضل. بالإضافة إلى عشرين حارسًا شخصيًا اختارهم شادي بعناية. ولم يكن شادي، في الحقيقة، يثق إلا في الأكراد أو أبناء الأسرة لتأمين السلطان. أشار إليّ السلطان، ضاحكًا، أن ألحق به:

"أنا سعيد برؤيتك تركب حصانًا يا ابن يعقوب، ولكنني أعتقد أن شادي لا بدَّ أن يعطيك بعض الدروس. لا بدَّ أن تدلّك زوجتك ظهرك بمرهم خاص هذه الليلة، لتسكين ألم مؤخرتك. أتمنى ألا تعوقك هذه الرحلة عن أداء مهامك".

ضحك بصوت عالٍ لهذا التلميح، وهززت رأسي موافقة. ابتسم راضيًا، ثم عاين الحي المحترق وتغيّر مزاجه.

"لحسن حظنا نجونا من هذا التمرد. لو فاجأونا لتغيّرت القصة تمامًا. هذه الحالة الدائمة من اللا يقين هي لعنة الشيطان على المؤمنين. كأنّ قدرنا ألا نكون متّحدين أمام العدو! لا أحد من فلاسفتنا أو ممن سجّلوا التاريخ استطاع أن يجيب عن هذا السؤال، ولسوف نناقش هذا الأمر مع علمائنا ذات مساء".

انحنى على السرج يمسّد رقبة حصانه في إشارة إلى أننا سنواصل الرحلة. بعد قليل كنّا قد تركنا الشوارع المزدحمة وكانت روابي سلسلة جبال المقطم تلوح أمامنا عن بعد. هنا كان البناؤون، مثل خلية النحل، يشيّدون القلعة الجديدة. أحجار هائلة تُنقل بواسطة البشر والحمير. ألوف وألوف العمّال كانوا يعملون في البناء.

خطر على بالي أن كل من سيرى القلعة سيتذكّر على الفور تلك الآثار القديمة في الجيزة. ذلك أن بُناتها هم، ولا شكّ، أسلاف من يقومون الآن ببناء هذه القلعة العظيمة.

كان المسئول عن العمل هو ياور السلطان، الأمير قراقوش، الذي يثق صلاح الدين في قدرته على تنفيذ تعليماته المعمارية المفصّلة، والإشراف على البناء، أحيانًا، في حال غيابه. غمر مشهد العمال صلاح الدين بالسعادة. مرة أخرى لمس حصانه تحت رقبته، وانصاع الحصان لإرادته، لينطلق بسرعة لم يجاره فيها سوى حرّاسه.

تبعناهم أنا والكتّاب الثلاثة بسرعة معقولة. أخذ كتّاب البلاط من القبط، الذين خدم آباؤهم وأجدادهم الخلفاء الفاطميين على مدى قرون، يبتسمون لي، ويتحدّثون معي بملقٍ ومداهنة. بينا كانت الغيرة تأكل صدورهم. أغاظهم وأقلقهم قُربي من سيّدهم.

كتم صلاح الدين ابتسامة عندما رآني أنزل من فوق الحصان. آلمتني رجلي ونحن نصعد بُرجًا جديدًا اكتمل بناؤه. هنا وقف السلطان يناقش أعمال القرميد مع الأمير قراقوش. هذا الخصيّ المارد، ذي البشرة والشعر بلون الفحم، كان ذات يوم أحد مماليك شيركوه. أعتقه سيّده وجعله أميرًا. كان شيركوه يقدّر مهاراته جدًا، كما كانت نصيحة قراقوش للخليفة الفاطمي وراء حصول صلاح الدين على منصب الوزير.

وقف قراقوش يصف كيف أحضروا بعض الحجارة من أهرامات الجيزة، ويشرح كيف امتزجت بالحجر الجيري المحلي. بدا السلطان سعيدًا، واستدار نحوي ليقول لي "سجل هذا أيها الكاتب. سبب تشييد هذه القلعة الجديدة هو إقامة حصن منيع يقاوم أي مغامرة إفرنجية. ولكنك إذا نظرتَ إلى طريقة تصميم الجدران والأبراج سوف تلاحظ أننا نستطيع كذلك مقاومة أي تمرّد محلي بسهولة. لم أنس كيف كنّا على وشك الهزيمة عندما نظّم الخصيان والمماليك النوبيون حشودهم لمباغتتنا. هنا لا يمكن أن يباغتنا أحد".

بينما كنا نتحدّث، أشار قراقوش إلى أسفل حيث رأينا غبار فارسين قادمين نحونا. لم يكن ينتظر أحدًا، وضايقه ذلك التطفّل غير المتوقع. قطّب جبينه، وأعطى تعليماته لاثنين من حرس السلطان بأن ينتظرا الفارسين عند سفح القلعة. ضحك صلاح الدين.

"قراقوش متوتّر. هل تعتقد أن أصدقاءنا القدامى من الجبال قد أرسلوا من يغتالني؟"

لم يردّ قراقوش. عندما وصل الفارسان انتظر، بفارغ الصبر، أن يقوم الحرّاس

باستجوابهما واقتيادهما إليه. إشارة السلطان الذكية إلى محاولات الاغتيال السابقة لم تفلح في تحويل انتباه الياور. عندما اقترب الفارسان كنّا كلنا أكثر هدوءًا. كانا اثنين من سعاة القاضي الفاضل المدرّبين على ركوب الخيل مثل البرق، المزودين بسلالة من خيول السباق لهذا الغرض. كان يتمّ استخدامهما في الظروف الطارئة والعاجلة. ومع ذلك فقد مازج الارتياح الذي غمرنا لمعرفة هويتهما قلقًا مما قد يكون وراءهما.

وأخيرًا وصلا إلى منبسط الدرج الذي كنّا نقف عليه. كانا يحملان رسالة للسلطان من القاضي. عندما بدأ صلاح الدين في قراءة الرسالة، امتلأ وجهه بالحيويّة، وبدأت عيناه تتحركان بسرعة مثل سمكة في النيل. بدا سعيدًا. ثم صرف السعاة والحرّاس. أرانا الرسالة التي كانت تقول:

"وصل أحد فرسان الهيكل إلى القاهرة طالبا اللجوء. جاء من معسكر أمالريك، ولديه معلومات كثيرة بخصوص تحرّكاتهم وخططهم. سبب فراره غامض، ويرفض أن يبوح بأسراره لأحد في غياب سموّكم. يبدو من تصرفاته أنّه صادق، ولكن الأمير قراقوش، وهو خير من يحكم على طبائع البشر ونقاط ضعفهم، يجب أن يتحدّث معه، قبل أن تقابله. أنتظر تعليمات السلطان". (خادمكم القاضي الفاضل).

... ...

... ...

أمسك صلاح الدين بقراقوش وبي من ذراعينا، وركض عبر الممرّ المغطى بالطين إلى حيث كان الحصانان مربوطين. بدا متوترًا يتصرّف كمن أصابه مسّ من الجنون. امتطى جواده وانطلق مسرعًا عائدًا إلى القصر مع حرّاسه الذين أخذوا يلاحقونه بصعوبة.

ما أسعدني، أن الأمير قراقوش لم يكن فارسًا مجرّباً وسمح لي بمرافقته وبطانته ونحن عائدون. لم يكن قد سبق لي التحدث معه. أذهلتني معرفته الهائلة بالقاهرة وكنوز مكتباتها. قال لي إن المهمة التي أقوم بها ستكون شديدة الفائدة للمؤرّخين، وكنت سعيدًا لأنّه، على خلاف القاضي الفاضل، ينظر إليَّ نظرة تقدير.

وجدنا السلطان في انتظارنا عندما وصلنا. أراد أن أكون أنا وقراقوش حاضرين وهو يستجوب الفرنجي. كان من الواضح أنه لم يكن يريد تأخير المشاورات. ولكن

الشمس بدأت تميل إلى الغروب. أمرنا بالتوجه من فورنا إلى حمام القصر كي نغتسل ثم نعود إلى غرفة المقابلات الرسمية. ابتسمنا لأننا نعرف أن صلاح الدين ينفر من فخامة وأبهة هذه الغرفة. واضح أنه كان يريد، في ذلك اليوم، أن يُبهر الفارس الفرنجي بفخامة بلاطه.

بعد أن أنعشنا الاستحمام، عدت ببطء عبر الغرف، حيث كان المماليك يحملون المصابيح لإنارة الطريق إلى غرفة المقابلات. هنا يجلس صلاح الدين عادة مرتديًا ثيابه الرسمية، وعلى رأسه عمامة السلطان التي تلمع عليها الأحجار الثمينة النادرة. انحنيت وحُددَ لي مكان تحت عرش السلطان مباشرة. جلس قراقوش بجانبه، وجلس الفاضل في الجانب الآخر.

على الأرض، جلس علماء المدينة على شكل نصف دائرة، ولسعادتي الشديدة كان من بينهم ابن ميمون. بعد دقائق قليلة سمعنا دقات طبل تعلن أن اللاجئ الأجنبي على وصول. صمتنا جميعا. تقدّم الفرنجي مع حرس يحمل سيفًا معقوفًا، دخل وتقدم نحو العرش مباشرة. وضع سيفه تحت قدمي السلطان وانحنى. لم يرفع رأسه إلا بعد أن أُذِنَ له. أشار له قراقوش بالجلوس.

"السلطان سعيد باستقبالك يا برتراند صاحب تولوز".

ذلك الصوت أعرفه، ولكنه الآن يتردد خاليًا من نبرات الرقة. هكذا تكلّم القاضي بثبات وسلطة أدهشتني. وهكذا، كما دار بخلدي، كان يجب أن يتكلم وهو يقيم العدل ويعاقب المذنبين.

"أنت في حضرة يوسف بن أيوب سلطان مصر وسيف المؤمنين. نحن سعداء لأنك تتكلم لغتنا، وإن كان على نحو ركيك. كلنا آذان مصغية لكي نسمع لماذا أنت هنا".

كان برتراند صاحب تولوز متوسّط الطول، له بشرة بلون الزيتون، تجعله أكثر سُمرة من سلطاننا. شعر أسود وعينان بنيّتان، ولكن ندبة قبيحة على خده الأيسر شوّهت وجهه، وجعلت من الصعب التركيز على ملامحه الأخرى. بدا الجرح، الذي ربما كان من أثر ضربة سيف، حديثًا، لم يمرّ عليه أكثر من أسبوع تقريبًا.

أوشك برتراند أن يجيب عندما تكلّم صلاح الدين. صوته، كما سمعته، بدا عاديًا، وكنت سعيدًا لذلك.

"كلنا متلهفون لمعرفة سبب مجيئك. ولكن قبل أن تبدأ في الكلام أريد أن أعرف إن كانوا قد رحّبوا بك في غيابي. هل أكلت خبزنا؟"

أومأ برتراند برأسه مع انحناءة خفيفة.

"إذن فلنقدّم لك بعض الملح".

قدّم له أحد الخدم صحنا فضّيا عليه ملح. أخذ برتراند مقدارًا ضئيلا بأصابعه، ووضعه على لسانه.

"الآن يمكن أن تتكلّم يا برتراند"، كذا قال السلطان وهو يأذن له بالجلوس.

كان برتراند يتكلّم العربية بصوت خشن أجش، ولكن سرعان ما اختفت الابتسامة، عندما بدا واضحًا لكل الموجودين تمكّنه من لغتنا.

"أنا ممتن لسموكم لاستقبالي فور وصولي وللثقة بي. أنا بالفعل برتراند صاحب تولوز، عضو جمعية فرسان الهيكل. على مدى الأيام الخمسة الماضية كنت مع الجمعية في أورشليم التي تسمّونها القدس. نحن تحت قيادة ملكنا أماlريك الذي تعرفونه ويعرفكم جيدًا.

ما تستغربونه جميعا هو سبب مخاطرتي بحياتي مرتين بالهرب من مملكتي ودخول مملكتكم. المرة الأولى كانت بفراري من الجمعية تحت جنح الليل قبل ليلتين. كادوا أن يمسكوا بي، وكان ثمن الحرية ذلك الجرح على وجهي. السيف الذي شجّني كان سيف فارس يقف قريبًا من السيد الكبير نفسه. المخاطرة الثانية كانت تعرّضي لخطر القتل من رجالك الذين كان يمكن ألا يصبروا كي يسألوا أو ينتظروا ردي. تحدّثي بلغتكم، وإن لم يكن بإتقان، ساعدني على النجاة خلال الرحلة، وأن أصل سالما إلى بلاطك.

دعني أبدأ قصتي باعتراف. أنا في نظر كنيستي مهرطق. وإذا كانت الهرطقة أسلوبًا آخر للتعبير عن النضال من أجل الإله الحقيقي، فأنا بالفعل مهرطق وفخور بهذه الحقيقة.

أنا من قرية صغيرة في تولوز، وهناك تأثّرت بكاهن كان ينتقد كنيستنا ويعظ مبشّرًا برؤية جديدة للرب. كان يقول دائمًا إن الكنيسة تفتقر إلى حشد، والحشد يفتقر إلى كهنة، والكهنة يفتقرون إلى الفضيلة والوقار، وفي النهاية فإن المسيحيين يفتقرون إلى المسيح. كان يقول إن هناك إلهين، إله خير وإله شر، وإن هناك صراعًا مستمرًا بين هاتين

القوتين الأبديتين المتساويتين.

كان يقول إن الثالوث المقدّس عند المسيحيين تجلٍ للشر، الروح القدس يمثل روح الشر، والابن هو ابن دار الخسران، والأب ليس سوى الشيطان نفسه. كان يقول إن هناك مسيحَيْن، المسيح الذي في السموات خير، أما المسيح الذى على الأرض فهو شرير. كان يقول إن مريم المجدلية كانت محظيّة المسيح الأرضي، وأن يوحنا المعمدان كان مبشّرا بالمسيح الضد. الشيطان كان الشقيق الأصغر للمسيح، والصليب عدو لله ورمز للآلام والعذاب. وهكذا فهو أيقونة ينبغي تحطيمها وليس عبادتها.

كل القرية -وكانت عبارة عن ثلاثمائة شخص تقريبًا- انضمت إلى ذلك الكاهن، وساعد أهلها في نشر كلماته في القرى المجاورة. لدهشتهم اكتشفوا آخرين هناك يشاركونهم نفس الأفكار. وسرعان ما عرفنا أن كونتات تولوز متعاطفون مع هذه الأفكار، وقوّى ذلك من عزيمة قريتنا. عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر، قبل هذا الشهر بخمسة عشر عامًا، كنا نحطّم أي صليب يمكن أن نجده. كنا نحرقه أو نستخدم خشبه لصنع أدوات قد تكون مفيدة للقرية. هذا الفعل في حد ذاته جعلنا أسوأ من العفاريت أو الخفافيش، لأن كائنات الظلام هذه تخاف الصليب. بينما كنا نحن المهرطقين أكثر صفاقة وتحديا.

هناك في طائفتنا ثلاث مراحل كي يصبح المرء مؤمنا حقيقيا. نبدأ كمستمعين. نتشرّب الحقيقة الجديدة ونتعلّم الفن المزدوج للمناظرة والمنافقة بالنسبة لخصومنا المسيحيين. المرحلة الثانية هي مرحلة المؤمن. وبناء عليه يكون علينا أن نثبت كفاءتنا بكسب تابعين جدد لقضيّتنا. بعد أن نكون قد كسبنا خمسين مستمعًا جديدًا نصبح معروفين بالحرفيين، الذين بلغوا حد الكمال، ويمكن أن نشارك في اختيار مجلس الخمسة الذي يتخذ كل القرارات المهمة.

أنا حرفي، طلب مني المجلس أن أخترق جماعة من فرسان الهيكل، أن أستميلهم وأتملّقهم وأكسبهم إلى جانب قضيتنا. كانت القسطنطينية قد حثّت السيد الأعظم رئيس المحفل على أن يحرق أباطيل وزيف أولئك الهراطقة في نار الحقيقة، وكان مجلسنا يشعر بأننا ينبغي أن نكون ممثّلين داخل هذه الجماعة لكي نحذّر أتباعنا من النهاية المُحدقة.

الإفراط في الجنس والكحول ليس مسموحا به من قبل المجلس. يعتقدون أن الجماع

والشراب يضعفان عزيمتنا فنصبح قابلين للاختراق.

خانني مستمع كان جالسا يشرب، غير مدرك لوجود تابع للسيد رئيس المحفل. كان يتباهى ويتفاخر بنجاحنا. لم أعرف ذلك إلا بعد أن دخل السجن ليلاقي العذاب. بسبب أسلوبنا في التنظيم، لم يبح سوى باسمي واثنين آخرين.

قيل لي إن رئيس المحفل غضب بشدة، عندما ذُكر اسمي ولم يصدّق ما سمع. عرفت ذلك كله لحسن الحظ عن طريق أحد المؤمنين في بطانة رئيس المحفل. عرفت أنني كنت تحت المراقبة، وقطعت صلتي بأتباعنا.

بعد أيام قليلة اعتقلوني وخضعت للاستجواب خمس ساعات متصلة، وكان المحقق هو رئيس المحفل شخصيا. أنكرت كل صلة لي بالمجلس، وعبّرت عن ثقتي الكاملة بكنيسة روما والقسطنطينية. ظننت أنني أقنعتهم عندما أفرجوا عني. كان يبدو أنهم توقّفوا عن تتبعي ومراقبة خطواتي.

كان هناك ثلاثة حرفيين آخرين في أورشليم. التقينا ذات ليلة ونصحوني بالمغادرة وطلب اللجوء إلى القاهرة. قمت قبل شروق الشمس في الصباح التالي، وكنت أسرج حصاني عندما هاجمني فارس. كان يشك فيَّ. استخدم سيفا سرّيًا لا تعرفه سوى طائفتنا، كان واضحًا أنه حصل عليه بتعذيب المؤمنين الثلاثة. فاجأني ورددت عليه قبل أن أرى سيفه في الظلام. سحب سيفه. قتلته، ولكن ليس قبل أن يترك بسيفه علامة على وجهي. انطلقت بحصاني مثل الريح يا سيدي. لو أنهم أمسكوا بي لقتلوني شر قتلة.

هذه هي نهاية قصتي، والآن أنا تحت رحمة السلطان العظيم صلاح الدين، المعروف كرمه للكافة".

بينما كان برنارد يتكلم، لم تكن هناك سوى ثلاثة وجوه بقيت جامدة. السلطان وقراقوش والفاضل. بقية الحضور، وأنا منهم، تبادلنا النظرات. تحسّست الأيدي لحاها في أثناء وصفه للهرطقة. مسّدوها بعصبية وكأنهم يسكنون غضب أصحابها.

قال السلطان: "لقد استمعنا إليك باهتمام يا برتراند صاحب تولوز، فهل أنت مستعد لأسئلة علمائنا؟"

"بكل سرور يا سيدي".

كان القاضي أول السائلين، وبصوت معسول هذه المرة "ما تعتبره الكنيسة هرطقة هو معارضتكم للثالوث المقدس وعداؤكم للأيقونات. نبيّنا كذلك لم يرض بعبادة الأيقونات أو الصور. هل قرأت القرآن؟ هل تعرف رسالة نبينا عليه السلام؟"

لم يجفل برتراند صاحب تولوز، عندما قال:

"إحدى الميزات التي لكم على مَن سواكم، هي استحالة أن يشكّ أحدٌ في وجود نبيّكم. كان حقيقيًا. وعليه من الصعب نسبة صفات مزدوجة له. عاش، تزوّج، أنجب، حارب، غزا، مات، تاريخه معروف. هذه المدينة الرائعة.. وكلكم.. من نتاج رؤية نبيكم المتميزة.

قرأت القرآن بالطبع، وهناك الكثير الذي أتفق فيه معه، إلا أنني لا بدَّ من أن أتكلّم بصراحة.. يبدو لي دينكم قريبا جدا من المتع الدنيوية. ولأنكم أدركتم أنكم لا تستطيعون العيش بالكتاب وحده، شجّعتم على اختراع الأحاديث كي يساعدكم ذلك على حكم الإمبراطوريات التي كسبتموها. ولكن، ألا يناقض بعض الأحاديث بعضًا؟ من ذا الذي يقرر ما تؤمنون به؟"

ردّ السلطان بسرعة: "لدينا علماء متفرغون لدراسة الأحاديث"، لم يكن السلطان يريد أن يسيطر قاضيه على النقاش، "وأنا شاب كنت أدرس الأحاديث بكل سعادة.. وبعناية كبيرة كذلك. أنا معك. الأحاديث منفتحة أمام أكثر من تفسير. لذا، لدينا علماء للتحقق من مدى صحتها. نحن نحتاجها يا برنارد صاحب تولوز، نحتاجها. من دون هذا التراث لا يستطيع ديننا أن يكون قانونا كاملا للوجود".

"وهل يمكن أن يكون أي دين قانونا كاملا للحياة بينما يوجد بين صفوف المؤمنين تباين كبير في التفسير والتأويل؟ أتباع الخلفاء الفاطميين، مثلا، لا يشاركونكم أفكاركم ولا أفكار الخليفة في بغداد. الشيء نفسه ينطبق على ديننا أو دين اليهود. من يحكم يضع القوانين".

ضحك صلاح الدين وقال: "أنت مهرطق أصيل يا صديقي!"، وأشار لكي يسأل من يريد.

وقف رجل مسنّ، كان عالما مبجّلا من الأزهر، تكلّم بصوت مبحوح ضعيف، أقرب ما يكون إلى الهمس، ولكن تمكنه أجبر الجميع على الإنصات ليلتقطوا كل كلمة:

"فليأذن لي السلطان الكريم، أريد أن أشرح لضيفنا حقيقة واحدة. الخوف الكبير الذي يؤرّق كل إنسان بصرف النظر عن دينه، هو خشية الموت. هذا خوف يتملكنا جميعا. في كل مرة نقوم فيها بتغسيل وتكفين جثة، نرى مستقبلنا فيها. في الجاهلية، وربما قبلها بزمن طويل، كان ذلك الخوف شديدا، لدرجة أن الكثير من الناس كانوا يفضلون ألا يعتبروا الموت حقيقة، كانوا يعتبرونه رحلة إلى عالم آخر. الإسلام كسر هذا الخوف من الموت. هذا وحده يمكن اعتباره أحد إنجازاتنا العظيمة، إذ دون كسر هذا الخوف لا يمكن أن نتقدم. نظل متأخرين. نبينا هو الذي أدرك أهمية هذه المسألة قبل الآخرين جميعا. لذا يا برتراند صاحب تولوز، وصل جنودنا إلى حدود هذه القارة وإلى قلب قارتكم، ولذا أيضا لا يستطيع أي شيء أن يوقف هذا السلطان عن الاستيلاء على القدس التي تدعونها مملكة أورشليم".

ثم تكلّم قراقوش.

"فليأذن لي السلطان. أريد أن أسأل برتراند صاحب تولوز سؤالا واحدًا. ما هو في رأيك أيها الفارس الهمام، أهم فارق بين معتقداتكم ومعتقدات نبينا؟".

لم يتردد برتراند لحظة، وقال: "الزنا".

بدت الدهشة على العلماء ولكن صلاح الدين ابتسم.

"أفصح يا برتراند صاحب تولوز".

"سأفصح انصياعا لإصرار سمّوك. منذ مجيئي إلى هذه البلاد، ومنذ أن تعلّمت لغتكم وأنا أدرس الأحاديث وبعض تفاسير القرآن. يبدو لي أن الزنا، والشروط التي ينبغي أن يتم التحقق منها لوقوعه أو عدم وقوعه، قد شغلت النبي وأتباعه كثيرا. في القرآن، تسقط سورة البقرة -إن لم تخني الذاكرة- الجماع، هذا المحرَّم العربي التقليدي، في أثناء الصيام. بعض الأحاديث تروي عن نبيكم أنه قال إن الله قد قدر نصيب كل رجل من الجماع الذي سيقوم به. كل إفراط، إذن، بقضاء وقدر. وقد شرح لنا الشيخ العالم قبل قليل أن دينكم قد أزال الخوف من الموت من عقول أتباعه. أليس ذلك، في جزء منه على الأقل، مرتبطا بتصوّركم لجنّة الفردوس؟ جنتكم هي الأكثر حسية وشهوانية. ألم يوعد من يموت من جنودكم في الجهاد بأشهى المتع في الجنة؟ انتصاب دائم وعدد لا حصر له من الحوريات يختارون من بينهن، وهم يرشفون من أنهار الخمر؟ جنتكم تبيح كل المحرمات الدنيوية. وحده، الرجل الذي فقد حواسه هو الذي

يخشى الموت. كل ذلك نابع من ثقة نبيكم بنفسه".

"كان نبينا مخلوقا من لحم ودم يا برتراند صاحب تولوز. لم يكن هناك شك في رجولته. حتى سيفه كان اسمه "الفهر" أي السيف اللامع. نبينا كان رجلا كاملا. كلنا فخورون بأعماله. ولأننا متمسكون بسنته يكافئ الله شعبنا، حتى لو أنعم علينا بمثل ما أنعم عليه به وهو ميت! إلا أنني أظنك مخطئا. القوة الدافعة لديننا ليست الجماع، وإنما هي العلاقة بين الله والمؤمن. يمكنك، إن شئت، أن تقول إن أسلوبنا في النظر إلى العالم متأثر إلى حد كبير بالتجّار. تبدو مندهشا. يمكن أن نقول إن الله مثل شيخ التجّار، فكل شيء في هذا العالم هو الذي يقدّره. كل شيء محسوب. كل شيء مقدّر، والحياة تجارة فيها الكاسب والخاسر. من يعمل الخير يجني الخير، ومن يفعل الشر يجني الشر، حتى على الأرض. المؤمن يقرض الله قرضا حسنا، بمعنى آخر هو يدفع مقدما لحجز مكان في جنة المسلمين. عند الحساب الختامي، تُقرأ أعمال البشر من دفتر الحساب بين يدي الله. تُوزن بدقة، ويحصل كلٌّ على ما يستحق. هذا هو ديننا. وهو يبين تأثير عالمنا. عالم حقيقي يتحدث بلغة مفهومة، وهذا هو سر نجاحه.

كفي كلاما في اللاهوت هذا المساء. دعونا نأكل ونشرب. غدا ستخبرنا بخطط أمالريك، وسوف نسألك الكثير من الأسئلة الكاشفة عن الأبراج وفتحات إطلاق النار في أسوار القدس. ستكتشف أن أمرائي أكثر تهذيبا من علمائنا".

(13)

• شادي يختبر العداء التطهّري للزنا بالتجسس على برتراند صاحب تولوز • وجميلة تروي كيف خالف صلاح الدين سنّة النبي بقذف منيه على بطنها

جلسنا أنا وشادي، بعد أن انتهينا من تناول الطعام، نستمتع بالصباح، وفناء القصر يستحم في شمس أوائل الربيع. أخذ يتحدث عن الأسرار العسكرية التي جاء بها برتراند صاحب تولوز وبُلّغت للسلطان. لم يوضح لي طبيعة تلك الأسرار، إلا بإشارات وتلميحات إلى أن القدس جميلة مثل مدينتنا.

اقتصر الاجتماع على السلطان، وستة من أمرائه موضع الثقة، وشادي الذي أُسندت إليه مهمة العناية بشئون الفارس الفرنجي. حاول شادي إقناع الفرنجي بأن هناك أكاذيب وخرافات في كل دين، وفسادًا في كل المِلَل والنِحَل التي تشكّل أي عقيدة. أنبياء كذبة وخطباء وواعظون يمكن شراؤهم في أسواق القاهرة ودمشق. رفض الفرنجي فكرة أن يُتهم الأطهار، الاسم الذي منحتهم إياه الكنيسة، بالانحلال على أي نحو.

حاول شادي أن يختبر عداء الأطهار للزنا، فأرسل واحدة من أجمل الخادمات وأكثرهن دهاء في الحريم لإغواء الفارس. وذلك بعد أن وعدها بمكافآت سخيّة إذا ما نجحت. اغتاظ شادي، لما قاوم برتراند سحرها بقوة، وطردها بكل كياسة من غرفته. لكن شادي الماكر دبّر محاولة أخرى لضيف السلطان الذي كان محل كل ترحيب. هذه المرة جلبوا ذكرًا ماجنًا لليلة واحدة من ماخور خاص مقصور على علية القوم. وحيث إن شادي كان قد ائتمن رئيس الطهاة على خطته فقد ذاع الخبر في القصر.

أما في الحرملك، فكان الجميع على نار في انتظار فجر الغد. قادني شادي باتجاه

الحريم فور انتهائنا من تناول الطعام. استجابة لطلب من السلطانة جميلة، حصل على إذن من السلطان لها ولحليمة أن تلتقياني لمدة قصيرة في غرفة خاصة مجاورة للحريم. أخذني إلى هناك وهو يتمتم ويغمز للخصيان الذين تزايد عددهم ونحن نقترب من الحرملك.

ابتسمت حليمة عندما رأتني. لم تكن ابتسامة عادية، ابتسامة أضاءت وجهها كله، وتسارعت لأجلها دقات قلبي، حتى وإن كان سبب سعادتها المرأة التى تقف إلى جوارها لا شخصي الضعيف. أقصد السلطانة جميلة. امرأة فاتنة بحق. لا يرقى الشك إلى جمالها. بدت لناظري أطول من السلطان. شعرها متناسق مع سواد عينيها وحاجبيها المقوّسين. كانت سمراء البشرة كما وصفتها حليمة تمامًا. ولكن كان هناك شيء ما في طريقة حركتها. الطريقة التي قابلت بها نظرتي المحدقة والطريقة التي كانت تتكلم بها، تعكس شعورًا زائدًا بالثقة والسلطة قلّما نجده عند نسوة الحريم. أو هذا ما ظننته على الأقل. كنت مخطئا بالطبع. الصورة التي رسمتها حليمة وجميلة لجناحهن المعزول بددت الصور القديمة من عقلي إلى الأبد.

نظرت إليّ جميلة عمًدا وابتسمت ولسان حالها يقول: انتبه أيها الكاتب، هذه الفتاة الصغيرة قالت لي كل ما أريد أن أعرفه عنك. ضحكت حليمة عندما انحنيت لهما.

أصابني الخرس بسبب الحرج الشديد الذي شعرت به. هذا آخر سؤال يمكن أن أتوقعه! ابتسمت حليمة لتطمئنني وأومأت برأسها تشجّعني على الإجابة. كرّرت على مسامعهما العبارة التي ينسبها برتراند لعلي(2) وترجمتها جميلة، وانفجرتا بالضحك.

"هل صحيح أن الفرنج يعتبرون ديننا مشغولا بتفاصيل النكاح؟"

هززت رأسي مؤكدًا.

عادتا للضحك مرة أخرى. لاحظت سلوك هاتين المرأتين وهما تضحكان وتمزحان معا، كأنهما تسعدان سعادة عاشقين في الأشهر الأولى من النعيم. أمر غريب أن أرى حليمة ذات الإرادة القوية مأخوذة بتلك الفتنة اليمنية التي بادرتني بالسؤال مرة أخرى:

"هل كان صلاح الدين مبتهجًا لملاحظات برتراند؟"

"نعم يا سيدتي. ضحك وقال إنه شرف للمؤمنين أن يكون لهم نبي بمثل تلك الفحولة والرجولة. رجل بكل معنى الكلمة، حتى إنه ذكر اسم سيفه في معرض حديثه".

قالت جميلة: "أنا سعيدة لسماع ذلك، فلطالما قلت له نفس الكلام على مدى سنوات. بعض علمائنا يطبخون تاريخنا ليصبح للحم الجمل طعم لحم الضأن، وهذا ليس صحيا بالنسبة لأفكارنا. ربما يكون سلطانك ملما بالأحاديث، ولكن ليس مثلي بالتأكيد. أتذكَّر، وكان ذلك بعد أن أصبحت زوجته بوقت قصير، أن كنا معا ذات مرة في الفراش، وانفصل فجأة عنّي منسحبا في اللحظة الحاسمة ليقذف منيه على بطني. دهشت، لأن الحمل كان الهدف الرئيسي للقائنا، كي أنجب له ابنا أو حتى اثنين.

قلت له إن العزل يتعارض مع حديث نبوي. فوجئ في البداية ثم ألقى برأسه إلى الوراء وأخذ يضحك ويضحك. لم أستطع أن أجعله يضحك كذلك مرة أخرى. ظن أنني لفّقت حديثًا ونسبته للرسول. قلت له إن الحديث موجود في صحيح مسلم برقم "3371". ما زلت أذكر ذلك. ولكن صلاح الدين لم يصدّقني.

نادى أحد السعاة وأرسله برسالة قصيرة إلى الفاضل. هل تتصور يا ابن يعقوب؟ لم يكن النهار قد طلع. كانت السماء لا تزال مرصّعة بالنجوم. هل تتخيل الساعي يدق باب القاضي المبجّل، بسؤال عاجل من السلطان، بشأن حديث بعينه خاص بالعزل؟ ماذا لو كان القاضي نفسه مشغولا بتلك الممارسة غير الشرعية في تلك اللحظة؟ في غضون ساعة عاد الساعي بالرد. أكد الفاضل دقّة معلوماتي.

على مدار العامين التاليين كان صلاح الدين يركبني وكأنني مهرته المفضلة. امتزج ماؤنا كثيرًا. أنجبت له ابنا ثم آخر. بعدها تركني وحيدة. كان يأتي أحيانا كما يفعل الآن، ولكن لمناقشة شئون الدولة أو الشعر أو الأحاديث.. ولكن ليس لشيء حميم. كأنما جعلت المعرفة منّي ندًا له، فأصبحت في عينيه رجلا".

"هل تعرف كيف يشير الفرنج إلى العزل؟"

من أسف أنه لم يكن لديَّ معرفة بمثل تلك الأمور، ورفعت يدي إلى السماء إشارة على اعترافي بجهلي. ابتسمت جميلة.

"إنهم أكثر شاعرية منا. تحليق الملائكة".

انتقلت عدوى الضحك إليَّ، وكان من الصعب أن أمنع نفسي من الابتسام مما أسعدهما معا. عند هذه النقطة، فهمت كيف ولماذا وقعت حليمة تحت سحر تلك المرأة. عذرتهما. زايلني التشوش فجأة. زالت بيوت العنكبوت وأصبح قلبي مغسولا، نظيفا.

نظرتا إليَّ ولاحظتا ما اعتراني من تغيّر، وأدركتا الآن أنه يمكن الوثوق بي كصديق مؤتمن.

تجاهلتا وجودي برهة، وراحتا تتحدثان معا. جميلة سألت حليمة عن امرأة ثالثة لم أكن قد سمعت باسمها من قبل. يبدو أنها تعسة، لأن الله لم يرزقها بأطفال.

قالت حليمة: "هي أشبه بشجرة البرتقال التي تتوسل للحطاب أن يقطعها، لأنها لم تعد قادرة على تحمل رؤية ظلها الذي لا يحمل ثمارا".

بعد أن تناقشتا حول ما يمكن عمله لتخفيف الألم عن صديقتهما، نظرت جميلة إليَّ.

"هل تعتقد أن هناك حياة بعد الموت يا ابن يعقوب؟"

مرّة أخرى أخذتني السلطانة على حين غرة. كنت أنا وابن ميمون قد تحدّثنا في هذه المسألة، لكن حتى ونحن بمفردنا كنا نحرص على أن نتكلم رمزًا. فالشك في أركان الدين أفظع من الهرطقة. بل هو أقرب إلى الجنون. نظرت في عيني مباشرة محدقة، نظرة مستفزة كأنها تتحدّاني أن أفصح عن شكوكي الخاصة.

"يا سيدتي السلطانة، أنت تطرحين أسئلة لا يجرؤ العامة حتى على التفكير بها، خشية أن تخونهم أفكارهم دون قصد منهم. كلنا من أهل الكتاب. نؤمن بالحياة الآخرة. إن طرح سؤال مثل هذا يمكن أن يجعل حاخاماتنا وباباوات المسيحية وخليفتكم في بغداد يقطعون لسان صاحبه أولا ثم يقتلونه".

لم يعجبها حذري.

"في بلاط والدي أيها الكاتب النحرير، كنت أناقش مسائل الحياة والموت دون قيود. ما الذي يوتّرك هكذا؟

شاعرنا العظيم أبو العلاء المعري كان يضع كل شيء موضع المساءلة، بما في ذلك القرآن. عاش عمرا طويلا في حلب. لم يكن يسمح أبدا لأي سلطة بأن تضع قيودا على سلطان عقله.

ابن رشد ورفاقه في الأندلس، الذين درسوا وفهموا وطوروا الفلسفة اليونانية كانوا يميلون كذلك إلى الشك. الوحي المقدس في كل كتبنا القديمة العظيمة هو أحد ضروب الحكمة. يعتمد على التراث لخلق مجموعة من القواعد التي نعيش بموجبها وتكون قانونا

للسلوك. ولكن هناك ضربا آخر من الحكمة كما علمنا اليونانيون القدامى، وهي حكمة يمكن بيانها للكل دون الاستعانة بالسماء. هذه الحكمة، كما قال لي معلمي في المنزل ذات يوم، تسمى العقل. الإيمان والعقل يتصادمان كثيرا، أليس كذلك يا ابن يعقوب؟ سعيدة أننا متفقان. الحقيقة الإلهية، على خلاف العقل، لا يمكن إثباتها. لذلك ينبغي أن يبقى الإيمان أعمى دائمًا، وإلا فلن يكون إيمانا.

لم تجب عن سؤالي الأساسي: هل توافق على أنه لا يوجد شيء بعد الموت؟ ما تراه هو رجال ونساء يعيشون ويموتون، وبعد الموت يصبحون ترابا أو رملا. لا رحلات طويلة إلى الجنة أو النار. هل توافق يا ابن يعقوب؟"

"لست متأكدا يا سيدتي. المؤكد أنه من المريح أن تكوني مخطئة وتؤمنين بأن هناك جنة، سماء سابعة، تلك التي تحدث عنها نبيكم العظيم".

هذه المرة لمعت عينا حليمة وردت غاضبة:

"جنة للرجال يا ابن يعقوب. للرجال. إذا ذهب شادي إلى هناك سيكون له انتصاب سبع سنوات، واختيار بين أبكار مثل تفاحات من الشجرة، ولكن كليهما.. القرآن والحديث صمتا عن مسألة ما سوف يحدث لنا نحن النساء. لا يمكن أن نتحوّل إلى أبكار. هل سيكون هناك شباب متاحون لنا، أم سنترك لبعضنا بعضا؟ لا شكّ في أن ذلك سيكون رائعًا بالنسبة لجميلة ولي، ولكن ليس لمعظم صديقاتنا في الحرملك. ثم ماذا عن الخصيان؟ ماذا سيحدث لهم؟"

فاجأنا صوت السلطان.

"ولماذا لا بدَّ من أن يحدث شيء للخصيان؟ عم تتحدثون أنتم الثلاثة؟"

لخّصت جميلة مسألتها وردي عليها. هدأ وجه السلطان ثم استدار ناحيتي.

"ألا توافق أيها الكاتب على أن جميلة يمكن أن تكون ندا لأي عالم في القاهرة؟"

"بل يمكن أن تكون حاكما حكيما كذلك يا مولاي".

ضحكت جميلة.

"إحدى مشكلات ديننا العظيم هي أننا نستبعد نصف المجتمع من النهوض به. ابن

رشد أشار مرة إلى أنه إذا سُمح للنساء بالتفكير والكتابة والعمل، لأصبحت بلاد المؤمنين الأقوى والأغنى في العالم".

راح السلطان يفكر.

"قيل ذلك زمن الخليفة عمر. قالوا إن خديجة أولى زوجات نبينا كانت تاجرة، واستأجرت النبي كي يعمل لديها لمدة قبل أن تتزوجه. بعد وفاته، حملت عائشة زوجته السلاح وقاتلت، كان ذلك مقبولا في ذلك الوقت. ولكن هناك أحاديث كثيرة تعارض وجهة النظر هذه و...."

أخذ يضحك، وانتقل الحديث إلى موضوع أسهل. بدأنا نتحدث عن الفخ الذي ينتظر برتراند صاحب تولوز الليلة. فقد ذاع سر الحيلة التي دبّرها شادي في أرجاء القصر. كانت حليمة وجميلة شغوفتين، وكذلك كان السلطان. أرادتا معرفة ما إذا كان الفارس سيقع في فخ شادي الأخير أم لا.

جُهّزت الغرفة التي أُعدت للفارس، بحيث يمكن التجسس على شاغلها من زاويتين من الغرفة المجاورة لها. بنى الغرفة أحد خلفاء الفاطميين ليستمتع بمراقبة محظياته وهن يمارسن الجنس مع عشاقهن. وعلى الرغم من أن تلك النسوة البائسات كن يُعدمن فيما بعد، فإن المنظر كان يستثيره أكثر من ركوبه إياهن.

(14)

● موت السلطان نور الدين وفرصة صلاح الدين

كنت في مكتبة القصر منهمكا في دراسة خريطة العالم للإدريسي. كان السلطان قد أرسلني لدراسة الخريطة للتأكد مما إذا كانت تولوز مُبيّنة عليها، وأن أعرضها عليه فورًا إذا ما كانت هناك.

لم أكن قد انتهيت من عملي عندما دخل شادي وعلى وجهه نظرة انتصار شريرة. كان واضحا أنه قد فاز في صراع الإرادة مع برتراند. هنّأته.

قال بصوت وقور "لا أريد أن أصدمك يا ابن يعقوب. أنت عالم وكاتب كبير، وتجهل الكثير من أساليب الحياة. لن أتوقف طويلا عند أحداث الليلة الماضية في غرفة النوم التي يشغلها الآن فارسنا القادم من القدس. من الصعب أن أبلغك بأنه يهوى الشبان الصغار، ولكنه يصر على طقس عنيف قبل أن يستخدمهم. أُنهك جسد ذلك الشاب المسكين إلى أقصى مدى ليلة أمس. هناك كدمات وآثار سياط على جلده، وكان لا بدَّ من أن تدفع له الخزانة ثلاثة أضعاف المبلغ المتفق عليه. كل ذلك بسبب الأساليب الغريبة لفرسان الهيكل هؤلاء. جواسيسنا وصفوا لنا ما حدث بالتفصيل.. وإذا كنت راغبا..."

قبل أن ينهي شيطاننا العجوز عبارته، ظهر أحد خدم السلطان يستدعيني إلى لقاء سموّه دون إبطاء. تجاهلت غمزة شادي وهرولت مسرعا للقاء السلطان، بعد أن فشلت في أن أجد تولوز على خريطة الإدريسي، رغم أنها كانت مليئة بالتفاصيل. خاب أمله، ولكن سرعان ما هدأ لكي يُملي عليَّ.

تبعني شادي إلى غرفة السلطان مستاءً من عدم اهتمامي بحكايته عن مغامرات برتراند الليلية. من نظرة على وجه السلطان، فهم أن الوقت غير مناسب للتوقف عند

عادات برتراند صاحب تولوز. قبع في الركن مثل كلب أمين. تجاهل صلاح الدين وجوده وبدأ يتكلم.

... ...

... ...

الموت يفاجئنا بأساليب عديدة يا ابن يعقوب، وميدان القتال هو الأقل إزعاجا من بينها. هناك، أنت تتوقع الموت. إذا كان الله قد قدّر أن ساعتك لم تحن بعد، فأنت تواصل الحياة لكي تقاتل.. وتموت في يوم آخر.

سقط سلطاننا العظيم نور الدين مريضا في أثناء لعب الشوجان، يقال إن أحد أمرائه غشّه في ضربة، وأن السلطان غضب بشدة وأغمي عليه. حملوه إلى القلعة في دمشق ولكنه لم يفق. كان طبيبه الشخصي يريد أن يُجري له حجامة ولكن الرجل العظيم المعتدّ بنفسه رفض، وقال بنظرة ترفع "رجل في الستين لا يفصد"، ثم مات بعد أيام قليلة. لقد خسر عالمنا الكثير بفقده. كان ملكا عظيما وأحد التابعين الحقيقيين للنبي. هو أول من بدأ الجهاد ضد الكفار، ولذلك أحبّه شعبنا كثيرا. وكثيرا ما جاءني صناع الضغائن والمكائد بقصص عن تجهيز نور الدين جيشًا جرارًا للاستيلاء على القاهرة، والحطّ من قدري لأصبح مجرد تابع له، ولكنني تجاهلت ذلك كله باعتباره مجرد شائعات لا تمت للحقيقة بصلة.

نعم كانت بيننا خلافات، لكنها لم تكن من باب الخصومة أو المنافسة. كان يعرف أن الحرب ضدي لن تكون إلا في صالح الفرنج. اختلافنا كان على طبيعة الهجوم الذي نقوم به على العدو. نور الدين كان ملكا كريما وعادلا، ولكنه كان بَرِمًا نافد الصبر. قلت له مرارًا إن توقيت الضربة لا بدَّ وأن يكون محسوبًا بكل دقة. إن أخطأنا فإن قضيتنا كلها ستكون معرّضة للدمار. مهما كان لم تكن تلك خلافات بين عدوين. إنما كانت اختلافات في إطار معسكر المؤمنين.

كان من دواعي فخري أن أكون، في حياته، تحت ظله الوارف، ولكن موته غَيَّرَ المشهد كله. إن ظلت القاهرة ودمشق غير مترابطتين، فسوف يستغل الفرنج ذلك عن طريق الرشوة والحرب. سيعزلون مدينة عن الأخرى ويدمرونهما. لو أنني مكانهم لفكرت بنفس الأسلوب. إنني قبل أن أدخل معركة، سياسية أو حربية بالكلمات أو السيوف، أضع نفسي دائمًا داخل فكر العدو. الفاضل يقوم بإعداد ملف يفصِّل فيه أنشطة

العدو الذي نستعد لملاقاته. نحن نحصل على تقارير عن مكامن قوته وضعفه، عن طبيعته وأهدافه. لدينا قائمة بأسماء مستشاريه وأقاربه. نعرف كيف يفكرون. نعرف كل شيء عن الخلافات بينهم. بكل هذه المعلومات في رأسي، أضع نفسي مكان العدو وأفكر كيف سيحاولون أن يتفوّقوا علينا. لا يحالفني الصواب كل مرة، ولكن بالقدر الذي يجعلني أعرف أن تلك الطريقة تستحق أن أتبعها.

والآن، فكر يا ابن يعقوب. فكر فقط. الآن، نور الدين لم يعد موجودًا. في دمشق وحلب والموصل يقوم من يريدون أن يخلفوه بوضع الخطط لإزاحة منافسيه من طريقهم. ينتظرونني في دمشق لحضور الجنازة، ولكنني سأبقى في القاهرة.

سأتركهم يتّخذون الخطوة الأولى. الصالح بن نور الدين ما زال صبيًا. يحاولون استخدامه لاغتصاب العرش. أنا ما زلت بعيدًا.

آنذاك جاءني رسول برسالة من عماد الدين، أحد المستشارين الثقات لنور الدين، كما هو الآن بالنسبة لي، الرسالة تناشدني أن أحمي الصبي من النسور ذوي الأعين الشرهة التي ترقب القلعة ليل نهار. أرسلت سفيرًا إلى دمشق أعلن ولائي لابن نور الدين. حذرت أمراء دمشق بأنهم سيواجهون غضبة سيفي إذا ما أثاروا أي قلاقل في المملكة.

كثيرًا ما أسأل نفسي لماذا يخلف الحكام الأقوياء دائمًا سلالة ضعيفة. هل هي لعنة أصابت ديننا بأن يكون القلق والفوضى الدائمة قدرنا؟ الخلفاء الأوائل لم يكن يتم اختيارهم بالوراثة وإنما بقرار من صحابة النبي. الأسر التي أسسها الأمويون والعباسيون أدّت إلى كوارث. يتوسّع السلاطين والأمراء في الممالك من أجل أبنائهم. ولكن ماذا لو كان أولئك الأبناء غير قادرين على الحكم كما رأينا كثيرًا منذ وفاة النبي؟ أحيانا أفكّر في ضرورة أن يكون لدينا مجلس حكماء يضم رجالا مثل الفاضل وعماد الدين. أولئك الحكماء يقررون الخلافة. أراك تبتسم. تعتقد أن أولئك الحكماء يمكن أن يطلقوا العنان لأسرهم من الأبناء والأحفاد في الوقت المناسب. ربما تكون محقا، ولكن لنكمل هذا الحديث في وقت آخر. صديقنا شادي راح في النوم!

... ...

... ...

على الرغم من شخير شادي المسموع، قاومت هذا الاقتراح. كنت أعرف أن تفكيره

كان مركّزا الآن على هدف واحد. إعادة فتح القدس. المعلومات التي حصل عليها من برتراند صاحب تولوز قوّت ثقته. الآن كان يرى أنه يستطيع أن يهزم أماليك.

اقترحت أنه ربما يكون علينا أن نكمل قصة انتصاره في دمشق عندما تغلّب على كل منافسيه، وأصبح أقوى حاكم بين المؤمنين بالله ورسوله. فسرعان ما سيدخل معارك جديدة ولن يكون لدينا ما يكفي من الوقت، وقد تضيع ذكريات المواجهات السابقة.

أومأ صلاح الدين برأسه موافقًا على رأيي.

"أنت لبق ولا تريد أن تذكر احتمالا آخر يا ابن يعقوب. قد أقتل في المعركة، وهكذا تبقى قصّتك ناقصة ولا تروى. هناك مزايا كثيرة لوجهة نظرك. دعنا نكمل، رغم أن هناك خطرًا لا بدَّ من أن أنبّهك إليه. أنا الآن أتكلم عن أحداث أثارت مشاعر كثيرة. كان أعدائي يتحدّثون عن غزواتي باعتبارها أعمالا دفعني إليها الطموح. كنت في نظرهم مجرد كردي متسرّع من الجبال، كل همي هو أن أترك أسرة وأن أحقق ثروة لعشيرتي. أقول لك ذلك، لأنك إذا شعرت بأنني تائه في أرض الخداع، فلك مطلق الحرية أن تسأل كما تريد. هل هذا واضح؟"

أومأت برأسي، وأكمل.

أكثر الأخبار إزعاجا من دمشق جاءتني ذات يوم في هيئة جندي كبير السن. ترك المدينة التي ولد بها، واصطحب أسرته وقطيع إبله وكل ما يخصّه، وقطع الصحراء وجاء إلى القاهرة. رآه شادي ذات يوم مستغيثًا أمام القصر. كان جنديا شجاعا يعتمد عليه وكان مرتبطا بشخص أبي.

لم يضع شادي وقتا. وجاء به على الفور ليقابلني. وجدنا مكانا لأسرته، رغم أنه لم يأت ليطلب معروفا.

أبلغني الرجل أن الأمراء في دمشق دفعوا كثيرا من الذهب للفرنج لكسب ثقتهم. تضاعف فعل الخيانة هذا مئات المرات في تبادل الرسائل التي كانوا يطلبون فيها من الفرنج مساعدتهم ضدي. هل تتخيّل ذلك يا ابن يعقوب؟ كانوا يخشون فقدان سلطتهم لدرجة أنهم كانوا يفضّلون تسليم المدينة للعدو. المدينة نفسها التي ودّع شعبها البسيط نور الدين مؤخرا، نور الدين الذي علّمنا كلنا أن أول مهمة هي تخليص أراضينا من ذلك الجراد الذي يعبد الأيقونات وقطعتين من الخشب ملتصقتين معًا.

كنت في قمة الغضب. في تلك اللحظة قررت أنه لا بدَّ من ضمان ألا يدخل الفرنج دمشق. وساعدنا القدر في ذلك. منذ وفاة نور الدين قُسمت المدن الكبرى الثلاث، دمشق وحلب والموصل. الخصي الذي كان يحكم حلب اختطف ابن نور الدين وجعله حجرا ضعيفا على رقعة الشطرنج التي كانت ذات يوم مملكة أبيه. ارتعد نبلاء دمشق. لقد خسروا الحجر لصالح منافسهم. استغاثوا بسيف الدين في الموصل، ولكنه كان مشغولا بشئونه ورفض أن يساعدهم.

عند هذه النقطة توجّهوا إليَّ. كان علينا أن نمتطي خيولنا عبر الصحراء في برد الليل، ولم يكن ذلك أمرا سهلا. استدعيت قادتي وجهّزنا قوة قوامها ألف جندي اخترناهم بعناية.

في مثل تلك اللحظات الحرجة يكون التوقيت أمرًا بالغ الأهمية. وأي تأخير بسيط يكون كفيلا بتحويل الانتصار إلى هزيمة. انطلقنا في اليوم التالي وكأننا في طريقنا للجنة. كان معنا حصان احتياطي لكل جندي بما يمكننا من إراحة الحيوانات، لا أنفسنا وحسب. كنا ننام ونحن فوق الخيول. في غضون أربعة أيام كنت قد وصلت إلى بوابات دمشق. ترى أيها الكاتب سبب سرعتي. أولئك الذين ناشدوني في محنتهم أن أنقذهم يمكن أن يغيروا رأيهم، بالسهولة نفسها، لو أن بديلا آخر مثل الفرنج ظهر أمام أسوار المدينة. لم أكن أريد أن أعطيهم هذه الفرصة.

طفرت الدموع غزيرة من عيني وأنا أدخل المدينة. تلك مدينة شبابي! توجّهت مباشرة إلى منزل أبي. امتلأت الشوارع بالناس الذين هتفوا فرحا بوصولنا. هلل الناس وكبروا، بينما أعيان دمشق ونبلاؤها، بوجوههم الجامدة مثل مؤخرات الجمال ينحنون أمامي، ويقبّلون يدي. يمكن أن يفعلوا نفس الشيء مع أمالريك، وإن ليس بشكل علني. كان يمكن أن يختبئ شعبنا في المنازل لو أن الفرنج هم الذين دخلوا المدينة. أنا لا أتحدث الآن عن المسلمين فقط يا ابن يعقوب. كذلك عن شعبكم، حتى قُدَامى المسيحيين في دمشق الذين يسمون أنفسهم بالقبط، لم يكونوا راغبين في استقبال فرسان الهيكل.

كان يوم فرح. جاء كثير من الأصدقاء القدامى للقائي. عماد الدين، الخائف من الأمراء ومكائدهم ودسائسهم، كان قد ترك المدينة ولجأ إلى بغداد. أرسلت في طلبه، هو وفاضل دمشق. هذان الرجلان الرائعان هما ضميري وعقلي. لو أن حاكما لديه رجال مثلهما لكان العالم أفضل حكما. تركت أخي الأصغر، طغتكين، مسئولا عن دمشق، وذهبت لتكملة المهمة التي حددتها لنفسي. مهمة إعادة توحيد مملكة نور الدين.

اشتدت وطأة الشتاء. أخبار عن تساقط الثلوج بكثرة على النجاد والهضاب، ولكنني كنت ثملا بدعم وحفاوة شعب دمشق. قررت ألا أضيع المزيد من الوقت. عادة ما يكون حكامنا مشغولين بالاحتفال بنصر ما، ولا يتنبهون إلى أن الاحتفال المبكر قد يكلفهم مملكتهم.

... ...

... ...

فجأة، توقف السلطان عن الكلام. توقفت أنا كذلك عن الكتابة ونظرت إليه. بدا الإرهاق على وجهه وهو مستغرق في التفكير. من الصعب معرفة سبب شروده. هل كانت ذكرى حرب وسفك المزيد من الدماء؟ أم تراه كان يفكر في شيركوه، الذي كان يمكن أن تكون مشورته مفيدة في هذه المرحلة؟

جلست لا أقوى على الحركة منتظرا أن يصرفني، ولكنه كان ينظر إلى مكان بعيد، وكأنه قد نسي وجودي. كنت شارد الذهن عندما شعرت بيد شادي على كتفي. أشار بأن أتبعه إلى خارج الغرفة الملكية. انسللنا بهدوء شديد كي لا نقطع استغراق صلاح الدين. رآنا خارجين وعبرت شفتيه ابتسامة غريبة.. جامدة.. كنت قلقا على صحته.

لم يسبق أن رأيته هكذا.

عندما وصلت إلى البيت شعرت أنا كذلك بالإرهاق الشديد نتيجة عمل اليوم. كنت قد جلست مقرفصا أكتب دون توقف لمدة أربع ساعات. ساقاي وذراعاي ويدي اليمنى في حاجة إلى عناية. أدفأت راشيل بعض زيت الجوز لتدليك أصابعي. وبعد وقت طويل.. أدفأت المزيد لتسكن آلام رجلي المتعبتين.. وتوقظ ما كان يرقد خاملا رخوا بينهما.

(15)

● أسباب حزن شادي، وقصة حبّه المأساوي

"كنتَ قلقا بالأمس يا ابن يعقوب. كنت تعتقد أن صلاح الدين قد سقط مريضا. أنا أبصرت ذلك على وجهه. يحدث له ذلك عندما يضطرب تفكيره. هذا رجل صافي الذهن ولكن الشكوك تنتابه أحيانا. حتى عندما كان طفلا صغيرا كان يدخل في غفوة مثل الصوفيين في الصحراء. يفيق ثم يشعر بالتحسن وكأنه قد تطهر.

نعم! هذا العجوز الأحمق الذي تعتبره مهرجا جاهلا من الجبال يعرف أكثر مما يكشف يا صديقي".

لم يكن شادي مرحًا، كعادته، هذا الصباح. ترقرقت في عينيه نظرة حزن أزعجتني. لقد أصبحت أشعر بالقرب من هذا الشيخ الذي كان يعرف حاكمه أكثر من أي شخص آخر على قيد الحياة. من الواضح أن السلطان يحبه. لكن شادي، الذي حيرت ألفته مع صلاح الدين الكثيرين بمن فيهم القاضي، لم يكن يستغل موقعه أبدا. كان بإمكانه أن يحصل على أي شيء يتمناه. لكنه كان رجلا بسيطا. سعادته في قربه من صلاح الدين الذي يعتبره مثل ابنه. سألته عن سبب حزنه.

"أنا أتقدم في العمر كل يوم. سرعان ما سأرحل، ولن يجد هذا الولد كتفا يبكي عليها. لن يجد أحدا يقول له إنك أصبحت أحمق، وعنيدا. كما تعرف، أنا نادرا ما أصلي، ولكنني اليوم سبّحت قليلا وصليت ودعوت الله أن يهبني القوة ويمد في عمري قليلا لأرى صلاح الدين وهو يدخل القدس. الخوف من ألا تتحقق هذه الرغبة يزعجني بعض الشيء".

صمت برهة وهزّني صمته، وأخذتني إفاقته المفاجئة على حين غرة.

"لن يتحدث صلاح الدين أكثر من ذلك عن متاعبه عندما كان يخضع ورثة زنكي ونور الدين. أعتقد أن ذكرى تلك الأيام تؤلمه. كانت أوقاتا صعبة ولكن يجب ألا تتصور أنه كان بريئا تماما. من يستمع إليه وهو يتحدث بالأمس يتصور أنه فوجئ بما حدث في النهاية. ليس صحيحا.

كان أبوه أيوب قد أعدّه بصبر وتدبر لليوم الذي يموت فيه نور الدين. أتذكر أيوب جيدا وهو يحذّره ويقول له إن عدم التروي في الاستيلاء على مملكة نور الدين ربما يكون قاتلا. كان عليه أن يعمل باستمرار بما يتفق مع مصلحة السلطان المتوفى، أو هكذا يجب أن يجعل الناس يشعرون. استوعب نصيحة أبيه المسن، وعندما حان الوقت عمل بموجبها. وعمل جيدا. يوم دخلنا دمشق وكان الناس يبكون بدموع الفرح ويلقون علينا بالزهور، شعر أن الوقت المناسب قد حان. كانت حاجته شديدة لضمان هذه البلاد والاستعداد للمعركة الكبرى مع العدو.

استطاع قبل عشر سنوات بالتمام والكمال أن يهزم الجيوش المتحدة للموصل وحلب. كانوا يفوقوننا عددا بخمس مرات، ولكي يكسب الوقت عرض صلاح الدين على خصومنا الصلح، ولكنهم ظنوا أن رؤوسنا أصبحت في أيديهم. أخذوا يحلمون بعرض رأس سلطاننا على الناس في دمشق. رفضوا عرضنا بالهدنة فغضب السلطان. امتلأ وجهه كله غضبًا وازدراءً لأولئك الحمقى. تحدّث إلى رجاله وكانوا جنودا مقاتلين مجربين من القاهرة ودمشق، خاضوا حروبا كثيرة ضد الفرنج. أخبرهم أن انتصار اليوم سيقرر نهائيا مصير الفرنج. قال لهم إنهم سيقاتلون مؤمنين آخرين خانوا قضية نور الدين، وإنه، صلاح الدين، سوف يتسلم راية النبي السوداء الخضراء ويطهر هذه البلاد من البرابرة.

احتللنا موقعا على التلال يعرف ب"قرون حماة"، حيث دوّى صوت صلاح الدين في الوادي مختلطًا بتهليل جنوده. لكن طواويس الموصل وحلب كانوا واثقين من النصر فلم يهتموا بالتدابير العسكرية. قادوا قواتهم عبر الوادي الضيق المنحدر فدمرناهم. فرّ الكثير من جنودهم وانضموا إلينا. طلب قادتهم المهزومون الصفح من صلاح الدين الذي كان يعي تماما حرص أبيه وحذره، فقبل الصلح. حصل بهذا الصلح على كل ما يريد ما عدا قلعة حلب. هذه أيضا ستكون له، ولكن فيما بعد.

لم يكن ذلك انتصارا عاديا أيها الكاتب الهمام. لقد جعل من سلطاننا أقوى حاكم في البلاد، وكان ذلك هو الوقت الذي أعلن فيه نفسه سلطانًا على مصر والشام. ضُربت

العملة الذهبية باسمه، وأصدر له الخليفة في بغداد المراسيم التي تضفي الشرعية على منصبه الجديد، كما أرسل إليه ثوب السلطنة.

لم تكن تلك نهاية القصة..أبدًا! كنا لا نزال بعيدين عن النهاية. الكبرياء الجريحة لنبلاء حلب جعلتهم يقومون بمحاولة أخيرة لكي يتخلصوا من الأكراد المتطفلين. بعثوا برسالة للشيخ سنان الشيعي الذي يعيش في الجبال. كان يحيط بالرجل زمرة من الرجال المدربين على تعقب وقتل الأفراد. كان من أتباع الفاطميين وكانت لديه أسبابه لمحاولة قتل سلطاننا.

وحيث إن طلب تصفية السلطان جاء من كبار السنة وليس من بقايا الفاطميين الشيعة، كان سنان أشد تصميما على تنفيذه. عماد الدين، الذي أتمنى أن تقابله يوما ما، أبلغ السلطان بأن أتباع الشيخ سنان تعودوا أن يدخنوا كمية كبيرة من البانجو أو الحشيش قبل أن ينطلقوا لتنفيذ مهامهم الخاصة. وحدها حالة الخدر والغياب وسط نشوة الملذات تجعل هؤلاء الحشاشين قادرين على ممارسة القتل بأمر شيخهم. قام أولئك الحشاشون بمحاولتين مستهدفين حياة السلطان. مرة هزموا حراسه وأحاطوا بفراشه، ولو لم يطلق جندي يقظ إشارات الإنذار بالخطر، ولو لم يكن صلاح الدين يرتدي سترة سميكة للوقاية من برد الليل في الصحراء، لقُتل. لمسه خنجر واحد قبل القبض عليهم.

بعد محاولات الاغتيال هذه، التقى السلطان الشيخ سنان واتفقا على هدنة. وحدث ذات مرة أن كان الشيخ يواجه خطرا من أحد خصومه، فأرسلنا جنودا للدفاع عنه. فلم يكرر محاولاته مرة أخرى. انتشرت قصص مختلفة عن الهدنة. بعضها يقول إن الشيخ كان يتمتع بقوى سحرية يستطيع بواسطتها أن يجعل نفسه غير مرئي. وقال البعض الآخر، عندما حاصره جنودنا، إن الشيخ يحيط نفسه بقوى غامضة تحميه من كل الأسلحة. مثل هذه القصص ينشرها الحشاشون لخلق أساطير حول عدم إمكانية قهرهم. وهناك شيء لا بدَّ من أن أقوله لك يا ابن يعقوب، لا شكّ أن رجال الشيخ سنان كانوا على كفاءة ويقدرون على تحقيق أي هدف، سواء كان ذلك بفضل الحشيش أو الحلم بالجنة. كلنا تنفسنا الصعداء وحمدنا الله عندما قرر صلاح الدين والشيخ أن يحترم كل منهما الآخر.

بعد أشهر قليلة، دخل السلطان حلب وأُعترف به سلطانا على كل الأراضي الخاضعة له. عين الصالح، ابن نور الدين حاكما على حلب. وثبّت سيف الدين ابن عم الصالح حاكما على الموصل، ووافق على استمرار المسالمة ست سنوات. أظنه كان حذرا أكثر من اللازم. كان يتصرف كما كان يمكن أن ينصحه أبوه، ولكنني كنت أعتقد أنه كان في

حاجة إلى المزيد من روح عمه شيركوه في تلك الظروف. كان ينبغي أن يخلع الصالح، ثم يقاتل كلاب الموصل، فقد كانوا قوما خبثاء لا يتورعون عن التبول على قبور أمهاتهم.

نعم، قلت له ذلك، ولكنه ابتسم ابتسامة والده. لقد أعطى كلمة وكان ذلك يكفي. هذا السلطان لم يكسر كلمته قط، حتى على الرغم من أن أعداءه كانوا يستغلون ذلك.

الفرنج مثلا، كانوا يعتقدون -رغم أنهم مسيحيون طيبون- أن أي وعد يُعطى للمؤمنين ليس ملزما لمن يعطيه، أبناء الزنا هؤلاء، عبدة الأيقونات، كانوا يكسرون العهود عندما كان ذلك يناسبهم. سلطاننا كان شريفا، وكذلك كان منتبها. في الجبال، كلمة الأكراد لا رجوع عنها، وهذا تراث عمره آلاف السنين. من قبل أن يأتي النبي عليه السلام إلى هذا العالم بزمن طويل.

كان أمالريك ملك القدس قد مات، وخلفه ابنه بالدوين ذو الأربعة عشر عاما، وكان صبيا مسكينا مصابا بالجذام. قدم لنا برتراند صاحب تولوز معلومات عن ريموند، عم الصبي وكونت طرابلس الذي أصبح القوة الحقيقية في مملكة الفرنج. عقد صلاح الدين صلحا مع بالدوين لمدة عامين. لم يكن يريد أن يلتف عليه أحد في مصر وهو يدعم سوريا.

تركنا توران شاه في دمشق مسئولا عنها، وعدت أنا والسلطان بصحبة حرسه الشخصي. كنا قد بقينا بعيدا لمدة عامين، ولم يكن هناك أي مشكلة. كان القاضي الفاضل يدير شئون الدولة في غياب السلطان.

قام الفاضل بذلك على نحو جيد، حتى إن السلطان سأله وهو يهنئه "قل لي أيها الفاضل هل هناك حاجة حقيقية لسلطان؟ يبدو لي أن هذه الدولة تُدار على نحو ممتاز دون حاكم!".

انحنى الفاضل وهو يشعر بالسعادة والزهو، ولكنه أكد للسلطان أنه من دون سلطته ومهابته ما كان يمكن أن يعمل أي شيء.

أما بالنسبة لي يا ابن يعقوب فأعتقد أن كليهما كان على حق. أتعرف؟ في أرمينيا مثلًا حظي والد أيوب وشيركوه بولاء الناس لأنهم كانوا يعرفون أنهما منهم. كانا يدافعان عنهم ويحميان أغنامهم وماشيتهم من المغيرين عليهم من القرى المجاورة.

أعرف أنني أتقدم في العمر وربما أكون قد أصبحت ساذجا، ولكن يبدو لي أنك إذا استطعت أن تحافظ على السلام وتحمي شعبك، فلا يهم اللقب الذي تمنحه لنفسك أيا كان.

نظرت إلى ذلك الرجل عن كثب، كانت تجاعيد وجهه تبدو كأنما قد تضاعفت منذ أن رأيته أول مرة. لم يكن هناك ثمانية أو سبعة أسنان متبقية في فمه، ولم يكن يسمع بأذنه اليسرى. إلا أن رأسه كان عامرا بعقود من الحكمة الصافية، بحقائق كان قد تعلمها من تجربة الحياة الثرية. كان لسانه فالتا دائمًا، لا يحترم سلطانا ولا ملكا.

هذه القدرة على قول كل ما يعن له هي التي جعلت صلاح الدين لا يستغني عنه.. ومن قبله أيوب وشيركوه. يُفترض دائمًا أن الناس الذين يكونون في موضع السلطة يفضلون المتملقين والمنافقين على من يقولون الحقيقة. ينطبق هذا فقط على الحكام الضعفاء والرجال الذين لا يستطيعون أن يفهموا أنفسهم ناهيك عن احتياجات رعاياهم.

بينما كنت أراقبه وهو يمضغ بعض اللوز ببطء في شمس الشتاء، شعرت نحوه بفيض من المحبة يجتاحني. فجأة وجدت نفسي أريد أن أعرف المزيد عنه. كنت أعرف نسبه، ولكن.. هل سبق له الزواج؟ هل كان له أطفال ذات يوم؟ أم تراه كان واحدا من أولئك الذين يفضلون ذكورتهم على أي حضور أنثوي؟ لطالما ترددت هذه الأسئلة بداخلي! غير أنني لم أجاهر بها. اليوم، استيقظ فضولي لسبب ما لا علاقة له به. قلت بصوت هادئ: "شادي.. هل دخلت حياتك امرأة ذات يوم؟"

انتبه الرجل بعد أن كان جالسا في استرخاء في الشمس. فاجأه السؤال. حدق فيَّ. ظهرت على وجهه تقطيبة كبيرة، ثم ساد صمت مطبق للحظات. بعده قال بحدة:

"هل قال لك أحد شيئا عني؟ من؟"

"يا صديقي، يا صديقي العزيز، لم يتحدث أحد معي عنك إلا بكل خير، سألتك سؤالا، لأنني لا أدري لماذا لم يُكَوّن شخص، بكل هذه الحيوية والحكمة مثلك أسرة. إذا كان هذا الموضوع مؤلما، فاغفر لي فضولي وسأتركك لحالك".

ابتسم.

"نعم، هو مؤلم أيها الكاتب. ما حدث حدث قبل سبعين عاما، إلا أنني ما زلت أشعر بالألم هنا في قلبي. الماضي هش. لا بدَّ من التعامل معه بحذر مثل الفحم المشتعل. لم أتحدث مع أحد قط عما حدث كل تلك السنوات، ولكنك سألتني بكل الحب في صوتك،

لدرجة أنني سوف أروي لك قصتي، رغم أنها لا تهم أحدا سواي ولا تؤثر في شيء.

كان شيركوه هو الوحيد الذي يعرف، ولكنني لا بدَّ من أن أنبّهك إلى أنها ليست قصة غير عادية. الحكاية بكل بساطة أن ما حدث حرق قلبي ولم يبرأ بعد ذلك. هل أنت واثق من أنك تريد أن تسمعني؟"

أومأت برأسي وضغطت على يده الذابلة.

"كنت في التاسعة عشرة من العمر. كل ربيع، تتملكني الشهوة فأذهب لأبحث عن بغي من القرية لأشبع رغبتي الطاغية. لم أكن مختلفا في ذلك عن أي شخص آخر، إلا بالطبع عن أولئك الشبان الذين كان من الصعب عليهم أن يجدوا امرأة وكانوا يذهبون إلى الجبال بحثا عن الغنم والماعز. تبدو مصدوما يا ابن يعقوب. تمالك نفسك. سألتني عن قصتي وها هي قادمة ولكن على طريقتي. عندما كنا أطفالا كان من عادتنا أن نخبر بعضنا بعضا أن من يجامع نعجة يصبح قضيبه مكتنزا وكبيرا، أما من يجامع ماعزا فإن قضيبه يصبح رفيعا وطويلا.

أدرك أن أمورًا كهذه قد لا تروق لك، لكن الحياة في الجبال مختلفة عنها في القاهرة ودمشق. الوظيفة الأساسية لهذه المدن الكبرى هي تحجيم تلقائيتنا، وفرض مجموعة من القواعد على سلوكنا. الجبال انطلاق. كان هناك ثلاثة جبال بالقرب من قريتنا. كنا نذهب إلى هناك ونستلقي ونرقب غروب الشمس تاركين أنفسنا للطبيعة.

ذات يوم، أغار أبي الحقيقي، جدّ سلطانك، على إحدى القوافل المارة وعاد بغنيمته. كان من بين الغنيمة مجموعة من العبيد الصغار. ثلاثة إخوة في الثامنة والعاشرة والثانية عشرة، وشقيقة لهم عمرها سبعة عشر عاما. كانوا أسرة يهودية أتت من بورخس في الأندلس. وبينما كانت العائلة مسافرة بالقرب من دمشق هاجمهم قطاع الطرق وأسروهم. قُتل الأب والأم والخال في الطريق، ونهب التجار مصوغاتهم. وجاءوا بالأطفال ليباعوا في سوق البصرة.

هزّني الحزن الذي كان يترقرق في عيني البنت كما لم يهزّني شيء آخر من قبل أو من بعد. كانت تتشبث بأشقائها وتضمّهم إلى صدرها وهي تنتظر مصيرها. قدّموا لهم الطعام والملبس وأخذوهم إلى الفراش. تبنتهم عشيرتنا ونشأ الأطفال كأكراد وخاضوا حروبنا. أما عن البنت يا ابن يعقوب، فماذا عساي أن أقول؟ ما زلت أراها أمامي. شعرها الأسود المنسدل حتى خصرها. وجهها الشاحب مثل رمل الصحراء. عيناها

الحزينتان كعيني ظبية تدرك أنها وقعت في فخ. كانت، على الرغم من ذلك، تبتسم، وحينذاك كان وجهها كله يتغيّر ويضيئ قلوب كل المحظوظين الذين يكونون بالقرب منها.

في البداية كنت أهيم بها من على بعد، ولكن عندما بدأنا نتكلم، بعد مدة، أصبحنا أصدقاء. كنا نجلس بالقرب من الجدول، بالقرب من زهور الليلك العطرة نحكي الحكايات لبعضنا. كانت تبكي كلما تذكرت والديها اللذين قتلهم رجال العصابات. لم أكن أفكر في شيء آخر يا ابن يعقوب. طلبت منها الزواج ولكنها كانت تبتسم وترفض. كانت تقول إن الوقت لم يحن بعد لاتخاذ قرار مهم كهذا. كانت تقول إنها تريد أن تكون حرّة قبل أن تقرر أي شيء. كانت تقول إنها تريد أن ترعى إخوتها. كانت تقول كل شيء ما عدا أنها تحبني.

كنت أعرف أنها راغبة فيّ، ولكنني كنت منزعجا لمقاومتها. أصبحت باردا ومتباعدا في معظم الأحيان. أتجاهلها عندما تأتي وتحاول أن تتكلم. تجاهلتها عندما أحضرت لي زجاجة عصير مشمش. كنت أراها تتوسل بعينيها من أجل وقت أطول ولكن استجابتي ظلت عصية. كانت كرامتي جريحة، والكرامة بالنسبة لنا نحن أبناء الجبل، أهم ما في الوجود، أيها الكاتب النحرير.

عرف كل أصدقائي غرامي بها. اعتبروني مجنونًا بحبها مثل تلك الشخصيات التي كنا نغني عنها في ليالي الصيف القمرية عندما كنا نتحدث عن غزو العالم. بدأ أصدقائي يتهكمون علينا وزادني ذلك إصرارا على جرح أحاسيسها ومشاعرها.

كم مرة لعنت هذه السماء، تلك الأرض، هذا الرأس وهذا القلب، وهذا الجسد المشوه، جسدي! لأنني لم أفهم أنها كانت زهرة رقيقة ينبغي تعهدها وحمايتها. أخافتها عواطفي الجامحة، وسرعان ما تحولت بهجتها لرؤيتي إلى حزن. عندما أقترب، يمتلئ وجهها بالألم. أصبحت طائرا للحزن. رغم أنني كنت لا أزال في الخامسة والعشرين، بدأت أشعر أنني شؤم على كل ما هو صغير ورقيق.

حدث ذلك كله منذ وقت بعيد يا صديقي، ولكن ألا تلاحظ كيف ترتعش يدي وأنا أتحدث عنها؟ هناك رجفة في قلبي كما أنني بدأت أفقد قوتي. أتمنى أن تبتلعني الأرض وأموت. ويبدو أن ذلك سيحدث قريبا بإذن الله. أراك تنتظر بصبر نافد أن أصل إلى النهاية، ولكنني لست متأكدا إن كان ذلك ممكنا اليوم. تبدو مهموما. إذن لأحاول أن أختم

قصتي سريعًا.

ذات مساء كنا مجموعة من الشبان، نشرب التمر، نبيذ البلح، ونغني "الخمرية" لنصبح أكثر سكرا وأكون أنا أكثر تعاسة، كانت ليلة من ليالي الصيف الدافئة. السماء تلمع بالنجوم وضوء القمر الشاحب منعكس في الماء. سرت بعيدا عن المجموعة حتى حافة الجدول حيث اعتدنا، أنا وهي، أن نلتقي ونتكلم. لأول وهلة، كنت أتخيلها موجودة، ولكن عيناي لم تخدعاني، لأنها كانت تشعر بحرارة المساء، وتجرّدت من ثيابها. كانت عارية كيوم ولدتها أمها وهي تستحم في ضوء القمر. أدار المنظر رأسي. شعرت بأن حواسي تتخلى عني.. تغادرني يا ابن يعقوب. لن يسامحني الله على ما فعلت في تلك الليلة.

أرى من عينيك الخائفتين أنك قد خمّنت ما حدث. نعم! أنت محق يا صديقي. كنت في قبضة سُعار حيواني، على الرغم من أن معظم الحيوانات أكثر رحمة ببعضها. أخذتها على غير إرادتها. عنوة. لم تصرخ، ولكنني لن أنسى تلك النظرة على وجهها.. خوف ودهشة.. تركتها هناك بجوار الجدول وعدت إلى القرية. بعد أيام قليلة وجدوا جثتها. أغرقت نفسها. ربما ظننت أن حيوانا مثلي قد ثاب إلى رشده ووجد امرأة أخرى وتزوج وأنجب أبناء رائعين. ربما يكون الحيوان بداخلي قد مات كذلك بموتها. المؤكد أن قلبي قد وقع له ما وقع لها، أتصوره مدفونا هناك بالقرب من الجدول الصغير في جبال أرمينيا. لقد اكتشفتُ.. وفقدت كنزا لا يقدر بمال. لم أنظر إلى امرأة أخرى بعد ذلك. والكحول، كذلك، خرج من حياتي. لله أساليبه في عقابي".

عادة كان شادي بعد أن يفرغ من إحدى قصصه يناقش المزيد من التفاصيل، ويجيب عن أسئلة. نتناول معا كوبا من الماء الدافئ أو اللبن مع مسحوق اللوز، أما اليوم فلا. اليوم، قام ببطء، ووقف وانسل بعيدا. ربما كان يلعنني بداخله لأنني جعلته يستدعي ذكريات مؤلمة. قال إن الماضي هش، وبينما كنت أرى ظهره يبتعد شعرت أنه يشير لنفسه بهذه الكلمات.

أذهلتني قصته. كان اغتصاب النساء أمرا شائعا، ولكن العقاب الذي أنزله شادي بنفسه فريد من نوعه بحق. لقد زادت منزلة هذا الشيخ، الذي تعلقت به، عندي.

(16)

●عندما التقيت بالعلاَّمة عماد الدين، وأدهشتني ذاكرته الاستثنائية

دخلت مكتبة القصر لأتصفح بعض الكتب -كعادتي- منتظرا استدعاء السلطان ليّ. فوجئت لما رأيت الرجل الذي جاء ليصحبني إليه اليوم. كان العلامة المؤرخ عماد الدين نفسه. لم يكن الشعر الأبيض قد انتشر بكثرة في رأسه أو لحيته رغم أنه كان يقترب من عامه الستين. بدا رجلًا مهيب الطلعة أطول قامة مني ومن السلطان. كان كتابه "خريدة القصر وجريدة العصر"، وهو مقتطفات مستنيرة من الشعر العربي المعاصر له، قد ظهر قبل وقت قصير، ولقي استحسانا كبيرا.

كان يفضل العيش في دمشق، لكن السلطان استدعاه إلى القاهرة كي يساعد في التحضيرات النهائية للجهاد الجديد. ذلك أن عماد الدين يعتبر واحدًا من أصحاب الأساليب المتميزة في الخطابة. عندما يلقي الشعر أو يقرأ مقالا، يسحرنا بوقفاته وتعبيراته. أحترم عمله إلى حد بعيد، وإن كنت أفضل البساطة في الكتابة. فالرجل من أصحاب التركيبات اللغوية المتأنقة، المصقولة والمتكلفة. كان ينقصها السلاسة كي تروق لذوقي البسيط.

قال لي ونحن نمر عبر عدة غرف إنه سمع كلاما طيبا كثيرا عني، وإنه يتمنى أن يقرأ ذات يوم ما دونته من كلمات السلطان.

"أتمنى أن تُحَسِّنَ كلمات حاكمنا حتى وأنت تدونها يا ابن يعقوب. صلاح الدين، أمد الله في حكمه إلى الأبد، لا يهتم كثيرا بالأسلوب. هذا دورك يا صديقي. إذا احتجت إلى مساعدتي لا تتردد في طلب ذلك".

شكرت له عرضه بابتسامة وإيماءة مداريا غضبى. لا شكَّ أن عماد الدين عالم

كبير، ولكن بأي حق يفرض نفسه على المشروع الشخصي جدا للسلطان الذي عهد به إليَّ وحدي؟ وصلنا إلى غرفة السلطان، لكن لم يكن هناك سوى شادي.

قال الرجل العجوز وهو يهز كتفيه: "تفضلا، استريحا، لقد طلبوا صلاح الدين في الحرملك. يبدو أن جميلة تسببت في أزمة ما".

خيَّم صمت محرج. كان وجود عماد الدين المحبط يعني ألا أسأل، وأن شادي لن يتطوّع بأي معلومات بخصوص جميلة. من المعروف أن عماد الدين لا يهتم بشأن النساء بالمرة. الرجال وحدهم هم مصدر الغذاء الفكري والعاطفي الحقيقي عنده.

سعل عماد الدين كأنه حدس توترنا، وفهمت من ذلك أنه يريدنا أن ننتبه لشخص في مثل قدره. أما شادي، الذي لم يكن يحترم أحدا في الغالب، فضرط بصوت مسموع دون تحفظ وهو يترك الغرفة. هكذا أصبحت وحدي في صحبة المعلم الكبير.

انتابني الخوف والحرج وأنا أفتش في ذهني عن طريقة كي أبدأ بها حوارًا مع هذا العالم اللامع.. يُقال عن عماد الدين إنه يرى أو يسمع الشيء فلا ينساه أبدا. لو أن شخصا روى له قصة قبل سنوات ثم نسيها وعاد ليكررها في حضوره، فسرعان ما يتذكر القصة الأصلية بدقة ويشير فورًا إلى الاختلافات بين الروايتين، مما يضع المتكلم في حرج شديد. لم يكن يتذكر الوقت الذي وقع فيه حدث ما بالساعة، سواء أكان ذلك ليلا أم نهارا فحسب، بل يتذكر كذلك ملابساته. قال ذات مرة إن طريقته هي أن يتذكر أولا بعض التفاصيل، مثل الشجرة التي كان يجلس في ظلها، أو من كانوا يستمعون للقصة، أو رحلة القارب التي كانوا فيها، وشاطئ البحر، والوقت من اليوم، وبعد ذلك يأتي كل شيء بوضوح. حضرت حديثه هذا منذ شهور مضت لكنني لم أستطع أن أدوّنه. فُتنتُ بطريقة عماد الدين في الكلام وأُخذت بصوته الناعم الجذاب لدرجة أنني نسيت أي شيء آخر.

"مع كل الاحترام يا سيدي، يقال إن قصدك لم يكن أن تصبح مساعدا في ديوان السلطان، وإنما تركيز سلطاتك وكل قوتك لكتابة أعمالك الخاصة، فهل يمكن أن يكون هذا الافتراض صحيحا؟"

نظر إليَّ بفتور، أحسست معه أنني مجرد حشرة! ندمت على ما بدر مني، غير أن صوته الودود بدد وساوسي.

"لا. ليس صحيحًا. عندما درست النصوص والرسائل التي دبّجها الفاضل في القاهرة، أدركت أننا يمكن أن نفعل الشيء نفسه في دمشق. كنت أعتقد أن ذلك سيكون مهمة صعبة، ولكن الله كان معي. تخلّيت عن كل الأساليب القديمة في تدبيج الخطابات الرسمية واتبعت أسلوبا جديدا تماما. هذا يا عزيزي، أذهل حكاما مثل سلطان الفرس.. حتى بابا روما. السلطان نور الدين عليه رحمة الله، كان سعيدًا بعملي فجعلني المُشرِف. كنت المسئول عن الإدارة في الدولة. أوغر ذلك صدور كثيرين ممن كانوا يعتقدون أنني قد تخطّيتهم في الترقي. وضعوا العراقيل في طريقي.

أذكر مرة أن مبعوثا جاء برسالة من الخليفة في بغداد إلى نور الدين. فوّت عليَّ أعدائي ضَيِّقُو الأفق فرصة ملاقاة ذلك المبعوث. لاحظ السلطان المُحنّك غيابي. أمر بوقف كل الإجراءات حتى أحضر. أعطاني السلطان الرسالة كي أقرأها، ولكن المسئول الذي كان مكان الوزير في ذلك اليوم انتزع الرسالة من يدي. سايرته، لكنني أخذت أصحّح له أخطاءه في أثناء قراءته، وأرشده كلما ضلّ. أتذكر أن نور الدين ضحك لما حدث ونحن بمفردنا بعد ذلك. صحيح أنه نادرًا ما كان يتذوّق المزحة، ولكنه ضحك كثيرا ذلك اليوم وأثنى على مهاراتي الدبلوماسية".

كان على وشك أن يواصل حديثه، عندما فوجئت بدخول السلطان. وقفت وانحنيت، ولكن صلاح الدين دفع كتفي عماد الدين كي يثنيه عن القيام.

"كنت تُعلِّم ابن يعقوب؟"

"لا يا سيدي، لقد كنت أصحّح بعض سوء فهم يتعلّق بتاريخي فحسب".

ابتسم السلطان.

"ينبغي ألا ترهق ذاكرتك يا عماد الدين. أشعر أحيانا أنك تحاول أن تتذكر أشياء كثيرة. أحتاجك أن تكون مستعدًا للحروب التي نوشك على خوضها. قد أسقط فيها. أنت وحدك الذي ستكون قادرًا على تذكّر كل تفاصيل الجهاد، وتتأكد من انتشارها بين المؤمنين".

أحنى المساعد رأسه، وأشار له السلطان بالانصراف. وعندما أصبحنا وحدنا مرة أخرى، بدأ صلاح الدين يتكلم.

"كما تعرف، أنا أقدِّر السلطانة جميلة وذكاءها الخارق. إلا أنني أستغرب أحيانا

كيف يمكن أن تكون امرأة في حصافتها سببًا في ورطة كهذه؟ يبدو أنها وحليمة عزلتا نفسيهما عن معظم النساء الأخريات. جميلة لديها مجموعة من ست أو سبع نساء تعلّمهن وتدرّبهن على طريقتها. هذا يخلق توترًا وعداء، حيث إن جميلة وحليمة لا تتورعان عن إبداء احتقارهما لمن يفضلن الاستمتاع بملذات الحياة برفض إعمال عقولهن. إنهن يعشن من أجل المتعة والمتعة فقط.

لا اهتمام لديهن بالجهاد ولا بفلسفة ابن رشد، ولذا تريد جميلة أن تعاقبهن. كنت مضطرًا لتأنيبها والإصرار على ألا تفرض إرادتها على الأخريات. تقبّلت، على مضض، زجري لها أمامهن. انصرفتُ من فوري بعد ذلك، ولكن لا شكَّ يا ابن يعقوب، أنها ستحاول أن تقرص أذني وأذنك قبل أن ينتهي هذا الأسبوع. هذه المرأة لا تقبل الهزيمة. لست في حالة تسمح بالإملاء اليوم. نكمل غدا.

في طريقك أبلغ شادي أن يرسل الفاضل وعماد الدين وقراقوش إلى غرفتي. تبدو عليك الدهشة، هناك قرارات مهمة ستُتخذ في الأيام القليلة القادمة".

حزنت لمّا طلب مني الانصراف، ولأول مرة قلت ما أفكر فيه.

"سأفعل كما تطلب سموك، ولكن لعلّه قد يبدو أكثر منطقية أن أبقى أنا كذلك. أنا الذي تم اختياري لكتابة مذكرات السلطان. سوف أبقى صامتا، أدوّن النقاط، ويمكن أن يراجع القاضي دقتها بعد ذلك".

بدا مغتبطًا، وكأنَّ جواده المطهّم والمفضّل لديه قد أزاحه عن السرج.

"هناك أشياء يا ابن يعقوب من الأفضل ألا تقال. لا تتصوّر أنني غير مدرك لعدم ارتياحك عندما أطلب منك الانصراف قبل الاجتماعات التي تناقش فيها شئون الدولة العليا. هذا أيضا من أجل سلامتك كما هو من أجل أمننا. كل أعدائي يعرفون أنك تقابلني كل يوم. يعرفون كذلك أنه يتم صرفك من الغرفة عندما نخطط للمرحلة التالية من الجهاد.

لا شيء مما يحدث في هذا القصر يظل سرًا. في غضون ساعات قليلة ستصل الأخبار إلى الحرملك، ومن هناك تنتقل الشائعات بسرعة إلى المدينة. إذا عُرِفَ أنك كنت جزءًا من المجلس الداخلي للدولة، فلربما أصبحت حياتك في خطر. هذا هو السبب. على أي حال، اجتماع الليلة لم يكن مخطّطا له بالمرة. لذا يمكنك أن تبقى الليلة وتجلس

على مسافة، تلاحظ وتدوّن النقاط، ولكن لن يكون الفاضل هو من سيدقّقها، وإنما عماد الدين. إنه يتذكّر كل شيء".

انحنيت تعبيرًا عن امتناني وانصرفت.

كنت سعيدًا لأنني وجدت الشجاعة لمواجهة قراره. ولسبب غير واضح فإن هذا الانتصار الصغير ضاعف سعادتي. قابلت شادي في الخارج وأبلغته بتوجيهات السلطان. استدعى أحد السعاة لإبلاغ الرجال الثلاثة لكي يعودوا إلى القصر دون إبطاء، ثم استدار نحوي.

"وما رأيك في عالِمنا الكبير، السيد الموقّر عماد الدين؟"

"أنا أقدّره، ولكن ربما ليس مثلما يقدّر هو نفسه".

ضحك شادي.

"ابن القحبة الوهراني هذا كتب أغنية جديدة عنه وعن عشيقه".

"من عشيقه؟"

"ذلك الصبي الجميل ذو الشعر الجعد. المغني. أتعرف من أقصد؟ أعتقد أن اسمه المرتضى. نعم.. هذا اسمه.

على أي حال الأغنية تقول:

عالمنا العظيم عماد الدين يعرف،

أن النص المفضّل عنده هو المرتضى،

ولكن دون ثياب.

يتضاجعان كالكلاب،

كلاهما على أربع،

ويعبّان النبيذ من حلمات الجواري والقحاب".

بينا نضحك من كلمات الأغنية، مر بنا عماد الدين وهو منهمك في الحديث مع

القاضي. انتهيت، ولكن ضحك شادي خرج عن السيطرة، ظل يضحك حتى طفرت الدموع من عينيه لتغرق خديه. تركته على تلك الحال، وتبعت الرجلين عائدا إلى غرفة السلطان. سمعت ورائي وقع خطى قراقوش، فانتظرت حتى وصل إلى حيث كنت، وسرنا معًا إلى غرفة السلطان.

كان النقاش مستمرًا منذ عدة أيام، وكانت المسألة المطلوب حسمها هي ذهاب السلطان إلى دمشق. هناك شعور عام بأنه ما دامت الأمور في القاهرة وبقية البلاد مستقرّة، فمن المناسب أن يذهب السلطان إلى دمشق لبحث مشكلات خطيرة في حاجة إلى حلول.

قال عماد الدين إن فروخشاه، ابن عم صلاح الدين المسئول عن دمشق، لا يُحسن الإدارة. فهو مبذّر متلاف يرفض أن يفكر في احتياجات الجهاد بشكل عام، ويتّخذ قرارات أرهقت الخزانة إلى درجة الإفلاس. ودافع عماد الدين بشدة عن ضرورة انتقال البلاط من القاهرة إلى دمشق.

لم يستطع قراقوش، الذي كان ضد تلك الخطوة، أن يُقنع أحدًا برفضه. وبعد أن فشل في أن يقدم أي سبب جاد لتبرير رأيه، اكتفى بكيل المديح للسلطان قائلا إنه لولا وجوده السامي هنا لضاعت البلاد.

مثل هذه الآراء تضايق السلطان. ومن ثمَّ فقد نهر قراقوش بحدة، مشيرًا إلى أن الأساس الوحيد لأي قرار مهم هو الإجابة عن سؤال واحد: هل يقرّبنا ذلك من هزيمة العدو والاستيلاء على القدس؟ رافضًا بذلك أي اعتبارات أخرى.

ثم تكلّم الفاضل. شرح أنه إذا كان مقياس السلطان للحكم على الآراء سيكون هو المقياس الوحيد، فإن الانتقال إلى دمشق يصبح حتميا. لن يتم الاستيلاء على القدس باستخدام القاهرة مركزا للعمليات، ولكنه أبدى في الوقت نفسه بعض القلق لما قد يحدث هنا في غياب السلطان.

تركهم صلاح الدين يتكلمون لمدة، قبل أن يقطع حديثهم بإشارة من يده.

"أعتقد أن الرأي بتقوية دمشق ومدن الشام الأخرى لا يمكن الاعتراض عليه. لا يمكن أن نثق بالحظ ولا بأمل أن المؤمنين لن يخونونا، ولطالما قلتها لشعبنا، الخيانة لعنة أصابت عقيدتنا. سوف ننطلق بعد عشرة أيام من الآن. أنت يا ابن يعقوب سوف

تأتي معنا إلى دمشق، مع زوجك وابنتك، فالله وحده هو الأعلم متى نعود.

سنعود إلى القاهرة بعد أن نحقق مهمتنا إن شاء الله، وليس قبل ذلك. أنا مفتون بتلك المدينة. هناك ذكريات كثيرة عزيزة".

"مهمتك يا قراقوش التأكد من أن العمل في القلعة سوف ينتهي فور عودتي. ستكون مقر إقامتي، فأنا، كما تعرف لست متعلقا بشدة بتلك القصور القديمة".

ابتسم كل الحاضرين، ولكن سحابة أربدت وجه عماد الدين. وعندما تكلم ارتعش صوته بنبرة غضب.

"الكل يعلم أنك تنام على نحو أفضل في القلاع يا سيدي السلطان، ولكنني أرجو أن تضع قراقوش تحت السيطرة. إنه مشغول ببيع كل الكتب في مكتبات القصر. بعض الحمقى الذين يشترونها جهلاء لدرجة أنهم يشترونها بالوزن، دون النظر إلى محتواها. أعرف أن قراقوش يكره العلم، ولكن ما يبيعه هو تراثنا. يوجد لدينا أكمل مجموعة عن الطب والفلسفة في مكتبة هذا القصر وحدها، و..."

قبل أن ينتهِ قاطعه السلطان.

"قراقوش، أنا لا أحب ذلك. أرجو أن تتأكد من معرفة رأي عماد الدين قبل بيع أي كتب أخرى".

أومأ قراقوش برأسه وهو يتلقّى التعليمات.

"هناك أمر آخر، لقد أبدى برتراند صاحب تولوز رغبته في العودة إلى بلده. سوف يساعدنا من هناك ويبلغنا بتحركات قادة الفرنج. أريد أن تؤمّنوا عودته، وأن يرافقه أحد لحراسته على سفينة تجارية. أعطوه كل ما يحتاج إليه. هل تُشرف على ذلك بنفسك أيها القاضي؟ أريد أن يعود هذا الفارس إلى أسرته".

تلقّى الفاضل الأمر، وصفّق السلطان بيديه. جاء ثلاثة من الخدم بوجوههم التى ألفتها منذ تعيينهم ليكونوا أمام غرفة السلطان بشكل مستمر. دخلوا وأعدّوا المائدة. قدّموا لنا وجبة سريعة كنت أتوقع مكوّناتها. خبز وثلاثة أنواع من البازلاء المسلوقة. لم يُحدث وجود عماد الدين، الذي كان ذوقه في الأكل معروفًا، تغييرًا في قائمة الأكل المعتادة. كانت ولائمه تتكوّن من صنوف كثيرة، وغالبًا يكون هناك صنف جديد يُبهر ضيوفه.

كنت أراقب وجه مؤرّخنا العظيم. لم يظهر عليه أي تعبير محدّد. كان يحاكي السلطان العظيم، ويغمس خبزه في حساء البازلاء. نظر السلطان إليه:

"هل تروق لك هذه الوجبة يا عماد الدين؟"

لم تكن هناك إجابة، ولكن الرجل العظيم وضع يده على قلبه معبّرًا عن رضائه وامتنانه. عندما غادرنا الغرفة فقط، سمعته يهمس للفاضل:

"ينبغي ألا يأكل أحد مع صلاح الدين إلا إذا كان مصابًا بالإمساك، أو كان يريد أن يفرغ ما في أمعائه".

(17)

• ذكر ما جرى عندما عدتُ إلى بيتي على غير توقّع، لأجد ابن ميمون يزني بزوجتي

خُصّصتْ لي غرفة بالقصر، وعندما يتأخر الوقت ليلا لا أعود إلى البيت. ها هو الليل قد انتصف. ولولا أنني سمعت الفاضل يقول إنه لم يكمل التشاور مع ابن ميمون بسبب الاجتماع مع السلطان، لكنت قد بقيت في القصر. سرتُ بدلا من ذلك إلى المنزل. لم أكن قد رأيت ابن ميمون منذ مدة طويلة، وكنت أريده أن يكون حاضرًا عندما أقول لراشيل إننا سوف ننتقل إلى دمشق جميعا.

عندما اقتربت من فناء منزلي، فوجئت بالمصابيح مضاءة، فتسلّلتُ إلى الداخل بهدوء حتى لا أوقظ أسرتي أو ضيفي. لك أن تتخيّل وقع المفاجأة عندما دخلت الغرفة المقبّبة لأرى ابن ميمون راقدًا ممددًا على ظهره، وثوبه مشمّرا إلى ما فوق بطنه يغطي وجهه، بينما راشيل.. راشيل زوجتي بشحمها ولحمها، جالسة فوقه منفرجة الساقين، تتحرّك صعودًا ونزولا، كما لو كانت في نزهة على حصان مستأنس. كانت عارية تمامًا، نهداها يتحركان على إيقاع جسدها. وقفتُ مشلولا. الغضب والخوف والخجل والذهول. رعب! هل يمكن أن يكون ذلك طيف خيال؟ كابوسًا؟ هل ما زلت نائما في غرفتي في القصر؟

وقفتُ في الركن المظلم من الغرفة صامتًا أراقب عملية المضاجعة المستمرة، ثم سعلتُ. كانت هي التي رأتني أولا. صرخت كأنّها رأت الشيطان نفسه، وركضت خارجة من الغرفة. اقتربتُ من فيلسوفنا الكبير الذي سارع بتغطية قضيبه المنتصب.

"السلام عليك يا ابن ميمون. هل رحبّت بك راشيل؟ هل كنتَ تشرح لها عمليا جزءًا

خاصا من كتابك "دليل الحائرين" كي تفيد منه؟"

لم يردّ، جلس مُخفيًا وجهه بكفيه. لم يتكلّم أينا لمدة طويلة، ثم بدأ يتمتم معتذرًا بصوت مخنوق.

"سامحني يا ابن يعقوب. العفو والمغفرة! إنها زلّة أستحق عليها عقابًا شديدًا. ماذا أقول أكثر من ذلك؟"

سألته بهدوء "ربما يجب عليَّ أن أقطع خصيتك، لأردّ شرفي. أليس كذلك؟"

"لا أحد منا بلا خطيئة يا ابن يعقوب. نحن بشر. هل كنت تمانع لو أن حليمة دعتك لفراشها؟"

فوجئت، واستشطتُ غضبًا لهذه الوقاحة، وقبل أن أتمالك نفسي تقدّمت وأمسكت به من لحيته، وصفعته على وجهه، على أحد خديه ثم على الآخر، وعندما بدأ يبكي تركت الغرفة.

كانت راشيل جالسة على المرتبة تلف جسدها ببطانية عندما دخلت. لم تجرؤ، لفرط خجلها، أن تنظر إليّ. ملأني الغضب وأخرسني. تركتُ الغرفة ودخلت غرفة ابنتي، وألقيت بنفسي على الأرض بجوار مرتبتها. جفاني النوم تلك الليلة، والليلة التى تلتها.

ظلّت راشيل تبكي يومين، وتتوسّل إليَّ أن أسامحها. الغريب أنني سامحتها، ولكنني كنت أعرف أنني لا أريد أن تذهب معي إلى دمشق. أبلغتها، فقط، أن السلطان طلب مني أن أصحبه وأنني سوف أغيب لمدة غير محدّدة. أومأت برأسها. ثم سألتها السؤال الذي أرّقني وأحرق عقلي منذ أن رأيتها فوق ابن ميمون.

"هل كانت هذه هي المرة الأولى؟ أجيبي يا امرأة!".

هزّت رأسها وأخذت تبكي.

"لم تغفر لي أبدا أنني لم أنجب لك ابنًا، هل كانت غلطتي أنني بعد أن ولدت ابنتي لم أحمل مرة أخرى؟

لقد تخلّيت عني وتفرّغت للسلطان وللعمل في القصر. أصبح ابن ميمون مصدر سلواي الوحيد. كنت وحيدة. ألا تفهم؟"

اهتزّ كياني. لم أنطق. غضب أعمي يملؤني. لو لم أغادر الغرفة لانهلت عليها باللكمات. جررت ساقي إلى المطبخ وشربت كوبين من الماء لأهدئ نفسي، وأسيطر على أعصابي. ثم بعد أن تذكّرت أن تلك إحدى وصفات ابن ميمون لتهدئة النفس، ألقيت بالكوب ليتحطّم على الأرض.

طوال الأسبوع التالي، بينما كنت أستعدّ للسفر، لم يخاطب لساني لسانها. فكّرت أن أتهمها بالزنا وأتهم ابن ميمون شريكها، ولكن سرعان ما تبخّرت هذه الفكرة من رأسي. فكرت في استئجار بعض الرجال لقتل الاثنين، ثم هدأت. غريب أمر هذه التقلّبات، كيف أن مشاعر الغضب والغيرة وحتى الانتقام يمكن أن تفور وتهدأ في مدى أشهر قليلة.

ودّعت مريم ابنتي ذات الاثني عشر ربيعا. مريم التي، للحقيقة، أهملتها طويلا. احتضنتني بقوة وهي مندهشة لهذا الحنان الظاهر، وبكت بحرقة. نظرتُ إليها عن كثب. كانت في طريقها لتكون امرأة جميلة مثل أمّها. بدا الشبه واضحا. تمنيت أن تجد زوجا مناسبا في غضون عام أو اثنين.

كانت الليلة الأخيرة لي في القاهرة. خرجت عن صمتي. جلسنا أنا وراشيل نتحدث حتى منتصف الليل. تحدّثنا عن الماضي. عن حبّنا لبعضنا بعضًا. عن يوم ولدت مريم. عن الأصدقاء. عن الضحك الذي كان يتردّد في فناء بيتنا. عندما تحدّثنا أصبحنا أصدقاء مرة أخرى. قرَّعتني لأنني قدّمت مطالب السلطان على مشروعي الخاص. اعترفت بصحّة انتقاداتها ولكنني شرحت لها كيف أن آفاقي الخاصة قد اتسعت من خلال حياتي في القصر. كانت تتهمني دائمًا بأنني أعيش حياة راكدة. كنت الآن على وشك أن أسافر. ابتسمت، وكان في عينيها توسل خاص. وعدتها بأن أرسل في طلبها هي ومريم بمجرد أن يستولي السلطان على القدس. افترقنا أصدقاء.

لم يكن السلطان يحب أبدا أن يتحوّل رحيله عن القاهرة إلى مهرجان لتبادل المجاملات. كان يفضل رحيلا غير معلن، ولكن الفاضل وعماد الدين أصرّا، لأسباب تخصّ الدولة، على أن يكون ذلك حدثًا عامًا. تجمّع رجال البلاط والشعراء والعلماء والشيوخ، ناهيك عن موجات عارمة من العامة بالقرب من البحيرة القديمة ليكونوا في وداع السلطان. ترك قراقوش ورجاله ممرًا مفتوحا من القصر للسلطان وبطانته بما فيها أنا وشادي بالطبع.

بدا سبب هذا الشعور الطاغي واضحًا. الكل يعرف أن صلاح الدين سيغيب مدة

طويلة. لن يعود قبل أن يهزم الفرنج أمام بوابات أورشليم. وبقدر ما كان الناس يريدون النصر لسلطانهم بقدر ما كانوا يعرفون خطورة المهمة. قد يُقتل السلطان أو يصاب كما حدث قبل عام في بعض المناوشات مع العدو. وقتها وجد السلطان جملا امتطاه، وعاد إلى المدينة مع عدد قليل من المقاتلين.

كان أهل القاهرة يحبّون سلطانهم. عرفوا فيه البساطة والتواضع على خلاف الخلفاء الفاطميين. لم يكن صلاح الدين يجمع الضرائب من الناس ليكدّس ثروة شخصية. كان سخيّا مع جنوده. عماله حريصون على ألا تضرب المجاعة البلاد. لهذه الأسباب ولغيرها كان الناس وشعراؤهم ومغنّوهم يريدون أن يتذكرهم صلاح الدين وهو بعيد. يريدون عودته.

ونحن نركب الجياد في الشوارع من القصر، ردّد الناس "الله أكبر"، "النصر لأمير الشجعان"، "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، "صلاح الدين سيعود منتصرًا". هزّ ذلك أعماق صلاح الدين. تحرّكنا ببطء لنعطي العامة فرصة للمس ركابه ومباركة مسعاه.

عندما وصلنا إلى البحيرة القديمة، وجدنا نبلاء البلاط مجتمعين هناك في أبهى حللهم. أسرع صلاح الدين الخطى. بدا واضحا أنه ضاق ذرعًا بتلك الطقوس. أوقف حصانه في قلب البحيرة الجافة. أُلقيت كلمات التوديع. وقف شاب حليق الذقن على منصّة مرتفعة يلقي قصيدة. كان الموقف فوق ما يمكن أن يتحمّله شادي، فأخذ يتجشّأ التماسًا للراحة.

لم يفصح وجه السلطان عن شيء وهو يستمع إلى الكلمات الآتية:

أزال الله عنك الهم، وأبعد عنك القلق في منامك، ولا جعل حياتك كأسًا مُرّة، ولا أذاب قلبك من الحزن.

وهبك الله القوة لتهزم أعداءك.

نودّعك بقلوب مثقلة لن يخفّف حملها إلا عودتك.

وفي منافسة له، قام رجل أكبر سنا، لحيته بيضاء تلمع في ضوء الشمس، اعتلى المنصة وراح يقول:

الربيع هو الفصل الذي يلوّن العام،

ويوسف صلاح الدين ربيعنا الدائم،

الإخلاص يحكم قلبه،

والحديد يحكم عقله.

وهنا أشار السلطان للفاضل بأن الوقت قد حان للمغادرة. ترقرقت دموع في أعين كثيرة حقيقية أكثر من الشعر. ونحن ننصرف أقبل شيخ كبير وراح يقبّل يديه. بدا طاعنا في السن لدرجة أنه كان أضعف من أن يصل إلى ركاب السلطان. قفز صلاح الدين من على ظهر حصانه وعانق ذلك الذي كان يتمنى له الخير. همس الرجل بشيء في أذنه، فرأيت وجه السلطان وقد تغيّر. نظر إلى الرجل عن كثب وابتسم دون أن نستطيع أن نخمّن شيئًا. سار شادي بحصانه نحو السلطان.

"ماذا قال هذا الشيخ؟".

كان وجه صلاح الدين منكّسًا.

"قال إنني لا بدَّ أن أودّع النيل وداعا جميلا، حيث إنه مكتوب أنني لن أراه مرة أخرى".

شخر شادي ازدراء. بيد أنه كان من الواضح أن تلك اللمحة متنافرة النغمة، قد طغت على ما سبقها من تمنّيات طيبة. الفأل السيئ يزعج كل الحكّام، حتى أولئك الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون بذلك. تعجّلنا الرحيل. أدار صلاح الدين حصانه بحدة وانطلقنا خارجين من المدينة.

ضم فريقنا ثلاثة آلاف رجل. معظم الجنود حاربوا إلى جوار صلاح الدين لسنوات. كانوا رجال سيوف وسهام مجربين يجيدون القتال من فوق ظهور الخيل. لاحظت وجود ثلاثة مقاتلين ملحقين بمدرسة صانعي السيوف حتى رحيلنا. كانوا يقومون هناك بالتدريب على فنون القتال بالسيف والمهارات اللازمة لصناعة السيوف. ثلاثتهم من دمشق، وبدوا سعداء بالعودة إلى أُسَرِهم.

غادرت جميلة وحليمة القاهرة مع الحاشية قبل ثلاثة أيام، على الرغم من أن الإماء اللائي أنجبن أطفال صلاح الدين لم يصحبنه إلى دمشق. عجبت كيف كان يفكر! لم يكن السلطان يتكلم كثيرا وهو يقود حصانه. تلك عادة ورثها عن أبيه، وليس عن عمّه شيركوه الذي كان -كما يقول شادي- يجد صعوبة في أن يحتفظ بأفكاره لنفسه أيا كانت الظروف.

لم تكن أخبار رحيلنا سرًا. كان الفرنج على علم بكل ما يحدث، وكان جنودهم على الحدود ينتظروننا لكي ينقضّوا علينا. لذا أمر صلاح الدين البدو أن يدبّروا طريقا يتفاداهم كي نتجنب الوقوع في كمائنهم. لم يكن في حال تسمح له بإظهار قوته أو استعراضها. كان رجلا تملأ رأسه وتتملكه فكرة واحدة. كل ما عدا ذلك يمكن أن ينتظر إلى أن تتحقق تلك الفكرة.

لا تسمح الخلافات الداخلية، كما علّمتنا دروس الماضي، بالتركيز على تحرير القدس.

ما إن بلغنا مشارف الصحراء في المساء وعسكرنا للمبيت، حتى استدعى صلاح الدين الأمراء إلى خيمته. وحدي أنا وشادي جلسنا نتأمل النجوم. بدا الرجل المسنّ في حالة هدوء وصفاء، وعلى الرغم من ذلك أدهشتني الوجهة التي اتخذها حديثنا. فبعد أن تكلّمنا عن موته الوشيك، غَيَّر وجهة الحديث فجأة.

"أتمنى أن تكون قد سامحتَ زوجتك بالفعل يا ابن يعقوب. أعرف أن الزنا ليس أمرًا هينًا في ميزان الله، ولكن في حياتنا لا بدَّ من أن تفهم أن ما حدث بينها وابن ميمون لم يكن ذا أهمية كبيرة. فاجأتك، أليس كذلك؟ تتساءل بينك وبين نفسك، كيف عرفت ذلك. أحد جواسيس القاضي يراقب تحركات الطبيب الكبير بهدف حمايته كما تعرف. يبدو أنه راقبه أكثر من اللازم، وكتب تقريرا للقاضي الذي أبلغ السلطان في حضوري. أمر صلاح الدين ألا نبلغك. جعلني أقسم على ذلك. إنه يقدّرك كثيرًا، ولم يكن يريد إزعاجك. فكّرنا ذات مرة أن نجد لك زوجة أخرى".

كنتُ صامتًا. هادئًا. أولئك الناس يعرفون كل شيء عني. لم أكن قلقا بشأن شادي، كان يمكن أن أبلغه بنفسي. ولكن.. القاضي والسلطان! لماذا عرفوا؟ أي حق لهم في أن يتجسّسوا على الناس؟ تملّكني الغضب. لعنت، في سري، راشيل لأنها خانتني. أحسست بالعار. لم أعد مجرد كاتب وحسب، في نظرهم، أصبحت ديوثا كذلك. استأذنت شادي وقمت. سرت وحدي.

هذا أول يوم في رحلتنا. أمامنا ثلاثون يومًا أخرى. نظرت ورائي في الاتجاه الذي جئنا منه. كم هو كثيف الظلام في الصحراء! كم هو قارس بردها في الليل! أمسكت بالحِرَام أحكمه حولي، وغطّيت رأسي كأنني أُمعن في الفرار من القاهرة.

دمشق

(18)

• عندما التقيت بأبناء عم السلطان المفضّلين، واستمعت إليهم يتحدّثون عن تحرير أورشليم

كأننا وصلنا دمشق منذ ساعات قليلة. الحقيقة أننا هنا منذ أسبوعين، ولكن كان لا بدَّ من أن يمرّ كل ذلك الوقت كي أفيق من عذاب الأسابيع الأربعة التي سبقت وصولنا. كانت الرحلة خالية من الأحداث، لم تحمل أي إثارة بالنسبة للآخرين.. ولكن ليس بالنسبة لي. الآن، أستطيع أن أركب حصانا وأن أسيطر عليه، ولكن ذلك النشاط لم يكن ممتعًا بالنسبة لي. أحرقت الشمس وجهي.. ولولا المرهم الذي كان يحمله أدلاؤنا من البدو لقتلني الألم.

لا بدَّ من أن أشكر طالعي لأنني وُلدت يهوديًا. لو أنني من أتباع نبي الإسلام لكان عليَّ، مثل معظم الجنود، أن أولّي وجهي صوب مكة، وأصلّي خمس مرات في اليوم في قيظ الصحراء. السلطان الذي لم أكن أعتقد أنه شخص عميق التديّن، وجدته محافظًا على طقوس دينه كقائد للقوات. لم يكن عدم وجود ماء للوضوء مُشكلة. الرمل بديل سهل. كان شادي يتذرّع بكبر السن لكي لا يحضر صلاة الجماعة. عندما رأى صلاح الدين يؤم المسلمين ذات يوم، همس لي: "الحمد لله أنه لا يوجد فرنج قريبون من هنا. إن منظر ثلاثة آلاف مؤمن، مؤخّراتهم في الهواء هكذا، يمكن أن يكون هدفًا سهلا".

وبصرف النظر عن المتاعب الجسمانية للرحلة، اضطررت للجلوس في خيمة السلطان أكثر من مرّة، لأستمع إلى عماد الدين وهو يروي بصوته الرتيب قصصًا عن خلفاء بغداد. كان ذلك عذابًا عقليًا ما بعده عذاب، خصوصًا وأن الحكايات التي كان يردّدها مسروقة من أعمال معروفة لي.

ولكي أكون منصفا، فإن عماد الدين لم يحاول أن يزعم أن "مروج الذهب" و"كتاب التنبيه" كانا من بين أعماله. أخذ يمتدح مؤلفهما، المسعودي، ولكن أسلوبه في الحكي هو الذي نقل إلينا شعورًا كاذبًا بالأهمية.

لعلّ خيالي هو الذي صوّر لي ذلك. لعلي كنت مرهقا بالنهار، ولذلك لم يكن يروق لي أن أستمع إلى قصصه آنذاك.

أسبوعان من الراحة التامة في أجمل المدن أنعشاني تمامًا. إمكانية أن أستحمّ كل يوم، وروعة الطعام الذي تقدّمه لنا كل يوم مطابخ القلعة، والراحة من الشمس.. ماذا أريد أكثر من ذلك!

أظهر السلطان -أنعش الله قلبه- اهتمامًا بانتعاشي واستعادتي لهدوئي. هو أيضًا بدا سعيدًا لوجوده في دمشق، ولكن لأسباب مختلفة. هنا كان وطنه لعدّة سنوات. هنا تعلّم فنون الحرب ولعب الحب. يشعر بالأمان في تلك المدينة. عرفنا منزلته القوية لدى الناس يوم الجمعة الماضي، عندما أدّى الصلاة في المسجد الأموي. أخبرني شادي أن أهل دمشق كانوا يعتبرونه شابا غضا، كل همّه هو متع الحانات والجنس. وصلتهم، بعد ذلك، أخبار فتوحاته من بعيد. هو الآن شخص مختلف تماما. أصبح في نظرهم قائدا أعظم من القائد المحبوب نور الدين.

رأيت الاستثارة والانتباه على وجوه كثيرة في أثناء صلاة الجمعة. الشيخ ذو اللحية البيضاء الذي صعد المنبر، دعا الله أن يطيل عمر صلاح الدين، وأن يساعده على إلقاء الفرنج في البحر. أشار إلى السلطان ب"سيف الإسلام" مما لقي استحسان الجمع فردّدوا بصوت واحد "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

بدا الناس هنا أكثر مراعاة وأقل اندفاعًا وتهورًا من أهل القاهرة. في مدينتي، من المألوف أن تسمع انتقادات للقاضي وحتى للسلطان نفسه، ولاعبو خيال الظل يخاطبون جمهورًا أوسع. فكّرت في الفروق بين المدينتين وطبائع أهلهما، عندما طرق بابي شخص لا أعرفه ودخل غرفتي.

بدا من ملبسه أنه أحد الخدم. إلا أن النظرة التي ارتسمت على وجهه أوحت إلى بألفة أدهشتني. انحنى وقدم نفسه: "أمجد الإسلام". كان طويل القامة.. جدًا.. ويبدو في صحة جيدة.. حليق اللحية والشارب. أخبرني أنه يعمل في خدمة السلطان منذ أن كان في العاشرة من عمره، وقال إن العمّ شادي هو الذي علّمه كل ما يعرفه في هذا العالم.

"السلطان يريدك أن تتعشّى معه الليلة، والعمّ شادي يتمنى لك شهية طيبة، ويقول لك إنه سيتناول طعام الغد معك".

بهذه الكلمات ترك أمجد، المبتسم الواثق من نفسه، غرفتي. ابتسمت لرسالة شادي. كان الرجل العجوز في حالته الطبيعية في أثناء مسيرتنا من القاهرة إلى دمشق، ولكنه يعاني الإرهاق وفساد المزاج منذ وصلنا، ولزم جناحه. سعدت عندما عرفت أنه بخير وتطلّعت للقائه. تحمّمت وفكرت في أن أكتب وصفا مفصلا عن الصحراء لكتابي الخاص الذي أقوم بكتابته.. ولكن، ها هو صلاح الدين يقطع عليَّ نشاطي مرة أخرى.

كان جالسًا مع رجلين كثيرا ما رأيتهما برفقته منذ أن وصلنا. بدا من سلوكهما أنهما أمراء. كذلك كانا بالفعل. فروخشاه وتقي الدين المفضّلان من بين أبناء عمومة السلطان. شقيقان. أبناء شاهنشاه، الشقيق الأكبر للسلطان الذي تُوفّي وصلاح الدين في العاشرة من عمره. كان صلاح الدين يحبّهما، وكان كلاهما ينافس الآخر في الجسارة في ميادين القتال. كانا يذكِّرانه بشيركوه، وكانا يحظيان بحبه وثقته.

قدّمني إليهما على التوالي، ووقف كلاهما كي يعانقاني.

قال تقي الدين ضاحكا: "مستقبلنا يتوقّف عليك، إذا كتبتَ عنا بسوء فسوف ينسانا الجميع، أما إذا كتبت بصدق فسوف تبقى ذكرى ما صنعته عشيرتنا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها".

أما شقيقه فسأل: "خبّرني يا سيدي الكاتب، هل هناك حقيقة مطلقة؟ أتنقل روايات مختلفة للحدث نفسه؟ أتستشير أكثر من مصدر؟ أنت تكتب ما تكتب، أولا وأخيرًا، استنادًا إلى كلام عمّنا المبجّل، وهو لن يتحدث، بالطبع، عن تلك الأحداث التي خاب فيها أمله في نفسه".

نظرت إلى السلطان الذي انفجر في الضحك.

"أنا.. لا! ولكن شادي، كما نعرف جميعا، يمكن الاعتماد عليه لكي يصلح عيوبي. والآن، نحن في دمشق، سيكون لدى ابن يعقوب مخبران، هما أنتما أيها الشيطانان. لا تنسيا أنه مشغول بكتابة مذكراتي.. وهي مذكّراتي أنا".

هذا الحوار الأُسري جعل الرد من جانبي لا لزوم له. ابتسمت كما يفعل الكتبة المهذبون أحيانا، وبقيتُ صامتا. وصول الطعام كان نقلة جديدة. نظر الشابان إلى وجهي

وأنا أرقب صنوف الطعام التي كانت تُوضع أمامنا وانفجرا في الضحك. تبادل فروخشاه معي نظرة ذات معنى.

"أستطيع أن أقول إنك لست معتادًا على رؤية اللحوم على مائدة عمّنا. سوف يتناول وعاء من الحساء وبعض الفاكهة. الموجود أمامنا لحم ضأن متبّل بالأعشاب، ومشوي. ذلك هو الطبق المفضّل لدي عمنا الكبير شيركوه، واليوم ذكرى وفاته. نخصّصه لأنفسنا كي نتذكّره على النحو الذي كان يفضّله".

تجهّم وجه السلطان لهذا الطيش.

"الأفضل أن تتناولوه يوم ذكرى ميلاده، بدلا من أن تحيوا يوم وفاته. لقد رأيته وهو يموت وكان مشهدًا مؤلمًا. حاكوا قدرته كقائد عظيم ومحارب مقدام، ولكن تجنّبوا رذائله. كل علماء الطب لدينا يحذّرون من الإفراط في أي شيء".

أفاقا من ضيق صلاح الدين. أحنيا رأسيهما إذعانا. مر باقي الوقت في صمت، ولكن بعد تنظيف المائدة أدركت أن ذلك لم يكن لقاء عارضًا. عندما تهيّأ السلطان للكلام أشار إليَّ بأن أجهّز قلمي.

"أود أن يكون ما أقوله عن تقي الدين وفروخشاه، ابني أخي المتوفى، في حضورهما. إنني أشعر نحو هذين الرجلين بالقرب أكثر من سواهما في عائلتي. ليس لمجرد أنهما أبناء أخي ولكن لأنهما، كذلك، اثنان من خيرة القادة العسكريين.

أولادي صغار. ولو حدث شيء لي، فمن المنتظر أن يحميهم تقي الدين وفروخشاه من النسور التي ستبدأ في الحوم حول المدينة التي جعلناها مدينتنا. إذا متّ قريبا، أريد أن يستقر تقي الدين في القاهرة، وأن يحكم فروخشاه دمشق. الأماكن الأخرى ينبغي أن تقسّم بين إخواني وأبنائهم، ولكن القاهرة ودمشق هما الجوهرتان الحقيقيتان لمملكتنا. من دونهما نصبح لا شيء. إنهما المدينتان اللتان ستمكناننا من طرد الفرنج.

على مدى تسعين عاما تقريبا، والفرنج يحومون حول بلادنا كالوحوش المفترسة، قليلون من يذكرون وقتا لم يكونوا فيه هنا، وربما لا يذكر ذلك أحد. عندما جاؤوا في المرة الأولى لم نكن مستعدّين لهم. أصابنا ذعر. خُدِعنا، وخان بعضنا بعضًا من أجل المكاسب. بعد ذلك تحالفنا مع الفرنج ضد إخواننا. كان السلطان زنكي والسلطان نور الدين العظيم يعرفان أن الوسيلة الوحيدة لطردهم هي أن نكون متّحدين -وكما هو

معروف- فإن الوحدة لا تتحقق دون تضحية بدماء كثيرة.

انظرا إلى الوضع اليوم. سوف يحتلّ الفرنج عدّة مدن بالقرب من البحر بالإضافة إلى القدس. أريد أن أقسّم جيوشنا إلى ثلاث وحدات جيّدة التنظيم متماسكة.. تحت قيادتي وابني عمي الشجعان. سيكون تركيزي على الاستيلاء على حلب أو الموصل، وإن كان يفضّل الاستيلاء على الاثنتين. سيجعلنا ذلك الأقوى في بلادنا هذه. في الوقت نفسه، أريدك يا تقي الدين أن تضرب في قلب الفرنج.. في فلسطين. دعهم يعتقدون أن ذلك جزءٌ من هجمة كبيرة للاستيلاء على القدس أو مملكة أورشليم التي يحبّونها. اهزمهم، ولكن لا تتأخر طويلا في مكان واحد. ألقِ الرعب في قلوبهم. أريدهم أن ينشغلوا تماما، فلا يكون لديهم الوقت حتى للتفكير في مساعدة أعدائنا في حلب والموصل.

فروخشاه.. أنت ستبقى هنا تحمي هذه المدينة وحدودها بحياتك. لقد وصلتني تقارير عن تبذيرك واقترابك من إفلاس الخزينة. لا أريد أن أسمع مثل هذه الشكوى مرة أخرى. أبوك وجدّك كانا قنوعين. تعلّمت أن المرء كي يكسب احترام الناس، وبخاصة جنودنا، لا بدَّ له من أن يتعلم أن يأكل ويلبس مثلهم. نحن الذين نُشرّع يا فروخشاه. لا بدَّ من أن نحترم القوانين وأن نكون قدوة. أتمنى أن أكون قد أوضحت كل شيء.

لا تنسيا -رغم أننا نحكم- أن الناس ما زالوا يعتبروننا دخلاء. الآن فقط، بدأ العرب يقبلون بي سلطانا عليهم. مستقبل عائلتنا يتوقّف على كيفية تصرفكما وأسلوب حكمكما. لا تنسيا أبدًا، أن الرجل هو فعله.

إذا سمعتما أن الفرنج يرسلون حملات استطلاعية لاختبار دفاعتنا، اخرجوا لهم ودمروهم. سوف نتحدث مرة أخرى غدا، ولكن كونا مستعدين للرحيل في غضون أسبوع.

لا بدَّ أن يظل مقصدنا سرا. لا أريد أن تخبرا أحدًا، حتى زوجتيكما، بوجهتنا. إذا سألكما سائل، فلتكن الإجابة "السلطان ما زال يفكر"، وفي حال أي تهديد لدمشق في غيابي، الذي أتمنى ألا يطول، فلتخبراني بذلك دون إبطاء. ينبغي ألا نفقد هذه المدينة. والآن، اذهبا لتستريحا. أودّ أن أتكلم مع ابن يعقوب على انفراد".

انحنى ابنا الأخ اللذان طهّرتهما كلمات السلطان، وقبّلا عمهما على التوالي على وجنتيه. قام واحتضن كلا منهما. صافحاني وانصرفا.

"كنت أود أن تكون معي يا ابن يعقوب إلا أنني قلق على صحة شادي. كان يصحبني دائمًا في حملاتي ولكن كما ترى، إنه يكبر ويضعف كل يوم. إن الله قد يأخذه إلى رحابه في أي يوم. هو صلتي الوحيدة بالجيل الأكبر سنًا. الآخرون كلهم رحلوا. وهو، على الرغم من كل شيء كما تعرف، ابن جدّي. لديَّ ذكريات سعيدة عنه. كان له أثر كبير في شبابي، وكثيرًا ما كنت أعتمد عليه. إن الله رزقني مستشارين جيدين وأقوياء، رجالا مثل الفاضل وعماد الدين، لن يطلب أي سلطان أكثر من ذلك، ولكنهم يجدون من الصعب أحيانا أن يعارضوا بعض قراراتي غير المنطقية.

وحده شادي هو الذي لا يخشى قول الحقيقة، ويدعوني أحيانا بالجحش العنيد، ويجعلني أتخلّص من بعض المفاهيم الحمقاء التي تكون قد عششت في رأسي. شادي ليس عالمًا، ولكن لديه إحساسا فطريا قويًا بالصواب والخطأ في أمور السياسة والحرب.

هناك أوقات في حياتنا يا ابن يعقوب قد نكون فيها غير سعداء في الحب، أو تعساء لأن صديقا ما قُتل في معركة، أو نكون قد فقدنا حصاننا المفضل. في أوقات كهذه، عندما نشعر بأننا على حافة هاوية، فإن الحمقى والمتملقين من المستشارين يمكن أن يدفعونا دون قصد منهم مِنْ على الحافة. رجال مثل شادي لا يحدث منهم ذلك. أولئك أناس معروفون بالنزاهة، ومن أسف أنهم قلة في عالمنا. لقد أنقذني شادي من نفسي أكثر من مرة. لذلك فإنه يعني لي الكثير.. أكثر من والديَّ.

تبدو مندهشا لأنني أقول ذلك، ولعلك تتساءل لماذا أقوله، حيث إن شادي ما زال مَعَنا ويتعافى من مشقة الرحلة.. وربما يعمّر أطول منا كلنا. لقد اعتدت أن أفكر مثلك، ولكن شيئا ما عميقا بداخلي ينذرني بأنني سأكون بعيدًا عندما يموت شادي. الفكرة تزعجني إلى حد كبير يا ابن يعقوب. أعرف مدى حبه واحترامه لك، ولذلك لن آخذك معي. هذا يجعل قراري بألا آخذه أسهل عليه، لأنك ستكون معه. أتفهم؟"

أومأت برأسي.

"أريده أن يستريح. لقد أعطيت تعليماتي لأمجد، الخصي الذي حمل إليك رسالتي من قبل، بأن يتأكّد من أنه لن يحتاج شيئا وأنا بعيد. أمجد، وليس سواه، هو المسئول أمامي.

شادي وفروخشاه ليسا قريبين من بعضهما. أتدري لماذا؟ لأن لسان شادي لا يحترم الأشخاص الذين لا يتصرفون، من وجهة نظره، كما يجب. فروخشاه مثلا ليس شخصًا

سيئًا ومع ذلك سبق وأن سلقه شادي بلسانه. كان ذلك في حضور أمراء آخرين. أهان كرامته. شكا لي فروخشاه بمرارة، ولكن ما الذي كان يمكن أن أفعله؟ هل يمكن أن تتصوّر أنني أوبّخ شادي؟ المشكلة أن فروخشاه لم ينس الإهانة إلى الآن. أنا واثق من أنه لن يفعل شيئا يمكن أن يضرّ شادي، ولكن ليست هذه هي المشكلة. ما يحتاجه الرجل المسنّ في هذا الوقت هو الأصدقاء.. والكثير من الاهتمام.

أتمنى أن أكون مخطئا في مخاوفي. وأدعو الله أن يكون شادي هنا عندما أعود بمشيئته تعالى إلى دمشق، ملمًا بتفاصيل الأخطاء التي ارتكبتها في أثناء حملتي. وذلك بعد أن يكون عماد الدين قد قام بنقلها لكما.

ما يقلقني، كذلك، ليس صحة شادي فحسب، وإنما صحتي. إلى الآن.. الله رحيم بي. لقد نجوت من الموت أكثر من مرة، ولكنك إذا قدتَ جيشا في حروب متعددة مثلي، وكان شخصك هو الهدف الرئيسي للعدو، تصبح مسألة وقت، قبل أن يخترق سهم قلبك أو يشجّ سيفٌ رأسك.

أشعر بالوهن يا ابن يعقوب. أريدك أن تعرف أن أسرتك محلّ رعاية في القاهرة، لقد أعطيت تعليمات بأن يدفعوا لك أجرك بانتظام وأنت هنا. بعد أن نُحقّق هدفنا، وينجيني الله، سوف أخلع عليك إقطاعية صغيرة في ضواحي القدس المحبوبة. وإذا سقطت في الميدان، فهناك تعليمات للفاضل وعماد الدين بأن تُعطَى قرية أينما رغبت".

لدهشتي، كنت أشعر بالدموع تنثال على وجنتي. لم يكن كرم السلطان مجهولا ولا سرًا، ولكنني كنت مجرد كاتب صغير. تفكيره في مستقبلي هزّني. عندما قمت لأودّعه، قام وعانقني وهمس في أذني بأمر أخير:

"حافظ على حياة الرجل العجوز".

(19)

● شادي يرأس طقس ختان ابن حليمة، و موت فروخشاه

كان قد مرّ أكثر من ثلاثة أسابيع على خروج السلطان. الصيف في ذروته والحرارة في دمشق لا تُحتمل. الكل يبحث عن الظل.. الإنسان والحيوان. في يوم كهذا، جاء أمجد الخصي مندفعا إلى مسكني بعد الظهر مقلقًا منامي. كان يبتسم وهو يوقظني ليبلغني أن السلطانة جميلة تستدعيني. لم أكن قد رأيتها هي أو حليمة منذ مجيئنا، وكنت أفكر فيهما باستمرار. ولكنني شعرت أن التقاليد الاجتماعية الصارمة في دمشق ربما كانت السبب. فدمشق أقل انفتاحًا من القاهرة.

تبعت أمجد كالأعمى إلى الحرملك، وأنا ما زلت أشعر بالنعاس. ولدت حليمة ابنا لصلاح الدين. لم أرها بالطبع، ولكنهم أخذوني إلى غرفة انتظار حيث يتلو شادي، تحت بصر حليمة، "الكلمة" في أذن المولود. حملت مرضعة شابة فائقة الحسن والجمال الطفل، لم أكن قد رأيتها من قبل. سُمي الطفل، عاشر أبناء السلطان، أسد الدين بن يوسف. دعا شادي، ببذاءته الفطرية المعتادة، الله أن يكبح مَنِي السلطان، حتى لا تزيد الأعشاب الضارة عن الزهور عددًا. ضحكت جميلة بصوت عال، وهمست موافقة على كلمات الرجل.

كان شادي لا يزال في حالة معنوية جيدة بعد حفل الختان. بدا عليه أنه عاد إلى طبيعته تمامًا بعد إرهاق السفر الأخير. أصبح الأمراء المحلّيون وفروخشاه هدفًا جديدًا لسخريته اللاذعة. وكان من الصعب أن تمسك نفسك عن الضحك بصوت عالٍ، وألا تلفت إليك الانتباه. كانت انتقادات شادي بريئة دائمًا، وصريحة، ولها ما يبرّرها، ولكن ما كان يقلقني هو كثرة الوشاة في القلعة الذين لا يجدون شيئا أفضل من نقل ما يقوله شادي عن السادة إليهم، لعلّهم يكسبون رضاهم. عندما صرّحت له بهواجسي، ضحك

مقهقها ومستخفًا.

غضب عندما استبعدوه مثلي من الدوائر الداخلية للبلاط، وكان من الصعب أن يقبل ذلك بحكم قرابته من ابن عمه. كلانا كان يشعر بغياب السلطان. أصبحنا أغرابًا في غيابه. أدهشني شعوري هذا، فلم أكن قد أمضيت في خدمته أكثر من خمس سنوات حتى الآن. فكم يكون يا ترى مدى تأثّر شادي لشعوره بالحرمان من مكانه المعتاد قريبًا منه في السِلم والحرب؟ من الصعب أن يتخلّص المرء من عاداته، لذا كنت أجدني أحيانا أجول شارد الذهن، في حالة أقرب إلى الذهول، أتجه نحو غرفة السلطان، ثم أعود أدراجي ببطء إلى غرفتي، مثل كلب أهمله صاحبه.

دارت حياتنا كلها، في السنوات الأخيرة، حول صلاح الدين، على مستويات مختلفة، لدرجة أننا لم نكن نتصوّر أنه ليس موجودا في القلعة، أو أننا لسنا بجواره أينما كان.

"لا بدَّ وأن يكون ذلك الطاووس الذي يقف على سطح ساخن هو الذي يكتب رسائل السلطان. لا بدَّ وأن يكون عماد الدين". ويومًا قال لي شادي "لماذا لا تمتطي حصانك وتلحق بصلاح الدين؟ يمكن أن تقول إنني أجبرتك على مغادرة دمشق. يمكن أن تقول له أيضا إن الله قد عافاني، ولم أعد أحتاجك بجواري إلى أن تحين ساعتي".

لم يكن الأمر بهذه السهولة. فلا تزال تحركات صلاح الدين غير واضحة. حتى وإن كان هناك من يعرف مكانه، فلربما يكون قد تغيّر كلية وقتما نصل إليه. مرت أسابيع لا حس ولا خبر. لا حمام ولا رسول، وكان فروخشاه قلقا إلى حد ما. قبل يومين وصلتنا تقارير أخرى عن نشاط الفرنج بالقرب من دمشق. وبينما كنا أنا وشادي نتكلّم جاء خادم يستدعينا إلى غرفة فروخشاه، الذي عاد مبكرا ذلك اليوم بعد مناوشة مع جماعة صغيرة من فرسان الفرنج على مبعدة نصف الساعة من دمشق.

كان ضوء القمر يغمر السماء، ونحن متجهان إلى قاعة المقابلات الرسمية التي أُستبعدنا منها منذ رحيل صلاح الدين. وجدنا الأمراء مجتمعين عندما دخلنا. انحنيت أمام فروخشاه الذي بدا مرهقًا كأنه لم يذق طعم النوم منذ أيام. حدّق شادي في ابن أخي السلطان. تجاهل فروخشاه الرجل العجوز تمامًا، وجاء ليستقبلني بفتور.

"أنا سعيد لمجيئك يا ابن يعقوب. لقد وصلتني رسالة للتو من عمّي، وبها تعليمات بأن تكون أنت والعجوز شادي حاضرين في أثناء قراءتها على المجلس".

انحنيت مرة أخرى شاكرًا، أما شادي فشهق ازدراء، بصوت مسموع، وبلع ريقه. أُختير صبي من كتاب البلاط، وسيم، أشقر، ذهبي الشعر، طويل الأهداب، ربما لا تتجاوز عمره الثامنة عشرة، لقراءة الرسالة.

قال شادي وهو ينظر إلى الكاتب: "انظر إلى تلك الفاجرة عديمة الحياء! لعله جاء إلى هنا من فراش فروخشاه مباشرة، وما زال يرنو إليه ولهانا".

كان الولد يتكلم بصوت مكسور.

غمغم شادي: "خصي!".

صاح فروخشاه "صمتًا! ينبغي الصمت في أثناء تلاوة رسالة من سلطاننا صلاح الدين بن أيوب على البلاط".

بدأ الكاتب يتكلم بتوتر عصبي ملحوظ في البداية، ثم بثقة أكثر عندما بدأ أسلوب عماد الدين يفرض زخمه.

"هذه رسالة موجّهة إلى ابن أخي العزيز فروخشاه وكل أمرائنا الأوفياء في دمشق. نحن الآن على أبواب حلب، وكلنا رغبة كما كنّا دائمًا في أن نتجنّب رؤية مؤمن يقتل مؤمنا. لقد عرضت على الأمراء صلحا مشرفا بشرط أن نحتل القلعة. لست واثقا من أنهم أذكياء بما يكفي لكي يقدروا مكرمتنا. خرج أحدهم بالأمس لكي يقابلنا. حاول بكلام معسول وادعاء ظاهر إغرائي بالانسحاب عارضا كنوزا سخية، وأقسم على القرآن بالولاء الدائم، قائلا "نحن أصدقاؤك أيها السلطان العظيم وسنكون إلى جوارك في ذلك اليوم القريب، يوم تأخذ القدس وتطرد الفرنج عن أراضينا".

لم تترك هذه الكلمات أي تأثير فينا، بما أن جواسيسنا قد أبلغونا قبل ثلاثة أيام فقط، أن أعيان حلب بعثوا برسائل عاجلة للفرنج والحشّاشين في الجبال، عارضين عليهم الأموال إن هم نجحوا في أن يمنعوني من دخول المدينة.

كان ردي كما يلي "أنت تزعم أنك صديقي. الصداقة عندي ثقة مقدسة، ولكن قل لي: من أعداؤك؟ سم لي أعداءك الحقيقيين وأنا سأسمي أصدقاءك. الصداقة عندي تعني، قبل أي شيء، عداءات مشتركة. هل توافق؟"

أومأ الأحمق برأسه، وهنا أريته نسخة من الرسالة التي بعث بها سيده إلى الفرنج.

بدأ يتصبّب عرقا ويرتعد، ولكنني سيطرت على غضبي. كان شادي بارك الله فيه، يمكن أن يشير عليّ بإعادة رأس ذلك الوغد إلى حلب، وكنت سأستجيب لذلك، ولكنني كظمت غيظي. الغيظ ليس شعورًا طيبًا عندما يكون على المرء أن يقرّر أمرًا مهمًا. أعدنا الأمير إلى حلب مع إنذار شديد بأنهم إذا استمروا في تحدّيهم، فلن يكون أمامنا سوى أن نستولي على مدينتهم بالقوة. حذّرتهم من أن يتصوروا أن كل مواطنيهم سوف يهبون للدفاع عنهم في مثل هذه الظروف.

كنا نودّ أن نبعث إليكم برسالة بعد أن قررت جيوش الموصل المدعومة من حلفائها، أن تقابلنا على سهل حارزم الواقع تحت ماردين مباشرة، ولكننا انتظرناهم دون طائل. وبدلاً من أن يتقدموا كالرجال اختفوا كالنساء. أردنا أن نطاردهم، ولكني، بدلا من ذلك، قررت أن أعزلهم تماما عن المدن المجاورة.

قبل يومين، استولينا على الأمادية دون مقاومة تذكر، رغم أن جنودنا أخذوا وقتا طويلا كي يخترقوا أسوار البازلت السوداء الهائلة. كان ذلك نصرا مفرحا بسبب الكنوز المدهشة الموجودة في المدينة. نتيجة لهذا الانتصار، نجحنا في الاستيلاء على أسلحة كثيرة تكفي لتجهيز جيشين جديدين. كلاهما، الفاضل الذي كان معنا في الحصار وعماد الدين، كانا أكثر اهتماما بالمكتبة التي تحتوي على مليون مجلد. حملنا الكتب على سبعين جملا، في طريقها إلى دمشق الآن، وأنا أكتب هذه الرسالة. ينبغي أن يكون ابن يعقوب هو المسئول عن إيداعها مكتبتنا في أمان، لحين عودة عماد الدين. توجد بينها ثلاث نسخ من القرآن تعود إلى عصر الخليفة عمر.

لن يكون الفرنج قادرين على مقاومة عرضهم، وهذا هو السبب الرئيسي لهذه الرسالة. سيكون هدفهم هو منعي من تجهيز جيش كبير. أعتقد أنهم سوف يحاولون الهجوم على دمشق والقاهرة لصرف أنظارنا. إن صحت توقعاتي سيكون عليكم أن تبادروا بالهجوم.

لقد أبليت بلاء حسنا يا فروخشاه. لديَّ تقارير مفصّلة عن انتصاراتك الأخيرة، ولكننا في حاجة إلى أن تكون حلب والموصل تحت سيطرتنا، إذا كنا نريد أن نطرد الفرنج من عالمنا وإعادتهم إلى البحر.. إلى عالمهم.

غدا، سوف نعاود المسير إلى حلب. هواء الجبل أنعشنا وبدّد تعبنا. الجنود يعرفون أن الشمس في السهول أشبه بنار جهنم، ولكن الله سيكون معنا في حلب، سنصل إليها

بعد خمسة عشر يوما، وإن شاء الله سوف نستولي على المدينة هذه المرة. حينئذ فقط، سوف أعود إلى دمشق لنقوم بتحضيراتنا الأخيرة للجهاد. احذر الهجوم المفاجئ من الفرنج".

أشار الياور إلى أن الاجتماع قد انتهى، وعندما قمت أنا وشادي لمغادرة الغرفة، انحنينا في اتجاه فروخشاه. إلا أن شيئا ما خطأ بدا لنا فجأة، لاحظ حرّاسه كذلك أنه مُغمى عليه. أُخليت الغرفة وأُستدعي الأطباء. يُحسب لكل الأمراء الذين كانوا حاضرين، أنهم لم يصابوا بمشاعر الخوف أو الهلع التي تثور دائمًا عند مرض الحاكم. ربما يرجع ذلك إلى أن فروخشاه لم يكن سلطانًا، إنما هو بمثابة نائب السلطان.

لم يكن شادي مصدّقًا، رافضًا أن يأخذ مسألة المرض هذه على محمل الجد.

"ربما يكون قد أفرط في الشراب، أو أرهق نفسه وهو يعبث بذلك الولد الأحمق الذي قرأ رسالة صلاح الدين. اذهب كي تنام يا ابن يعقوب".

ذهبتُ بالفعل كي أنام، ولكن القلق لم يمكنني من ذلك. قمت وارتديت ثوبي وخرجت من الغرفة. كان القمر قد غاب والنجوم غيّرت أماكنها. تقدّمت ببطء نحو غرفة فروخشاه لأجد أمامي حارسه يبكي بصوت مسموع مثل الأطفال. خشيت الأسوأ، إلا أنه كان ما زال على قيد الحياة رغم حالة الإغماء.

في الصباح التالي، زادت حالة فروخشاه سوءًا. لم يتعاف. وعندما كان السلطان في طريقه إلى حلب، كان الصراخ والعويل يدوّيان في أرجاء القلعة في دمشق، إعلانا عن أن ابن أخيه قد قضى نحبه.

دفنّاه في اليوم التالي بما يليق به من تكريم. لم يكن مجرد تجمّع للنبلاء والأعيان، بل إن الآلاف من العامة، بمن في ذلك مئات العيارين والشطار والمتشردين جاءوا لكي يصلّوا بجوار قبره. كان ذلك أبلغ دليل على أن عداء شادي للرجل الميّت ربما لم يكن في محله.

(20)

● حليمة تهجر جميلة فينكسر قلبُها

اختلف نظام عملي اليومي في غياب السلطان. أقضي معظم الصباح في المكتبة لدراسة بعض المخطوطات المتعلّقة بالكتاب الذي أقوم بتأليفه. هنا في دمشق توجد مجموعة من المخطوطات في حوزة عالم كبير هو إبراهيم بن سليمان، يبلغ من العمر تسعين عامًا تقريبًا. سمعت عنه وعن مكتبته لأول مرة من شخص، مجرد تذكّره يؤلمني. لم أكن أتصوّره أكثر من حيوان يشبع رغباته من جسد زوجتي. ليتني لا أعود لذكره مرة أخرى! أو هكذا أتمنّى.

كان إبراهيم بن سليمان أكبر حاخامات المدينة سنا، اعتدت رؤيته كل يوم تقريبا وأنا في طريقي إلى المعبد الذي توجد المكتبة خلفه. كنت أجده هناك في معظم الأيام. لم يكن كبر السن قد أثر في ملكاته العقلية. في المرات القليلة التي كنت أحتاج فيها أن أسأله عن شيء ما، كان يكشف لي عن رجاحة عقل، بما يجعلني أشعر بدرجة من الحزن والنقص. كان إبراهيم قد سمع الكثير عن سعة أفق الرجل الذي لا أودّ أن أذكر اسمه، وطلب مني ذات يوم أن أجلس قليلا معه، فقد كان يريد أن يعرف كل شيء عن ابن ميمون.

هكذا بطل مفعول الرقية! هكذا سوّد الرجل الملعون هذه الصفحات مرة أخرى! بل إنني لم أضنّ على إبراهيم بن سليمان بأي شيء مما كان يريد أن يعرف من معلومات، بشغف عالم له من العمر ثمانية عشر عاما.

وهكذا، أيضًا، على غير رغبة مني تحدثت عن ابن ميمون وعن العمل الذي كان مشغولا به، لمجرد أن أدخل السعادة إلى قلب ذلك الرجل العظيم الكريم. قلت له لماذا

كتب كتاب "دليل الحائرين". وبينما كنت أتكلّم كانت صفحة وجهه، تلك الخريطة المجعّدة، تملؤها ابتسامة صافية، لدرجة أن ذلك التغيّر الذي طرأ عليه هزّني. ذلك هو وجه الحكمة الحقيقية.

"الآن، سأموت يا ابن يعقوب وأنا سعيد. هناك من يكتب ما كنت أود أن أقوم به ولم أحققه. سوف أكتب إلى ابن ميمون وأعطيك الرسالة. يمكنك أن تستخدم وضعك ككاتب مفضل لدي السلطان وترسلها إلى القاهرة على الفور. سوف أرفق بالرسالة شيئا من عملي في هذا الموضوع فلربما وجده مفيدا. هل تعرفه جيدا؟"

هل أعرفه جيدا؟ ظل السؤال يتردد ويتردد في ذهني. استولى عليّ مرة أخرى غضب شديد كنت أعتقد أنني تجاوزته. انفجرت ذكرى تلك الليلة الرهيبة مثل عاصفة أغرقتني توًا. لم أنتبه إلى الدموع وهي تنثال على وجهي. مسحها إبراهيم بيديه وضمّني إليه.

"هل سبّب لك حزنا؟"

أومأت برأسي.

"يمكنك أن تخبرني إن رغبت في ذلك، على الرغم من أني قد لا أستطيع أن أساعدك".

وهكذا فاض قلبي لذلك الحاخام بما كان فيه من ألم حبيس. جلس يستمع كما استمع موسى ذات يوم لآلام أبنائه.

بعد أن انتهيت شعرت أن الألم زال. شعرت أنه اختفى إلى الأبد هذه المرة، وأنه لن يعود.

كانت الراحة التي بثّها إبراهيم في نفسي مكتوبة على وجهه. عيناه اليقظتان الذكيتان لم يطرف لهما جفن. لم يكن في حاجة لأن يقول شيئا. فهمت. في ميزان المعاناة التي مرّ بها شعبنا، بدت تجربتي الشخصية مجرّد ذرة رمل. لا أقل ولا أكثر. ذلك هو ما أوحى به وجوده فحسب. أصبح رأسي صافيا تماما كأنما بمعجزة زالت بقايا الألم، واستعدت توازني الداخلي. كان يمكن رؤية كل شيء من منظور مختلف عمره قرون. كنت أريد أن أضحك بصوت عال، إلا أنني كبحت نفسي. لاحظ هو ما اعتراني من تغيّر.

"وجهك صفا يا ابن يعقوب. زالت التجاعيد من على جبهتك. أتمنى أن تكون السحابة السوداء في رأسك قد أخلت مكانها للشمس".

أومأت برأسي. ابتسم.

وأنا عائد إلى القلعة، كانت الشمس في أوجها، وكان لهيبها يخترق ردائي. أخذ العرق يتصبّب من جسمي وأحسست بالإرهاق. ما إن بلغت مقصدي حتى اتجهت من فوري إلى الحمّامات، رقدت في الماء البارد مدّة طويلة. حلّ الشعور الهادئ بالراحة محل الإرهاق والحرارة. جففت نفسي وعدت إلى غرفتي في حالة من الانتعاش التام. شربت بعض الماء وخلدت للراحة. صفت أحلامي وراقت كما تكون دائمًا في أثناء نوم القيلولة.

ولأن النوم خفيف، تصبح الذاكرة أكثر صفاء. كنت أحلم بالغرفة المقبّبة في القاهرة، رأيت زوجتي وابنتي جالستين أمام وعاء به ماء يصبّانه فوق بعضهما. أما كيف بدا بقية الحلم فلست أدري. وجدت شخصا ما يوقظني، ففتحت عينيّ لأجد وجه الخصي أمجد مبتسمًا.

"السلطانة تريد أن تراك يا ابن يعقوب".

جلست في الفراش وأنا أحدّق به غاضبا، إلا أنه بقي ساكنا كما هو.

سألته: "أي سلطانة؟

رفض كعادته أن يجيب، ملمحا إليَّ فقط أن أتبعه.

كان يذكِّرني إلى حد ما بالخصي ألماس، الذي لقي نهاية تعسة في القاهرة.

وجدت جميلة في انتظاري في الغرفة الجانبية المؤدية إلى الحرملك. صرفت أمجد بغمزة من عينها. لم تكن هي جميلة المتوقّدة كعادتها. عينان واهنتان حزينتان. كانت تبكي ويبدو عليها أنها لم تنم جيدا منذ ليال. ما الذي يمكن أن يكون قد أحزن تلك المرأة التي خلب ذكاؤها وقوة شخصيتها السلطان نفسه؟ راحت تحدق فيَّ لمدة طويلة دون أن تتكلم.

"تبدو الأميرة في حيرة وذهول. هل يستطيع كاتب متواضع المكانة أن يكون مفيدًا على أي نحو؟"

"صديقتك القديمة حليمة خانت ثقتي يا ابن يعقوب. كنت أعتقد أنني قد وجدت فيها صديقًا جديرًا بالثقة. شاركتني انتقاد أسلوب حياتنا. لم نفترق كما تعلم شهورًا عدة. لم نكن نحسب الأيام التي قضيناها معا. تعلّمت كيف تستمتع بالفلسفة الأندلسية والشعر الساخر لظرفائنا في القاهرة ودمشق. كنا نضحك للأشياء نفسها. حتى عداءاتنا كانت واحدة. لن أصف لك كيف كانت ليالينا معا خشية أن أجرح مشاعرك الرقيقة، ولكن صدقني يا ابن يعقوب، عندما أقول ذلك أشعر بها تهزّني. كنا نعزف معا مثل ناي وقيثارة. ما الذي يمكن أن أقول أكثر من ذلك؟ عندما كانت تنظر إليَّ، كانت تبتسم، فيفيض وجهها مثل نبع صاف يشع بالجمال ويغري المرء بالانحناء ليرتوي من مائه المنعش. كانت الدنيا تبتسم معها.

منذ أن ولدت ابنها غَيَّرها شيء ما. أصبحت تتصرف على نحو غريب. تتجنّب صحبتي. تستمع إلى تخاريف ساحرات كل عملهن هو إلقاء الرعب في قلوبنا بهدف إخضاعنا. يقول لي أمجد إن بعض الخادمات من كبار السن في الحرملك قد ملأن رأسها بهراء من كل نوع. يقول إنهن قلن لها إن السلطان يفضّل ابنها على أولادي، وإن ابنها يمكن أن يصبح سلطانا ذات يوم إذا ما قطعت علاقتها بي. قلن لها إنني مؤثر ضار، وإنني أضللها وأبعدها عن طريق الله ورسوله. ملأوا رأسها بأكاذيب عن ماضيّ. أبلغني أمجد بذلك كله من مصادر موثوق بها.

حليمة بدأت تعتقد أن العالم ملئ بالشياطين. بالأمس سمعتها تسأل إحدى الخادمات بقلق ما إذا كان "الأوضار" يمكن أن يصيب الأطفال. أتعرف ما هذا "الأوضار" يا ابن يعقوب؟

شيء اخترعه البدو قبل قرون ليخيفوا به منافسيهم في الصحراء.

يقال إنه وحش يغتصب الرجال ويتركهم لكي تشويهم شمس الصحراء، ولكن ليس قبل أن يتأكد من أن الديدان قد صنعت لنفسها عشا في فتحة الشرج! مجرد أن يصدق شخص جاهل في كل هذا الهراء يجعلني أضحك. ولكنني أمضيت شهورا كاملة أعلّمها الجوانب الراقية من الفلسفة. وكنت أعتقد أنها فهمت. لكنها بدلا من ذلك راحت تصدق ما يُلقى على مسامعها من خرافات. بل باتت فلسفة ابن رشد وابن سينا زيفا وضلالا. كأن سحابة سوداء طمست عقلها وترفض أن تنقشع.

كلما حاولت أن أتكلّم معها تنظر إلى بعينين يملؤهما الخوف كأنني شيطان أو

ساحرة. ترفض أن أحمل ابنها. ترفض أن ألمسها. قالت منذ ثلاث ليالٍ مضت إن كل شيء فعلناه معا كان شرًا، وإثمًا، ومنفّرًا، وإن الله سوف يعاقبنا ويضعنا تحت رحمة الجن والشياطين. لطالما أردت أن أصرخ فيها، أن أشد شعرها، أن أهزّها بقوة لكي تفيق. لكنني تمالكت نفسي، وحاولت بدل ذلك أن أفهم ما حدث لها.

مرة واحدة بدت حليمة التي عرفتها عندما فاجأتها في الحمام. كانت بمفردها وأنا كذلك. خلعت ثيابي ودخلت الحمام إلى جوارها. لم ينبس كلانا بكلمة. تناولت قطعة قماش ورحت أمسّد كتفيها الرقيقتين برفق، ولا بدَّ أن يكون ذلك قد أهاج بعض الذكريات.

لأول مرة منذ شهور، استدارت نحوي لتنظر إليَّ، ثم ابتسمت. كانت أسنانها تلمع مثل العاج المصقول، وأضاء وجهها مرة أخرى. رأيت حليمة التي أعرفها. ذاب قلبي، ومسَّدت رأسها قبل أن أخفض ذراعي لكي أدعك صدرها.

وكأن مسًا أصابها. تغيّرت، وتجهّم وجهها. نظرت إليَّ بغضب، ثم قامت منتفضة. صرخت في وصيفاتها اللائي اندفعن نحوها بالمناشف، أما أنا فجلست في الحمام يا ابن يعقوب ودموعي ماء منساب فوق ماء الحمام.

الآن، أنا كسيرة القلب حزينة. حزني يفوق الخيال. نعم! أبعد مما يتصوّر عقل، وهذا ما يؤلمني، لأنني أشعر كذلك أن هناك شيئا ما يجرفني بعيدا عن الأفكار العقلانية الهادئة، عن حب نقي طاهر وعميق.

"كانت أقرب صديقاتي. كنا نتكلّم في كل شيء بما في ذلك ضعف صلاح الدين في غرفة النوم. الآن، وأنا بعيدة عن حليمة، لا أجد من أستطيع أن أناقش معه أمورًا قريبة من قلبي. فكّرت فيك لأنك كنت صديقها ذات يوم. كانت تتحدث عنك بالخير وتقول إنك مستمع جيد أيضا. ليس أمرًا سهلا أن تجد مستمعا ذكيا هذه الأيام، ليس أمرا سهلا. خصوصًا إذا كنت متزوجا من السلطان!

كيف تفسّر تغيّر حليمة؟ المؤكد أن ذلك لا يمكن أن يكون نتيجة ولادة طفل. لقد أنجبتُ لصلاح الدين ولدين قويين ولم يحدث لي مثل ذلك. كيف يمكن أن تحيا في عالم من الأوهام كهذا؟"

أذهلتني قصة جميلة. من الصعب أن أصدّق أن تلك المرأة التي وصفها السلطان لي

ذات يوم قائلا: إنها امرأة ذات إرادة حرّة مثل حصان أصيل، يمكن أن تصبح ذلك الكائن البائس الخائف الذي تصفه جميلة.

برقت في ذهني فكرة. ربما قرّرت حليمة أن تضع نهاية لعلاقتها غير الطبيعية بالمرأة الكبيرة، وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تفعل بها ذلك هو أن ترفض جميلة بكل ما تعنيه، وبكل ما تدافع عنه في هذا العالم. ولو أن الحال كذلك لما كانت حليمة في حاجة إلى أن تهبط إلى ذلك الحد كي تؤمن بالوحوش والأرواح الشريرة. أم تراها ادّعت ذلك لتقنع جميلة بنهاية علاقتهما، وبأنها تغيّرت بلا رجعة؟

قلت: "لقد كنتُ مستغرقا في التفكير يا سيدتي السلطانة، أحاول أن أفهم سرّ ذلك التحول الذي وصفته. لا أستطيع تقبّل ما قُلتِهِ. كأن حليمة في غيبوبة. لا أظن أن ذلك له علاقة بالحمل والولادة. ربما تكون أولئك الحاقدات على علاقتكن قد حاولن تسميم أذنيها".

"لقد حاولن ذلك في القاهرة أيضا يا ابن يعقوب، ولكنها كانت تصدّهن بكلمات عنيفة ووقحة، تؤذي مسامعهن. فلماذا أصبحت ضعيفة ومن السهل التأثير عليها هنا في دمشق؟

كتبت لها قصصا ورسائل وقصائد شعر أعبّر لها فيها عن حبّي وهيامي، وكل ما تلقيته منها قصاصة صغيرة من الورق قبل أسابيع عليها هذه الكلمات "أنا ما أنا، أتمنى لك أخرى أفضل مني. لم أعد أتاجر في السعادة مثل تجّار القوافل. أحب الله وحده وأتبع طريق نبيه".

هل يعني ذلك لك شيئا يا ابن يعقوب؟ لا. ولا لي أيضا. إنه أشبه بطعنة في القلب، وأكاد أسمعها تقول "موتي!".

لديَّ رجاء. هل يمكن أن تتحدّث مع حليمة من فضلك، وترى بنفسك ما إذا كنت مخطئة أم لا؟ لعلك تنجح فيما فشلت أنا فيه. السلطان لا يمانع أن ألتقيك أنا أو حليمة في أي وقت نريد. هذا شيء معروف، ولن يكون أمر هذا اللقاء سرًا. إذا لم يكن لديك مانع فسوف أرتب ذلك، وسوف يخبرك أمجد في الوقت المحدد".

قبل أن أجيب بالموافقة خرجت مندفعة من الغرفة. كان أمرا إذن، وليس رجاء.

طوال أسبوع أو أكثر، وأنا أسير مذهولا. كأن حزن جميلة أصابني. تركت كلماتها

أثرًا عميقًا في نفسي. على الرغم من ذلك لم أستطع أن أصدق أن تحوّل حليمة بهذه الحدة كما قالت.

بفارغ الصبر انتظرت الخصي أمجد الذي جاء ذات صباح يبحث عني. أزعجتني ابتسامته كالعادة، ولكنني لاحظت أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه منها. كانت دليل توتر. تبعته بشغف عبر ممر طويل إلى غرفة جانبية، حيث قابلت جميلة قبل أيام.

وجدت حليمة جالسة على حشية كبيرة مطرزة بالقصب. رأتني وابتسمت ابتسامة واهنة. أذهلني مظهرها. بدت شاحبة الوجه، كأن الحياة قد ذهبت عن عينيها الغائرتين. صوتها كان ضعيفا.

"هل طلبت أن تقابلني يا ابن يعقوب؟"

أومأت في صمت.

"ولم؟"

"كنت أود تهنئتك بمولد ابنك، وأسأل عن أفكارك ومشاغلك، وهل يمكن أن أسأل، لو غفرتِ لي جرأتي، عن سر هذا التغيّر الذي يبدو عليك؟ هل كانت الولادة عسيرة؟"

أجابت بصوت واهن لدرجة أنني كنت أجهد سمعي لأتبيّن كلماتها: "نعم، كانت صعبة جدا، وضعوا في يدي حجرا من نوع خاص لتخفيف الألم، وربطوا جلد حية حول فخذي لتسريع الولادة. تسأل ما إذا كنت قد تغيّرت يا ابن يعقوب. أنا تغيّرت. ابني ولد سليما بفضل ثلاث رُقَى كتبها أحد المداوين. ألزمتني الرقى بضرورة التخلّي عن ماضيّ كله، خصوصًا علاقتي بجميلة. غيّرتني الولادة تمامًا. حتى لو لم تكن هذه الرُقَى، لرغبت في أن أشكر الله، لأنه وهبني طفلا، وذلك بعدم الانحراف عن طريقه الذي رسمه لنا من خلال نبينا عليه الصلاة والسلام.

لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لي. كنت أنا وجميلة نقضي وقتنا كله معا. نمزح ونضحك ونجدّف في نفس واحد. لو أنني كنت قد أبلغت القاضي ببعض ما كانت تقوله عن نبينا عليه الصلاة والسلام، لما كان بمقدور السلطان نفسه أن ينقذ رقبتها.

كل ما علّمتني إياه كان كذبًا. كانت تريدني أن أتشكّك في كلام الله. كانت تقول إن الحكمة الموجودة في كتابات المعرّي وابن رشد وابن سينا تفوق تلك التي في كتاب الله.

فليسامحني الله لأنني كنت أستمع إلى هذا الهراء. أنا نادمة يا ابن يعقوب. لم أعد خاطئة. أنا أصلّي الآن خمس مرات في اليوم، وسوف يعفو الله عني ويحرس ابني. أما بالنسبة لجميلة، فأتمنى ألا نكون معا في المكان نفسه. وجودها تذكرة دائمة بماضيّ الخاطئ. أعرف أن هذا سوف يصدمك.. ولكنني أتمنى لو أنها ماتت!".

قالت حليمة ذلك كله بصوت فاتر مجرّد من العاطفة. حتى عبارتها الأخيرة كانت همسًا حزينًا. كان تغيّر حليمة عميقًا. لم تكن مجرّد حالة إقرار بإنهاء صداقة. لقد قلبت حياتها كلها رأسا على عقب. قمت بمحاولة أخيرة.

"يا سيدة حليمة، لو أن شخصًا آخر هو الذي قال لي إنك قد تغيّرت تماما لضحكت. المؤكد أنك لا بدَّ من أن تعترفي بأن ليس كل ما علّمتك السلطانة جميلة شرا. ألم تعلّمك تذوق الشعر؟ هل الأغاني التي سمعتك تغنيها في القاهرة كانت فاسدة لأنها هي التي علّمتك إياها؟"

للحظة، صفا وجهها، وبرقت لمحة خاطفة من حليمة التي أعرفها، ولكن سرعان ما تجهّمت ملامحها مرة أخرى.

"كان تأثيرها طاغيًا وشريرًا. كنت أظنّها تحبني ولكن كل ما كانت تريده هو امتلاكي. كانت تريدني أن أصبح ملكًا لها وحدها. لا بدَّ أن أكون ملك نفسي يا ابن يعقوب. من المؤكد أنك تستطيع أن تفهم رغبتي في أن أكون نفسي مرة أخرى".

"أنت تنسين أنني أعرفك من قبل أن تلتقي بجميلة. هل نسيتِ مسعود؟ ألا تتذكرين كيف كنت تتحدثين مع السلطان يوم جاء بك القاضي إلى القصر في القاهرة. صحيح أنك آنذاك لم تكوني قد تعرّفتِ إلى الفلسفة الأندلسية، ولا إلى شعر ولادة[(3)] الماجن، ولكن عقلك كان مستعدا للانطلاق. جميلة أيضا كانت تلاحظ ذلك وساعدتك على رؤية عالم مختلف".

"جميلة كانت تعزف عليَّ وكأنني آلة عود".

لم يكن ذلك صحيحًا، وشعرت أن من واجبي الدفاع عن السلطانة.

"حتى وإن كنتِ قد استأتِ لسطوتها عليك، فإنها كانت تعزف جيدا. الموسيقى التي كنتما تعزفانها كانت موضع حسد كل من في القصر. كان الخصيان يتحدثون عنكما في كل المدينة. يتحدثون عن ملكتين لا يهمهما شيء سوى الحقيقة. كانوا يصفون كيف

كانت عيناك تشتعلان وأنت تستنكرين إيمان التعساء بالجن والكائنات الخرافية الأخرى. شهرتك طبقت الآفاق. كان ذلك نوعا من الحرية يا حليمة. أنا أقول لك ذلك بصفتك صديقة".

"هذا كلام أحمق أيها الكاتب. الحرية الحقيقية موجودة في أوامر الله ونبيّه فقط. لماذا نكون متكبّرين هكذا، ونفترض أننا وحدنا -ونحن قلّة قليلة -من نقول الحقيقة بينما نعتبر الأغلبية من المؤمنين الذين يرفضون الشك سجناء للهوى والتحيز؟

دعني أقل لك شيئا. الآن أعرف أن تجديف جميلة كان مثل لفحة من جهنم. تبدو مصدومًا يا ابن يعقوب! هذا لا يدهشني، فكيف ليهودي أن يفهم سبل نبينا؟"

نظرت في وجهها. حوّلت عني نظرتها المحدقة. انتهى كل شيء بيني وبينها في هذه اللحظة. لقد خدعتها كلمات الدجالين المعسولة، كما خدعها تعصّب أولئك الذين يعيشون على الرُقَى والتمائم.

قمت وانحنيت أمامها بشكل فيه الكثير من المبالغة، وتركت الغرفة. كنت غاضبًا. بدت حليمة روحًا ضائعة. الآن أفهم يأس جميلة. لم يكن مجرد حزن وأسف حبيب مهجور منبوذ. لم تكن جميلة حزينة لمجرد الهوة التي اتسعت بينهما، ولكن لأن كل ما علّمته لصديقتها من معرفة وفهم للعالم أصبح مستهجنًا.

علاقتهما كلها. شيء ما رهيب حدث. كلانا، أنا وجميلة أدركنا التغيّر. نضب ظمأ حليمة للمعرفة، ماتت الزهور وتوقّفت الطيور عن الغناء.

ظللت أفكر في هذا الحديث عدة أيام. كانت كلماتها تدور في ذهني باستمرار. حاولت أن أجد معنى لذلك دون طائل. كأن حليمة سفينة غرقت واستقرت في القاع. نقلت محنتي إلى جميلة، ونَمَتْ بيننا آصرة كانت مفتقدَة في الماضي، حدث تقارب صنعه شعور مشترك بالفقد، حرمان من صديق تحجّرت فيه الحكمة. كانت حالة فلسفية بدرجة مدهشة.

"لقد فكرت في الأمر كثيرًا يا ابن يعقوب، ووصلت إلى استنتاج، وهو أن فقد صديق حميم شاركه المرء كل شيء ووثق فيه ضربة أشد وأقسى من حرمان الاتصال الجسدي. حتى وأنا أقول لك ذلك أسأل نفسي ما إذا كنت أصدّق ذلك بالفعل، أو ما إذا كنت أحاول، بقولي ذلك لك، أن أقنع نفسي بأن الحب بين الأصدقاء أكثر قيمة من الحب

الجنسي. هناك مرات قليلة جدا أصدق فيها العكس. أوقات، أشعر فيها أن عقلي يصطلي في الجحيم، وأن اللهب سوف يمتد إلى جسدي. أوقات يمكن أن أضحي فيها بالصداقة من أجل ضمة أخيرة متقدة.

هكذا ترى يا ابن يعقوب كيف أن شخصا، مثلي، قويا وواثقا من نفسه على الأقل يمكن أن يُبتلى بالحب. إنه مرض شديد يمكن أن يودي بالمرء للجنون، كما يقول شعراؤنا دائمًا. أعرف أنك كنت يوما تحبها أيضا، ألذلك أرى غلالة من الحزن على وجهك؟"

لم تكن ذكرى حليمة التي رأيتها في أوج قوّتها تدافع عن حبها لمسعود، وعيناها متقدتان بالحب، وهي تعترف للسلطان بارتكاب الزنا في حضور القاضي، لم تكن تلك الذكرى هي التي دهمتني. شعرت بالاضطراب لمنظر جميلة التي كانت تنتظر، على نار، ردي على سؤالها.

"إن رؤيتك في هذه الحال البائسة هي ما يُحزنني يا سيدتي السلطانة. حبّي لحليمة لم يستمر طويلا. كانت رغبة طفولية في شيء بعيد المنال، وهو أمر اعتيادي لرجل في مثل سني. لقد ذوى حبّي لها منذ شهور. إن ما أسأل نفسي دائمًا عنه هو لماذا تظلّين حزينة هكذا؟ غضب، مرارة، رغبة في الانتقام.. كل ذلك يمكن أن أفهمه، رغم أن أيا من ذلك لن يكون لائقا بك. لا يليق بامرأة في ذكائك أن تُقيم الحداد على شخص تحوّل تمامًا، بما يجعل المرء يسائل أحكامه السابقة، ويتساءل ما إذا كانت تلك هي حليمة الحقيقية. هل ما رأيناه أنا وأنت مجرد قناع صُمم لإسعادك، ولا يختلف عن تلك الأقنعة التي يستخدمها لاعبو خيال الظل في القاهرة؟

أنا كذلك أتساءل ما إذا كان ما تفتقدينه هو الحب والصداقة أم هو شيء آخر. ربما يكون ما يؤلمكِ بالفعل هو أنكِ فقدتِ شيئا كنتِ تعتبرينه ملكا لكِ. حليمة درّة ثمينة، ولكن ذات حواف حادة! في تنعيم هذه الحواف وإعطائها رؤية لعالم أوسع بكثير من القصر، وربما المدينة، عالم مدهش من الأفكار حيث لا يوجد شيءٌ محظور كنتِ بذلك تُبرزين أفضل ما فيها. كل من رآكما معا، بمن في ذلك السلطان، كان يُدهشهم ذلك التآلف الحميم الذي يميّز صداقتكما. بعبارة أخرى -أصبحت هي أثمن ممتلكاتك- الممتلكات التي ليس من المسموح أن تضيع منكِ. هل يمكن أن يكون ذلك هو ما يؤلمكِ بالفعل؟"

تأجّجت عيناها، فتبدّد الألم، ورأيت جميلة التي أعرفها مرة أخرى.

"اسمع أيها الكاتب. لا أنت ولا ذلك الكلب الأدرد العجوز شادي، ولا أولئك الخصيان التعساء الذين يتبعونه، لا أحد منكم لديه أدنى فكرة عن شكل العلاقة التي كانت بيني وبين حليمة. لم تكن صداقة من جانب واحد. لقد تعلّمت منها الكثير، تعلّمت عن عوالم أخرى، عن كيف يعيش من هم أقل مني مستوى. ولكن حتى ذلك لم يعد يهم.

أنت وسلطانك المحبوب تعيشان في عالم ذكوري. باختصار، أنتما لا تفهمان عالمنا. الحرملك أشبه بالصحراء. لا شيء يمكن أن يمدّ جذوره هنا. النساء يتنافسن على ليلة مع السلطان. أحيانا ينفسن عن إحباطهن ببعض الخصيان الذين يتسلّلون إلى غرفهن ليلا و... كونه خصيا، لن يعوقه دائمًا عن تحقيق المتعة.

"في مثل هذه الأحوال من المستحيل أن تجد أي امرأة صداقة جادة مع رجل. كان أبي استثناء من ذلك. بعد وفاة أمي، أصبح صديقًا حقيقيًا لي، أستطيع أن أناقش معه أمورا كثيرة. أنا، كما تعرف جيدا مغرمة بصلاح الدين. أعرف أنه يأخذني على محمل الجد. لست كومة لحم يرقد عليها من حين لآخر. إنه يدرك أن لي عقلا، وعلى الرغم من ذلك لا يمكن أن أدّعي بأمانة أن صداقتنا عميقة. وكيف يمكن أن تكون كذلك في زمن كهذا وظروف كهذه. مع حليمة، كنت أنعم بصداقة كاملة على جميع المستويات. ليس لذلك علاقة بالتملّك. في آخر الأمر، كلنا من ممتلكات السلطان.

كما ترى يا ابن يعقوب، ما زلت أعتقد أنها سترجع ذات يوم. ليس لي وإنما إلى رشدها. سيكون ذلك كافيا. أملي أن تعلِّم نساء أخريات ما علمتها إياه، وبذلك لن يكون الوقت الذي عشناه معا قد ضاع هباء. الآن، أنا لا أريد منها شيئا. لا شيء أكثر. لم يعد قلبي يسمعني. انتهى كل شيء. ماتت بالنسبة لي. سأحزن وحدي. عاجلا أو أجلا سوف تأتي الوِحدة بحكمتها المؤسية. ستعود إليَّ سكينتي. سأكون سعيدة مرة أخرى. أتفهم؟"

أومأت برأسي، وظهرت على وجهها ابتسامة حزينة وهي تغادر الغرفة ببطء، بخطوات محسوبة، وكأنها تريد ألا تعود إلى موقع ألمها.

فكرت في جميلة كثيرًا بعد هذا اللقاء. لو كان عالمنا مختلفا لكنا قد أصبحنا صديقين حميمين، ولكنت أنا المستفيد من التجربة. كانت هي، أكثر من أي امرأة أخرى قابلتها، خير معبّر عن شكوى ابن رشد من أن عوالم من يؤمنون بالله ورسوله، يعوقها كون نصف شعوبها، أي النساء، مستبعدا من العمل بالتجارة أو شئون الدولة.

عندما يكون المرء مقطوعًا عما يحدث في العالم خارج القلعة، فإن أحداثا مثل تحوّل حليمة تكتسب أهمية لا تستحقها. استعدت عافيتي تماما لحظة وصول السعاة بملابسهم الرسمية ووجوههم المغبّرة، يحملون رسائل تبلغنا بأن حلب قد سقطت دون قتال. عاد كل شيء إلى مكانه. عانق الجميع أول رسول جاءنا بالأخبار الطيّبة. الأحمق الذي قاوم السلطان أجبره الناس على الفرار والعودة إلى شنشار مسقط رأسه.

خارج حلب، كان جنود حراسة المدينة يمرّون أمام السلطان، رؤوسهم محنية إجلالا له وتقديرا. كان أهالي حلب يحبّون نور الدين وظلّوا أوفياء لخليفته، ولكنهم كانوا يعرفون أنهم قد وجدوا في صلاح الدين فاتحًا سيدافع عنهم وعن مدينتهم، ويرفض أن يقف أي شيء في طريق الجهاد.

أحدث سقوط حلب موجة من الفرح في دمشق كلها. احتفالات في الشوارع. امتلأت الحانات في كل شوارع المدينة بالشباب الذين أصرّوا على الشرب حتى الثمالة. بدا عالمنا كله وكأنه قد تغيّر لهذه الأخبار. هكذا شعر الناس. أصبح سلطاننا الآن أقوى حاكم في البلاد.

في اليوم التالي، أحبطت فرحتي أخبار سيئة. سكت صوتٌ فريدٌ إلى الأبد. مات إبراهيم وهو نائم. رغم حداثة صداقتنا إلا أنني بكيته كما يبكي ابنٌ أباه. حتى أقسى الوجوه بكته في جنازته في اليوم التالي. ترك لي مجموعة صغيرة من مكتبته الخاصة، ومعها مذكّرة لم أقرأها إلا في المساء على انفراد في غرفتي.

"قد يكون لخدمة الملوك العظام مكاسبها، وقد تنقضي خدمة الحقيقة دون مكاسب! ولهذا السبب فإن قيمتها أكبر بكثير".

(21)

● جميلة تغادر دمشق وتعود إلى بيت أبيها على أمل أن تستعيد سكينتها ●وصلاح الدين يقع مريضًا، وأنا أهرع إليه لأكون إلى جواره

جاءني الخصي أمجد بعد يومين، حاملا رسالة من جميلة. لم يكن مبتسما ولا راغبا في إعطاء أي معلومات. كل ما فعله هو أن وضع الرسالة في يدي وترك الغرفة.

أذهلني جمال خطّها. لم يسبق أن رأيت في حياتي مثل هذا الجمال في رسم الحروف، سوى في أعمال سادة ذلك الفن الكبار. لا بدَّ وأن تكون قد تعلّمت الكتابة على يد فنان أو خطاط من نسلهم. الرسالة أمامي وأنا أكتب هذه السطور. حتى وأنا أنقل كلماتها كأنني أسمع مرة أخرى صوتها الصافي، مثلما كنت أسمعه يوم قدّمتني حليمة لها أول مرة. صوتها يتردد في مسمعي. أرى ملامحها واضحة بعين خيالي.

"الصديق العزيز ابن يعقوب،

أكتب لك كي تعرف أنني سوف أغادر دمشق لعدة أشهر.. وربّما أكثر. سأعود لأمضي مدّة مع والدي الذي يبلغ الثمانين الآن، وليس بصحة جيدة منذ مدّة. أرغب في أن أراه قبل أن يقضي. لم يضع السلطان، أسعد الله قلبه، أي عقبات أمام سفري.

ذات مرة، قبل سنوات، أمضيت بعض الوقت في بغداد، وكانت تلك زيارة لتثقيف عقلي. ذهبت لحضور دروس فيلسوف وشاعر كبير. تعلّمت على يديه قيمة العقل. ما زلت أراه وهو يمسّد لحيته البيضاء، ويروي لي هذا الحوار الذي دار بين النبي ومعاذ بن جبل قاضي اليمن.

النبي: كيف ستقضي بين الناس في مسألة ما؟

- : أقضي بكتاب الله.

: وإن لم تجد؟

- : فبسنة نبيه.

: وإن لم تجد؟

- : أحكّم عقلي.

ولمّا عدت، نبّهت صلاح الدين لهذا كله. وأخذ الرجل يستفيد منه لاسيّما عند تعامله مع علماء اللاهوت لدى الخلفاء الفاطميين في القاهرة. شعرت أنني حقّقت شيئا ما، وظلّت تلك الرحلة دائمًا في ذاكرتي.

الآن، أنا ذاهبة كي أستعيد حالتي الذهنية، لقد عانيت من ضربة قاسية، وكلي ثقة من أن ذكريات القاهرة ودمشق لن تزعجني في دمر.

أريد أن أشمّ مرة أخرى عبير الزهور في الحديقة الفريدة التي أنشأها والدي، ويحيط بها أجمل سور رأيته في حياتي. سور تنبت عليه أجمل النباتات والأزهار. كنت أتصوّر دائمًا أن الجنة ستكون مثل حديقتنا.

هنا اعتدت أن أقضي الساعات في صمت بين الأشجار، أشاهد الطيور وهي قادمة من السور، كي تشرب من مجري مائي صُمّم كي يبدو كأنه طبيعي.

وهنا تشكّلت أحلامي. كان من عادتي أن أجلس في الظل بالساعات وأحلم، أتساءل بيني وبين نفسي كيف يمكن أن يكون شكل العالم خارج دمر. كان التجار يتحدّثون عن بغداد والقاهرة ودمشق والبصرة وكلكتا، وعن الأشياء الغريبة والعجيبة التي تحدث في تلك المدن، وكنت أجري مندفعة إلى والدي وأقول له: أريد أن أكون تاجرًا عندما أكبر، حتى أسافر طولا وعرضا حتى الصين.

عندما كنت في الرابعة عشرة، كنت أخرج على حصاني مع والدي. كنا نذهب أحيانا لمشاهدة البحر. كم هو مريح أن تشاهد الأمواج الناعمة وتتأمّل بدع الطبيعة. والدي أيضا كان من عادته أن يسير بحصانه إلى جوار حصاني تاركين مرافقينا في الخلف.

معظمهم كان يخشى الماء، لأنهم يعتقدون أنه مسكون بجن، على هيئة سمكة ضخمة تلتهم البشر. أتذكر كيف كنت أعدو على الرمل، ثم أركب حصاني عبر المياه الضحلة التي يتساقط رذاذها عليَّ.

كان والدي ينظر إليَّ ويقول "كل شيء هنا سيبقى بعدنا وبعد من سيجيؤون بعدنا، هذا النسيم نفسه سوف يشعر به أناس بعد مئات السنين، ولسوف يسحرهم جمال الطبيعة كما يحدث الآن. هذا يا بنيتي صوت الأبدية".

لم أفهم تمامًا ما كان يقصده إلا فيما بعد، حينذاك أدركت كم كنت محظوظة أن يكون لي أب لم يكن يؤمن بأن العالم سينتهي قبل أن يكبر أبناؤه. كثير من الناس كانوا يؤمنون بحق، بأن الله سوف ينهي العالم، وأن الملائكة سوف يفتحون سجلاتهم ويقرأون حساباتهم عن حياتنا. أبي كان مختلفا.

كنت حزينة لأنني تركت بلدي وأصدقائي، ولكن لم يكن لي خيار. ولا كان لصلاح الدين. كان تحالفا وجد أبي وأبوه أنه ضروري، وباركه السلطان نور الدين عليه رحمة الله. أحببت رفقة صلاح الدين، ولكنني لم أستمتع أبدا بالزواج. أنجبت له ابنين، وبعد ذلك لم يزعجني!

أصبحنا أصدقاء، وكنت أُثنيه عن أن يمضي الليل معي. تلك تجربتي الشخصية فقط، ولربّما كنت لأفعل الشيء نفسه مع أي رجل آخر. ربما لم يكن جسدي مخلوقًا ليدنسه أي رجل. الحب النقي والسعادة الحقيقية وجدتهما مع حليمة فقط.. تلك قصة قديمة أنت تعرفها.

عندما تزوّجت عصمت أرملة نور الدين من صلاح الدين، ظلّت عدة أشهر وهي غير مصدّقة. أعتقد أنها بعد الزاهد نور الدين، الذي كان يركبها ربما بدافع الواجب، وجدت صلاح الدين الحصان الجامح. أتذكّر يوم أن قالت لي إنها لم تكن تعرف أبدًا أن الجماع يمكن أن يُحقّق لها كل تلك اللذة.

أقول لك ذلك كي لا تحكم على أداء سلطانك في هذا المجال بناء على تجربتي. سيكون في ذلك ظلم له. يمكن الاستناد إلى تجربته مع عصمت، وحكايات أخريات في الحريم. حليمة كانت بمثابة حالة استثنائية. بالنسبة لها، كانت ذكرى مسعود قوية لدرجة أنها كانت صريحة. اعترفت لي أن السلطان عندما أخذها لأول مرة، كانت تغمض عينيها متصوّرة أنه مسعود.. كانت تفعل ذلك كي تهوّن العبء على نفسها.

قد لا أبقى طويلا في دمر، وربما سيكون من العبث أن أبحث عن ماضٍ ضائع، أو أتصوّر أن المرء يمكن أن يعالج ألم الحاضر بأن يعيش طفولته وصباه مرة أخرى. هناك جوانب من الحياة في دمر لا تروق لي. التقديس المستمر لأسلوب الحياة القديم عند قبائل البدو يصيبني بالضجر. القصص المبالغ فيها عن انتصارات البدو على الطبيعة وعلى أعدائهم من البشر لا تهزّني. أبي أيضا لم يكن يروق له ذلك، ولا كان يشجّع عليه. وعلى الرغم من ذلك فهو موجود، ورجال البلاط منغمسون في كتابة القصائد التي تمدح خطو الإبل الأصيلة التي لا تعرف الكلال، أو مخيمًا بدويًا تحيط به الذئاب والضباع، أو الجوع والجفاف وطعم لبن النوق.

على الرغم من ذلك، هناك أناس أريد أن أراهم. شقيقة أمي التي تعهّدتني بعد وفاتها، وأصبحت صديقة حميمة لي. سوف تبوح لي بكل أسرارها ومتاعبها، وأنا سأحكي لها بدوري عن همومي. جاءت لزيارتي في القاهرة ذات مرة، ولكنني كنت متيّمة بحليمة في تلك الأيام، ولم يكن لديَّ وقت لخالتي المسكينة. عادت حزينة وهي تعتقد أنني أصبحت وقحة متغطرسة. الآن، أتمنى أن أستعيد ثقتها فيَّ، وأشرح لها حالتي آنذاك.

أمر سيء أن يبقى المرء حبيس مشاعره يا ابن يعقوب. ألست معي في ذلك؟ وفي الوقت نفسه من الصعب أن يتحرّر منها. من وجهة النظر هذه سوف تكون عودتي إلى دمر مفيدة، وسوف أعود إلى دمشق في حال أفضل، مستعيدة ذاتي الأولى. سنجلس أنا وأنت ونتناقش في الفلسفة والتاريخ اللذين نعيشهما كل يوم. إذا كان صلاح الدين ينوي القيام بمغامرة أخرى وأنا بعيدة، قل له إن جميلة أصرّت على أن تتركك هنا. السلام عليكم.

لم أكد أشرع في التفكير في رسالة جميلة، حتى دخل شادي الغرفة ببطء، والإرهاق بادٍ عليه. أخفيت الرسالة عنه حتى أتفادى الرد على أسئلة بذيئة، ولكنه راح يضحك مقهقها.

"لقد أبلغني الخصي أمجد بمضمون الرسالة. ليست ذات أهمية. هي ذاهبة إذن. ربما لديها امرأة أخرى في دمر. سوف يشعر صلاح الدين بالارتياح فقد كان يخشى لسانها السليط أحيانا، هل أزعجتك؟"

قبل أن أجيب، قاطعني الحاجب الذي تسلّل إلى الغرفة دون أن نلاحظه، قال في صوت هادئ:

"لديَّ أخبار مؤسفة يا ابن يعقوب. جئت لأخبرك بأن عليك أن تحزم متاعك وقلمك وأحبارك وكراساتك. سقط السلطان مريضًا في إحدى القرى، وهو في طريق عودته التي تبعد عن هنا مسيرة يومين. ليس أمرًا طيّبًا. لقد أرسل في استدعائنا.. كلنا.. سنرحل في غضون ساعات قليلة".

انخرط شادي في البكاء مُصرًّا على أن يرافقنا إلى القرية التي رقد فيها السلطان مريضًا. ولكن الضعف كان يبدو عليه، فرفضنا طلبه. وعدته بأن أخبره بالجديد أولا بأول، وأسرعت لحزم متاعي. كنت قد أصبحت معتادا على ركوب الخيل، ولكن ما كان يشغل بالي سلبني كل متعة.

غادرنا دمشق في هدأة الغسق. كان الصمت مطبقا إلا من طنين بعض الحشرات. كان جمعنا مكوّنا من اثني عشر راكبا. ثمانية منهم من الجنود الذين أُرسلوا لحراستنا. الاثنان الآخران غيري أنا والحاجب كانا من الخدم يحملان الطعام اللازم للرحلة.

ما كان يقلقني هو فشل أطباء صلاح الدين في نقله إلى دمشق، حيث كان يمكن أن يكون أكثر راحة وتحت إشراف أطباء آخرين. السبب الوحيد المحتمل لذلك، هو أنه ربما كان مريضا لدرجة لا تسمح له بالحركة. كنت في حيرة من سبب إرساله لي يستدعيني، مادام عماد الدين ظلّ معه في أثناء حملته الأخيرة كلها. لو أنه كان يريد أن يُملي وصية، فإن العالم الكبير أقدر مني على تدوين رغبات سيده الأخيرة.

توقّفنا في الهزيع الأخير من الليل، لنعسكر في واحة صغيرة. كنت متعبًا غير قادر على الأكل أو الشرب أو الكلام مع الحاجب الذي كان ولاؤه الشديد للسلطان لا يتناسب مع ذكائه. الحقيقة أنه كان من المؤلم الاستماع إليه حيث إن اهتماماته الوحيدة: الخيل والمواخير.. وكلاهما لم يكن يمثل أي جاذبية بالنسبة لي.

في بداية رحلتنا، أخذ يصف ماخورًا غريبا في دمشق وكان ذلك يدهش الجنود. في هذا الماخور، كما حكى الحاجب، كانوا يقيّدون الداعرات بالسلاسل، ويقوم زبائنهم بجلدهن بالسياط قبل أن يحرروهن، ثم يتبادلون الأدوار. الأمر الذي كان كفيلا بتحقيق الإشباع لكل الأطراف. نظرت إلى الحاجب عن كثب، فأكدت لي ابتسامته القبيحة السؤال الذي أخذ يتردد في ذهني. لا بدَّ أنه كان زبونًا في ذلك الماخور. وعزمت على أن أسأل شادي عن هذا الحاجب عند عودتي.

استيقظنا مبكرين قبل شروق الشمس، وواصلنا رحلتنا. دُهشت لما وصلنا القرية

منتصف النهار. فقد توقّعت أن نسير ست ساعات أخرى على الأقل. وما حدث هو أن جنديان من أبناء القرية نفسها سلكا بنا طريقا مختصرًا.

كانوا ينتظرون وصولنا على نار، وأخذونا من فورنا إلى منزل صغير. هنا كان يرقد السلطان مغطى بملاءة من الموسلين الأبيض، وإلى جواره خادمان يهشّان عنه الذباب. كانت عيناه مغمضتين، ولكنني ذُهلت للتغيّر الذي بدا على وجهه. خرج صوته ضعيفا.

"أعرف ما يدور بذهنك يا ابن يعقوب، لكن الأسوأ انتهى. لم تكن هناك ضرورة لرحلتكم. أشعر الآن بتحسّن كبير، وسأعود معكم غدًا. عماد الدين في حلب، وعندما استدعيتك كنت أعتقد أنني لن أعيش طويلا. أردت أن أضع خططي الدقيقة للجهاد كي يقوم خليفتي بتنفيذها إن شاء الله من بعدي. لحسن الحظ أنني ما زلت حيّا وذلك بفضل الله، لقد دفنَّا أربعة أمراء في هذه القرية قبل أسبوع. أعتقد أنني نجوت بسبب مصِّي ليمون الشجرة الموجودة هنا في الخارج. لا أجد سببًا آخر، حيث إنني كنت مريضا مثل كل من ماتوا. هل تعتقد أن الليمون يُشفي؟ طبيبي يعتقد أنني قد شفيت لأنه أجرى لي فصدًا. ولكنه فعل ذلك للأمراء الذين ماتوا أيضا. اكتب لابن ميمون واسأله رأيه، ومن الآن لا بدَّ من أن يكون هناك ليمون أينما ذهبت".

ابتسم السلطان وهو جالس في فراشه. لقد نجا. ومع أني اعتبرت كل ما قاله عن عصارة الليمون مجرّد هذيان حمى، فقد تساءلت بيني وبين نفسي ما إذا كان ذلك حقيقة.

أراد أن يعرف ما يحدث في دمشق. سألني عن التفاصيل وبدا متضايقًا كلما لم أستطع الإجابة عن أسئلته. حاولت أن أشرح له كيف أنني في غيابه لم أتمكن من حضور اجتماعات المجلس، ولذلك كانت معلوماتي في حدود ما نُقل إلى مباشرة. زاد ذلك من ضيقه، فاستدعى الحاجب يسأل عن سبب استبعادي من الاجتماعات التي كانت تناقش فيها قرارات مهمة خاصة بالدولة، على الرغم من إعطائه تعليمات بعكس ذلك.

لم يكن لدى الحاجب أي عذر، وأحنى رأسه في صمت وخجل. أصاب الخرس مرتاد المواخير فجأة، فصرفه السلطان بإشارة غاضبة.

في اليوم التالي، بدأنا رحلة العودة إلى دمشق مع بدء غروب الشمس. زاد حجم جماعتنا كثيرًا. وعندما عسكرنا لقضاء الليل أرسل السلطان يستدعيني، وكان أول ما سأل عنه هو صحّة شادي. عندما قلت له إن كل ما كان يعاني منه هو وهن الشيخوخة،

سأل عن حليمة وجميلة. ترى هل كان عليَّ أن أجيب بعبارات عامة من قبيل إنهما كانتا بخير وصحة، لكن كيف أواجه غضبه الشديد عندما يكتشف خداعي في النهاية ؟ أم ترى كان ينبغي عليَّ أن أعترف بكل ما كنت أعرفه عنهما؟

لسوء الحظ، كان السلطان سريع البديهة، وبأكثر مما كنت أتوقّع. لاحظ تردّدي، فقال بصوت حاسم وعيناه مثبتتان عليَّ في ضوء شموع الخيمة:

"الحقيقة يا ابن يعقوب.. الحقيقة".

فأخبرته.

(22)

عندما كشف السلطان عن بغضه الدائم ل "رينولد" صاحب شاتيو
● موت شادي

لم يكن صلاح الدين مؤذيا ولا محبًا للانتقام. ولا كان ينطوي على حقد أو ضغينة. دائمًا ما كان ضد الثأر. سمعته ذات مرة يقول إن التصرف بدافع من الرغبة في الانتقام أمر خطر، يصبح إدمانًا مثل شرب الإكسير. الانتقام عمل أخرق ولا يفرق بين المؤمنين والبرابرة. كثيرًا ما كان يعبّر بهدوء عن مثل هذه الأفكار. لكنه لم يكن يعاقب أمراءه وقادة جيوشه عندما يخالفون مشورته ولا يستطيعون التحكم في مشاعرهم العنيفة. كان يتنهّد ويهزّ رأسه في حيرة، وكأنه يفوض أمره لله.

كان رينولد دو شاتيون (أرناط) الفارس الزنجي الاستثناء الوحيد بالنسبة لصلاح الدين. أظن أن الوقت قد حان لأكتب عن كراهية صلاح الدين له. طالما أننا لم نعد بعيدين عن المعارك الأخيرة للسلطان ضد الفرنج. وسرعان ما سنلتقي بهذا التَعِس شخصيًا.

كره صلاح الدين رينولد كرهًا خالصًا. كرهًا لا تتخلله مشاعر العفو أو العطف أو الكرم أو حتى الغرور. كالدودة التي لا تستحق حتى احتقار السلاطين بدا الرجل. أما رينولد فقد كان حيّة سامة تستحق سحق رأسها بحجر. أنا، بأذني، سمعت صلاح الدين يقسم بالله ذات مرة أمام مجلس له بأن يضرب عنق ذلك الرجل بسيفه إذا ما سنحت الفرصة.

مثل هذه التصريحات تسرّ، في العادة، أمراء صلاح الدين. كانوا يشعرون أنهم أقرب إلى أميرهم عندما يعبّر عن مشاعر قريبة من مشاعرهم. الحقيقة أن الفرنج منذ أن

جاءوا وأذهلوا الدنيا بعاداتهم وتقاليدهم البربرية، أثّروا في حياتنا، فتمثّل بعضُنا ممارساتهم السيئة.

ومنذ ما يزيد على مائة عام، خلال الحصار، قام الفرنج بشيّ بعض السجناء وأكلوهم ليسدّوا رمقهم. ومع انتقال الأخبار إلى كل المدن، عمَّ الشعور بالصدمة والعار عالمنا بأسره. لم نكن قد عرفنا مثل ذلك من قبل. إلا أن شيركوه العظيم عاقب أحد أمرائه لأنه سمح بشيٍّ ثلاثة أسرى من الفرنج وتذوّق لحمهم، وسرعان ما اجتمع العلماء ليعترفوا بما وقع ويستنكرونه ويؤثّمونه باعتباره مخالفًا للسنة النبوية.

كان الرأي الذي أبداه قاضي حلب هو الذي حسم الجدل الدائر حول المسألة. قال القاضي عقب صلاة الجمعة: إن أكل لحم الفرنج حرام عند المؤمنين، ما دام الفرنج يستهلكون كميات كبيرة من لحم الخنزير، وهو ما يعني أن لحمهم ملوث. الغريب أن هذا الرأي كان له التأثير الأكبر في وقف مثل هذه الممارسات، أكثر من التذكير بالأحاديث الدينيّة الورعة عن العادات المستجدة وضرورة اكتشاف عادات جديدة عندما تدعو الحاجة لذلك.

لم يقل لي أحد شيئا عن أسباب كراهية السلطان لرينولد. كأنها شعيرة يتحتّم القيام بها. ذات يوم تجرّأت ودخلت مكتبة عماد الدين وجلست أنتظر وصول الرجل العظيم. عبس لأول وهلة ولكن سرعان ما تغيّر وجهه عندما ارتدى قناع الطيبة.

"معذرة لتطفلي على هذا النحو يا سيدي، وأرجو أن تتفضّل عليَّ بقدر ضئيل من وقتك النفيس".

ابتسم بشفتيه وبقيت عيناه جامدتين.

"وهل أستطيع أن أرفض رجاء لكاتب السلطان الخاص؟ أنا في خدمتك يا ابن يعقوب".

"لقد أكرمتني يا سيدي، ولن آخذ الكثير من وقتك الثمين. هل يمكن أن تُبصّر هذا الكاتب المتواضع بأسباب كره السلطان الشديد لرينولد صاحب شاتيو؟"

ضحك عماد الدين مقهقها. ضحكة حقيقية من الأعماق. أسعده جهلي، كما كان يسرّه أن يُسعفني بهذه المعلومات، أكثر مما يسرّه أي أمر آخر.

"لقد بدأتَ تفهم، يا صديقي العزيز ابن يعقوب طبيعة سلطاننا، ولكن حتى أنا، الذي أمضيت مدة أطول منك معه، يدهشني أحيانا كيف يصل إلى قرار ما. الطريقة بالنسبة لي مهمة، أما بالنسبة له فهي الغريزة.. الغريزة.. الغريزة. إذا التقت طريقتي وغريزته فلا بأس، ولكنهما تتعارضان أحيانا، وحينذاك تنتصر غريزته. وباعتباري مستشارا وفيا أنحني لإرادته.

أما عن كيفية التعامل مع الفرنج في عملية الجهاد، فذلك أمر لم يحدث أن اختلفنا عليه. هناك بعض الحمقى المندفعين الذين يعني الجهاد بالنسبة لهم حالة حرب دائمة مع الفرنج. ولكن صلاح الدين لم يكن مع ذلك الرأي. صلاح الدين يعرف أن العدو -مثلنا تماما- منقسم على نفسه. وكما أن إيماننا بالله ورسوله لم يمنعنا من التناحر والخلاف الشديد. كذلك فإن الفرنج على الرغم من أنهم يعبدون الأصنام، وعلى الرغم من ولائهم للبابا الذي يتبعونه، فإنهم لا يترفّعون عن الخلافات والنزاعات فيما بينهم.

الآن، السلطان يحكم القاهرة ودمشق وحلب والموصل. من النيل إلى الفرات هناك سلطة واحدة باستثناء المناطق التي يحكمها الفرنج. ليس هناك حاكم أقوى منه. إلا أننا على الرغم من قوتنا نجده يوافق على هدنة مع بالدوين المجذوم، ابن أماليك، الذي يحكم القدس. ربما يكون بالدوين ضعيف الجسم، لكنه قوي العقل. يعرف أن السلطان عند كلمته وأن السلم مفيد له كذلك. كانت نتيجة الهدنة أن قوافلنا أصبحت تتنقل بحرية بين القاهرة ودمشق، وتتوقف كثيرًا في قرى الفرنج كي تبيع بضائعها.

قبل أربعة أشهر، كما تعرف، مات الملك المجذوم المسكين، وكان قد صمّم أن يوضع ابنه البالغ من العمر ست سنوات على العرش، باسم بالدوين الخامس. جواسيسنا يرسلون لنا تقارير أسبوعية من المدينة التي ستعود لنا إن شاء الله.

السلطان لديه معلومات جيدة. يعرف أن هناك طائفتين رئيسيتين داخل الفرنج في القدس. إحداهما يقودها كونت طرابلس ريموند بن ريموند الصنجيلي أحد أحفاد "سان جيل". إذا رأيته فكأنك رأيت أميرًا دمشقيا. بشرته أكثر سمرة من بشرة السلطان. له أنف مثل منقار الصقر، ويتحدّث لغتنا بفصاحة.

السلطان شديد الإعجاب به، ويتمنى أن ينتصر في صراع القوة. هل تعلم أننا حتى نساعده، أطلقنا سراح عدد من الفرسان من طرابلس، كنا قد أسرناهم في أوقات مختلفة، على مدى السنوات القليلة الماضية؟ هذا دليل على الأهمية التي يولّيها السلطان للصراع

الطائفي في المدينة، وهي معركة دائرة الآن، حتى ونحن نتكلم معا يا ابن يعقوب .

والآن نأتي إلى السؤال الذي طرحته قبل ذلك. رينولد صاحب شاتيو، لم يولد وحشٌ متعطش للدماء مثله، ولا في عالم الفرنج نفسه. أَسَره نور الدين، وأمضى اثني عشر عاما في السجن في حلب. لم يُطلق سراحه إلا بعد وفاة نور الدين. دفع الفرنج فدية كبيرة مقابل حريته. والأفضل لو أن رأسه كان قد تدحرج في الرمال.

هو رجل يستمتع بالقتل للقتل. يجد متعة شديدة في قتل الصغار يا ابن يعقوب. يعتقد أن اليهود هم الذين باعوا عيسى لبيلاطس. نحن نأتي في المرتبة الثانية من أحقاده. لديَّ معلومات بأنه متخصّص في إخراج أحشاء السجناء اليهود وإطعامها للكلاب.

أقول لك ذلك كله لكي تقدّر الأمر، وأنه حتى لو لم يكن قد أغضب السلطان، فإنه شخص مثير للحقد والكراهية. ولكنه أزعج صلاح الدين عندما كسر شروط الهدنة التي اتفق عليها صلاح الدين مع بالدوين المجذوم.

قبل عامين، هاجم قافلة للتجار كانت في طريقها إلى مكة مدينتنا المكرمة. قتل كل التجّار وكل المسافرين معهم. الرحمة في نظر رينولد خطيئة، ودليل ضعف. كان من بين من فقدوا حياتهم في ذلك اليوم، سَمَر، البالغة من العمر ثمانين عاما وكانت تتمنى أن تزور مكة قبل أن تموت. ما رأته كان الوجه القبيح للفرنج. كانت العمّة الوحيدة للسلطان، الباقية على قيد الحياة. الشقيقة الصغرى لأبيه.

(4) كَتَبْتُ رسالة شديدة اللهجة باسمه إلى بالدوين المجذوم وطلبنا منه أن يعاقب ويلجم تابعه المتوحش. اعترف بالدوين بضعفه وعدم القدرة على السيطرة عليه. وكأن ذلك لم يكن يكفي، قاد رينولد حملة على مكة ذاتها، ودنّس حرمنا المقدس. كانت خيوله تلوّث المسجد بروثها. أخبار هذا الانتهاك لحرمة المكان صدمت المسلمين وأذهلتهم في كل أنحاء العالم. جاءت الرسائل الغاضبة من غرناطة، ومن مدن أخرى في الأندلس إلى الخليفة في بغداد تعرض المساعدة بالمال والرجال للإمساك بذلك الوحش الفرنجي. أقيمت الصلوات في المساجد وتعالت الأصوات مطالبة بالقصاص.. برأس رينولد.

بعث السلطان رسالة عاجلة لأخيه العادل في القاهرة من جملة واحدة "لا بدَّ من معاقبة المجرمين"، ففعل كما طلب منه. أمسكوا بمعظم المجرمين وأخذوهم إلى مكة حيث قطعت رؤوسهم علنا، عقابا لأولئك الذين تجرّأوا على انتهاك حرمة مقدساتنا، وتحذيرًا لمن قد يفكر في ذلك مرة أخرى. ومن أسف أن رينولد، أحد أكبر الأشرار

الملاعين بين الفرنج، نجا من أيدينا.

اندهشت حين ابتسم السلطان عند إبلاغه بذلك. قال: "إن الله قد أبقى هذا الشيطان لي يا عماد الدين. أنا الذي سأقتله بيدي".

هل في ذلك إجابة عن سؤالك يا ابن يعقوب؟"

"إجابة شافية. أوفى مما كان يمكن أن يجيب به أي شخص آخر في المملكة كلها يا سيدي".

كان سعيدًا بهذا الإطراء، ولكن بقائي لم يطل، فشكرته واستأذنت في الانصراف. عندما وصلت إلى الباب أوقفني صوته.

"لقد انتهيت لتوي من إعداد أمر بالنفحة التي تستحقها من الخزانة، وستدفع لك بانتظام طوال حياتك. أمرني السلطان بتجهيزه قبل عدة أسابيع، ولكنه مَرِض، ولأننا كنا في غمرة الحرب، ولأنني كنت مشغولا بتسجيل أسماء وتفاصيل السجناء الذين أسرناهم، نسيت أمرك. فمعذرة للإهمال. هناك مفاجأة أخرى في انتظارك اليوم، وأعتقد أنك سوف تسرّ لها، وهي كذلك بموجب أمر مباشر من السلطان. إذا رأيتَ الحاجب وأنت خارج فسوف يزوّدك بالتفاصيل. مصلحتك تهم السلطان، ولا بدَّ أنه راض عنك".

هل كانت هناك لمحة حسد في الطريقة التي قال بها كلماته الأخيرة؟ أم تراني كنت أتخيّل ذلك؟ لم يكن لديَّ وقت كثير لأفكر في عماد الدين وحساسياته، لأن أخبار الحاجب أذهلتني لدرجة الخرس، فجلست لأشرب بعض الماء. كانت دوافع السلطان صادقة ومخلصة، ولكنني تمنيت لو أنه كان قد تشاور معي قبلها.

انتقلت زوجتي وابنتي وكل متعلّقاتي وكتبي من القاهرة إلى دمشق، في منزل صغير بالقرب من القلعة وُضِع تحت تصرفنا، وجاء خادم كي يدلّني على مكانه. كنت أسير مذهولا مثل من دخّن كمية من البانجو أكبر من طاقته. تركني الخادم الذي جاء من القلعة أمام المنزل. كان الباب مفتوحًا، والفناء تضيئه شمس ما بعد الظهيرة.

رأتني مريم أولا من إحدى النوافذ، ونزلت مسرعة كي تحتضنني. لم أكن قد رأيتها منذ أربع سنوات تقريبا. انثالت الدموع على لحيتي وأنا أضمّها إليَّ، ثم أزحتها برفق كي أرى كم تغيّرت. نضجت مريم، ولكنها كما هي. رأيت أمامي صبية في السادسة عشرة،

عيناها لون العسل المصفّى. شعرها الأسود الفاحم يصل إلى الأرض تقريبا. كنت قد رأيت ذلك من قبل.

بدت صورة طبق الأصل من أمها راشيل، عندما تجسست عليها لأول مرة وهي تسير مع صديقاتها لجلب الماء من النبع. وأنا مأخوذ ببهجة المنظر، شعرت بلمسة على كتفي أحرقتني. استدرت كي أحتضن راشيل. تَغَضَّن وجهها ولَوَّن المشيب شعرها. خفق قلبي، ولكن ما بداخلي من مرارة كان قد زال فقَّبلتُ عينيها. كان تصرّفا حكيما من السلطان ألا يسألني قبل أن يرسلهما. ربما كنت قد رفضت مجيئهما، وعانيت من رفضي الكثير.

سيكون من الغريب أن أعيش في منزل مرة أخرى. فقد أصبحتُ معتادًا على ترف الحياة في القلعة حيث تتوفر كل احتياجاتي بحكم قربي من السلطة. إلا أنني لم أكن مستاء من بدء مرحلة جديدة في حياتي. مريم سوف تتزوّج بعد وقت قصير، وسأصبح أنا وراشيل وحدنا، كما كنا لمدة أربع سنوات قبل أن تولد مريم. في تلك الأيام، كنا نرغب بشدة أن يكون لنا طفل، فكنا نتضاجع عند كل فرصة. كل هذا العناء كانت مريم هي ثمرته الوحيدة. لم أُرزق بابن. ماذا سنفعل بعد أن تترك مريم البيت؟

كان غريبا أن يطرق رأسي هذا السؤال بعد مجيء راشيل مباشرة، ولكن انتزعني من التفكير رسول من القلعة. لا بدَّ أن أعود فورا. ابتسمت راشيل صابرة.

"لا شيء تغيّر، ما كنا نعانيه في القاهرة سنكابده في دمشق. اذهب ولكن لا تبق هناك طويلا. هذه ليلتنا الأولى معا منذ سنوات، وليلة الأمس كنت أرى أجمل هلال في السماء ونحن في قافلة الصحراء".

لم أعد إلى البيت في تلك الليلة، فقد استدعيت لأكون إلى جوار شادي. كان الرجل يودّع الحياة، وعندما دخلت الغرفة ابتسم بوهن.

"أين صلاح الدين؟ لماذا ابني ليس معي في هذه الساعات الأخيرة؟"

أمسكت بيده ورحت أمسّدها برفق.

"السلطان يحارب الفرنج يا صديقي العزيز شادي، أرجوك، لا تتركنا. ابق ولو بضعة أشهر".

"إن الله ناداني أخيرًا، ولكن اسمعني الآن.. اسمع، عندما تسقط القدس وتدخل من بوّاباتها، تذكّرني وأنت إلى جانب ولدي يا ابن يعقوب. تخيّلني راكبا إلى جوار السلطان. أهمس في أذنه مشجّعًا، كما كنت أفعل وهو يخوض معركته الأولى. لم يكتب لي أن أشهد انتصار ولدي، ولكنني واثق من أنه آتٍ. واثق، كما أنا واثق من أنني لن أكون إلى جواره هناك. اسمه سيبقى إلى الأبد، ولكن من سيتذكّر شادي؟"

"هو سيتذكره، وأنا سأتذكره. لن ننساك".

همست والدموع تنهمر على وجنتي.

لم يردّ. شعرت بيده باردة في يدي. كان حلقي مطبقا من الخوف. قضى شادي. هذا الشيخ الذي أمضيت في صحبته ساعات لا تُحصى، الرجل الذي أثرى حياتي.. مات.

تذكّرت أوَّل لقاءٍ بيننا. كنت أشعر بالخوف منه إلى حد ما، لا أعرف كيف أردّ على زهده في السلطة. إلا أنني حتى في ذلك اليوم.. في نهاية أول محادثة لنا، كنت أتمنى أن يكون لنا حديث آخر. أدركت أنه مصدر ثمين للتاريخ السري لصلاح الدين وبيت أيوب.

لم يعد شادي معنا، ولكنه سيعيش بداخلي. لن ننفصل عن بعضنا أبدًا. حاولت أن أمعن النظر في المستقبل. صوته، وضحكته، وأسلوبه الساخر، وروحه المغلّفة بالكبرياء دائمًا، ورفضه التهاون مع الحمقى أو علماء الدين المغرورين، ونكاته الفاجرة.. وقصّة حبّه المأساوية. كيف أنساه؟ سوف أسمع صوته ما حييت. ستكون ذكراه دليلي وأنا أكمل حوليات السلطان صلاح الدين وزمنه.

دفنّاه باكرًا صباح اليوم التالي. تقدّم الأفضل الابن الأكبر للسلطان المشيعين الذين اقتصروا على أسرة السلطان القريبة. كنت أنا والخصي أمجد الوحيدين من خارجها. كان أمجد هو الذي يرعى شادي ويسهر على احتياجاته في الأشهر القليلة الأخيرة. هو أيضا تأثّر بشدة، وانخرط في نوبة بكاء شديد. شعرت لأول مرة بالقرب منه ونحن نواسي بعضنا بعضًا.

لم أنم طوال الليل. عدتُ إلى المنزل بعد صلاة الجنازة. حمدت الله على أن زوجتي وابنتي في دمشق. سيخفف عني ذلك ألم فراق شادي.

تعرف راشيل ما يعنيه شادي بالنسبة لي. كنت قد تحدّثت عنه كثيرًا في الأسابيع الأولى من عملي في القاهرة. تعرف أنه صديقي الحقيقي الوحيد في حاشية السلطان. لا

حاجة بي لقول ما الذى يعنيه شادي بالنسبة لي.. نمت وأنا أبكي في حضنها.

(23)

● إعدام خائن ● أسامة يُسلّي السلطان بأفكار تافهة وحكايات خليعة

عاد صلاح الدين إلى دمشق بعد عشرة أيام من وفاة شادي. أبلغه رسول بحدث الوفاة. ومنذ أن تلقّى الخبر لم يتحدث -على غير عادته- مع أحد، بعد أن أعطى أوامره برفع الحصار والعودة. أصرّ على أن يكون بمفرده عندما توقّف ليصلي عند قبر شادي، قبل أن يدخل القلعة.

استُدعيت إلى غرفته في المساء. واندهشت عندما عانقني وبكى. وعندما عاد إلى طبيعته تكلّم لكن بصوت مثقل بالحزن يكاد يكون غير مسموع.

"ذات ليلة في أثناء الحصار، أظلمت السماء وبدأت تمطر. وبينما كنا نغطّي رؤوسنا بالبطاطين اقترب مني بعض الجنود وهم يمسكون بأسير أسود طويل القامة. أصرّ الأسير، الذي لم يتوقّف عن الأنين، على الدفاع عن نفسه أمامي. لم يجد رجالي بُدًا من الموافقة على طلبه. حيث إن أوامري في القتال حاسمة بهذا الشأن. أي أسير محكوم عليه بالإعدام من حقّه أن يحتكم إلى السلطان مباشرة. سألتهم لماذا يصرّون على إعدامه. أجاب جندي قصير القامة، وكان أفضل الرماة قائلا "يا أمير الشجعان، هذا الرجل مؤمن، وعلى الرغم من ذلك خاننا عند العدو. ولولاه، لاستولينا على قلعة رينولد".

نظرت إلى الأسير الذي كان وجهه في الأرض، وقد توقفت الأمطار والرياح، ولكن السماء ما زالت سوداء، لا نجوم فيها. نظرت إلى ذلك الوجه اللعين واللحية الكثّة وأنا أشتعل غيظا.

أنت مرتد. حقير. لقد خنت الجهاد. وخنت إخوانك المؤمنين لنصرة الشيطان، السفاح الذي قتل رجالنا ونساءنا وأطفالنا دون رحمة. وتتجرّأ وتطلب مني أن أنقذ حياتك. لقد صادرت بأفعالك على عطفي.

بقي صامتًا. فطلبت منه مرة أخرى أن يوضّح موقفه. رفض أن يتكلم، وبينما كان الجلاد يجهّز سيفه ليقطع رأسه، همس الخائن: "في نفس اللحظة التي يضرب فيها سيافك عنقي، سيموت شخص عزيز عليك".

استشطتُ غضبًا ومشيت رافضًا أن أُشَرِّف موته بحضوري. علمت يا ابن يعقوب أن شادي مات في المساء ذاته وتركنا وحدنا نعدّ الأيام الفارغة القادمة. كان بالنسبة لي أكثر من أب. منذ سنوات لم يترك موقعه بجواري في معركة. كنت كمن له أربع أعين. كان يحرسني مثل الأسد. كان صديقا وناصحا ومعلما ولا يتورع عن أن يقول لي الحقيقة بصرف النظر عما إذا كانت سترضيني أم لا. الآن، سقط ضحية لسهم الموت القاسي. مثله نادر ولا يعوّض. ليت دموعنا تعيده للحياة!

كيف عرف ذلك المجدّف على الله، الذي يكذب على الله، أن شادي سيموت؟ أحد الجنود أبلغني، ونحن في طريق عودتنا إلى دمشق، أن الأسير الذي أعدمناه أقدم على الخيانة لأن رينولد اغتصب زوجته أمام عينيه، وهدّده بأن يأتي بمائة آخرين ليفعلوا نفس الشيء قبل أن يقتلها. حزنت، بالطبع، لمّا سمعت بالقصة، إلا أنني لم أندم على العقاب. في الحرب، لا بدّ من أن نكون مستعدّين لأي تضحية أيها الكاتب. احترمته، على الرغم من ذلك، لأنه لم يتكلّم عن محنة زوجته بنفسه. رينولد أيضا سيعاقب. لقد أقسمت أمام الله.

الموت أصبح إكليلا حول رقبتي.

أريد أن أتسلّى هذه الليلة أيها الكاتب. أرسل في طلب أسامة ودعه يسلّينا، أو على الأقل ينبّه عقولنا. جلسة كتابة. ليكن لنا جلسة هذه الليلة بعد الغروب. لا أريد أن أنام. دعنا نتذكر شادي بعمل شيء كان يسعده دائمًا. كان يحب أن يجرّب خفة دمه أمام براعة أسامة. هل الرجل موجود في دمشق أم تركنا وذهب لينعم بمباهج بغداد؟ هنا؟ حسن! ابعث في طلبه على أن تتناولا طعامكما معًا، وحدكما. لا أشعر بأنني في حالة تسمح لي برؤيته يلتهم اللحم مثل وحش مفترس. يبدو وكأن الأمر قد راق لك!"

ابتسمت وأنا أنحني لأغادر الغرفة. عدم مشاركة السلطان وجبته راحة في حد ذاته.

أرسلت الحاجب لإحضار أسامة بن منقذ كما أمر السلطان، وكنت أخشى أن يكون الشيخ متعبا. ولد أسامة بعد مجيء الفرنج إلى هذه البلاد بوقت قصير. بلغ التسعين من عمره ولكنه متماسك وصلب مثل شجرة أبنوس. لا تبدو عليه دلائل الكِبر رغم انحناءة ظهره الخفيفة. يتكلم بصوت قوي وعميق. آخر مرة رأيته كان بصحبة شادي.

كان غارقًا في شرب الخمر بينا كنا نحتسي أعشابا مغليّة كأننا نجاريه في شرابه. شرب أسامة قنينة كاملة من النبيذ وهو يدخّن طول الوقت غليونًا محشوًّا بالبانجو. لم يفقد وعيه رغم سُكره، وأمتعنا طوال الليل بنوادر عن أصدقائه من الفرنج وكانوا كثيرين. كثيرا ما كانوا يدعونه للجلوس معهم، وكان يعود بكثير من الحكايات الغريبة والعجيبة.

حكى لنا، تلك الليلة في القاهرة، عن عادة الفرنج القبيحة. أقصد عدم إزالة شعر العانة. وصف لنا مشهدًا في الحمام عندما نادى مضيفه الفرنجي زوجته لترى "أربية" أسامة وهي نظيفة محلوقة. اندهش الاثنان للمنظر. ثم استدعيا حلاقًا ليحلق لهما الشعر غير الضروري. كان شادي قد سأل: "ألم يُثرك منظر امرأة عارية، شعر عانتها محلوق يا أميري؟" ويبدو أن السؤال حيّر أسامة، فنفث غليونه ونظر إلى شادي وقال: "لا لم يثرني. زوجها كان أكثر جاذبية". انفجرت أنا وشادي في الضحك إلى أن رأينا دهشته لمرحنا. بدا أسامة جادا تماما.

أسامة من أصل نبيل كريم المحتد. أبوه كان أمير شيزر، ولذا نشأ الابن سيّدًا ومقاتلا. سافر طولا وعرضا وكان في القاهرة عندما أصبح صلاح الدين سلطانا. من يومها أصبح الرجلان صديقين. ولكن كل محاولات صلاح الدين للاستفادة من عمر أسامة وخبرته في فهم أساليب الفرنج القتالية باءت بالفشل.

احتار السلطان في أمره، إلى أن كان يوم، اعترف فيه أسامة بأنه لم يخض معركة في حياته، وأن تدريبه لم يسفر عن شيء. كان -على حد قول السلطان- رحالة ونبيلا ويحب ملاحظة عادات وتقاليد الشعوب المختلفة، وكان على مدى ثلاثين عاما يسجّل ملاحظاته، وقال إنه يكتب كتابًا عن ذكريات حياته.

كنت غارقًا في ذكريات الماضي عندما وصل أسامة في المساء، وحيّاني بغمزة من عينه. انتظرته لنأكل معا ولكنه كان قد تناول عشاءه. تخليت عن فكرة الأكل ومضيت إلى قاعة مقابلات السلطان في المساء. لم يكن قد تغيّر كثيرًا على الرغم من أن انحناءه

أصبح أكثر وضوحًا. عبس عندما رأى عماد الدين. فالرجلان يكرهان بعضهما. انحنى أمام السلطان فقام وعانقه.

قال مخاطبا السلطان "أنا حزين لأن شادي مات قبلي، على الأقل، كان يجب أن ينتظرني لنذهب معا".

قال صلاح الدين: "لنتصوّر أنه ما زال بيننا، تخيّله جالسًا في هذا الركن يستمع إلى كل كلمة تقولها بابتسامة ناقدة. الليلة، أنا بالفعل في حاجة إلى قصصك يا أسامة بن منقذ، ولكن دون مآس، دون قصص حب. ضحك فقط".

"تعليمات السلطان صعبة، لأنه ليس هناك قصة حب لا يسبقها ضحك، ثم لماذا تُعتبر المأساةُ مأساةً؟ لأنها توقف الضحك! لذا، مع احترامي الشديد لا بدَّ من أن أقول للسلطان إن رغباته لا يمكن تحقيقها. إذا كنت مُصرًّا على الضحك فقط، فإنني سألتزم الصمت".

كانت بداية ناجحة من الساخر العجوز. رفع السلطان يديه إلى السماء وضحك.

"السلطان يقترح فقط، وعلى ابن منقذ أن يتصرّف كما يشاء".

"حسن" قال الحكَّاء العجوز، وبدأ دون مزيد من الجدال.

"دعاني قبل سنوات نبيلٌ من الفرنج كان يعيش في قلعة صغيرة بالقرب من "أَفقه"، التي لا تبعد كثيرا عن نهر إبراهيم. كانت القلعة مقامة على تل صغير، وتُطلّ على النهر. بجانب التل، كانت هناك غابة من أشجار الأرز، وكان المنظر كله بديعا.

في الأيام القليلة الأولى، كنت معجبا بالمنظر ومستمتعا بالهدوء. كان النبيذ من النوع الجيّد والحشيش من صنف ممتاز، وماذا أريد أكثر من ذلك؟"

تمتم السلطان "لو أن شادي كان هنا لرد عليك: شاب صغير جميل".

تجاهل أسامة تعليق السلطان وواصل كلامه.

"في اليوم الثالث، أبلغني مضيفي أن ابنه البالغ من العمر عشرين عامًا مريض جدا، وطلب مني أن أراه. كنت قد قابلت ذلك الشاب قبل ذلك ولم أحبّه. كان مدللا من والديه باعتباره ابنا وحيدا، وكان يستغل هذا الوضع كابن ووريث لعاهل "أَفقه"، كي يفعل كل

ما يريد مع أي بغيّ تقع عليها عيناه.

قبل ذلك بعدة أشهر، قتل صبيين من الفلاحين، حاولا حماية شرف شقيقتهما ذات العشرين ربيعًا. ولو قلنا إنه كان مكروها من الأُجراء الذين يعملون عند أبيه، لكان ذلك أقل من الحقيقة بكثير. ربما تكون بعض الحكايات التي تناقلوها عنه من قرية إلى قرية قد أضيف إليها الكثير، وربما لا. من الصعب أن أقول شيئا بخصوص ذلك.

كان من الصعب أن أرفض طلب صديقي بأن أرى الصبي. لم أكن طبيبا مجرّبا، ولكنني كنت قد قرأت كل كتب الوصفات الطبية، وكان لي أصدقاء من مشاهير الأطباء، وبعد وفاتهم كان الناس يأتون لاستشارتي في أمور علاجية، وكانت معرفتي ووصفاتي الناجحة بشكل عام تدهشني أنا شخصيا.

أمرت بكشف الغطاء عن الصبي وقمت بفحص جسده العاري. رأيت أكثر من خُرَّاج في الساقين كفيلة بالقضاء عليه خلال أسابيع، إن لم تُتَّخَذ إجراءات قاسية حاسمة. كان الوقت قد تأخّر لنضع كمادات أو نفرض نظاما غذائيا صارما. قلت لوالد الصبي إن الوسيلة الوحيدة لإنقاذه هي بتر كلا الساقين من الفخذ. بكى صديقي. كانت صرخات زوجته تُذيب القلوب.

في النهاية وافق الأب، وأشرفت على بتر الساقين. أُغمي على الصبي وهو أمر طبيعي. كنت أعرف من خبرتي السابقة، أنه بمجرد أن يعود إلى وعيه لن يشعر بأن ساقيه قد قُطعتا. ذلك توهّم يستمر أياما قليلة بعد بتر عضو ما. طلب مني الأب أن أسأل الصبي المسكين عن أي شيء في العالم يرغب فيه كي يُحقّقه له. فانتظرنا حتى أفاق. انتظرنا أكثر من ساعة، وعندما فتح عينيه ابتسم، لأن الألم القديم كان قد زال. همست في أذنه: "قل لي يا بني، ما أكثر ما تريده في هذا العالم؟"

ابتسم، وظهرت على وجهه ابتسامة داعرة. انحنيت عليه لكي يهمس في أذني. قال بسخرية: "يا جدّي..."، وأدهشني أنه وهو في تلك الحال، كان صوته يشوبه الخُبث.. "يا جدّي.. ما أريده أكثر من أي شيء آخر، قضيب أكبر من رجلي".

أجبت ببعض الخجل: "لديك يا بني.. لديك ما تريد".

في البداية، نظر السلطان إلى أسامة في رعب.. ثم راح يضحك. كنت أرى أن القصة لم تنته بعد. كان واضحا، من حركة جسد أسامة، أن هناك لمسات أخيرة وبعض التنميق

في انتظارنا، ولكن ضحك السلطان لم يتوقف. كان يحاول، وكان أسامة يحاول أن يكمل.. ثم يغلب الضحك السلطان ثانية. انتقلت عدوى الضحك إليَّ، فكنت أضحك أنا أيضا ناسيا أننا في البلاط. عند هذا الحد، وجد أسامة أن عزلته تامة وأن القصة ستظل غير منتهية، فقرر أن ينسى النهاية وأن يشاركنا المرح.

ابتسم السلطان بعد أن عاد إلى طبيعته.

"يا لك من حكَّاء بارع يا أسامة بن منقذ! حتى شادي طيّب الله ثراه، ما كان يمكن أن يقاوم الضحك. الآن، أدرك أن الفكاهة تكون مسلية عندما تكون محبوكة بشيء آخر. هل لديك شيء آخر لنا هذا المساء؟"

مديح السلطان أسعد أسامة. تضاعفت تجاعيد وجهه وهو يبتسم مُبديًا سعادته. أخذ الرجل العجوز نفسا عميقا وشردت عيناه، وهو يتذكر حدثا آخر من حياته الطويلة.

"قبل عدة سنوات، قبل أن تولد أيها السلطان، وجدت نفسي ذات مساء في حانة في الحي المسيحي في دمشق، حيث كانت تُناقش كل سبت موضوعات على درجة كبيرة من الرقي. كنت في التاسعة عشرة أو العشرين تقريبا. كل ما كنت أسعى إليه هو أن أستمتع بشرب قنينة من النبيذ، وأفكر مرة أخرى في بنت مسيحية تشغل بالي منذ شهور.

كنت قد جئت إلى ذلك الحي لسبب واحد. أن أرى تلك الفتاة وهي خارجة من الكنيسة مع أسرتها. لنتبادل النظرات. ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد. إذا كان لون الوشاح أبيض فمعناه أن هناك أخبارا سيئة، وأننا لن نستطيع أن نلتقي في ذلك اليوم. أما إذا كانت مرتدية وشاحا ملونا، فإن ذلك علامة على أننا يمكن أن نلتقي في المساء في منزل إحدى صديقاتها المتزوّجات. هناك، كنا نجلس ممسكين بأيدي بعضنا بعضا صامتين. أي محاولة من جانبي لتمسيد شعرها أو تقبيل شفتيها كانت تقابل بالصد الحاسم. كانت قد فاجأتني في الأسبوع الماضي بالاستجابة الدافئة لمحاولتي الفاترة للمضي إلى ما هو أبعد من مسك اليد. لم تكتف بأن تقبلني، ولكنها وجهت يدي لكي تتحسّس صدرها الدافئ المرتعش. بعد أن أشعلت النار في حواسي، رفضت إطفاءها وتركتني محبطا وفي حالة يأس شديد.

"تكفي قلعة واحدة في المرة يا أسامة! لماذا أنت متسرّع هكذا؟"، بعد أن همست في أذني بتلك الكلمات.. اختفت، وتركتني أحاول أن أهدئ نفسي. ذلك التغيّر في موقفها

أعطي ذلك اليوم أهمية خاصة. نويت أن أغزو القلعة المختفية وراء غابة الشعر المعطرة بين ساقيها.

خرجت من الكنيسة مرتدية وشاحا ملونا. تبادلنا النظرات وانصرفت متعجبا من قدرتي على التحكم في نفسي. كنت أريد أن أقفز وأقفز وأقفز، أن أصيح بعلو الصوت في الناس.. في الشارع، بأن متعة بالغة في انتظاري هذا المساء. ما أسعد الشخص الذي يمرّ بعذابات وعواطف الحياة اليومية، لأنه هو الذي يستطيع أن يستمتع بمباهج الحب اليسيرة.

انتظرتها في منزل صديقتها ولكنها لم تأت. بعد ساعتين جاء خادم برسالة موجّهة إلى صديقتها. كانت قد وقعت في خطأ البوح بحبّها لأختها الكبرى، التي غلبتها الغيرة، فأبلغت أمها بذلك. تملكها القلق لأن أسرتها يمكن أن تسرع بتزويجها من ابن أحد التجار في المنطقة. رجتني ألا أتصرف برعونة، وأن أنتظر رسالة منها.

أصبحت منطويا، بائسا. أهيم في الشوارع روحا ضائعة وأغشى حانة الأفكار السامية بفكرة واحدة.. أن أُغرق أحزاني. اندهشت لما وجدت أنهم لا يقدّمون النبيذ أيام السبت. وجدت ذلك غريبا، حيث إن الكحول جزءٌ من طقوس كنيستهم الوثنية، يرمزون به إلى دم عيسى.

أبديت اعتراضي، فأبلغوني بصوت بارد أن المنع لا علاقة له بالدين. ببساطة شديدة اليوم يوم الأفكار السامية. أما الحانات المجاورة فمفتوحة على الرحب والسعة. نظرت حولي لأجد أن الزبائن، كذلك، من طراز خاص. كان هناك أكثر من خمسين شخصًا. معظمهم من الرجال، واثنتي عشرة امرأة. الأغلبية من كبار السن، باستثنائي. أعتقد أن أصغر الموجودين لا بدَّ أن يكون في الأربعين مثلا.

جذبني استعلاء هؤلاء الناس، وصرفني عن همومي الخاصة ولو إلى حين. سألت ما إذا كان يمكن أن أشارك في نقاشهم، وردّوا بإيماءات من الرؤوس موافقة على طلبي، خاصة من النساء. الآخرون.. كانوا ينظرون إليَّ ببرود ودون اكتراث، وكأنني كلب ضال يبحث عن عظمة.

أصبح الأمر مسألة كرامة. قررت البقاء كي أذيب برودهم وأخترق سحابة الجفاء التي تحيط بهم مثل الهالة. فهمت من تعابير وجوههم أنهم يعتبرونني شابا ضحلا، ليس لديه ما يعلمهم إياه. لعلهم كانوا محقّين. إلا أن ذلك ضايقني وكنت شديد الرغبة في أن

أثبت لهم خطأهم. بدأ هذا الأمر يشدني بعيدا عن الضربة التي تلقيتها اليوم، ولذا شعرت بقدر من الامتنان.

جلست على الأرض. كان موضوع المناقشة هذا المساء يبدو ذا صلة بمشكلاتي، وهو التخلّص من القلق. كان المتحدث هو ابن زيد، رحّالة ومؤرّخ من فالنسيا بالأندلس.

كان ينبغي أن أكون على علم بذلك. الأندلسيون وحدهم هم الذين يستطيعون تشريح معاني المفاهيم والكلمات التي نأخذها نحن على عللها. بُعدهم عن مكة أعطى عقولهم حرية يحسدهم عليها علماؤنا.

السلطان قد يعبس، ولكن ما أقوله أمر يعترف به كل علمائنا، حتى عالمنا العظيم عماد الدين الذي يعترض على عاداتي وأسلوبي في الحياة، يؤكد هذه الحقيقة المعروفة جيدا. صحيح أن لدينا بعض المتشككين وأحدهم أُعدم بأوامر من السلطان، ولكن ليس على المستوى الموجود في الأندلس. يمكن أن نناقش الشكوكية في يوم آخر على أية حال.

إذا سمح لي السلطان، سوف أُكمل قصة شبابي الحزينة. بدا ابن زيد في أواخر الأربعينيات من العمر. تشتعل في لحيته شعيرات بيضاء قليلة. يتكلّم لغتنا بلكنة أندلسية، ورغم غرابة ذلك بدا صوته الأشبه بصوت مراكبي على النيل، شجيّا وعميقا في الوقت نفسه.

بدأ بقوله إن الحديث الذي سيقدّمه اليوم ليس أصيلا، ولكنه يعتمد على فلسفة الطباع والسلوك لابن حزم، الذي تشعر أعظم العقول أمامه بالضآلة. ومع أن ابن زيد كانت له انتقاداته على عمل الأستاذ المعلّم. فإن عمله كان بمثابة حجر الأساس الذي قامت عليه فلسفة الطباع من بعده.

تحدّث عن كيف كتب ابن حزم أن كل البشر يوجّههم هدف واحد، الرغبة في التخلّص من القلق. لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، السلطان والمملوك، العالم والجاهل، النساء والخصيان، ومن يلتمسون المشاعر الحسّية والمباهج السرية والزهاد. الكل يرومون التحرر من القلق.

وقليلون، هم الذين يتبعون الطريق نفسها لتحقيق ذلك. ولكن الرغبة في التخلص من القلق هي الهدف المشترك للإنسانية منذ ظهرت على هذه الأرض.

بعد ذلك، أخرج من حقيبته الصغيرة كتابا بغلاف مذهب يبدو أنه قرأه عدة مرات، لأن الغلاف بدا باهت اللون. ابن يعقوب وعماد الدين يعرفان أن لا شيء يعطي الكتاب نكهة ومتعة أكثر من انتقاله من يد إلى أخرى. كان كتاب فلسفة ابن حزم من هذا النوع، وكان قد وضع علامة عند فقرة معينة راح يقرؤها بعربيته الغريبة.

بعد ذلك حصلتُ أنا أيضا على نسخة من الكتاب وقرأت تلك الفقرة عدّة مرات، حتّى أصبحت مطبوعة في عقلي كأنها فقرة من كتابنا المقدس.

"إن من يلتمسون الثراء إنما يبحثون عنه فقط لكي يدفعوا عن أرواحهم الخوف من الفقر. آخرون يلتمسون المجد ليحرروا أنفسهم من الخوف من الاحتقار. بعضهم يلتمسون المتع الحسية كي يهربوا من ألم الحرمان، وبعضهم يلتمسون المعرفة لطرد شكوك الجهل، وآخرون يمتعهم سماع الأخبار والأحاديث لأنهم يحاولون بذلك طرد الوحدة والعزلة. باختصار، الإنسان يأكل ويشرب ويتزوج ويلعب ويعيش تحت سقف، ويركب ويمشي أو يظل ساكنا بهدفٍ واحد، وهو طرد ما هو نقيض ذلك، أو القلق بشكل عام. إلا أن كلا من هذه الأفعال بدورها رحم لولادة قلق جديد لا مفر منه".

هذا هو كل ما أتذكره اليوم، رغم أنني قبل سنوات كنت أستطيع أن أتلو الفقرة كاملة. رحَّالتنا الأندلسي طَوَّر فكرة ابن حزم، وكنا كلما سمعنا المزيد، نصبح أكثر انتشاء وسعادة. قبل ذلك لم أكن قد اقتربت من الفلسفة، وفجأة اكتشفت لماذا يعتبرها رجال اللاهوت سمّا زعافا.

سرعان ما اتضح أن نقد ابن زيد لفلسفة ابن حزم لن يخرج للنور لسبب بسيط وهو أنه لم يكن لديه أي نقد. كان مولعا بأعمال ابن حزم، ولكنه كان يعتقد أن من الحصافة أن يبرئ نفسه منها، إذ ربما يرسل القاضي بعض الجواسيس لنقل أخبار اللقاء.

جوهر فلسفة ابن حزم يكمن في اعتقاده أن الإنسان يستطيع من خلال أفعاله فقط، أن يخلص نفسه من كل ضروب القلق. وأنه ليس في حاجة إلى أي مساعدة".

صاح السلطان: "زندقة، تجديف، أين الله ورسوله في هذه الفلسفة؟"

"هكذا بالضبط يا سيدي السلطان"، قال أسامة.

"هذا ما قاله رجال اللاهوت وهم يحرقون أعمال ابن حزم أمام المساجد. ولكن ذلك كان قبل سنوات عدة. قبل أن يلوث الفرنج أراضينا. الآن، أصبحت معارفنا أكثر تقدما،

وأنا واثق من أن علماءنا العظام، مثل عماد الدين، يمكنهم أن يثبتوا خطأ ابن حزم في دقائق".

بدا الغضب الشديد على عماد الدين، وحدّق في أسامة بحقد واضح. ولم يتكلم.

سأل السلطان: "وما مغزى هذه القصة يا أسامة؟ هل حصلت على البنت المسيحية في النهاية؟"

ضحك الشيخ. فقد وضع أطايب الفلسفة العربية أمام السلطان، بينما كل ما كان يريده السلطان هو حكاية البنت!

"لم أحصل على البنت يا سيدي السلطان، ولكن نهاية ذلك اليوم في حانة الأفكار السامية فاجأتني كما ستفاجئك، لو أذنت لي بإكمال القصة".

أومأ السلطان برأسه موافقا.

"في نهاية الاجتماع سألت عدة أسئلة، لأن الأندلسي أثار اهتمامي حقيقة، وكذلك لكي أثبت للحاضرين أنني لست أحمق، جاهلا، حريصا فقط على المتعة. سيكون أمرا مضجرا أن أحكي عن انتصاري الشخصي. وعلي العكس من عماد الدين، نادرا ما أسجّل شيئا عن مواجهاتي. ولكن دعني أقل إن تعليقاتي أثرت تأثيرًا عميقًا في ابن زيد. أصبح أكثر حيوية، وسرعان ما انتقلنا إلى حانة تقدّم شرابا أكثر فعالية من الأفكار السامية. جلسنا نتكلم طوال الليل. كان كلانا في حالة من السُكر المعتدل، حينذاك مد يده وأمسك قضيبي بقوة. فاجأني التعبير الذي بدا على وجهه.

"تبدو قلقا يا صديقي الصغير، ألم نتفق على ضرورة طرد القلق عن أرواحنا؟"

أجبت: "قلقي سوف يتبدّد فقط إذا ما تركت قضيبي فورا". لم يكن مصرّا، وانخرط في البكاء.

بدافع من الشفقة، صحبته لكي نخرج من الحي المسيحي ونعود إلى حيّنا. هناك، تركته سعيدًا في تلك الحانة الذكورية التي يذهب إليها الكثيرون من القلعة. هل تذكر الشارع الذى توجد فيه تلك الحانة يا عماد الدين؟ ذاكرتي تخونني ثانية. هذه ضريبة كبر السن".

مرة أخرى، لم يردّ عماد الدين، ولكن السلطان بدأ يضحك مهنئًا أسامة.

"أعتقد أن مغزى قصتك هو تبيان كيف أن أصحاب المبادئ السامية من السهل أن ينخرطوا في حسّية وضيعة. هل أنا محق يا ابن منقذ؟"

فرح أسامة بهذا المديح، ولكنه أحجم عن التصديق على رأي السلطان.

"بالتأكيد، هذا تفسير وارد يا أمير الحكمة".

(24)

● رسالة الخليفة، وردّ السلطان الذي أعدّه عماد الدين بلباقته وذكائه ● وخطاب جميلة عن الحب

كان السلطان، مرتديًا زيه الرسمي وجالسًا واضعًا ساقًا على ساق على منصّة عالية، يحيط به أقوى رجال دمشق وأكثرهم نفوذا، وكنت قد استُدعِيت باكرا، ولكن لم يكن لديه الوقت لكي يتحدّث معي. وقفت في ركن منتظرا بدء المراسم.

صفّق الحاجب بيديه مرتين، فأدخل عماد الدين سفير الخليفة في بغداد، وبعد أن ركع على ركبتيه أمام السلطان قام ببطء وسلّمه رسالة من سيّده على صينية من الفضة. لم يلمسها السلطان ولكنه أشار إلى عماد الدين، فانحنى للسفير وتسلّم الرسالة.

عادة، كانت رسالة كهذه تُقرأ بصوت عالٍ على البلاط كي تصبح معروفة لعدد محدود، ولكن صلاح الدين لم يتبع ذلك التقليد وصرف البلاط، ربما تعبيرًا عن ضيقه ببغداد. طلب مني ومن عماد الدين فقط البقاء.

لم يكن السلطان في حالة نفسية جيدة ذلك الصباح. عبس في وجه وزير الدولة:

"أظنّك تعرف محتوي الرسالة".

أومأ عماد الدين برأسه.

"ليست مكتوبة جيدا.. وهو ما يعني أن سيف الدين لا بدّ أن يكون مريضا أو مشغولا بأمر ما. الرسالة طويلة ومليئة بالنفاق الفج والعبارات الخرقاء. تشير إليك باعتبارك "سيف الإيمان" في أربعة مواضع، ولكن الهدف واضح في جملة واحدة. أمير المؤمنين

يريد أن يعرف متى تنوي أن تجدد الجهاد ضد الكفار. كما يسأل ما إذا كنت ستجد الوقت للحج إلى مكة هذا العام وتقبل الكعبة".

اكفهر وجه السلطان.

"إليك ردي يا عماد الدين.. أُكتب ما أقول.. وأنت كذلك يا ابن يعقوب لكي يكون لدينا نسخة أخرى في الحال. أعرف أن عماد الدين سوف يغلّف كلماتي بالعسل، ولذا سنقارن الصيغتين عندما يتيسّر الوقت. هل أنتما مستعدان؟"

أومأنا وغمسنا الأقلام في المحابر.

"إلى أمير المؤمنين من خادمه المطيع صلاح الدين بن أيوب،

"تسأل متى أنوي أن أجدّد حربنا ضد الفرنج. أجيب: عندما أكون متأكّدًا من أنه ليس هناك شقاق داخل معسكرنا، وعندما تستخدم السلطة التي وهبها إياك الله ورسوله لتنذر كل المؤمنين الذين يتعاونون مع الفرنج من أجل مكاسب تافهة بالكفّ عن أفعالهم التي تضرّ بقضيتنا. وكما تعرف جيدا، فإنني حاولت استمالة بعض الأمراء أصحاب القلاع القريبة من الفرات. كانوا في كل مرة يرفضون القبول بسلطاتنا، وكانت أياديهم ممدودة دائمًا لطلب الأموال والمساعدة من أعدائنا. إذا كنت تستطيع أن تسيطر على أولئك الهوام، فإنني أستطيع أن أستولي على القدس في غضون العام القادم. أما رينولد، ذلك الزائر القادم من الجحيم، الذي قُتل الكثير من نسائنا وأطفالنا تحت بصره، الذي أسكت رعبه الطير، والذي يُستخدم اسمه لإرهاب المزارعين المتمردين، فإنه ما زال حيا، بينما دميته في القدس، المدعو بالملك "جي"، يرفض احترام شروط الهدنة. إن جنودنا ما زالوا يتعفنون في أقبية سجون الكرك، في خرق واضح لكل ما تم الاتفاق عليه بين الجانبين.

أقول ذلك، لكي يدرك أمير المؤمنين أن بعض من يقولون إنهم مؤمنون، هم الذين منعوني من تحقيق أهدافنا هذا العام. من حسن حظنا أن الفرنج، كذلك، منقسمون على أنفسهم. الأمير ريموند صاحب طرابلس، الذي أتمنى أن يصبح مؤمنا ذات يوم، أرسل إليّ بمعلومات كثيرة. تؤكد أن الجهاد سوف يستأنف قريبا جدا، بشرط أن يقوم أمير المؤمنين بدوره في الحملة.

إنني أشاركك القلق بشأن عدم قدرتي حتى الآن على القيام بالحج إلى مكة. إنني أطلب

عفو الله في كل صلاة فأنا مشغول باعتباري "سيف الإيمان"، لدرجة أنني لا أجد الوقت حتى الآن لكي أقبّل الكعبة. سوف أصلح هذه الزلّة سريعا بعد الاستيلاء على القدس، وشكر الله عند قبة الصخرة. أدعو الله لك بالصحة".

لم يكد السلطان يغادر الغرفة ليقضي حاجته، حتى انفجر عماد الدين:

"هذا الخطاب خزي يا ابن يعقوب، وعار. لا بدّ من إعادة صياغته من البداية إلى النهاية. إن خطابا من أقوى سلطان في البلاد إلى الخليفة، الخليفة صاحب النفوذ الواسع والقوة الضعيفة، لا بدّ أن يكون رصينا بما يناسب وضع صلاح الدين.

ما كتبه سيبعث على الضيق ولكنه لن يكون مؤثرا. إنه مصاغ بلغة جافة، أسلوبه فظّ، خال من السخرية التي يمكن أن تخدع الخليفة، بينما قد تزعج مستشاريه الأكثر ذكاء.

كما أنه ينطوي على خطأ عملي خطير، سلطاننا مفتون بالكونت ريموند صاحب طرابلس، صحيح أن ريموند ساعدنا في الماضي، ولكنه قام بذلك بالتحديد، لأنه كان متّهما بالخيانة وبالتعاون مع العدو. إن تقارير استخباراتنا تقول إنه أبرم صلحا وأدّى يمين الولاء للمدعو ملك أورشليم، وتعهد بأن يحمل السلاح ضدنا. لا بدّ من إبلاغ الخليفة بهذه الحقيقة. أمل السلطان في تحويل ريموند، يمكن أن يُعتبر سوء تقدير بالغًا في هذه الظروف. إذا لم يكن لديك مانع يا ابن يعقوب، سآخذ نسختك أيضا وأقوم بإعداد صيغة أخرى تكون جاهزة غدا".

على الرغم من تعليمات السلطان، لم أستطع مقاومة منطق العلاَّمة. ناولته نسختي بكل استسلام. خرج من الغرفة وعلى وجهه ابتسامة المنتصر، وتركني بمفردي أواجه غضب سيدي. عندما عاد صلاح الدين، كان لحسن حظي برفقة السلطانة جميلة، التي كنتُ قد عرفت بخبر عودتها إلى دمشق من الخصي أمجد في وقت سابق اليوم. ابتسم السلطان ابتسامة من يعرف، وبما يوحي بأنه لم يفاجأ بغياب عماد الدين. انحنيت للسلطانة التي لوّحت الشمس بشرتها. بدت أكثر سمرة ولكن تجاعيد القلق زالت من على جبهتها ومن تحت عينيها.

"مرحبا بك، وحمدا لله على سلامتك يا أميرة، القلعة مظلمة من دونك".

ضحكت، وسرعان ما أدركت أنها برأت من آلام خيانة حليمة. الضحكة القديمة،

وهزة الكتفين، وهي تنظر إليَّ.

"إطراء منك يا صديقي ابن يعقوب شيء نادر، ندرة جمل طيّب الرائحة. أنا أيضا سعيدة بعودتي. شيء رائع أن يكون البُعد عن الألم فيه شفاء لجراحنا الدفينة أكثر من أي شيء آخر! أليس كذلك؟"

كان من الواضح أن السلطان سعيدٌ بعودتها، رغم أنني دُهشت لصراحتها في حضوره. قرأ أفكاري.

"أنا وجميلة أصدقاء الآن.. أيها الكاتب. ليس بيننا أسرار. هل تعرف ماذا كانت هذه المرأة تقرأ في قصر أبيها؟"

هززت رأسي احتراما.

"كفر! فلسفة ملعونة! شك!".

ابتسمت جميلة.

"هذه المرة هو محق، كنت ألتهم كتب الفارابي. إنها تقوّي اعتقادي الغريزي بأن العقل الإنساني أقوى من كل العقائد الدينية، بما في ذلك ديننا. إن أعماله أكثر إقناعا من أعمال ابن حزم".

لوى السلطان قسمات وجهه قبل أن ينصرف، ولكنه طلب مني أن أبقى.

"أقوم الآن بإعداد أوامر معركة الجهاد الأخيرة يا ابن يعقوب، لكي أثبت أن عقيدتنا أسمى من عقيدة الفرنج، أنت حر في أن تستمع إلى قصص جميلة، ولكنني أحذرك من أن تقتنع بها. إن حدث.. فقد تتدحرج رؤوس".

"أنا مجرد راو يا سلطاننا العزيز!".

أشعلت جميلة غليون بانجو، وهي تبتسم لتعبير الدهشة على وجهي.

"أسمح لنفسي بهذا الانغماس مرة في الأسبوع. كان الأمر أكثر من ذلك عندما وصلت إلى قصر أبي، وساعدني ذلك على وأد الألم. هذا يجعلني أشعر بالاسترخاء، ولكنني إذا دخنت أكثر من غليون في الأسبوع يصبح تفكيري بطيئا. أجد من الصعب أن أفكر أو أن أركز في كتاب".

"إنه لأمر طيب أن أسمع السلطانة تضحك مرة أخرى كما كانت في السابق. أتمنى أن تكوني قد برأت تماما، وأن يكون ما ألمَّ بك من ألم قد أصبح شيئا من الماضي".

اهتمامي بأمرها ترك فيَّ أثرًا.

"شكرًا يا صديقي. لقد كنت أفكّر فيك دائمًا وأنا هناك. ذات مرّة، تخيلت نفسي في حوار معك وكان في ذلك ما يبعث على السكينة. شيء غريب أن تكون مشاعرنا القلبية العميقة عابرة للمسافات على هذا النحو. في الأدبين العربي والفارسي إذا تحوّل مجرى نهر الحب الحقيقي فلا بدّ، بحكم الظروف، من أن يمر بوادٍ من الجنون. العاشق الذي يُحرم من حبيبه يفقد رشده. هذا هراء! الناس يحبّون، ويكون حبهم مرفوضا. يعانون. هل تعرف حالة واحدة فَقَد فيها أي شخص رشده؟ هل حدث ذلك؟ أم تراه خيال شعراء؟"

مكثت مدة طويلة أفكر قبل أن تحضرني إجابة بعمق سؤالها.

"الحب موسيقى تسمعها الروح أولا ثم تنتقل إلى القلب بهدوء. عرفت حالات يدخل فيها العاشق المحروم في تدهور عميق، ويتحوّل أسلوب حياته تماما. يعاني صداعا مؤلما لا يتركه، تخدر عقله مشاعر الفقد. من أولئك.. المرحوم شادي".

قاطعتني.

"أنا حزينة لموته، ولكن هناك حدودًا يا ابن يعقوب! أنت تتحدّث عن الحب كشعر للروح، وفي الوقت نفسه تتحدث عن شادي، ذلك التيس الجبلي الأخرق، فهل هي مزحة فجة؟ هل تسخر مني؟"

أخبرتها بالمأساة التي حلّت بشادي، وكيف أن المرأة الوحيدة التي أحبّها فاضت روحها إلى بارئها وتركته، وعن الثمن الذي دفعه مقابل غلطته الشنيعة. أدهشتها القصة.

"من الغريب أن ترى شخصًا كل يوم دون أن تكون على علم بقصّته الحقيقية. أنا سعيدة لأنك أخبرتني بذلك يا ابن يعقوب. التيس العجوز له قلب إذن، ولكن المؤكد أنك متفق معي على أن الفقد الدائم لحبه لم يُودِ به إلى الجنون. أحد الأشياء المؤكدة عنه قدرته على النأي بنفسه عن الأحداث والناس، والنظر إليها وإليهم بعقلانية لا مبالية. إن ذلك من سمات العقلاء".

"الجنون قد يتّخذ عدة أشكال يا سيدتي السلطانة، شعراؤنا يرسمون صورة للعاشق شابًا طويل الشعر، ضربه الشيب قبل الأوان، يهيم في الصحراء يكلّم نفسه، أو يجلس على حافة جدول يحدّق في الماء بلا نهاية، يرى على صفحته صورة حبه الضائع. والحقيقة، كما تعرفين أكثر مني، أن الجنون قد يجعل المرء يفكر في الانتقام القاسي. المرء يخفي مشاعره بقناع مهذب. يتحدث مع أصدقائه وكأن شيئا لم يكن، إلا أن داخله يغلي غضبا وسخطا وغيرة، ويريد أن يتعب من آلموه على سفود ويحرقهم في نار مضرمة. يستطيع أن يفعل ذلك كله في خياله، وذلك يخفف من عذابه ويعيد بناء قوته ببطء".

نظرت إليَّ وظهرت الابتسامة الحزينة ثانية.

"كم مرة أحرقتَ ابن ميمون يا صديقي؟"

هي الأخرى إذن تعرف قصتي معه!

"لم أكن أتحدث عن نفسي يا سيدتي السلطانة، سوف أعطيك مثالا آخر. حالة شاعرنا الشاب ابن عمر، الذي كان في التاسعة عشرة من العمر، وعلى الرغم من ذلك كان يكتب الأشعار التي تجعل كبار السن يبكون. كل دمشق تغنّي أشعاره. الكؤوس ترفع في صحته في كل الحانات. الشباب يتحدثون إلى حبيباتهم بلغته".

قالت ضجرة: "أعرف كل شيء عن ذلك الصبي.. ماذا حدث له؟"

"وأنتِ بعيدة، وقع في هوى امرأة متزوجة.. تكبره بسنوات عدّة. شجّعت اهتمامه بها ووقعت المأساة الحتمية. أصبحا عاشقين. بلغ الأمر زوجها فدسّ لها السم. حل بسيط لمشكلة بسيطة. رفض ابن عمر وجماعة من أصدقائه أن يُدفن السر في قبر. ذات يوم وهم يشربون، خططوا للانتقام. نصبوا كمينا للزوج الطيب، وأوسعوه ضربا حتى الموت في الشارع. أمر القاضي بالقبض على ابن عمر، الذي اعترف بكل شيء.

انقسمت المدينة بين من كانوا تحت سن الأربعين ويريدون إطلاق سراح الشاعر، ومن يطالبون بإعدامه. أما ابن عمر فلم يكن مكترثا بمصيره. استمر في الكتابة إلى أن تدخّل السلطان".

قالت وهي تضحك: "صلاح الدين هو الذي قضى! نعم.. أخبرني عن ذلك".

"تم إرسال ابن عمر ليلحق بابن السلطان في الجيش بالقرب من الخليل".

"صورة نموذجية"، همهمت، "السلطان فقد اهتمامه بالشعر. قبل عشرين عاما، كان يمكن أن يتلو قصائد كاملة بإحساس حقيقي. إرسال الشعراء إلى الحروب مثل شي البلابل. سوف أعيد ذلك الصبي".

(25)

● عندما حلمت بشادي ● السلطان يُخطّط للحرب

"كان من عادة رعاة البقر في الجبال، أن يمصّوا مهبل البقرة عند حلبها، إذ يقال إن ذلك يُحسّن نوعية وكمية الحليب، كما كان من عادتنا ونحن أطفال أن نذهب لكي نشاهد ذلك، فتتملكنا الإثارة. أي جزء في زوجتك أكثر إثارة لك يا ابن يعقوب؟ صدرها؟ مؤخرتها؟"

ذلك هو شادي! يسأل السؤال ولا ينتظر إجابة. هذه المرة أخذ يضحك ضحكا صاخبا، فظا.

كنت أحلم. السبب الوحيد الذي يجعلني أتذكر ذلك الحلم التافه هو أن طرقات قوية مُلحّة على الباب قطعته. كانت راشيل ما زالت نائمة، ولكن قفزتي المفاجئة من الفراش أزعجتها فبدأت تتحرك. فتحت مصراع النافذة. لم يكن الصبح قد تنفّس بعد، رغم أن بوادر الفجر ظاهرة في الأفق في شكل شريط أحمر رقيق. أخذت ردائي وأسرعت عبر الفناء لأفتح الباب.

قابلني الخصي أمجد بابتسامته المعتادة، تلك الابتسامة التي تزعجني، في الغالب، بدت مطمئنة هذه المرة.

"السلطان يريدك في المجلس قبل طلوع النهار. هل ستصحبني؟"

"لا"، أجبته بصوت أخشن مما كنت أنوي، وندمت على ذلك في الحال. "معذرة يا أمجد! لقد استيقظت لتوي وأحتاج دقائق قليلة كي أفيق وأستعدّ للقاء السلطان. سوف أتبعك فورا".

ابتسم وانصرف. الغريب أنه نادرًا ما كان يواجه الهجوم. في الأسابيع الأولى في دمشق، كنت عنيفا معه لا لشيء سوى أنني لم أكن أستريح لتعابير وجهه. على الرغم من ذلك، كان شادي يحبه، كما كانت جميلة تثق فيه تماما. ذلك التناقض هو الذي دفعني إلى تغيير موقفي منه.

عندما عدت إلى غرفة النوم وجدت راشيل مستيقظة. جلست في الفراش تشرب ماء. أثارني عريها. رؤية ثدييها يهتزان وهي تتحرك جعلتني أضحك. قصصت عليها الحلم. رأت الرغبة الشديدة في عيني فأزاحت الملاءة عن بقية جسدها. ابتسمت ومدّت ذراعيها متأهبة لكي تحضنني.. وربما أكثر.

"السلطان ينتظرني"، بدأت معتذرا، ولكنها قاطعتني.

"أرى ذلك"، قالت وهي تقفز من الفراش وتضع يدها بين ساقي "السلطان منتصب ومستعد لامتطاء فرسه من أجل المعركة".

استسلمت يا قارئي.

... ...

... ...

ركضت بقية الطريق إلى القلعة. لا تزال المدينة نائمة، رغم أن المؤذّنين كانوا يسلكون حناجرهم بالنحنحة استعدادا لدعوة المؤمنين للصلاة.. نبحت بعض الكلاب المنتشرة هنا وهناك وأنا مسرع إلى السلطان.

قال السلطان ولكن دون أي مظهر للاستياء: "تأخّرت يا ابن يعقوب، أخَّرك عنا حضن زوجتك؟"

انحنيت أمامه معتذرا في صمت، قَبِل اعتذاري بابتسامة ثم أشار كي أجلس تحت قدميه.

استقرت عيناي على السلطان، إلا أنني عندما تجوّلت في الغرفة ببصري، أصابني الذهول بسبب الحاضرين. لم يكن جمعا عاديا. إلى جانب الفاضل وعماد الدين، كان كل أمراء جيوش السلطان حاضرين. لا! ليس كلهم. لم يكن تقي الدين ولا كوكبري هناك. كان السلطان قد أشار قبل ذلك إلى أنهما "ذراعاه" وأنه دونهما بلا قوة. ذلك أسلوبه في

الإعلان عن ثقته في الرجلين.

لم يكن في الأمر مفاجأة بالنسبة لتقي الدين. كان ابن الأخ المفضّل لصلاح الدين، وكان يعامله كما كان عمه شيركوه يعامله هو شخصيًا. والحقيقة أن وجود تقي الدين يجعل السلطان يتخلّى عن حذره الفطري الذي ورثه عن أبيه أيوب. قال لي ذات يوم إنه في ساعات الأزمات، تقوم بداخله دائمًا معركة بين أيوب وشيركوه، أما انتصار أحدهما فيعتمد على الحظ. كما كان تقي الدين يذكّره بشبابه، وعلى نحو ما، كان يتمنّى أن يخلفه ابن أخيه وليس ابنه الأفضل. باح بذلك لشادي وسرعان ما سرّب شادي إليَّ الخبر. كان رأيه من رأي صلاح الدين.

أما بالنسبة للأمير كوكبري، فالقصة مختلفة تماما. حدث قبل ثلاث أو أربع سنوات أن شكّ صلاح الدين فيه، وأمر بالقبض عليه. حدث ذلك وقت أن كان يوطّد إمبراطوريته استعدادا لليوم الذي كان قد حان. لمدة ثلاثة أيام، وبمساعدة كوكبري ورجاله استطاع السلطان أن ينقل قواته عبر الفرات. تقدم آنذاك نحو حران وهناك أمضى أحد الصباحات في لعب الشوجان مع مضيفه. عندما انتهى اللعب، قام الحرس الشخصي لصلاح الدين باعتقال الأمير كوكبري، ونقل الحمام الزاجل الأخبار إلى القاهرة.

وفي أثناء إحدى جولات القاضي الفاضل التفتيشية حول القاهرة فاجأته الأخبار. وكتب من فوره مناشدة قوية إلى صلاح الدين. وأعطاني نسخة من تلك الرسالة لكي أضمّنها كتابي. كانت الرسالة تقول:

"السلطان العزيز الكريم،

علمت من رسالة من عماد الدين أنك غاضب على كوكبري، وأمرت بالقبض عليه. أتذكر جيّدا حرارة وغبار حران اللذين يؤثّران علينا جميعا، وليس لديَّ شك كبير في أن عطفك وكرمك سوف يتغلبان في النهاية على غضبك. أعرف أن عماد الدين بجوارك، ولكن إذا كنت ترى أن حضوري أيضا قد يكون مفيدا أو ضروريا فسوف أطرد عني كرهي لحران. سأشق طريقي على بغلتي وأتحمل الحرارة الشديدة دون خيمة لكي أكون إلى جوارك على وجه السرعة. إنني في غاية القلق والحيرة لما أسمعه. أعتقد أن السلطان قد أخطأ التقدير.

إن الأمير كوكبري يعتبرك والدًا. لقد كان وفيا دائمًا، وقد برهن على ذلك بأن أقنع

أخاه لكي يدعمك ضد موالي الموصل. كان نموذجا لكل من يريد خدمة قضيتك، والمودة التي أبديتها نحوه لا بدَّ أن تكون قد تركت أثرا فيه. إنه أشبه بالجرو الصغير الذي يمسّده سيده كثيرا فيعضّه أحيانا. إلا أن العضة تعبّر عن فيض الحب أكثر منها عن الغضب. إنني على استعداد لأن أقدّم رقبتي لنصل الجلاد لو ثبت أن كوكبري يخون مصالحنا. إنه صغير السن وطموح، ويريد أن يثبت ذلك في القتال إلى جوارك.

لقد كتب لي عماد الدين أنك تنتقم لأن كوكبري كان قد وعد بتقديم خمسين ألف دينار للخزينة يوم وصولك حران، ثم نكث بوعده، مدعيا أن ذلك كان وعدا من مبعوث له لم يستشره في الأمر. وحيث إن المال من أجل الجهاد، أعرف كم أغضبك ذلك، ولكن كرمك هو مصدر كل الماء النقي الزلال الذي يتدفق في أراضينا. اعف عنه، وكلي ثقة من أنه سوف يعي الدرس".

خادمك المطيع

الفاضل

تم العفو عن كوكبري ولم يغضب السلطان بعد ذلك، ولكن المشكلة لم تكن مجرد ذلك اللغط حول الخمسين ألف دينار. السلطان قال لي إن الأمر كان أشد خطرًا. كوكبري كان الوسيط بين أخيه أمير أربيل والسلطان. ففي مقابل ولائه، حصل كوكبري على المزيد من الأراضي لشقيقه. وحيث كان للسلطان مطلق السيطرة على المنطقة، اقترح كوكبري أن تضاف الأراضي التي حصل عليها شقيقه إلى ممتلكاته الخاصة. هذا الاقتراح أشعل غضب السلطان صلاح الدين الذي كان الولاء للأسرة بالنسبة له اختبارا حاسما لمدى ولاء الشخص، فرفض الاقتراح بازدراء، وبدأت الشكوك تساوره حول مدى ولاء كوكبري له.

هذه الحقائق لم يُفشِها عماد الدين للقاضي الفاضل لسبب بسيط، هو أن العالم الكبير أصبح مفتونا بأمير حران. كان، للحقيقة، نموذجا للوسامة رغم أنه لم يكن يميل إلى المتع المفضلة لدي عاشق الكتب المحترم.

بعد أشهر قليلة، تم العفو عن كوكبري. لم يخرج عن طوع صلاح الدين مرة أخرى. تعلّم، كما توقع القاضي الفاضل بحكمته، أن هناك أشياء في هذه الدنيا أثمن من كل كنوز الصين والهند بالنسبة للسلطان، من بينها الوفاء بالعهد للصديق والعدو، وهو في ذلك لا يُبارى، ناهيك عن أن يقنعه أحد بغير ذلك.

استعاد كوكبري ثقة سلطانه، والآن ونحن مجتمعون في هذا المجلس، كان هو وتقي الدين يعسكران في وادي الجليل ينتظران بفارغ الصبر وصول صلاح الدين. يمكنهما، حينذاك فقط، الانتهاء من خططهما.

أدركت أنني كنت مدعوا، لأول مرة، لأحضر مجلسا للحرب. كان السلطان يتكلّم بوضوح لبعض الوقت، وبعد أن قطع وصولي الكلام، راح يواصل إقناعهم بأسلوب يجمع بين الكر والفر والإطراء:

"الواقع يخذل رغباتنا دائمًا، وذلك من حقائق الحياة كما سيوضّح لكم عماد الدين. قليلون منا من يستطيعون القول إن ما كانوا يتمنونه قد تحقق. أعدائي، وهم ليسوا قلة، يقولون للخليفة إن صلاح الدين يفضل أن يهاجمنا وينسى الكفار. يقولون إن كل ما يهمني هو تمكين أسرتي من السلطة وتكديس الثروات. يتهمونني بما يفعلونه. أعتقد أن من السهل عليهم أن يتهموني بجريرتهم. إلا أننا، قبل أن ينتهي هذا العام، سوف نخرس تلك الألسنة إلى الأبد.

أعرف أن بعضكم متردد في الهجوم على الفرنج في هذا الوقت بالتحديد، ربما تكونون على حق في قلقكم، ولكن أولئك الذين يتوانون قليلا، ويسيرون حتى منتصف الطريق، ينتهي بهم الأمر عادة وهم يحفرون قبورهم بأيديهم.

دعوني أتكلم بوضوح. لم يعد لدينا وقت أكثر من ذلك. الله وحده أعلم بما تبقى لي في هذه الحياة، وأنا أنظر إليكم الآن أبصر رجالا خاضوا معارك كثيرة، كبروا في السن قبل الأوان بفعل الطبيعة، أرى الشعر الأبيض يغزو لِحَاكم جميعا. لم يتبق الكثير من الوقت لأي منا.

جواسيسنا يقولون إن الفرنج لديهم ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر ألف فارس، واثني عشر ألف جندي من المشاة للدفاع عن مملكة أورشليم. لا بدّ من تجهيز جيش يقصم ظهرهم. جيش من المؤمنين يصعد أسوار القدس ويؤكد صيحة "الله أكبر" لكي تتردد مرة أخرى في أرجاء تلك المدينة العظيمة.

هذه المرة لا بدّ من أن نُنزل بهم هزيمة ساحقة كي يتركوا أراضينا ولا يعودوا مرة أخرى. جيشنا هو الوحيد الذي يمكن أن يحقق هذا الهدف. ليس لأن الله قد وهبنا ذكاء أكبر أو قوة أكثر، وإنما لأننا وحدنا الذين نسعى من أجل ذلك الهدف. عزيمتنا هي ما سوف يعطي القوة لمن يحاربون تحت رايتنا. عاجلا، سوف نمحو عار هزيمتنا مِن

أولئك البرابرة إلى الأبد. لست من دعاة التفاخر الزائف لأن ذلك هو سبب سقوط المؤمنين، ولكنني مليء بالثقة.

جنودنا من مصر والشام فقط يمكن أن يهزموا العدو، ولكن الكل يريد الآن أن يكون معنا. أمراء الموصل وسنجار وأربيل وحران، كلهم يريدون أن يكونوا مُمثَّلين في جيشنا. لقد وَعَدَنا الأكراد في الجبال وراء دجلة بعدد من الجنود. في الماضي كانوا ضد ولاية أبي وعمي شيركوه، الآن أخذوا عهدا على أنفسهم بأن يكونوا معنا في معركة القدس أو أن يموتوا في سبيلها. جاءني بالأمس رسولهم وأبلغني بأنهم سوف يقاتلون إلى جانبنا إذا سُمِحَ لهم بأن يكونوا أول من يدخل المدينة. أمر غريب! أليس صحيحا يا عماد الدين أن رائحة النجاح تنتشر بعيدا وسريعا؟"

العالم الكبير الذي كانت عيناه مغمضتين معظم الحديث لم يكن نائما.

"ليست مجرد رائحة النصر في خياشيمهم هي التي ترسلهم إلينا يا أمير الانتصار، إنهم يشعرون في قرارة أنفسهم بأن التاريخ على وشك أن يُعاد صنعه، يريدون أن يقولوا لأبنائهم ولأحفادهم إنهم حاربوا مع السلطان صلاح الدين في ذلك اليوم الموعود".

صلاح الدين، الذي يصمّ أذنيه دائمًا عن النفاق، لم يبد استياء لتعليق عماد الدين.

"غدا، سأغادر دمشق لألحق بالجيش الذي يحتشد لمهمتنا الأخيرة. كلنا سنتحرك في توقيتات مختلفة، وعبر طرق مختلفة، إذ ربما يكون الفرنج قد أعدّوا لنا بعض الأكمنة. إذا حدث لي شيء قبل المعركة أو في أثنائها، لا أريد أن تضيعوا أي وقت في الحزن والحداد. أكملوا العمل الذي كلّفنا الله به، ولا تتركوا العدو يعتقد أن موت فرد يمكن أن يُربك قواتنا. والآن، انصرفوا عسى أن يمنحكم الله القوة التي نحتاجها لتحقيق النصر. لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

تفرّق الأمراء، ولكن بعد أن تقدّموا وعانقوا السلطان وقبّلوا وجنتيه. بعد انتهاء المراسم استدار السلطان نحو القاضي الفاضل وعماد الدين وإليَّ.

"أريدكم أن تكونوا كلكم إلى جواري. عماد الدين ليكتب الرسائل التي تطلب الاستسلام، والفاضل لكي يتأكد من أنني لا أرتكب أخطاء في التعامل مع أمرائنا، وابن يعقوب لكي يسجّل كل شيء على الرق. أيا كان ما كتبه الله لنا، نصرا أو هزيمة، فلن

ينسى أبناؤنا وأحفادنا ما ضحّينا به من أجل مستقبلهم".

كانت تلك هي أول مناسبة يذكر فيها السلطان اسمي مع اسمي الفاضل وعماد الدين. كنت في غاية السعادة لهذا التكريم. لقد اعترف بقيمتي، وذلك وحده يكفي لأشعر بأنني أحلّق في السماء. لم أكن أستطيع الانتظار أو ألا أندفع إلى المنزل لإبلاغ راشيل، ولكن خطواتي أبطأت عندما أدركت أن ذلك سيكون فراقا طويلا.

قبل أن أغادر القلعة، ظهر أمامي شبح الخصي أمجد. تأوّهت. ضحك.

"هذه المرة استدعتني السلطانة جميلة. السلطانة تريدك. اتبعني إذا سمحت". قال أمجد.

لم أندم أبدا على حديث مع جميلة التي تضيف دائمًا إلى معرفتي بالعالم وفهمي للمشاعر الإنسانية. ولكنني أردت ذلك اليوم، وأنا أكاد أطير فرحًا بسمو مكانتي، أن أشرك راشيل فرحتي. قد يخفف خبر كهذا لوعة الفراق. إلا أنني لم أكن أكثر من كاتب لا بدّ أن يطيع الأوامر. وهكذا، مثل كلب أمين، تبعت الخصي أمجد إلى الغرفة الخاصة التي تستقبل السلطانة فيها زائريها. بدا وجهها ممتلئًا بالسعادة، وابتسمت عندما دخلت. أذابت ابتسامتها قلبي، وشعرت بالذنب لأنني استثقلت زيارتها. تلك هي المناسبة الثانية منذ عودتها من الجنوب التي أكدت لي، كما أظن، أنها شُفيت تمامًا.

"مرحبا يا ابن يعقوب، وتهنئتي. لقد بلغني أنك أحد الرجال الثلاثة الذين سيرافقون السلطان، وأنك سوف تشهد أم المعارك. أنا سأكون المرأة الوحيدة.. بأي طريقة!"

رأت النظرة التي بدت على وجهي وبدأت تضحك.

"لقد قاوم وقاوم لكنني انتصرت في النهاية. لديَّ إذن سلطانك. سيكون لي خيمتي الخاصة وحرسي الخاص من الخصيان تحت قيادة أمجد، وعدد من المماليك المدرّبين جيدًا".

ينبغي ألا يعرف كوكبري حتى نصل. تعرف أنه متزوج من أختي الصغرى، وإذا عرفت ستقلب الدنيا وتحاول أن تشاركني خيمتي. إلا أن صلاح الدين منعني من أن أخبر أحدًا سواك، لأننا سنكون معًا عندما لا تكون مشغولا بالكتابة. لديَّ الكثير لأرويه لك، ولكننا يمكن أن نتحدث كذلك في أثناء الرحلة. سنغادر غدا منتصف النهار تقريبًا. لا بدّ من أن تمضي بعض الوقت مع زوجتك وابنتك".

شكرتها، وبينما أنا أتأهّب للانصراف بدأت تتكلم مرة أخرى. كان لديها شيء آخر تريد أن تبلغني به. جلست على الوسادة عند قدميها.

"قابلت حليمة ليلة أمس. تناولنا العشاء معا. أُذن لها أن تأخذ ابنها إلى القاهرة، حيث تنتظر رغبة السلطان. دهشت عندما بعثت لي برسالة تطلب مقابلتي، ولكن ذلك لم يزعجني. ماذا كتب صديقك ابن ميمون عن المشاعر كما قلت لي من قبل؟"

عندما سمعت اسم ابن ميمون أصابني ذهول، ولكنني بقيت هادئا أنا الآخر.

"أعتقد أن ما كتبه عن المشاعر كان معناه أن مشاعر الروح تؤثّر في الجسد وتؤدّي إلى تغيّرات واسعة في حالتنا الصحية. إذا لم تهدأ المشاعر التي تسبب الضيق والاضطراب، نظل في حالة ضيق مع أنفسنا ومع من حولنا".

ضحكت مرة أخرى.

"صديقك ابن ميمون هذا فيلسوف كبير. إنه يلمس أعماق قلوبنا وأرواحنا. يمكن أن تبلغه بأنه محق. أنا أشعر أنني بحالة جيدة مرة أخرى. المشاعر التي مزقت روحي اختفت نهائيا.

عندما قابلت حليمة لم أكن أعرف كيف أتصرف. لم أكن أعرف ما أتوقعه منها.. ومني. ما حدث أنه كان كأنه لقاء بشخص غريب. تركتني باردة تماما يا ابن يعقوب. ظلت تعتذر طويلا عن الافتراء عليَّ أمام خدمها وأصدقائها وأقل مَن في الحريم شأنا. أرادت أن نعود أصدقاء. وبابتسامة يُرثى لها، حاولت أن تصل إلى قلبي بقولها إن الشياطين تركت عقلها نهائيا، وإنها عادت إلى طبيعتها.

لم أرغب في أن أكون قاسية، أو أن أتباهى بعدم اكتراثي، ولهذا ابتسمت وقلت لها إنني فهمت، ولكننا لا نستطيع أن نعيد ما ضاع. بدا عليها الحزن وامتلأت عيناها بالدموع، ولكن ذلك لم يؤثر فيَّ. المكان الذي ملأته ذات يوم في حياتي أصبح مشغولا بأشياء أخرى، بما في ذلك أعمال الفارابي العظيمة. وهكذا تمنيت لها كل خير، وأن تجد أصدقاء جيدين في القاهرة، وأن تربّي ابنها لكي يصبح إنسانا جميلا متعلّما. بهذه الكلمات فارقتها. هل تعتقد أنني كنت جافة يا ابن يعقوب؟ لا تنافقني. تكلم بصراحة".

فكرت لحظة ثم قلت الحقيقة.

"من الصعب علي، حيث إنني عرفتكما وأنتما في ذروة السعادة. رأيت كيف كنتِ معها وكيف كانت معك. كنت أحسدكما. ثم بعد أن أصيبت في عقلها، لم تكوني أنت وحدك كل ما رَفَضَته. كذلك أنا أسقطتني من حساباتها لأنني كنت أذكّرها بالماضي الشيطاني. لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه يا سيدتي السلطانة، ولكنني لست ولن أكون مكانك. لو أنها طلبت مني لوصلت ودي بودها. إنها في حاجة إلى أصدقاء".

"أنت رجل طيب أيها الكاتب، والآن فلتذهب إلى زوجك لكي تودّعها. غدا، سنرحل عند الفجر".

لم أكن أفكر في حليمة وجميلة وأنا عائد من القلعة إلى منزلي. رأسي لم يتخلص من ابن ميمون. ذكر جميلة لاسمه لم يؤذني في حينه. ولكنه الآن ينكأ الجراح القديمة. لم يعد غضبي الشديد موجّها نحو راشيل، وإنما إلى المحترم الذي أغواها.

لو أنني رأيته في الطريق لالتقطت حجرا وشججت رأسه. أزعجتني هذه الفكرة العنيفة كثيرا، إلا أنها هدأتني في الوقت نفسه عندما وصلت إلى الفناء الخارجي للمنزل.

استقبلتني راشيل بأخبار. ابنتنا خُطبت لابن قائد جوقة التراتيل في المعبد. كنت أعرف الأب جيدا. رجل ذكي وقارئ جيد. أما عن الابن، فقد أخبرتني راشيل بأنه يعمل في تجليد الكتب.

"وهل يقرأ ما يقوم بتجليده؟"

"سل ابنتك".

نظرة واحدة إلى وجه مريم كانت كفيلة بأن تجعلني أعرف كل ما كنت أريد أن أعرفه. بدت البنت سعيدة باختيار أمها، ولذلك أصبح سؤالي لا لزوم له. كان شعورًا غريبًا. عاجلا، سوف تغادر هذه البنت التي كانت محور حياتنا بيتنا، وتذهب إلى بيت رجل آخر. كيف سيؤثر ذلك في علاقتي براشيل؟ هل نكبر معا.. أم سنفترق؟ لم أستطع أن أفكّر طويلا لأنهم أصرّوا على أن أذهب لمقابلة الشاب. لم أكن قد أبلغتهم بأخباري، ولكن بحكم رحيلي كان من الضروري أن أذهب لأرى ذلك الشاب الذي سيأخذ ابنتي. بصعوبة بالغة، منعت راشيل من أن تصحبني.

عانقت قائد جوقة المنشدين عندما دخلت المعبد. أخذني إلى بيته، حيث قدّمت ابنته الشاي لنا. ماتت الأم قبل سنوات وأصبحت البنت الكبرى هي المسئولة عن البيت. لا بدّ

من أن تكون أخبار مجيئي قد ذاعت. لم نكد نفرغ من شرب الشاي حتى اندفع الشاب إياه داخل البيت ليقف أمامي بلا حراك. قمت وعانقته. كانت الطيبة بادية على وجهه. شعرت، بالغريزة، أنه شاب طيب، إلا أن تحذيرات شادي كانت تطن في أذني: "كلما كانت تبدو عليهم الطيبة، يكونون أكثر شرًّا"، إلا أن الرجل العجوز كان يقصد الفرنج بكلامه، أما الشاب فكان ابن صديق لنا.

فيما بعد، وافقت على الخطبة في المنزل. بعد أن زالت الإثارة، أبلغت راشيل بأنني راحل في الغد بتعليمات عاجلة من السلطان. تلقّت الأخبار عن طيب خاطر. عانقتني الأم والبنت عندما صممت على أن يتم الزفاف بأسرع ما يمكن. ليس عليهم أن ينتظروا عودتي.

في تلك الليلة.. في الفراش.. همست راشيل في أذني: "هل يمكن أن تتخيّل أن يكون لك حفيد يا زوجي؟ لم أستطع أن أهبك ابنًا، ولكن مريم سوف تفعل.. وعاجلا.. أنا واثقة من ذلك".

مع تصوّر أحفاد في الطريق، فهمت لماذا لم تحدث أخبار ذهابي إلى حرب قد أقتل فيها، حزنا شديدا. فهمت. ولكنني سأكون كاذبا لو أنني قلت إنني لم أشعر بقدر من الألم.

أورشليم

(26)

• السلطان يُعسكِر والجنود يتوافدون من كل أرجاء إمبراطوريته

قطعنا الرحلة بلا مفاجآت أو أحداث مهمة. وصلنا عشترا بعد يومين. لا شيء يمكن مقارنته بما عانيت من آلام عندما قمنا برحلتنا من القاهرة إلى دمشق. كانت الحرارة فوق الاحتمال. بمجرد أن ابتعدنا عن الحقول الخضراء والأنهار خارج دمشق، أخذ عدد الأشجار يقلّ تدريجيا. بدأت حالتي النفسية تسوء. أسوأ ما في الصحراء هو عدم وجود عصافير تستقبل الفجر. يأتي الصبح فجأة، وقبل أن يكون المرء قد استيقظ تماما، يبدأ حر الشمس اللافح!

أمر السلطان أن ننصب معسكرنا في عشترا، وهي بلدة صغيرة تحيط بها سهول كثيرة. هنا يمكن أن نقوم بمعارك صورية، ويمكن أن يكون لدينا كميات كبيرة من الماء، وهو اعتبار مهم دائمًا، ولكن حاجتنا تتضاعف وقت الحرب. على مدى الخمسة والعشرين يومًا التالية كنا نستعد للمعارك القادمة.

بدأ الجنود ورماة السهام يتوافدون من كل أرجاء الإمبراطورية. أخذ معسكرنا يكبر ويكبر إلى أن امتلأت البلدة بالخيام التي انتشرت في وسطها. كان يقوم على إعداد طعام الجيش مائة طباخ، يعاونهم ثلاثمائة من المساعدين. أصرّ السلطان على أن يأكل الجميع نفس الطعام. وكان يقول للأمراء والمساعدين إن تلك القاعدة اليسيرة تذكرنا ببداية ظهور الإسلام. من الضروري أن يرى الصديق والعدو أن الكل سواسية أمام الله في الجهاد.

لدهشة الأمراء، لم يستطع عماد الدين أن يُخفي ضيقه. راح يتمتم بصوت مكتوم أن الأيام الأولى للدين قد ولّت وراح زمانها، أما اليوم فمن المهم أن نترك الفرنج يتعرفون

على تنوع المطبخ الدمشقي. تجهّم السلطان وضع حدا لهذا العبث. عماد الدين صاحب شهية خاصة، لا يشبعها سوى طهاة مكانين فقط في دمشق. أما بالنسبة للآخرين، فقد كان المعسكر يحتوي على كل شيء. كان هناك عشرات الطباخين لدى كل منهم ثلاثون قِدرا كبيرًا تحت تصرفه. كل قِدر يمكن أن يحتوي تسعة رؤوس غنم. إلى جانب ذلك حُفرت حمّامات خاصة بُطنت بالطين. أدرك السلطان أن معدة وصحة الجنود مهمة من أجل الحفاظ على ارتفاع معنوياتهم.

وُضع نظام للمعسكر منذ اليوم الأول، وكان القادمون الجدد ينخرطون في الجيش لحظة وصولهم. ومع شروق الشمس توقظ الأبواق ودقات الطبول وأصوات المؤذنين المعسكر كله. ذلك هو النداء الوحيد لصلاة الجماعة، فيما عدا المسيحيين واليهود فلا لوم عليهم، رغم أنه يجب عليهم الاستيقاظ في نفس الموعد. بعد ذلك يكون هناك فطور كافٍ، الهدف منه هو أن يظل الجندي قويًّا حتى وجبة العشاء. ثم ترفيه لمدة قصيرة تُستغل لقضاء الحاجة. صفوف وصفوف من الرجال يخرجون، لإفراغ أمعائهم في حفر أُعدت لهذا الغرض خارج المدينة، وكانت تغطَّي بالرمال يوما بعد يوم لتخفيف انبعاث الرائحة. ثم تدق الطبول مرة أخرى تدعو الجنود إلى نوبات منظمة للمبارزة بالسيوف والرمي بالسهام وركوب الخيل، أما جنود المشاة فكانوا يركضون لمدة ساعتين يوميًا.

لم يكن يمرّ يومٌ دون جديد. وصلت ألوية الخليفة ليستقبلها السلطان وسط صيحات وهتاف "الله أكبر"، لم يثنِ ذلك الفاضل عن أن يهمس لعماد الدين بصوت وصل إلى سمعي.

"لقد أرسل، على الأقل، الألوية العباسية، ولكنه سوف يصاب بالرعب لو استولى سلطاننا على القدس. ذلك من شأنه أن يجعل صلاح الدين أقوى حاكم في عالم الإسلام".

"نعم! -ضحك العالم الكبير- ومنجّموه يحذرونه من أن يصلي أولا عند قبة الصخرة، لأنه سوف يجيء إلى بغداد ويستقبل باعتباره الخليفة الحقيقي".

لم يكن سرًا أن الخليفة يغار من سلطاننا. كل التجّار الذين كانوا يسافرون من بغداد إلى دمشق، يجيئون محملين بحكايات من البلاط، بعضها مبالغ فيه وبعضها تؤكده مصادر أخرى، وبخاصة جواسيس عماد الدين الذين يرسلون إليه تقارير منتظمة من أولى مدن العقيدة. المثير للدهشة، هو ذلك الاحتقار الذي يكنّه للخليفة أكثر رجلين قربًا من السلطان.

لم يكن قد مرّ على بقائنا أكثر من أسبوع تقريبا، إلا وبدأنا نشعر أننا في بلدنا. ليس ذلك لما يحيط بنا من أسباب الراحة، وإنما ذلك الشعور بالتضامن الذي يملأ الجو العام. حتى القاضي الفاضل اعترف بأنه لم يعرف شيئا كهذا في المعسكرات السابقة. والأمراء، من جانبهم يتناولون، وبتعليمات من السلطان، وجبة العشاء مع جنودهم، ويأكلون نفس الطعام من نفس الآنية.

ونحن على تلك الحال، رأينا قوات الأكراد قادمة من على بُعد. أسرع رسول لإبلاغ السلطان الذي كان في الخارج على حصانه مع تقي الدين وكوكبري، وكنت أنا على حصاني المسكين أحاول ألا أكون متأخّرا عنهم. كان الرجال الثلاثة يتناقشون حول ما إذا كانت أساليبهم التقليدية في الهجوم والتقهقر، التي تشبه أساليب الأثينيين إلى حد كبير، يمكن أن تُطبّق مع جيش كبير كذلك الذي يتم حشده في عشترا الآن. مثل هذه الأساليب نموذجية بالنسبة للتشكيلات الصغيرة ذات التدريب الجيد والفرسان المهرة.

في تلك اللحظة الحرجة أعلن الرسول وصول المقاتلين الأكراد. انفجر القادة الثلاثة ضحكًا من عدم انضباط الأكراد المعروف للجميع. شيركوه هو القائد الوحيد الذي نجح في ترويض طباعهم الشرسة. فمعظمهم يرفض، حتى الآن، أن يقاتل تحت قيادة صلاح الدين. يزعمون أنه يفتقر إلى جسارة عمه ودهاء أبيه. لذلك استقبل السلطان خبر مجيئهم بفرح، وعدنا إلى المعسكر ونحن نشعر بالحماسة والقوة.

وصل الأكراد وهتفوا بلغتهم لمقدم السلطان. تقدّم قادتهم وقبّلوا صلاح الدين بحرارة من وجنتيه. استدار نحوي ودمعة تترقرق في عينيه، ذهبت إليه وهمس في أذني:

"ليت شادي كان معنا ليشهد هذا اليوم، إن الكثيرين منهم يتذكّرونه جيدا".

ملأت رائحة المشمش المخمر المعسكر في تلك الليلة. حتى السلطان، رأيناه يرشف من قنينة مغطاة بجلد بال من كثرة الاستخدام. ثم بدأ الأكراد يغنّون. كان الغناء مزيجا من التفجع على الحبيب والحب والتعلق بالأمل. ثم فاجأ محارب عجوز الجميع بأغنية خليعة، بعد أن شرب كمية كبيرة من المشمش المخمر. وقبل أن يكمل، أخذه أبناؤه وانتحوا به جانبا ولم نره مرة أخرى حتى اليوم التالي.

انتهى المساء برقصة الحرب الكردية وشارك فيها ثنائيات من المقاتلين تقفز من فوق النار، بسيوف مشحذة ووجوه متحمسة، مع تلامس وتصادم حذر بالسيوف.

بينما أنا عائد إلى خيمتي، رأيت الأمير كوكبري والخصي أمجد في حوار حاد مع رجل متوسط الطول لم أتعرف عليه. واضح أنه أحد النبلاء وربما يكون من بغداد. كان يرتدي ثيابا تدل على أنه من رجال الخليفة، وعلى رأسه عمامة سوداء من الحرير تتناسب مع لحيته المنسابة. حتى في ضوء القمر يلمع بجلاء حجر كريم بلون الدم وسط العمامة. انحنيت للجماعة وقدّمني أمجد إلى الرجل الغريب. هو ابن سعيد الحلبي الذي فقد القدرة على النطق وهو طفل، فأصبح لا يتكلم إلا بالإشارة.

سألني كوكبري: "ما رأيك في الأكراد يا ابن يعقوب؟" أجبت بأدب. ولكن الرجل الأبكم بدأ يومئ ويشير بعنف. أومأ الخصي أمجد إيماءة من فهم إشارات ابن سعيد. وأخذ يترجمها قائلًا:

"يريد ابن سعيد أن تعرفوا أن الأكراد جيدون فقط في تجريد أي مدينة من كل ما فيها، إنهم نسور ديننا، وينبغي الاعتماد عليهم بتحفّظ شديد".

قطب كوكبري جبينه.

"أنا واثق من أن ابن سعيد يعرف أن السلطان نفسه كردي، ولهذا السبب لا يمكن أن أقبل هذه الإهانة هكذا".

مرة أخرى بدأ الغريب يحرك يديه ويلمس الحجر الذي يتوسط عمامته. أخذ أمجد يرقب كل حركة بعين صقر ويومئ برأسه طوال الوقت.

"ابن سعيد يقول إنه يعرف أصول السلطان جيدا، ويقول إن كل الأحجار الكريمة تكون خشنة قبل صقلها وتهذيبها. السلطان كالحجر الكريم، ولكن رجال الجبل ما زالوا في حاجة إلى عمل كثير".

ابتسم كوكبري، وكان على وشك أن يعلّق عندما ناداه تقي الدين وأخذه بعيدا عنا. دُعينا لتناول الشاي مع السلطان. عندما انصرفا، بدأت أنا كذلك أتحرّك لكن ابن سعيد الأبكم بدأ في الكلام.

"أعرف أنني خدعت كوكبري يا ابن يعقوب، ولكنني كنت أظن أن قوة ملاحظتك أكبر من ذلك".

الصوت أعرفه، أما الوجه! ثم ضحك أمجد، وعرفت أن اللحية والعمامة زائفتان،

وتحتهما ملامح السلطانة جميلة المعروفة.

ضحكنا كلنا، ودعيت إلى خيمة ابن سعيد! لتناول القهوة معها ومع الخصي أمجد. لم تكن جميلة تستطيع العيش دون قهوتها. كان أبوها يرسل إليها البُنّ بانتظام. بعد ذلك بدأت أختها ترسله إليها من حران. المؤكد أنها أطيب قهوة في دمشق. ولعلها محقّة في زعمها أنها أفضل قهوة في الجزيرة العربية.. ومن ثمَّ في العالم كله.

جلسنا أمام خيمتها ننشق عبق القهوة ونرقب النجوم في السماء. لا أحد منا يرغب في الكلام. لاحظت ذلك في الأيام السابقة كذلك. حيث يجلس الجنود والأمراء عادة في هدوء، مستغرقين في التفكير قبل أن يخلدوا للنوم.

فيم يفكرون يا تُرى؟ ما الأفكار التي كانت تخطر ببالهم؟ هل كانوا مثلي أنا وجميلة وأمجد يفكّرون في المعارك القادمة؟ نصر أم هزيمة؟ كلاهما وارد. الشعور بالترابط العميق الذي يتملك كل أولئك الرجال وهم يسيرون معا لا يمكن أن ينكره أحد. إنهم يعلمون أنهم إذا نجحوا في طرد الفرنج من القدس، فسوف يُخلَّد هذا الجيش، الذين هم جزء منه، على مرّ التاريخ.

كان التفكير في النصر هو القاسم الأعظم المشترك الذي يعطيهم هويّة جمعيّة. لكن أولئك الجنود، كذلك، بشر. كلهم لهم آباء وأمهات وإخوة وأخوات وزوجات وأبناء وبنات.. فهل يرون أحبابهم مرة أخرى؟ صحيح أنهم يجاهدون في سبيل الله، ومعنى ذلك أن جزاءهم الجنة. ولكن ماذا لو لم يدخل أحبّاؤهم الجنة؟ شغلتهم أفكار من هذا القبيل. ومع ذلك كانوا يستمتعون بسماء الليل قبل أن يغمضوا جفونهم.

أقول ذلك لأنني تحدّثت مع كثير منهم وسمعت قصصهم.

قالت جميلة: "إذا انهزمنا ومات صلاح الدين سآخذ أبنائي وأذهب إلى بيت أبي. لا أريد البقاء في دمشق لأشهد المزيد من الحروب التي سيكون هدفها الوحيد الفوز بخلافته. أعتقد أن التشاؤم طبيعي ونحن على شفا حفرة من الحرب، على الرغم من ذلك فإن إحساسي يقول العكس. أشعر بقوة بأننا سوف ننتصر في هذه الحرب. دعنا نسترح الليلة يا ابن يعقوب.. احرص على ألا تبوح بسري".

قلت للسلطانة ذات اللحية "تصبحين على خير" ولكن كان من الواضح أن السلطان لديه نوايا أخرى بالنسبة لي. أسرعت إلى خيمتي لكي أحضر قلمي ومحبرتي وأوراقي.

كانت خيمة السلطان متواضعة على نحو لافت. أكبر قليلا من خيمتي. أما السرير الموضوع في الركن فلم يكن مختلفا عن ذلك الذي أنام عليه. الشيء الوحيد المميّز هو سجادة كبيرة من الحرير تغطّيها الرمال، يجلس عليها متكئا على بعض الوسائد. وجدت الأمير كوكبري وتقي الدين جالسين إلى جانبه. بدا السلطان في حالة مزاجية طيبة. نظر إلى وغمز بعينه.

"من ابن سعيد هذا القادم من حلب الذي يهين جنود الأكراد؟"

"إنه شخص عديم الأهمية يا أمير الانتصار".

"أتمنى أن تكون محقا. كوكبري يعتقد جازما أنه جاسوس".

أجبت "الجواسيس يحرصون عادة على أن تكون لهم الحظوة عند أعدائهم. ينافقون لكي ينجحوا في الخداع. الغريب القادم من حلب أحد المتشككين، لسانه سوط، وذهنه حاد، يمكن أن يقسم جملا نصفين".

ضحك السلطان.

"لقد وصفت السلطانة جميلة".

ضحك الكُل لهذه المزحة، أما كوكبري الذي لم يكن يدرك أنه هدف المزحة فكان الأعلى ضحكا، لكي يثبت أنه معجب بهذه الملاحظة الساخرة عن شقيقة زوجته.

قبل الاستفاضة في جهل كوكبري بشخصية ابن سعيد الحقيقية، انفتح لسان الخيمة عن الأفضل، أكبر أبناء السلطان، ذي السبعة عشر عاما، الذي دخل وانحنى لوالده وحيَّانا جميعًا بابتسامة. كان قد كبر عما رأيته قبل عام. لحيته مشذبة ومظهره كله يوحي بأنه شخص ذو سلطة. تذكرته عندما كان وإخوانه أولادا صغارا يتعلّمون ركوب الخيل في القاهرة. فقد رأيت هذا الصبي وهو يتعلم فن القتال بالسيف من فوق الحصان، وعلى الأرض.

افترضنا أن الأب والابن يريدان الانفراد، فقمنا أنا وكوكبري وتقي الدين للانصراف، وسمح السلطان للاثنين الآخرين وأشار إليَّ أن أبقى جالسا، وبعد أن انصرف الرجلان سمح لابنه بالجلوس.

حارب الصبي أولى معاركه قبل أسابيع قليلة، فأرسل إلى أبيه تقريرا يتوقّد حماسة

يشبّه فيه حربه الأولى بفض بكارة عذراء، وهو التعبير الذي أثار استياء عماد الدين بشدة. وقال عماد الدين بحدة إنه مهما حدث، فإن الأفضل لن يصبح من أصحاب البلاغة. كان صلاح الدين أبا محبا وحاسما في الوقت نفسه. فور مثول ابنه تغيّرت مشاعره، اكتسى وجهه قسوة لم تكن تنبئ بشيء طيب بالنسبة للأمير الصغير. وعندما حدس الأفضل، مثلي، هذا التغيّر قطب جبينه لوجودي. ابتسمت له بحنو، فأشاح بوجهه عني دون أن ينظر في عيني والده.

"انظر إليَّ يا أفضل، نحن مقبلون على حرب قد أقضي فيها. جواسيسنا يبلغوننا بأن جي ملك الفرنج وعد بمكافأة سخية للفارس الذي يرشق رمحه في قلبي".

تأثّر الصبي بشدة لدرجة البكاء.

"سأكون إلى جوارك دائمًا. سيكون عليهم أن يقتلوني أولا".

ابتسم السلطان، ولكن وجهه لم يتغيّر وهو يُكمل كلامه.

"استمع إليَّ يا بني. أنت ما زلت صغيرا. عليك أن تفهم شيئا. في ساحة القتال لا بدَّ من فرض الاحترام. لقد أعطاني عمي شيركوه الفرصة كي أثبت قدراتي باكرا في الحياة مثلك تماما، باستثناء أنني لم أمارس أي سلطة من أي نوع، إلا بعد ذلك بمدة طويلة. لم يكن شيركوه يؤمن أبدا بالسلطة الموروثة.

كنت ممتنا له، رغم أنني في ذلك الوقت كنت أشعر بأنني مثل شخص لا يعرف السباحة ألقي به في نهر، عليه أن يتعلم السباحة ويصل إلى الشاطئ الآخر. أنت تعتقد أن الأمراء والجنود سوف يحترمونك لأنك ابن السلطان. لعلهم يريدونك أن تظن ذلك. إن فعلت ستكون حماقة منك. بمجرد أن تحارب إلى جوارهم وتأكل الرمل وتذوق الدم سوف ينظرون إليك كندٍ لهم، وبعد أن تكون قد حاربت معهم عدة مرات.. سيبدأ احترامهم لك. الحق في إعطاء الأوامر لا يكسب صاحبه الاحترام.

عماد الدين والفاضل علّماك وأدّباك جيدا، وأنا أعرف أنك ملمٌ بتاريخ كل الحروب الكبيرة التي خضناها منذ أيام نبينا عليه الصلاة والسلام. إلا أن المعرفة رغم أهميتها، لن تسعفك في ساحة القتال. في الحرب، التجربة خير مُعلّم.

ما تتعلّمه من الكتب تنساه بسهولة. إلا إذا كان الله قد أنعم عليك بذاكرة عماد الدين. ما تمارسه بنفسك يبقى معك حتى آخر العمر.

لقد استدعيتك لأنه نما إلى علمي أنك، قبل أسابيع قليلة تحدّيت سلطة تقي الدين، ابن أخي وابن عمك أمام الأمراء، وأمرته بأن ينفّذ تعليمات مناقضة لما كان قد قرّره. لو كنّا في مكانه، أنا أو عمي شيركوه، لكنّا قد صككناك على وجهك هذا ذي اللحية المشذّبة. من حسن الحظ أن أوامرك لم تؤدّ إلى كارثة وإلا لكان عليَّ أن أعاقبك علنا.

أريد أن أوضّح نقطة معينة. تقي الدين هو ذراعي اليمنى. أثق في أحكامه. أثق فيه بحياتي. إذا قضى الله، في خضم المعركة، بموتي فإن تقي الدين هو الأمير الوحيد الذي يحترمه الجنود بحق. وهو الذي يمكن أن يقود جنودنا إلى النصر. لقد تركت أوامر بذلك. تستطيع أن تتعلّم الكثير إذا لاحظت ابن عمك ولزمت جواره، ولكن هذا قرارك وحدك. أريدك أن تذهب إليه صباح الغد وتعتذر عما فعلت وتقبّل وجنتيه. واضح؟ والآن، انصرف إلى فراشك".

بدا وريث السلطان في حالة توتر شديد وهو ينحني لكلينا ويغادر الخيمة.

"هل تعتقد أنني كنت خشنا معه أكثر من اللازم يا ابن يعقوب؟"

"حيث إنه ليس لي ابن يا سيدي السلطان، فلست بالشخص الذي يمكنه التعليق على العلاقة بين أب وابنه. ولكن كقائد للرجال، فإن كل ما قلته له ما يبرره. لقد جُرح ولكن بسبب وجودي في الأساس. كان يمكن أن يستقبل ذلك على نحو أفضل لو لم أكن حاضرا. ولكن الأمير الصغير الطامح إذا أراد أن يكون حاكما جيدا، لا بدَّ أن يتعلّم كيف يشق طريقه في هذا العالم القاسي".

"لم أكن أستطيع أن أكون أفضل من ذلك أيها الكاتب. أردت أن تكون حاضرا كي تسجّل ذلك ويظل جزءًا من تاريخ أسرتنا. إذا أصبح سلطانا جيّدًا فسوف يقدّر قيمة تلك الكلمات، لأنه قد يحتاج إليها في تربية ابنه. أعتقد أنني سوف أمضي الليل أستكشف تفكير ابن سعيد. سوف أرسل في طلب ذلك المتشكك الحلبي ليدفئ سريري ويشحذ فكري".

نظرتُ إليه مدهوشا. يشع من عينيه بريق. ولكن كيف ستستقبل جميلة خبر هذا الاستكشاف المنتظر؟ لم تكن قد شاركت السلطان سريره منذ سنوات. أما النظرة التي كانت على وجهه، فكانت توحي بأن ذلك هو ما كان يدور في عقله.

(27)

• قصة الخصي أمجد، وكيف يستطيع أن يجامع على الرغم من عجزه

عشترا، الموجودة على مسيرة ثلاثة أيام جنوبي دمشق، تقع على هضبة تتوج تلا كبيرا. مرّت علينا هنا ثلاثة أشهر تقريبا. بدا السلطان سعيدًا بالتقدّم الذي يحرزه الجنود. ورغم وجود فروق بين الوحدات التي تجمّعت تحت إمرته، أحس أنهم يفهمون الآن كيف يريد أن تكون الحرب. استغرق شرح الفرق بين الإشارات والأصوات المختلفة وقتا طويلا. عينت كل وحدة عضوا يراقب خيمة السلطان. كانت القدرة على فهم ما يعنيه تبديل البيارق مسألة حياة أو موت بالنسبة للقوات الموجودة على مسافات بعيدة. كذلك الفهم الصحيح لدقّات الطبول بالنسبة للجنود القريبين من السلطان. كل ذلك تطلّب وقتا لشرحه لأمراء ونبلاء الوحدات والسرايا المختلفة في جيوش صلاح الدين.

ذات يوم، تناول السلطان فطوره بعد صلاة الفجر في خيمته مع تقي الدين في حضوري أنا فقط. نظر إلى عيني ابن أخيه وهو يضحك وقال "الغبار الذي ستثيره مسيرة جيشي إلى القدس سوف يحجب الشمس".

تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها متحفزًا يترقب الحرب. لقد وطد نفسه في تلك اللحظة على الصراع، ليس لأن القوة العسكرية في صالحه، وإنما لأسباب خاصة بالدولة. وراءه أكبر جيش متّحد من المؤمنين تم حشده لهزيمة الكفار. كان هناك يهود ومسيحيون كذلك وإن كان عددهم ليس كبيرا. ينتظر أغلبهم اللحظة المناسبة كي يتحوّلوا إلى الإسلام. فإيمان القبط القوي وعداؤهم الشديد لروما والقسطنطينية خلق منهم حلفاء طبيعيين لصلاح الدين.

كنت خارجا من خيمة السلطان، عندما أمسك بي الخصي أمجد من ذراعي وهمس: "ابن سعيد الأبكم يرغب في حضورك".

تبعته دون كلمة، لم أكن قد تعوّدت على هوية جميلة الجديدة. عندما لمعت عيناها فقط تعرفت على المرأة خلف القناع. كذلك صوتها الأنثوي الذي تطلقه في خيمتها فحسب.

"صلاح الدين قال لي إنه صدمك، عندما اعترف لك برغبته فيّ قبل ليالٍ قليلة. صحيح؟"

لم أكن قد اعتدت طباع تلك المرأة. لقد فاجأتني. ضحك الخصي أمجد لارتباكي. كيف بحق السماء يجب عليَّ أن أجيب؟

"أريد الحقيقة يا ابن يعقوب! قل الحقيقة!".

"لم يصدمني إعلان السلطان رغبته في أن تشاركيه فراشه ثانية. ذلك أمر طبيعي بالنسبة له، أنت جميلة جدا و ...".

أصبحت نافدة الصبر.

"وأنا المرأة الوحيدة في المعسكر. نعم! نعم! أعرف ذلك، ولكن ما الذي صدمك أيها الكاتب؟"

"فكرة أن ذلك يمكن أن يكون إهانة لكِ إذا أُضطررت للاستسلام لرغبات رجل".

ضحكت وراحت تمسّد اللحية المستعارة.

"ذلك ما شعرت به فعلًا، ومن النبل أن تشعر بالصدمة لورطتي. وكما ترى، فإنني نجوت من التجربة. أنا معتادة على سلطانك، لا يمكن أن أسلّم جسدي لأي رجل آخر، ولا لخصي!".

جفل الخصي أمجد كمن مسّته نار. بدا عليه الاستياء لتعليقها، وبعد أن لاحظت ذلك راحت تمسّد رأسه وتهمس معتذرة واضعة إياه فورا في حال دفاع عن النفس.

"محاولة إقناع أمجد بالحديث عن ماضيه أشبه بخلع ضرس من فم تمساح".

ابتسم الخصي سعيدا باهتمامها. واصلت هي الضغط عليه.

"من يدري من منا سيعيش ومن منا سيموت خلال الأسابيع القليلة القادمة؟ اليوم، لابد أن تروي لنا قصتك يا أمجد. لدينا ميزة أن الكاتب حاضر. سيسجّلها ابن يعقوب كلها في كتابه الصغير، وسوف تُخلد للمستقبل. ما قولك يا صديقي ذا الشعر الأحمر؟"

لاحظت لأول مرة ملامح أمجد! حمرة شعره يظهرها بياض بشرته. العينان رماديتان. كان أطول مني بكثير، وأنا أطول من السلطان. لم أكن معجبا به كشخص، ولكن قربه من شادي وجميلة كان يعكس عواطفي نحوه. كذلك أنا كنت أروق له.

قلت: "أمجد.. لقد كان شادي يتحدث عنك معي كثيرا. كان يقدّر ذكاءك، وعلى الرغم من ذلك فنحن لا نعرف الكثير عن بعضنا. من أنت؟ متى جئت إلى دمشق وكيف انتهى بك الأمر إلى القلعة خادما للسلطان؟"

بدا الحزن في عينيه، وتنهّد قبل أن يتكلّم بصوته الناعم المتدفق.

"سبب مقاومتي أوامر السلطانة بالكلام عن نفسي، هو أنني لا أعرف سوى القليل جدا عن ماضيّ. أنا صقلبي، وهذا واضح جدًا من مظهري. خصي، وهذا ما يحطّ من شأني إلى مستوى حيوان في قفص.

وكما تعرفان، فإن أمثالي يأتون بأشكال وأحجام مختلفة. هناك خصيان تكون قضبانهم مخصيّة بالكامل. هذه النوعية شائعة بين الملوك والسلاطين الذين يراقبون نساءهم مثل النمور، جاهزين للانقضاض عليهن عند أول بادرة للخيانة. يتخيّلون أن الخصي الذي أُزيل عضوه بالكامل يغدو مؤتمنا تماما! أمر غريب أن تكون درجة الثقة عند بعض الأمراء والنبلاء تعتمد على درجة بتر عضو الخصي! إذا كانوا بالفعل يريدون تلافي كل الاتصال الجسدي بين خصي وامرأة، سيكون عليهم إزالة ما هو أكثر من ذلك القضيب المسكين. أصابع اليد، أصابع القدم، اللسان الرائع، كل ذلك سيكون عليهم إزالته. ولكنني أقلعت من زمن عن دراسة تناقضات الأمراء والسلاطين.

هناك آخرون مثلي يُخصون ويُباعون للكنائس. يعلموننا الإنشاد في مديح عيسي، وفي وقت الفراغ نشبع الرغبات الجسدية للقساوسة والأساقفة. بالنسبة لي، كان القدر في صالحي، فلم أمر بتلك المحن. تم إخصائي وأنا في الرابعة أو الخامسة واشتراني بعض التجار اليهود في بلاد البلغار، وباعوني في إحدى أسواق الأندلس. وهناك اشتراني تاجر آخر ممن يؤمنون بالله ورسوله، وجاء بي إلى دمشق. ذلك كله عرفته من العائلة التي باعوني لها وأنا في السابعة من عمري.

وكما تعرف الأميرة، فإن ديننا يحظّر خصي الأولاد أو الرجال، ولذا فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها تلبية الطلب على الخصيان بالنسبة للأمراء والسلاطين، هي شراؤهم من الكنائس أو تحريرهم من ظلم القساوسة، بعد أن تكون مدينة ما قد سقطت في أيدي أتباع النبي. حينئذ نصبح مؤمنين ومتحولين إلى طريق الله، لأننا لا نجد معاملة أفضل من ذلك، ولا يسمح لنا بنفوذ وقوة أكثر من ذلك.

السلطانة تفهم جيدا أن الذكاء ليس في عضو الرجل، وإنما في عقله. اعتبار الخصيان عاجزين لمجرد أنهم خصيان، حماقة ما بعدها حماقة، كما اكتشف كثير من الحكام بمن فيهم المرحوم السلطان زنكي.

أعرف على الأقل ثلاث جماعات مختلفة من الخصيان في القلعة وحدها. إنهم أوفياء وموالون للسلطان، إلا أنهم بعد أن يموت سوف يتخذون مواقع مختلفة في الصراع على خلافته. أنا أنتمي إلى عصابة منهم، ولهذا السبب أنا محل ثقة.. ومحل عدم ثقة من الكل. إنه وضع جيد، لأن ذلك يجعلهم يقولون لي ما أريد أن أعرف، ولكنهم يحتفظون بمؤامراتهم سرًا. لو كنت على علم بأي مؤامرة لقتل الأفضل، فلسوف أبلغ الياور دون تردد.

سألتني أيها الحكيم الطبيب ابن يعقوب عن ذكريات طفولتي. للأسف أنا لا أتذكر شيئا عن والديَّ أو متى ولماذا باعوني. ربما كانوا من المزارعين الفقراء، وكانوا في حاجة إلى المال. هناك خصيان كثيرون في دمشق رووا لي قصصا عن كيف تم إخصاؤهم بواسطة آبائهم، وكيف باعوهم إلى تجّار كانوا يعملون نيابة عن بطريرك القسطنطينية.

لا أذكر شيئا عن الرحلة من بلاد البلغار إلى الأندلس، ولا من تلك البلاد إلى دمشق. باعني التاجر الذي اشتراني في الأندلس إلى التاجر دانيال بن يوسف. عاملتني أسرته معاملة طيبة. علّموني القراءة والكتابة كأنني ابنهم. كانوا يكسونني ويطعمونني جيدا. كنت أعرف دائمًا أنني مختلف عن الآخرين في الأسرة لأنني لم أكن أنام في المنزل. كنت أقيم في المسكن المُخصّص للطبّاخ. كان حارا باستمرار وتملؤه رائحة مزعجة تنبعث من جسد وملابس الطباخ. لكنه كان رجلا طيبا لم يسئ معاملتي أو يؤذني، ولذا كنت أغفر له رائحته الكريهة.

عندما كنت في السادسة عشرة. لاحظ السيد أنني أتمتع بقدرات خاصة بالنسبة للأرقام، فاصطحبني للعمل معه. كنت أصحبه كل صباح إلى عمله في السوق حيث كان

يمتلك دكانين. الأول، يبيع أقمشة غالية وسجادًا، ساتان وقصبا من سمرقند، وحريرا من الصين وموسلين وشيلان من الهند وسجادا فارسيا.

أما الدكان الثاني فكان مخصّصًا لبيع السيوف. وهذه أيضا كانت من أحسن الأنواع. قال لي السيد إن أحد السيوف الخاصة بصلاح الدين تم شراؤه من دكانه. رغم أن شادي قال لي فيما بعد إن ذلك ليس صحيحًا. كل أسلحة السلطان تُصنع بالطلب بواسطة صنّاع مَهَرة في مصانع السلاح التي أُنشئت لهذا الغرض في القاهرة ودمشق.

لكن ما لا شكّ فيه أن السلطانة عصمت، عليها رحمة الله، زارت دكان الأقمشة مع حاشيتها ذات يوم. أيام أن كانت متزوّجة من نور الدين العظيم، وليس من سلطاننا. كنت ذلك اليوم في الدكان، وكان انطباعها جيّدًا عن أسلوبي في التعامل مع السيدات اللائي كنّ معها. رفضت المساومة وتمسّكت بالسعر الذي حدّده صاحب الدكان. لم أكن أعرف من أولئك السيدات ولا من أين جئن.

ضحكت السلطانة من وقاحتي. وفي غضون أسبوع أُمرت بأن أنقل إلى القلعة. كانت سعيدة جدًا عندما اكتشفت أنني خصي. أُلْحِقتُ بالحرملك خادم مراسلة خاصًا بها مع العالم الخارجي. بعد وفاة نور الدين تزوّجت من سلطاننا، والباقي أنتما تعرفانه. من أسف أن حياتي ليس فيها الكثير من الأحداث".

الآن، أستطيع أن أفهم لماذا كانت قيمة أمجد كبيرة عند من يقدّرون حذره وشدّة تكتّمه. يعرف الكثير من أسرار الحياة الخفيّة في القلعة، ولكنه يرفض البوح بها. ربما كان وجودي هو الذي منعه من ذلك. ربما لم يكن يريد أن يتكلم على نحو أخرق في وجود جميلة، لأنها قد تعتقد أنه ما دام يتكلم عن الآخرين أمامها، فإنه يمكن أن يتكلم عنها بالمثل أمام الآخرين، وبالتالي تضيع الثقة.

في اليوم نفسه، بعد العشاء، قاومت كل محاولات إغرائي بالمشاركة في الألعاب المختلفة التي يُسلّي الجنود بها أنفسهم. لم أكن في حالة تسمح لي بمشاركة الآخرين. بدأت تتزاحم في عقلي أفكار مروعة. عدت إلى خيمتي وبدأت أتأمل المرحلة التي وصلت إليها حياتي. هل يمكن أن تنتهي فجأة، وقبل الأوان، في الأسابيع والأشهر القادمة؟

أصبحت الخيمة سجنًا. قررت أن أمشي في الليل، متلهّفا إلى أن أُفرغ رأسي مما به من هواجس وأفكار قلقة، لعلي أستعيد هدوئي الداخلي باستنشاق هواء الليل البارد

ومراقبة حركة النجوم.

جلستُ على رابية صغيرة أفكر في راشيل، عندما شعرت بيد تربت كتفي. كنت أعتقد أن لا أحد هنا سواي، فهزت جسدي موجة من الخوف الشديد. في أوقات كهذه، قد يفكر المرء بجواسيس من الفرنج.. لكن الصوت بدا مألوفا.

"خالص اعتذاري لأنني أخفتك يا ابن يعقوب. أنا كذلك وجدت المعسكر خانقا هذه الليلة فقررت أن ألحق بك هنا. كان لا بدّ من أن أعلمك بمجيئي مسبقا، إلا أنني شعرت بأنك ربما كنت تريد الانفراد بنفسك لبعض الوقت".

كان ذلك هو أمجد. حلّ الارتياح محل الغضب الذي شعرت به لأنه تبعني على هذا النحو الماكر. لقد فعل ذلك عن عمد.

"لديَّ شعور بأنك لم تصدّق قصة حياتي التي رويتها لكما، أنت والسلطانة هذا الصباح".

أكّدت له العكس، إذ لم يكن هناك ما يجعلني أشك في صدقه. امتعضت، ليس إلا، لأنني شعرت بالسليقة أنه يعرف أكثر مما قال. شعرت جميلة بذلك أكثر مني، وضايقها ما وصفته برفض أمجد أن يكون له موقف من أي قضية. ابتسم الخصي عندما أبلغته بضيقها.

"أنا أعرف سبب غضبها. كنت أقول لها كل شيء في الماضي. ما يهمها هي والسيدة حليمة هو عدم قدرتي على الاستمتاع بمباهج غرفة النوم.

ذات يوم، أصرّتا بعد تساؤلات كثيرة على أن أعرّي لهما ما تبقّى من أعضائي الجنسية كي يتفحّصاها عن كثب. ترددت، ولكن ضغطهما أصبح من الصعب مقاومته، فرضخت لطلبهما أخيرا. لم يستغرق تفحّصهما وقتا طويلا، ولكنهما استغلتا ما حدث لابتزازي. إن لم أنقل لهما كل ما تفعله بقية النساء في الحرملك، ستقولان للسلطان إنني كشفت لهما عن بقايا قضيبي. بذلك هددت حليمة. أبصرت حليمة الخوف على وجهي فسارعت لتهدئة خاطري قائلة: كنت أمزح. وطلبت أن أنسى كل ما حدث.

على الرغم من ذلك، كانت حليمة تسألني باستمرار عن النساء الأخريات. وكان عليَّ أن أوافيها بالغريب من المعلومات. وكثيرًا ما كنت أخترع بعض الأشياء لتسليتها. كل شيء كان على ما يرام عندما كانت حليمة وجميلة صديقتين. بدأت المتاعب الشديدة

عندما تعكرت علاقتهما. أبلغت حليمة بعض صاحباتها الجدد بما قلته عنهن. وذات مساء جاءت خمسة منهن، تراقبهن حليمة التي حرضتهن في الأساس، وأحطن بي وبدأن يجلدنني على ظهري العاري. ما زلت إلى اليوم أحمل أثار ذلك الإذلال.

شخصان ساعداني إلى حد كبير بعد عملية التعذيب تلك. عندما أخبرت شادي بما حدث غضب بشدة وأراد أن يخبر السلطان. اصطعنت جميع الحيل كي أثنيه عن عزمه. ولكنه بعث برسالة إلى حليمة يحذّرها بأنها إذا واصلت هذا الأسلوب فسوف تقضي بقية أيامها في كوخ صغير في إحدى القرى النائية.

صُدِمت جميلة أيضا، واستأت جدًا. أصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين حميمين. وأقسمت بالله، في حضورها، ألا أحكي حكايات مرة أخرى.

حتى أسابيع قليلة مضت، كانت جميلة تساعدني على الوفاء بهذا القسم، ثم فجأة ذات مساء ودون سابق إنذار بدأت تسألني عن حليمة. بقيت صامتا وأنا أهز رأسي. ضايقها صمتي ولم نتكلم معا حتى صباح اليوم. لعلّها ظنت أن عقدة لساني سوف تحل في حضورك. أنا أعرف ما ترغب في معرفته وأفهم دوافعها ولكنني أقسمت أمام الله، فلم يكن أمامي من بديل سوى أن أخذلها".

تلك الليلة فهمت كيف سحر صوت ذلك الخصي الناعم شادي وجميلة عندما استمعت إليه تحت ضوء النجوم. الآن، وقعت في أسره أنا كذلك. أثارت إيماءاته المغوية إلى حليمة اهتمامي. تُرى ماذا يعرف؟ ماذا عرف؟

"أنا منزعج جدا لقصتك يا أمجد، وأستطيع أن أفهم لماذا كان شادي يريد أن يبلغ صلاح الدين. كان ذلك يمكن أن يضع نهاية للأمر في الحال. إنني أحترم قسمك ألا تحكي شيئًا. وليست لديَّ رغبة بأن تحنث بيمينك. وعلى الرغم من ذلك فإن جميلة أرادت أن تعرف الحقيقة بخصوص حليمة. يقع يمينك على الاختراعات والأكاذيب. أتراني محقا؟"

بقي مدة دون أن يجيب، وفجأة أصبح صمت ليل الصحراء المهيب شديد الوطأة. أوشكت على أن أعيد عليه السؤال، أو أن أطرحه على نحو آخر عندما استأنف الكلام.

"أنت محق كعادتك دائمًا يا ابن يعقوب، ولكن ما كانت جميلة تريد معرفته يتعلّق بشخصي. لو قلت لها كل الحقيقة لقتل ذلك تقديرها لي، وهو ما يعني الكثير. الحقيقة أن

ذلك أعز لديَّ من أي شيء آخر في العالم. الحقيقة المؤسفة هي أنه ذات ليلة وأنا مستغرق في النوم، دخلت حليمة غرفة نومي. خلعت العباءة التي تغطِّي جسدها، واستلقت بجواري وأخذت تمسّد جسدي وتربت ذلك الشيء الذي تفحّصته هي وجميلة من بعيد.

أقسم بالله يا ابن يعقوب أنني بقيت لبعض الوقت متصوّرا أنني أحلم. فقط، عندما اعتلتني وبدأت تتحرك صعودا وهبوطا على تلك النخلة الصغيرة غير المثمرة بين ساقي، أدركت أن ذلك لم يكن حلما. ولكن حينذاك، حتى لو كنت أريد، فإن الوقت كان قد تأخر على المقاومة أو الشكوى. حتى أقوى الشكوك يمكن أن تغرقها اللذة. بعد أن انتهى كل شيء قامت وانصرفت. لم نتبادل كلمة واحدة. أحسست كأنني حيوان. ربما تكون قد شعرت بما انتابني من قرف.. وربما لا.

جاءت عدة مرات وكنا نتضاجع في صمت. كل شيء كان ينتهي كما بدأ. بعد ذلك كنا نغضّ أبصارنا عندما نرى بعضنا. ثم تجنّبتني. وكما سمعت بعد ذلك تحدّثت عني بكل سوء أمام صديقاتها الجدد. إحداهن، ممن تشاجرن معها فيما بعد، قالت لي إن حليمة اعترفت لهن بأن ركوبها لي كان الوسيلة الوحيدة كي تتخلّص من شبح جميلة الذي يطاردها في كل مكان.

لا شيء يبقى سرًّا في الحرملك. أنا واثق من أنها كانت مراقبة. وأن ألسنة السوء كانت تبلغ جميلة. ومن ثم كانت تريد تأكيدا أو نفيا على لساني. وهذا أمر طبيعي. لم أستطع أن ألبي طلبها يا ابن يعقوب. سيجرحها ذلك ويهين صداقتنا. بالنسبة لي، فإن مساءً واحدا أمضيه في حوار مع جميلة يفضُل كل لياليَّ مع حليمة. لا مجال للمقارنة حتى بين البهجتين. عقل جميلة له فعل الشراب المُسكِر.

عندما تضحك، تشرق الشمس في صدري. إنها حبي الحقيقي وأنا على استعداد للتضحية بحياتي بإشارة منها. الآن.. قد عرفت كل شيء.. سري الآثم خرج أخيرا".

أذهلني اعتراف أمجد. لقد نجح خصي فيما فشلت فيه. رحت أحدّق في النجوم صامتا متمنيا أن تسقط السماء!

ليت الذكريات تموت وتندفن!

تلك الليلة استيقظت على حلم، امرأة، على وجهها نظرة خبيثة تشوّهه، تُخصيني.

إنها حليمة!

(28)

• عندما علمنا بوجود انقسامات في صفوف الفرنج

أبلغ اثنان من جواسيسنا داخل معسكر الفرنج، وهما من التجار الأقباط، تقي الدين بالتطوّرات داخل مملكة أورشليم. تمزّقت المملكة إثر قتال ضار بين اثنين من أهم فرسان الملك جي. نصح الكونت ريموند صاحب طرابلس الملك بالحذر واتخاذ وضع الدفاع. الأمر الذي يعني أن يبقى في أورشليم ولا يتقدم حتى لا يقع في الفخ الذي أعدّه له صلاح الدين. أما الملك فكان أكثر ميلا إلى وجهة نظر رينولد صاحب شاتيو. كان ذلك الفارس دمويا، ويشك في إخلاص الكونت ريموند ويتهمه بأنه صديق لصلاح الدين، وأنه مسيحي زائف. ظن رينولد أن ميزان القوة في صالح الفرنج، وأن فرسانهم وجنود مشاتهم يستطيعون إحباط مناورات جيوش السلطان، بالالتفاف عليها وتطويقها.

أوشك الرجلان، في مرحلة معينة، أن يتقاتلا. كان يمكن أن يشتبكا لو لم يمسك الملك بصليب خشبي ويقف بنفسه بينهما كي يحول دون ذلك. ثم أجبر الرجلين على القسم بالتوقف عن الشجار، وأن يقاتلا جنبا إلى جنب كي يهزما العرب الكفار.

استجوب تقي الدين الجاسوسين بالتفصيل. سألهما عن عدد جيش جي بدقة، وكمية المؤن التي يحتاجون إليها للبقاء خارج المدينة، وأسماء الرجال الذين سيقودون فرسان الهيكل والاسبتارية[(5)]، والوقت الذي سنستغرقه كي نحصل على معلومات عن أماكن جيش الفرنج، في حال بلغت بهم الحماقة أن يتركوا المدينة المقدسة ويخرجوا لملاقاة السلطان على أرضه. نظر التاجران إلى بعضهما وهما يضحكان، ثم تكلم كبيرهما.

"ينبغي ألا يقلق الأمير لذلك. إن أخي هو المسئول عن تأمين المؤن التي يحتاجها جي ورينولد. سوف يخبرنا بمجرد أن تكون لديه المعلومات اللازمة. تلك مهمة الحمام

الزاجل".

ابتسم تقي الدين.

"إن عمي يمتدحني دائمًا لحسن حكمي على البشر، لم تزوّداني بمعلومات كاذبة أبدا، ولا خيبتما أملي، ولذا ستكون مكافاة السلطان لكما سخية. خيمتكما جاهزة. لقد قطعتما رحلة طويلة. اِخلدا للراحة لتستعيدا نشاطكما إلى أن يحين موعد العشاء".

جاءت الأخبار التي كنا ننتظرها بعد يومين. فاز رينولد صاحب شاتيو بالسيطرة على أُذُن جي. يستعد الفرنج الآن للخروج من المدينة المقدسة كي يقاتلونا على أرضنا. أضاء وجه السلطان عندما سمع الأخبار. لكنه أصر على توثيق المعلومة. علينا أن ننتظر يوما آخر قبل أن يأتينا تأكيد من مصدر آخر. حينذاك فقط، قرر صلاح الدين أن يستعرض قواته كلها صباح اليوم التالي عند تل تاصل على الطريق الرئيسي إلى وادي نهر الأردن، على بعد ستة أميال شمال عشترا.

"أريد أن أقف على ربوة وأرى الجيش كله يا ابن يعقوب، الفجل ينبت مثل الرجال بأشكال وأحجام مختلفة. هكذا كان صديقنا شادي يقول دائمًا. بصرف النظر عن السرايا الخاصة بي، معظم أولئك الرجال جُدد. فجلات جاءت من حقول لم أحرثها بنفسي. دعنا نرى كيف هم من رجالنا".

انتشرت في المعسكر أخبار خروج الفرنج من المدينة المقدسة لملاقاتنا في ظرف نصف الساعة. أخبار من هذا النوع لا تبقى سرًا لمدة طويلة. وأحدث ذلك تغيّرًا كبيرًا في معنويات الرجال. فإذا كانوا حتى الآن في حالة استرخاء وثقة بالنفس. فإن شعورهم بالإقبال على قتال حقيقي خلال أيام قليلة وتَّرهم وحرّك انفعالات.. ربما مخيفة.

يعلم السلطان جيدا أن المعنويات المتقلبة يمكن أن توهن حماسة أفضل الجيوش عشيّة المعركة. أمر بتفكيك المعسكر. لم يسبق أن رأيته كذلك. كنت تراه في كل مكان في الوقت نفسه. في لحظة أراه مع أمرائه يندفعون للتفتيش على المؤن وينبهون المسئولين عنها. رأيت عباءتهم ترفرف في الهواء من على بُعد كأنهم غِربان عملاقة. أعطوا الأوامر لتجهيز الجمال والبغال وعربات المؤن، وأن ترفع أوتاد الخيام هذه الليلة وأن يتم طي الخيام وحزمها مع انبلاج الفجر. بعد لحظة، ولدهشتي، تسلّق السلطان بنفسه بُرجا بُني حديثا كي يختبر متانته. انزعجت من هذه المخاطرة التي لا لزوم لها. ولكن الأفضل الصغير، الذي كان يقف بجانبي يراقب والده، هدّأني.

"اعتدنا أن نراه كذلك قبل أي معركة. يُصمّم على المخاطرة. يقول إن ذلك يزيد ثقة الرجال. إذا كان السلطان مستعدًا للموت، فما بالك بالجنود".

"وهل سيتركك تخاطر بحياتك يا أميري الصغير؟"

تغيّر لون الوجه ذي اللحية المشذبة.

"لا! يقول إنني لا بدَّ من أن أبقى على قيد الحياة إذا سقط. لذا فإن مهمتي في المعركة هي نقل أوامره، وأن أقف بجوار خيمته ورايته في كل الأوقات. ذهبت إلى ابن عمي تقي الدين، وطلبت أن أحارب معه. ولكنه أيضا، كانت له أوامره. هذا ليس عدلا. حاربت بالفعل في معركتين. لكن معركة كهذه هي الأهم".

"صبرًا يا ابن يوسف! سيأتي وقتك. أنت أيضا ستعيش من دون محن. ستحكم وتقضي وتربّي أبناءك كما رُبيت. السلطان يتصرّف لصالحك. يجب حماية النبتة من الرياح الحارة كي تنمو وتثمر".

فجأة، أصبح وريث السلطنة حادا.

"من فضلك يا ابن يعقوب! لا تحاول أن تكون مثل شادي. كان هناك شادي واحد".

بتلك الكلمات المتعجرفة انصرف الشاب وتركني لشأني ولكن ليس لمدة طويلة. جاء الخصي أمجد بوجه مكفهر على غير عادته ليهمس في أذني بأن ابن سعيد الأبكم ينتظرني كي أذهب إليه. نبّهني أمجد ونحن نسير نحو خيمتها، إلى أن السلطانة في حالة نفسية سيئة، وأنه سوف يتركني وحدي معها، وسرعان ما اتضحت أسباب ذلك.

"أصدر صلاح الدين أوامره بعدم السماح لي بأن أكون مع مسيرة الجيش. يقول إن الخطر عظيم، وإنه لا مبرر لوجودي. شرحت له بكل هدوء وصبر أنه يتكلم مثل رجل له في رأسه فتحة شرج جمل وليس عقلا. ضايقه ذلك كثيرا فدفعني جانبا. وصل به الأمر إلى إعطاء أمجد تعليمات بأن يرتّب عودتي إلى دمشق. ولذا بينما ستكونون كلكم في طريقكم إلى القدس، يتجه الخصيان وامرأة واحدة إلى دمشق. أنبّهك مقدما يا ابن يعقوب.. لن أطيعه هذه المرة.

أمجد الأحمق المسكين خائف جدا. لا يجرؤ على مخالفة صلاح الدين. قلت له إنني أستطيع أن أدبّر نفسي. أنا أركب الخيل أحسن من معظمكم، وإنني قد أصبت العلامة

بالسهم. ما رأيك؟"

بدت غاضبة جدا. أما أنا فاتبعت نصيحة ابن ميمون في مثل هذه الظروف وقدّمت لها بعض الماء. رشفت ببطء من كوب هدأها قليلا.

"إنني أشعر بالتشريف والتكريم يا سيدتي السلطانة أن أكون صديقك، ولكنني أرجوك ألا تعترضي إرادة السلطان في مناسبة كهذه. إن لديه الكثير الذي ينبغي أن يفكر فيه دون أن يكون قلقا على سلامتك. أعرف أنه ليس من طبيعتك أن تتقبلي الأوامر هكذا على نحو أعمى. أول رد فعل دائمًا هو معارضة أوامره، إلا أنني أعرف مدى حبه لك وكيف أنه يقدر نصيحتك دائمًا. لقد سمعته يقول كثيرا إنكِ، لا هو، الأرجح عقلًا. فلترضه هذه المرة".

ابتسمت.

"ماكر كعادتك. هذا بوح، مستعدة لقبول نصيحتك شريطة أن تجيبني عن سؤال واحد بأمانة، فهل نعقد صفقة؟"

أذهلني هذا الطلب، ودون تفكير أومأت برأسي موافقا.

"عندما سار معك أمجد ليلاً في الصحراء قبل أيام، هل قال لك كم مرة استسلم لمضاجعة حليمة؟"

هكذا استُدرجت إلى فخ كبير، فاجأتني، ولم تكن في حاجة إلى أن أنطق بكلمة واحدة. باحت ملامحي، التي ملأتها الحيرة، بكل ما كانت تريد أن تعرف.

صرخت: "أمجد، تعال أيها الداعر المقرف، كان لا بدّ أن يستأصلوه كله.. تعال!".

تصوّرت أن تلك لحظة مناسبة كي أنسلّ خارجًا من خيمتها، دون أن تلاحظ.

... ...

في الصباح التالي، وعلى ضوء وردي، لون فجر الصحراء، انطلقنا على خيولنا إلى تل تاصل. بدت معنويات الجنود مرتفعة. ولكن الحماسة الزائدة كشفت عما يشعر به بعض الأمراء من توتر. لم نستغرق وقتا طويلا كي نصل إلى التل. كان صلاح الدين عادة يستعرض جيشه وهو واقف على رابية، أو من فوق ظهر حصان. هذه المرة

خرج عن ذلك التقليد. أعطى أوامره لجنود المشاة أن يدفعوا ببرج إلى حيث يقف. دعاني للصعود معه، ولكن ما رآه على وجهي أضحكه، فتراجع عن دعوته. أخذ الأفضل معه بدلا مني. وقفت أسفل ذلك البناء الخشبي الضخم الذي يُستخدم لتسلق أسوار قلاع العدو.

بمجرد أن اتخذ موضعه رفع ذراعه، أطلق نافخو الأبواق نداءهم وبدأت دقات الطبول والمراسم، ثم تقدّم تقي الدين وكوكبري تسبقهما الرايات السوداء للخلفاء العباسيين وعلم السلطان. بدت الجدية على وجهيهما وهما يرتديان دروعهما رافعين السيوف وهما على رأس القوات التي تمر أمام البرج. بدا المشهد جليلا. العشرة آلاف فارس يتبعهم رماة السهام على جِمال، وخلفهم صف طويل من جنود المشاة.

حتى المقاتلين الأكراد استطاعوا أن يكبحوا جماح طباعهم غير المنضبطة. مرّوا أمام السلطان في تشكيل نموذجي. استمر العرض أكثر من الساعة، وتجمّع الغبار كسحابة كثيفة. بدا صلاح الدين سعيدا وهو يهبط من البرج. هذه المرة، كان شديد التأثر لِمَا رأى. من الواضح أن التجربة قد بدّدت حرصه المعتاد.

"بهذا الجيش، أستطيع أن أهزم أي أحد مهما كان، بإذن الله. في غضون شهر واحد سوف يمتلئ مرة أخرى معبدكم ومسجدنا الموجود في المدينة التي تدعونها أورشليم. وستبقى القدس لنا دائمًا. لا شكّ لديَّ في ذلك".

ذلك اليوم نفسه، يوم الجمعة، اليوم الذي يفضّله السلطان دائمًا كي يبدأ الجهاد، تقدّمنا نحو بحيرة الجليل. وصلنا إلى الإخوانة بعد الغروب مباشرة، وهناك عسكرنا لقضاء الليلة.

(29)

• عشيّة المعركة

تلقى السلطان معلومات من جنود استطلاعه المهرة تفيد أن الفرنج يحشدون فرسانهم وجنودهم عند صفورية. بعض الأمراء أرادوا أن يستدرجوهم أبعد قليلا، ولكن صلاح الدين رفض.

"دعوهم حيث هم الآن. ستعبرون النهر وتنتظرونهم على التلال بالقرب من كفر السبت. سيأتون ركضا عندما أستولي على طبرية. ولسوف يشتعلون غضبا. والغضب يمكن أن يكون مهلكا في تلك البقعة. بمجرد أن تتلقوا الأخبار بأن الله قد منَّ علينا بالنصر المؤزر، تتحركون عبر تلك المنطقة تاركين حراسة عند كل بئر وجدول ونهر. بعد ذلك تنتظرون ورماحكم مُشرعة مثل مخالب الأسد. تقي الدين سيأتي معي، أما كوكبري فسيقوم بقيادة الجيش هنا. تذكروا أن أراضي الفرنج مغطاة بالغابات. اقتربت وقدة الشمس. سوف يذيقهم الله عذاب حريقها. دعوهم يتحمّصون في دروعهم إلى أن يحرقهم ملمسها".

لم يستطع الأمراء إخفاء إعجابهم. تنهدوا ابتهاجا ولهجت ألسنتهم بالمدح.

"من يضع أمله فيك لا يخيب له رجاء. أنت الوحيد الذي يحمي رعاياه من الفرنج، لقد وضعنا فيك..."

أسكتهم السلطان بإشارة غاضبة من يده.

سرعان ما انتشر الخبر بأن السلطان قرر الاستيلاء على طبرية، المدينة التي أطلق عليها الرومان تيبير ياس. كثيرون هم الذين تطوّعوا للاستيلاء على ذلك الحصن

الفرنجي. كان صلاح الدين قد تخلّى عنها، بموقعها على الحافة الجنوبية لبحيرة الجليل، بموجب الهدنة التي أبرمها صلاح الدين مع ريموند كونت طرابلس. الآن انضم ريموند إلى قوات الفرنج في صفورية، وأصبح من حقنا الاستيلاء على البلدة.

كان تلهف الناس على القتال يدفعه الأمل في انتصار سريع، أكثر مما كان يدفعه الحرص على القضية الأعظم وهي الدفاع عن الحق والرغبة في سحق الكفار وتقوية المؤمنين. كان أملهم قبل كل شيء، أن يجنوا بعض ثروات تلك الدنيا الفانية. لم يكن صلاح الدين يقبل متطوعين. إنما يختار جنودا مدربين.

"إنهم الوقود الذي يشعل نيران إيماننا، وبهم سوف أفاجئ طبرية".

وبينا كان صلاح الدين في طريقه للاستيلاء على القلعة الرومانية القديمة، كان كوكبري يعبر النهر. وبعد ساعات قليلة، نصب معسكره على بعد عشرة أميال شرقي معسكر الفرنج على هضبة صغيرة جنوبي قرية تدعى حطين. ضايقني جدا أن يأمرني السلطان بالبقاء مع الجيش الرئيسي. لعله لم يكن يريد أي أعباء إضافية، وفضّل أن تكون قوته الضاربة مقصورة على المقاتلين المتمرّسين. منطق مقبول وإن لم يخفف من خيبة أملي.

اتخذ قرار إقامة المعسكر هنا، قبل يومين على أثر تقارير من استطلاعنا المُدرّب. أشارت التقارير إلى جدولين كبيرين يتدفق منهما ماء بارد عذب، وتحيط بهما بساتين الفاكهة والزيتون. وصلنا إلى هنا والشمس في أوجها. أنهكت الحرارة البشر والحيوانات، وتصبب العرق غزيرا من وجه الأمير كوكبري مختلطا بزبد جواده.

بمجرد وصولنا إلى المكان، خلع كوكبري ثيابه وشرب بعض الماء، قبل أن ينزل إلى الجدول. أغلق عينيه ارتياحًا والماء يغمر جسده. تمنينا أن نفعل فعلته. لكن قائد السلطان المفضل آثر أن نبقى مستعدين. على الرغم من أن السلطان كان يمكن أن يسمح للجيش بمثل ما فعل. بعد مدة طويلة، أو هكذا بدت لي ذلك اليوم، غمر رأسه تحت الماء ثم قام بسرعة وصعد إلى الضفة. قام خادمان بلفّ جسمه بمناشف بيضاء وجففاه من رأسه لقدمه، ثم عاد إلى خيمته التي نُصبت في ظل أشجار البرتقال.

بمجرد أن اختفى عن الأنظار، تعالت صيحات الشعور بالارتياح. لم نكن في حاجة إلى إذن بالاستراحة. اتجه الكل صوب الماء لإطفاء لظى الحلوق الجافة، والرقاد في مجرى الجدول المنساب والاستراحة من عناء الرحلة. كان عدد كبير من الجنود الجُدد

من الشباب الذين لم تصل أعمارهم بعد إلى السادسة عشرة أو السابعة عشرة. وكان في مرحهم الملحوظ وأصوات ضحكهم المختلط بخرير الماء ما يبعث على الاطمئنان.

أما الجنود الأكثر خبرة بحروب الجهاد فتحمّموا في صمت، محتفظين بأفكارهم لأنفسهم، وهم يحاولون دون شك تجنب أفكار كثيرة تتعلق بالمستقبل. لم يكونوا قد بلغوا الثلاثين، ولكنهم كانوا قد شهدوا من الأهوال ما يكفيهم. بعضهم رأى سكان القرى والمدن التعساء، الذين أخرجهم فرسان الفرنج من ديارهم بعد أن دمّروها. لقد خبروا معارك كانت آخر ذكرياتهم عنها رؤية جثث رفاقهم مكدسة فوق بعضها قبل دفنها جماعيا. شاهدوا أصدقاءهم والسهام تمزق أكبادهم. كثيرون فقدوا إخوة وآباء، وآخرون كانوا شهودًا على أبناء يبكون آباءهم وآباء يبكون أبناءهم.

جلست شارد الفكر في ظل بستان زيتون بعد أن تحمّمت وجفّفت نفسي. ابنتي تنتظر طفلا فهل يكون صبيا؟ لا بدّ وأن تكون جميلة الآن في أمان في قلعة دمشق. أتراها مغتاظة من الخصي أمجد؟ وكيف كان عقابها له؟ وكالعادة، شغل شادي فكري. كنت على وشك أن أبدأ معه حوارا متخيلا، عندما سعل بالقرب مني بهدوء أحد الخدم، "سيدي يريدك".

كان صلاح الدين، قبل أن ينفصل عنا قبل ظهر ذلك اليوم، قد أعطى جنوده راحة قصيرة استعدادًا للرحلة. بدا شارد اللب بعد أن شرب ماء، ومضغ بعض التمر بفتور. لاحظت كذلك نظرة حزن في عينيه. قال لي في مناسبات كثيرة سابقة إن الشعور بالوحدة يقبض على روحه بعد موت شادي. وإن ذلك الشعور يظل معه حتى عندما يكون في صحبة رجال يحفزون عقله. وكنت أعرف تلك الحالة.

"ماذا يخبئ القدر لنا يا ابن يعقوب؟ نادرا ما يتحقق النصر في المعارك بفضل تفوّق السلاح والرجال. إنه يتحقق بفضل الدافع، والإيمان بأنك في مهمة لوجه الله. ذلك هو العامل الحاسم. هل تعتقد أن الجنود يدركون أهمية الأسابيع القليلة القادمة؟"

أومأت إيجابًا.

"دعني يا أمير الانتصار أقل لك ما كان يمكن أن يقوله شادي، ذلك الذي أراد دائمًا أن يكون معك في هذا اليوم. كان يعرف أنه آت، ويعرف عمّا تسأل، وكان يمكن أن يكون جوابه هو "أنا أعرف جنودنا، إنهم يفهمون جيدا معنى استعادة القدس. إنهم مستعدّون للموت في سبيل هذه القضية" لقد سمعتهم يتحدثون مع بعضهم بعضًا، ولم

يكن شادي ليريدني أن أغيّر كلمة واحدة".

ابتسم السلطان وأخذ يمسّد لحيته.

"هذا هو انطباعي أيضًا. دعنا نأمل أن يكون إيمانهم بعدالة قضيتنا كافيًا. ولندع ألا تجتمع قسوة القدر وسوء الحظ لمساعدة الكفار. أبلغ كوكبري بأن يتأكد من أن الرجال قد أكلوا جيدا هذه الليلة".

لم تكن هناك حاجة لنقل تلك الرسالة إلى الأمير كوكبري، فهو على خلاف قائده، يحب الأكل. كانت لديه القدرة، أو هكذا يُقال، أن يُحدّد بعد قضمة واحدة أنواع الأعشاب والتوابل المستخدمة في طهي اللحم. وبالفعل صدرت تعليماته للطباخين. وقبل شروق الشمس ملأت رائحة اللحم المطهو أجواء المعسكر لتشحذ شهيّتنا. حتى السلطان، المعروف بنفوره من اللحم، علّق على تلك الرائحة القوية.

أعدّ الطباخون "سكباج" اللحم البقري، وهو عبارة عن يخنة يُحبّها البحارة في الفرات، مزيج من الحلو والحامض مع أعشاب طازجة منقوعة في الخلّ والعسل الأبيض. تأثيرها مُخدر. حتى الأكراد، مع عشقهم للحم المشوي، اعترفوا بأن "السكباج" الذي تناولوه هذه الليلة من "طعام الجنة"!

استيقظنا على قرع الطبول صباح اليوم التالي. زال التعب وبدا الجنود في حالة استرخاء. لم يصرّ كوكبري على صلاة الصبح، مما أحدث شعورًا كبيرًا بالارتياح بين معظم الجنود. أراد أن يلحق بالسلطان في طبرية. رفض انتظار تحميل المؤن وغادر المعسكر مع ألف من الفرسان، وكنتُ من بين مرافقيه.

سرنا قرابة نصف الساعة عندما هبّت عاصفة ترابية شديدة جعلتنا كلنا في حالة توتر شديد. دفع كوكبري باثنين من جنود الاستطلاع لاستكشاف عدد وقوة ورايات الفرسان المقتربين. لو أنهم فرسان فرنج، سيكون علينا أن نقاتل ونبعث رسولا لإبلاغ صلاح الدين. انتظرنا.. ولم يعد الجنديان الكشافة. اشتدت وطأة الغبار من حولنا.

تشاور كوكبري مع ثلاثة من الأمراء، وقسّموا قوّاتنا إلى ثلاث شِعَب. فجأة، سمعنا صيحة "الله أكبر". ابتسم الجميع، والتقطنا أنفاسنا مرة أخرى. كان القادمون أصدقاءنا. بعد ذلك عاد جنديا الاستطلاع ليبلغا الأمير بأن صلاح الدين استولى على طبرية، وأنه عائد في الطريق كي يلحق بنا.

ابتهج كوكبري، ومضينا قدمًا نستقبل فاتح المدينة التي سقطت لتوها. هدأ الغبار. قفز كوكبري من على حصانه واندفع نحو السلطان يقبّل رداءَه. ترجّل صلاح الدين عن حصانه، تأثرا بهذه المبادرة، كي يعانق أميره الصغير بحنو بالغ. وتعالت صيحات وتكبيرات المؤمنين تدوّي في الفضاء المحيط بالرجلين.

"الآن سيعودون ويحاولون استعادة مدينتهم، وسيسلكون أقصر الطرق، الطريق المؤدي من عكا مباشرة عبر سهول حطين. إن الصبر هو الفضيلة التي ينبغي أن نتحلّى بها اليوم. حتى عمي شيركوه، على الرغم من عدم صبره، كان سيوافقني على ذلك لو كان معنا اليوم. دعونا نَعُد إلى المعسكر ونختار مكانا جيدا نستطيع أن نراقب منه جي ومن معه من فرسان الهيكل والاسبتارية".

السماء صافية، والشمس حارقة مثل التنور، والماء تحت سيطرتنا.

(30)

● موقعة حطّين

عرف صلاح الدين أن النبيل ريموند صاحب طرابلس يفكر في خطة دفاعية بديلة. كانت زوجته في قلعة المدينة التي تم الاستيلاء عليها، وكان ريموند يعرف، علاوة على ذلك، أن صلاح الدين، سوف يواجه الفرنج وهم في مواقع قوية حصينة. يعوّل السلطان كثيرا على حماقة وتهوّر قادة الفرنج. كما كان واثقا من أن سوء الظن والحقد على كونت طرابلس من قبل جي ورينولد صاحب شاتيو، سوف يجعلهما يتجاهلان أي خطة قد يفكر فيها ريموند.

في اليوم الثالث من شهر يوليو، وكان يوم جمعة، عاد جنديا الاستطلاع، اللذان كانا يرصدان تحركات الفرنج، إلى المعسكر. بدت عليهما علامات القلق. صاحبهما كوكبري إلى مدخل خيمة السلطان. كان قد خلد للراحة، وكنت أنا أقوم بتعليم أحد حراسه النقلات الأساسية في لعبة الشطرنج. هنا تحت أشجار الليمون، جلسنا كلنا، ننتظر انتهاء مدة راحته.

ارتسمت على وجهي جنديا الاستطلاع خطوط كثيرة من الغبار. وبدا السهد على أعينهما من قلة النوم. أوحى منظرهما بأن الأخبار التي عادا بها مهمة. غير أن تقي الدين كان قد أمرهما مشددًا على أن يتحدثا إلى السلطان مباشرة. وبينا دخل كوكبري خيمته قلت للجنديين إن السلطان يسعده أن تزعجاه بما لديكما من أخبار. خرج صلاح الدين عاري الصدر يلف وسطه بإزار.

همس الجنديان برسالتهما في أذنه. أكدت الرسالة ما توقعه. استخفّ السرور صلاح الدين، وأطلق العنان لمشاعره. فبدا مبتهجًا.

"الله أكبر. لقد تركوا الماء وأصبحوا في قبضة الشيطان. سأتمكن منهم هذه المرة".

نبّهت الأبواق والطبول كلّ من كان في المعسكر، جنودًا وأمراء. كانت السرعة التي استعد بها جيشنا دليلا على الروح المعنوية العالية والانضباط الذي تحقق في أثناء أسابيع التدريب في عشترا. قضى سقوط طبرية على تردد المتشككين. أخذ السلطان، الذي كان يرتدي درعه ويضع عمامته الخضراء على رأسه وسيفه مشحّذ بواسطة خدم يقظين، يعطي أوامره الأخيرة لتقي الدين وكوكبري. انحنى الرجلان وانسحبا بعد أن قبلا وجنتيه.

أخذ رماة السلطان يجوسون بشغف، مثل وحوش ضارية تنتظر الفريسة، على حافة التل. تلهّفهم على القتال جعلهم في حالة من التوتر. لم أستطع أن أتحكم في مشاعري رغم محاولتي أن أظل هادئا. تناولت الطعام في ذلك اليوم مع العلامة عماد الدين. كان منهمكا في الكتابة عن المعركة الوشيكة. بمجرد أن ترك الخيمة ليقضي حاجته قرأت فقرته الافتتاحية ونصها: "كان بحر جيشه الواسع يحيط بالبحيرة. ألقت الخيام الأشبه بالسفن مراسيها، وتدفق الجند موجة تلو موجة. انتشرت سماء أخرى من الغبار تتلألأ فيها السيوف والرماح مثل النجوم". بمثل هذه السيولة يكتب عماد الدين. تنساب الكلمات من قلمه أسرع من الحبر الذي يعطيها شكلها. أحيانًا أتساءل بيني وبين نفسي، لماذا اختارني السلطان -من دونه- كي أدبج كتابه؟

عندما انتصف النهار، رأينا العدو لأول مرة. كانت الشمس منعكسة على دروع فرسان الفرنج الثقيلة، وبريقها يخترق الغبار.

بمجرد أن تقدّموا عند حافة الهضبة، أعطى السلطان الإشارة. أخذ تقي الدين وكوكبري سراياهما في مناورة لتطويق الفرنج. أحاطوا بالعدو كي يقطعوا عن قواته مصدر الماء، ويسدّوا كل الطرق أمام أي محاولة للتقهقر. استمر السلطان متمسّكا بقمة التل.

بقيت على القمة بجوار الأفضل قريبا من خيمة السلطان، بعيدا عن القتال. يتحرّك صلاح الدين لمراقبة المعركة من مواقع مختلفة، يستمع إلى التقارير ثم يعود إلى رايته حيث كنا نقف. عيناه تضيئان كالمصابيح، وفارق القلق ملامح وجهه. أحس بالرضا غير أنه لم يتخلّ عن حذره لحظة واحدة. واتتني الفرصة كي أراه عن كثب ذلك اليوم.

لم يكن القائد صلاح الدين يحب التدخّل في عمل الآخرين. بعد أن خطّط للمعركة

بعناية، وحيث إن أوامره تنفّذ، لم يجد ضرورة للتدخل. يأتي الرسل بالمعلومات طوال اليوم، بوجوههم المغبرة على ظهور الخيل، ويعودون بالأوامر. أحد أهم الانتصارات في حوليات الإسلام يتم في هدوء.

بدا منظر قتلانا وجرحانا من الجنود مؤثرا. أزعجني كثيرا أنه لا السلطان ولا الأمير ولا الجنود أنفسهم يظهرون تعاطفا كبيرا مع من فقدناهم ذلك اليوم. أمر غريب! كيف يكون من الصعب، حتى بعد يوم واحد من المعركة، تذكّر كيف كانت الحياة العادية قبل المعركة بكل آلامها وأحزانها؟

أثلج انهيار وسقوط فرسان الفرنج صدري وغمرني الارتياح. لست شخصا ميّالا للانتقام بطبيعتي، إلا أنني عندما أبصرت لون الرمال يستحيل إلى السواد بدم الفرنج تذكرت ما فعلوه بشعبنا في أورشليم وغيرها من المدن. صليت في صمت داعيا الله أن يعجّل بنصر السلطان، على الرغم من أنه لم يكن في حاجة إلى صلاتي ذلك اليوم. نجحت خطته، وحققت له، رغم عدم إدراكنا ذلك آنذاك، الانتصار في حطّين. على خلاف الفرنج، فقدنا عددا قليلا من الرجال في اليوم الأول. كان يمكن أن نقوم بمطاردتهم وإنهاء المهمة بحلول المساء، ولكن الإشارة التي أعطاها الأفضل من خارج خيمة السلطان تركتهم يتقهقرون. لم تكن أمامهم طريق يسلكونها. كل المخارج مسدودة. كل الآبار تحت سيطرتنا. المؤن التي يعتمد عليها الفرنج حُولت وجهتها، وبعضها بدأ تفريغه بالفعل في معسكرنا.

ظنّ الفرنج أن فرسانهم، كما حدث من قبل، سوف يقومون بالهجوم، ويكسرون الطوق، ويفتحون ثغرة يمر منها جيشهم كله كي يتقهقر. لم يحسنوا تقدير حجم جيشنا، ومن ثم لم يعرفوا استحالة ما يريدون.

تلك الليلة، عندما عسكر الطرفان، لم يكن أيهما يدري أن المعركة انتهت. تشاور السلطان، من جانبنا، قلقا مع الأمراء. كان يريد أسماء المناوشين من كل سرية. أخذ يستعرض ذاكرته بترديد أسماء رماة السهام الذين يريدهم أن يكونوا في مواقعهم غدًا. راقب الرماة جيدا في عشترا وعرف أسماء من يجيدون إصابة الهدف. تسلّموا أربعمائة حِمل من السهام. أشرف السلطان على توزيعها عليهم. ثم أخذ يتحدث إلى راميه المفضل:

"قل لرجالك يا نظام الدين ألا يستسلموا للإغراء ويضيعوا السهام بالتصويب على

فرسان الفرنج، فدروعهم ليست قابلة للاختراق. دعهم يستهدفون الخيول ويصوّبون جيدا كي تسقط. الفارس الفرنجي دون حصانه مثل رامي السهم دون قوس. بمجرد الانتهاء من الخيول، سيأتي تقي الدين وفرساننا مثل موجة عاتية لقتل أولئك الكفار وهم يترنحون على أقدامهم. هل هذا واضح؟"

هتف الرماة الذين كانوا يُرهفون السمع لالتقاط كلمات السلطان.

"لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

"نعم"، تمتم السلطان، "وإن كنت لا أريده أن يستقبل عددا كبيرا منكم في الجنة عاجلا. الحرب لم تنته بعد".

قبل أن يستأنف القتال مرة أخرى، أعطى السلطان تعليمات صارمة لأمرائه تتعلّق ب "ريموند" كونت طرابلس.

"هو رجل طيب. كان صديقا لنا ذات يوم. حتى وإن كان عبدة الأيقونات قد أغروه بقتالنا، إلا أنني لا أضمر له سوءًا. يجب ألا يُقتل. أريده حيّا. إذا استحال ذلك اتركوه يهرب. سنجده فيما بعد".

كان رماة السهام أول من بدأوا القتال من جانبنا، وذلك لاختبار نوايا العدو. السلطان، الذي وقف بين تقي الدين وكوكبري، انتظر برهة قبل أن يأمر جيشه ببدء المعركة. هاجم الفرنج رماة السهام وتكبّدنا بعض الخسائر، ولكن صلاح الدين أعطى الإشارة لجماعة أخرى من المماليك كي ينضموا إلى المناوشين. هذه المرة تراجع فرسان الفرنج. وأخذ عماد الدين، الذي كان برفقتي ذلك اليوم، يضحك.

قال: "الأسود تحولوا إلى قنافذ". ولكن نظرة من صلاح الدين أسكتته. عَلَّمَ شادي صلاح الدين أن الاحتفال بالنصر قبل تحقيقه يجلب سوء الحظ.

أصدر صلاح الدين أوامره لجناحيه بأن يبدآ عملية التطويق، مع تحرّك رماة السهام لاحتلال مواقعهم في الوقت نفسه. والآن، بإشارة منه، أخذت أقواسهم تهتز بقوة وسهامهم تسقط على الفرنج مثل المطر، لتُردي عددا كبيرا من الفرسان من فوق خيولهم. وبإشارة أخرى أُضرمت النيران ليزداد بؤس الفرنج. تصاعدت ألسنة اللهب غير مرئية من شدة الضوء. اندفع الفرسان، الذين أصابهم الرعب، هم وخيولهم جيئة وذهابا. يشعرون بأنهم لا يستطيعون البقاء ساكنين، يريدون أن يفعلوا شيئا إلا أنه لا

شيء هناك، حقيقة، يمكن فعله. بدأت تنبعث في اتجاهنا رائحة اللحم المحترق للإنسان والحيوان. بدا فرسان الفرنج، الذين يعبرون النيران على خيولهم ويقومون بالهجوم في الوديان، في حالة يأس حيث يجدون رماة السلطان في انتظارهم. أخذ بعضهم يسقط إنهاكًا، وبعضهم الآخر يسقط محترقًا. كان السلطان يتلقى الأخبار دون انفعال. مرة واحدة هي التي كلّمني خلالها مباشرة ليقول لي إن بعض الخيول العربية الأصيلة ماتت. الأمر الذي يراه مؤسفا.

سمعت بأذني صرخات جنود الفرنج اليائسة. تحت وطأة العطش وحرارة الشمس المحرقة وحين يلتمسون الماء، يدعون إلههم ثم الله بعد ذلك. مما كان يزعج فرسانهم الذين يتبعون تعاليم فرسان الهيكل والاسبتارية.

رأيت أحد قادتهم، ألا وهو المغامر القذر رينولد صاحب شاتيو الذي كتبت عنه، وعلى وجهه آثار جرح مخيف، تذكرة دائمة بمهارة أحد مقاتلينا المجهولين من حملة السيوف. كان رينولد يمتطي حصانه الأسود المتهالك الذي صهل بغطرسة كغطرسة راكبه. رأيته يجذب لجامه ليوقفه فجأة. بدأ زئير الجنود يخمد. اندفع رسول نحو القائد. نزل رينولد من على حصانه وهمس الرجل بشيء ما في أذنه. لم أره بعد ذلك. فجأة، أخذ الفرنج أمام أعيننا يفقدون تشكيلهم ويبدون بلا هدف أو اتجاه.

تحركوا بغريزتهم نحو بحيرة طبرية، ولكن جنودنا سدّوا عليهم الطريق. سلم مئات من جنود الفرنج أنفسهم للسلطان راكعين أمامه وهم يرددون "الله أكبر". تحولوا على الفور إلى الإسلام، وقدمنا لهم الطعام والماء.

تسلق ألوف من أولئك الجنود قمة تل صغير متخلّين عن ملكهم. رفضوا الأمر بالنزول. بعضهم لقي مصرعه فوق الصخرة بأيدي رماة من جانبهم. وبعضهم وقع أسيرا في أيدينا. بدت هزيمة الفرنج ظاهرة لكل ذي عينين.

تلقى صلاح الدين أخبار هذه الانتصارات بوجه جامد. أخذ يراقب الخيام ذات الصليب الرمزي للفرنج. تلك خيام الملك يحيط بها حرسه الخاص. ثابتة في مكانها منذ بداية المعركة.

بدأ الأفضل الصغير يقفز، بينما كنا نرقب المشهد، وهو يصيح "لقد هزمناهم.. لقد هزمناهم"، ثم صمت فجأة عندما دفع هجوم مفاجئ جنودنا إلى الخلف، مما جعل السلطان يقطب جبينه لأول مرة في أثناء القتال.

"اسكت يا ولد"، قال لابنه "لن نهزمهم إلا إذا سقطت هذه الخيمة".

في اللحظة نفسها التي أشار فيها إلى خيمة الملك جي، رأيناها تسقط. رأينا جنودنا يستولون على "الصليب الحقيقي"، والآن أخذ صلاح الدين يحتضن ابنه ويقبّل جبهته.

"الحمد لله، الآن هزمناهم يا بني".

أمر السلطان بدق طبول النصر، وانطلقت صيحات الفرح من على التلال والسهول حول حطّين. جاء تقي الدين وكوكبري على حصانيهما، وبأيديهم الكثير من رايات الفرنج. ألقوا بها تحت قدمي السلطان، ونزلا من على الخيل، كانت عيونهما ملأى بدموع الفرح والارتياح. قبّلا يدي السلطان الذي رفعهما ليقفا على أقدامهما، وبعد ذلك تحدّث تقي الدين إليه.

"لقد تركت الكونت ريموند يهرب يا أمير الانتصار حسب تعليماتك، على الرغم من أن رماة السهام كانوا جاهزين لإردائه من فوق حصانه".

"أحسنتَ يا تقي الدين".

ثم كان دور كوكبري.

"لقد أسرنا معظم فرسانهم يا أمير الانتصار. ملكهم المدعو جي وشقيقه، وهمفري صاحب تورون، وجوسلين صاحب كورتيناي، ورينولد صاحب شاتيو.. كلهم بين من أسرناهم. وجي يريد أن يتحدّث معك".

بدا السلطان شديد التأثر. أومأ سعيدا بما سمع.

"انصبوا خيمتي في قلب الميدان الرئيسي الذي كسبنا فيه المعركة. صفّوا راياتنا أمام الخيمة. سوف أرى جي وكل من يختار لمرافقته في هذه الخيمة. عماد الدين، أريد حصرا دقيقا لمن فقدناهم ومن جُرح من رجالنا".

أومأ العالم الكبير برأسه بتعقل.

"لن يستغرق الأمر وقتا طويلا يا سيدي السلطان. مقارنة بالفرنج، الذين تملأ رؤوسهم الأرض مثل حقل بطيخ أصابه الوباء، فإن خسائرنا قليلة. فقدنا الأمير أنور الدين. رأيته يسقط عندما هاجمنا الفرنج قبل انهيارهم الأخير مباشرة".

"كان محاربًا ممتازا، أرسلوه إلى دمشق. لن يدفن أحد من رجالنا في حطين، إلا إذا كان من أهل هذه المنطقة".

أكمل عماد الدين كلامه متأمّلا: "من ذا الذي كان يتصوّر أن نجاح خطتنا العسكرية سوف يحوّل حطين، هذه القرية الصغيرة التي لا ذكر لها، إلى اسم سيظل يتردد في التاريخ؟"

وكان رد السلطان المتواضع قائلا: الله هو الذي قرّر مصير الفرنج.

ابتسم عماد الدين، ولكنه بقي صامتا على غير عادته.

من على بُعد، رأينا خيمة السلطان قائمة على السهل تحتنا. نخس حصانه وانطلقنا - الأفضل ومائة حارس، وكنت أنا وعماد الدين في المؤخرة- وسط الجثث والأشلاء التي بدأت تتحلّل بفعل الشمس، نحو المكان الذي نُصبت على أرضه الخيمة.

تملّكنا شعور قوي بالنشوة، لدرجة أن الفكرة الوحيدة التي جالت بخاطري هي الوليمة التي ستنعم بها الوحوش الضواري هذه الليلة.

جلس عماد الدين إلى جوار السلطان، باعتباره مساعده الرئيسي، وأنا الكاتب المتواضع الذي يسجّل حياته في الجانب الآخر. قال لأحد الحراس: أن يبلِّغ كوكبري أنه جاهز لاستقبال "ملك أورشليم". وحدث. تم إحضار جي يصحبه رينولد صاحب شاتيو، بواسطة كوكبري الذي أخذ يتحدث الآن على نحو رسمي أدهشني.

"هنا يا أمير الانتصار، ملك أورشليم الزائف وفارسه رينولد صاحب شاتيو. الرجل الثالث هو مترجمهما. لقد قرر أن يصبح مؤمنا. أنا في انتظار أوامرك".

ردّ السلطان "أشكرك أيها الأمير كوكبري، يمكن أن يُقدم لملكهم بعض الماء".

إبداء كرم الضيافة هذا، دلالة أولى على أن جي لن يُقتل على الفور. شرب جي بلهفة من كوب الماء البارد، ومرّره إلى رينولد الذي شرب هو أيضًا، ولكن وجه السلطان اربّد بالغضب. نظر إلى المترجم.

قال بصوت ملئ بالازدراء والاشمئزاز: "قل للملك، إنه هو، وليس أنا، من قدّم الماء لذلك الحقير".

بدأ جي يرتعد خوفًا، وأحنى رأسه اعترافًا بكلمات صلاح الدين. ثم قام السلطان ونظر في عيني رينولد الزرقاوين الباردتين:

"لقد تجرّأتَ على تدنيس مكة، مدينتنا المكرمة. ثم إنك أضفت إلى جرائمك وخيانتك الهجوم على قوافل عُزْل. لقد عاهدت الله مرتين أن أقتلك بيدي، والآن.. جاء الوقت كي أفي بعهدي".

رفرفت عينا رينولد، ولكنه لم يلتمس الرحمة. سحب السلطان سيفه، ودفعه مباشرة في قلب الأسير.

"عسى أن يجعل الله مثواك جهنم يا رينولد صاحب شاتيو".

سقط رينولد على الأرض، ولكنّه لم يكن قد فارق الحياة بعد. سحبه حراس الملك إلى خارج الخيمة، وبضربتين من سيوفهم فصلوا رأسه عن كتفيه.

تلوّت الأنوف داخل الخيمة من هبّة رائحة كريهة. تغوّط ملك الفرنج في ثيابه من هول ما حدث لفارسه!

قال السلطان: "نحن لا نقتل الملك يا جي، صاحب أورشليم. أما ذلك الرجل فقد كان حيوانًا. لقد انتهك كل مواثيق الشرف. كان لا بدَّ أن يموت، أما أنت فلا بدَّ أن تعيش. اذهب الآن ونظّف نفسك. سنأتي لك بثياب أخرى. سوف أرسلك وفرسانك لعرضكم أمام أهل دمشق. سوف أقيم معسكرًا خارج القدس هذه الليلة، وغدا، ما أخذه شعبكم بالقوة ذات يوم سوف يُعاد إلى أهل الكتاب. سنجلس حيث جلستم. ولكننا، على خلافكم، سوف نقيم العدل ونتوقف عن الانتقام. سوف نصلح ما أفسدتم في مساجدنا وفي معابد اليهود، ولن ندنّس كنائسكم. تحت حكمنا سوف تزدهر القدس ثانية. خذ الأسير يا كوكبري، ولكن احرصوا على حسن معاملته".

وهكذا غادر جي ونبلاؤه إلى دمشق. وبينما هم مقتادون، شاهدوا ثلاثمائة فارس من التشكيلين العسكريين للاسبتارية والهيكل في طريقهم للإعدام.

قرّر السلطان أن يموتوا، لأننا لو تركناهم أحياء، سيحملون السلاح ضدنا مرة أخرى. ذلك هو المنطق القاتل لصراع سمّم عالمنا طويلا. كل ما كان بإمكاني أن أفكر فيه، هو لحظة دخولنا أورشليم.

(31)

● السلطان يُفكّر في زبيدة.. بلبل دمشق

لم يسمح صلاح الدين سوى باحتفال بسيط ليلة انتصارنا العظيم. أرسل الرسل إلى بغداد والقاهرة حاملين أخبار المعركة التي انتصرنا فيها. كشف الرقم الإجمالي لموتى الفرنج عن أنهم فقدوا مائة وخمسين ألف رجل. أكّد عماد الدين الرقم، وكتب أن عدد الأسرى منهم بلغ ثلاثة آلاف فارس وجندي.

حملت رسالة السلطان إلى شقيقه العادل في القاهرة أمرًا آخر كذلك. أن يرسل جيش مصر إلى فلسطين لاستكمال الجهاد.

بدا السلطان سعيدا. ولكنه كان، كعادته، لا يسمح لأي شيء بأن يُخرجه عن حذره. قال لتقي الدين إن حطين لم تكن انتصارا فاصلًا. هناك الكثير الذي ينبغي تحقيقه. كما حذّر من المبالغة في تقدير قوتنا.

كان يخشى أن يعيد الفرنج تجميع قواتهم أمام أسوار أورشليم، فعكف على وضع خطة دقيقة. أن يقوم بعملية اكتساح على امتداد الشاطئ لتدمير كل الحصون الفرنجية. حينذاك سوف تسقط المدينة المقدّسة في حجره كما تسقط ثمرة برقوق ناضجة من شجرة بعد هزة خفيفة.

ثمل الجنود بالانتصار. أخذوا يهتفون والسلطان يمر بين صفوفهم بحصانه ليخبرهم بأمر خططه الجديدة. الكل يحلم بالنصر المُنتظر.

كنت أنا وعماد الدين فقط، بعد إرهاق مواجهات الأيام السابقة، متلهفين على أن يعفينا السلطان. فحدثناه عن عودتنا إلى دمشق، على أن نعود للالتحاق بالجيش الكبير عندما

يبدأ زحفه نحو أورشليم. غير أن السلطان لم يكن ميالا إلى تلبية رغبتنا في تلك الظروف.

قال لنا: "كلاكما مخلص ومتعلم وبليغ وكريم. أنت يا ابن يعقوب مرح وبلا كبرياء زائفة. وعماد الدين مرح كذلك وهادئ الطبع. لكل تلك الفضائل أريدكما معي".

كان يريد عماد الدين كي يكتب الرسائل الرسمية، ويريدني كي ألاحظ وأسجّل كل خطواته. وعدني قبل ذلك أن يُملي عليَّ كل ليلة بعد المعركة، انطباعاته عن اليوم. بدا ذلك مستحيلًا خصوصًا وأنه كان يمضي الساعات في نقاش مع أمرائه قبل أن يستحم ويخلد للنوم.

بعد أربعة أيام من انتصارنا في حطين، وقفت جيوش السلطان أمام أسوار عكا. وهي قلعة غنية استولى عليها الفرنج منذ أن لوّثوا هذه الشواطئ. كان واثقا من أن المدينة سوف تستسلم. ولكنه أمهلهم ليلة واحدة كي يقرروا. فأرسلوا مندوبيهم للتفاوض على الاستسلام. لم تكن شروطه بعيدة عن الكرم الزائد، وقبلها المندوبون على الفور.

عندما دخل السلطان المدينة، بدت كأن لا حياة فيها. قال عماد الدين: "إن ذلك أمر معتاد عندما يدخل غزاة مدينة ما. فالناس، خشية الانتقام، يبقون في منازلهم". هناك سبب آخر رغم ذلك. ذلك اليوم، كانت الشمس شديدة الحرارة، لا تُحتمل. وشعر كل من دخل منا المدينة بالحر الشديد وتصبب العرق منه غزيرا مثل الحيوانات.

كان يوم جمعة. تقدّم السلطان، وابنه إلى جواره على حصانه وأمراؤه نحو القلعة. عندما نزل، اتجه صلاح الدين ببصره نحو السماء وجعل كفه على شكل كوب وراح يتلو هذه الآية من القرآن: «قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير».

بعد ذلك استحمّا، وبدلا ثيابهما. ثم بعيون يملؤها الفرح وملامح نظيفة من الغبار، راحا يحتفلان بسقوط المدينة بالصلاة في المسجد القديم الذي حوّله الفرنج إلى كنيسة مسيحية لمدة طويلة.

بعد صلاة الجمعة، عانق صلاح الدين أمراءه، وعاد إلى القلعة. دعا مجلسه للانعقاد ذلك المساء، وأرسل الفاضل ليتأكد من أن الكل سيكونون حاضرين. في حضوري أنا وعماد الدين فقط، أملى رسالة إلى الخليفة عن النصر الذي تحقق في عكا. ثم بعد ذلك

ودون مقدمات، صفا وجهه وتغيّرت حالته النفسية.

"هل تعرفون ماذا أود أن أفعل هذه الليلة؟"

ابتسمنا في أدب منتظرين أن يكمل.

"أن أستمع إلى مغنية، جالسة واضعة ساقا على ساق وتعزف على عود رباعي الأوتار".

ضحك عماد الدين.

"هل يمكن أن يكون ذهن الأمير قد استحضر مباهج وفضائل زبيدة؟"

شحب وجه السلطان قليلا لذكر الاسم، ولكنه أومأ برأسه.

"ما زالت تقيم في دمشق. لم تعد صغيرة مثلما كنا كلنا آنذاك، ولكنني أعلم أن صوتها لم يتغيّر كثيرا. لو سمح السلطان، سوف أستفسر في المدينة كي أتأكد".

"لا يا عماد الدين"، قاطعه السلطان، "لقد كنت أتكلم في لحظة ضعف. هذه مدينة تجّار. البلابل لا تستطيع العيش هنا. أيمكن أن تكون هناك زبيدة أخرى؟

الآن... اذهبا لتنالا قسطا من الراحة. أريدكما أن تحضرا المجلس. ولأجل خاطر عماد الدين لن أجبركما على العشاء معي قبله".

لم أكن قد رأيت السلطان بمثل هذه الحال الهادئة منذ أيامنا الأولى في القاهرة. منذ عودته إلى دمشق، كان متوترا في العادة، ومشغولا بأمور الدولة.

فيما بعد، وعندما كنت أنا وأمير البيان في الحمام، سألته عن زبيدة. أدهشه أن شادي لم يذكر لي شيئا عن نزوات صلاح الدين الشبابية. ونحن نجفّف أجسامنا في الغرفة المجاورة، زوّدني بقصة أخرى، كشفت مرة أخرى عن قدرته الشديدة على التذكر.

"كان حبَّ شابٍ في السادسة عشرة لجمال رائع. أراك تبتسم يا ابن يعقوب، وأعرف ما يدور بذهنك. تفكر كيف لي، أنا دون الناس جميعا، أن أقدّر جمال امرأة. هل أنا مخطئ؟ تبتسم مرة أخرى، وهو ما يؤكد ظني. أفهم شكوكك. صحيح أن منظر جسدك رغم أنه صعب المأخذ لضخامته، يثيرني أكثر مما يثيرني جسد أي امرأة، إلا أن زبيدة شيء آخر. كانت فاتنة بسبب صوتها العميق العريض الذي يلمس روح كل من يستمع

إليها وهي تغني. فعلا يا صديقي، لم يكن لها مثيل.

ليست لديَّ فكرة عن أصلها وفصلها. تطايرت شائعات تقول إنها ابنة أَمَةٍ أُسرت في إحدى المعارك. زبيدة نفسها لم تكن تتكلم أبدا عن ماضيها. لم تكن تتكلم كثيرا أمام الناس. حتى إن الفاضل، الذي فتنه جمالها، قال ذات مرة إن حديثها يتدفق عندما تكون في صحبة شخص واحد أو اثنين على الأكثر. لم يسعدني الحظ كي أشهد ذلك.

كنت حاضرا عندما رآها الشاب صلاح الدين وروحه يطغى عليها الغضب في حضور والده أيوب وعمه شيركوه. بالطبع! كان شادي تلك الأيام في كل مكان. كان ذلك في بيت أحد التجار، وكان حريصا على إدخال السرور على قلب أيوب، ولهذا السبب جاء بزبيدة. تلك أول مرة نسمعها فيها وهي تغني. وقع صلاح الدين في أسرها من فوره. اشتعل قلبه بحب بريء. إنما قادر على أن يحرق كل شيء.

لم تكن زبيدة قد بلغت الثلاثين من عمرها آنذاك. البشرة شقراء والشعر أسود والعينان واسعتان تلمعان مثل مصباحين من السماء. تبتسم، فتبدو أسنانها أجمل من اللؤلؤ. لم تكن ممتلئة الجسم، ويمكن أن أقول إنها كانت تذكرني بصبي جميل كنت أهواه ذات يوم في بغداد. عيناها تشردان عنا أحيانا وكأنها في نشوة حالمة، وحينذاك يذكرني وجهها بسحابة في ضوء القمر. تمنيت لو أنها كانت صبيّا يا ابن يعقوب.. ولكن دعنا لا نبعد عن موضوعنا.

تلك الليلة ارتدت ثوبا من الحرير له لون السماء. عليه نقوش طيور مختلفة، وبلابل مطرّزة بخيوط ذهبية، وغطت رأسها بوشاح أسود طويل عليه رسم دائري متكرر. في كل معصم سوار فضي. تنسى ذلك كله عندما تعزف على العود ويصدح صوتها مع الموسيقى. سحر يا صديقي، سحر!

أعدنا صلاح الدين في تلك الليلة إلى المنزل عنوة، لم يكن يريد أن ينصرف. عرض عمه شيركوه أن يشتري زبيدة له. ولكن فكرة أنها يمكن أن تُشترى جرحت مشاعره. بدا شاحب الوجه وهو في طريقه عائدا إلى المنزل والدم ينبض في شرايينه. وبجواره يسير شادي، الذي يحرسه دائمًا. منذ تلك الليلة لم يُفلت فرصة ليسمعها وهي تغني. أرسل إليها الهدايا. أفصح عن حبه لها. كانت تبتسم بعينين حزينتين وتمسّد رأسه بنعومة وتهمس بأن مثلها من النساء لسن من أجل تزيين أسرّة الأمراء الصغار. بدأ يكتب الأشعار تحت شجرة الكمثري المتفرّعة في فناء منزل أيوب. وأخذ يرسل إليها

قصائده التي وقعت في يدي إحداها فيما بعد. كان يراها أجمل من القمر حين يكتمل في قبة السماء بدرا. لأن جماله يبقى إلى ما بعد الفجر. والقصائد، كما يمكنك أن تتخيل، متوسطة المستوى. ولكنها كانت تنمّ، بلا شك عن مشاعر عميقة.

تأثرت زبيدة بحب الصبي. ولكن كانت لها حياتها الخاصة التي تعيشها. تلك الحياة التي، بالضرورة، لا مكان فيها لصلاح الدين. رفض أن يفهم ما كانت تحاول أن تقوله له. لم يقبل أن يكون مرفوضا أو مُزدرَى. صدقني يا ابن يعقوب عندما أقول لك إن الأمور ساءت لدرجة أن هذا السلطان الرزين الحذر الذي تراه، هدّد بالانتحار إن لم يتزوّجها. سوَّى عمه شيركوه الأمر بأن أخذه معه إلى القاهرة، والباقي أنت تعرفه. أصبح صلاح الدين سلطانا. وبقيت زبيدة محظيّة من محظيات البلاط".

لأنني كنت على علم بإرادة صلاح الدين القوية وعناده، دُهشت عندما ترك المغنّية تفرّ من يده هكذا بسهولة. من الواضح أنه تركها وهو آسف. ولكن المؤكد أنه كان يمكن أن يعود إليها بكل سعادة. وربما كان يمكن أن يتزوجها في مرحلة لاحقة. ما كان ليشغله كثيرا كونها محظية. الكل يعرف، على أية حال، أن المحظيات أكثر الزوجات إخلاصا.

ما يحيّرني، هو لماذا لم يشر شادي إلى تلك القصة قط. إما أن العالم الكبير يبالغ، أو أن هناك سببًا آخر لا يزال مجهولا بالنسبة لي. ضغطت على أمير الذاكرة مرة أخرى، وصممت على أن أعرف الحقيقة كاملة.

تنهّد عماد الدين.

"من أسف يا ابن يعقوب أنها كانت إحدى محظيات أبيه أيوب. عندما أخبر شيركوه ابن أخيه بهذه الحقيقة المُفزِعة، مات شيء ما بداخله. أنا واثق تماما من أنه بعد أن عرف ذلك وجّه طاقاته كلها إلى فنون القتال. أنا مثلا، عندما يصدني حبيب، تصبح كل اهتماماتي وجهودي مركزة على كتبي التي أعكف عليها. بالنسبة لصلاح الدين، فليس سوى المبارزة بالسيف والفروسية. ربما تبتسم يا ابن يعقوب، ولكن ملاحظتي لا تهدف إلى استثارة استخفافك.

رفض زبيدة له شقّ قلبه الغضّ شقًا كشق السكين. تطلّب الأمر وقتا طويلا كي يتعافى. العواقب، كما هو معروف لك دون شك، أنه تزوّج في سن متأخرة جدا عن سن زواج من هم في مثل وضعه. وبمجرد أن أصبح لديه أطفال أصبح نشطا مثل حصانه المفضل. كان يتخذ لنفسه محظية بعد الأخرى، وأنجب أولادا أكثر من أبيه وعمه

مجتمعين.

ورغم اتساع حجم أسرته، لم يكن أحد يجرؤ على ذكر اسم زبيدة في حضوره. ذكراها كانت محظورة. ربما لذلك لم يخبرك شادي بأمرها. إنه يدرك حساسية الموضوع.

اليوم غامرتُ. عرفت أن صلاح الدين يفكر فيها. يريد أن يُشركها انتصاره. يريد أن يقول لها: "انظري إلى هذا الرجل يا زبيدة، لقد حقق أكثر مما حقق أبوه". شعرت بذلك من داخلي. ولذا تجاسرت وذكرت اسمها. والحقيقة أنني دُهشت لأن رد فعل السلطان كان على ذلك النحو. توقعت أن يطردني من الغرفة. أعتقد أن الألم زال أخيرا. سنرى إن كان سيرسل في طلبها عندما نعود إلى دمشق".

الآن، أتحرّق شوقا لأرى زبيدة، لأن أستمع إلى صوتها وعزفها على العود. عزمت على أن أراها عندما أعود إلى دمشق. فلربما أضافت شيئا للقصة. وربما لم يكن لذلك قيمة كبيرة بالنسبة لها. هل يمكن أن يكون صلاح الدين الحذر في الحرب، حذرًا في الحب؟ أخذت الأفكار تتقلب في رأسي جيئة وذهابا. قال لي عماد الدين كل ما يعرف. غير أني شعرت أن للقصة بقية. سأعرف الحقيقة. إن لم تأت زبيدة فلسوف أسأل جميلة. هي الشخص الوحيد ممن هم على قيد الحياة الذي يمكن أن يرهق السلطان بأسئلته، إلى أن يقول لها كل ما تريد معرفته.

أما شادي، الشخص الوحيد كان يمكن أن يخبرني بالقصة كلها، فقد خذلني. وأنا أستعد لحضور مجلس الحرب، دخل شادي رأسي. ودار بيننا، في الخيال، حوار.

(32)

● آخر مجلس للحرب

على الرغم من أن عماد الدين ائتمنني على سر، وهو أن السلطان يعتبر مجلس الحرب أهمّ تجمع لهذا الجهاد، كنت أكثر ميلا لئلا أصدّقه. ظننت أن عماد الدين يقول ذلك لمجرد التضخيم من أهميته كمستشار يثق السلطان به ثقة مطلقة. أسأت الظن.

ظننت أن مجلس الحرب سيكون مسألة شكلية احتفالا بالنصر، يعلن السلطان في أثنائه بدء مسيرتنا إلى أورشليم. هناك أفكار لا بدّ من أن يطردها المرء من ذهنه، وتلك الفكرة إحداها.

عندما دخلت القاعة المزدحمة حيث يتجمع الأمراء لاحظت حالة من التوقّع والارتياب. من آخر القاعة، رأيت السلطان منهمكا في حديث مع الأفضل وعماد الدين وتقي الدين. كان الأخير هو الذي يتكلم والآخرون يؤمنون على كلامه بقوة. أفسح الأمراء طريقا لي كي أمر إلى حيث السلطان. ولكنهم فعلوا ذلك وكأنهم يفسحون طريقا لحيوان أليف خاص بالحاكم. خلت وجوهم من أمارات المودة. حتى كوكبري بدا مستاءً.

لم أكن قد عرفت سر غضب الأمراء قبل أن أصل إلى المنصة التي يجلس عليها السلطان. فما يقرره صلاح الدين الآن وأقرب أبناء الأسرة هو تقسيم الغنائم. وهي لحظة دقيقة دائمًا بعد أن يتم الاستيلاء على مدينة.

لم تكن نوايا وتوجهات صلاح الدين سرًا بالنسبة للأمراء. أراد أن يُبقي على جزء من الأموال للجهاد. على أن يُقسم الباقي بالتساوي بين كل المؤمنين الذين دخلوا المدينة. ولكن ابنه ذكّره بتقليد آخر، يتّبعه الحكام في الحروب المقدسة. ذلك التقليد الذي يقضي بترك كل شيء لأبنائهم.

تحت ضغط شديد، منح السلطان المدينة بكل ما فيها من عزب للأفضل، ومعمل تكرير السكر هبة لتقي الدين. أما محرر الرسائل العظيم فقد مُنِح منزلا كبيرًا. كذلك أعلن الأفضل للأمراء وكان ذلك خطأ كبيرا. كان يمكن أن يقبلوا ذلك على مضض لو أن السلطان هو الذي أبلغهم. عارض عماد الدين الفكرة بكاملها. واقترح أن يوضع كل شيء في صندوق لتمويل الحروب القادمة.

همس لصلاح الدين: "يجب ألا يكون لديك شك يا سيدي السلطان في أن الفرنج سوف يرسلون في طلب المساعدة من وراء البحار، وأن فرسانا أكثر سوف يتوافدون. سنكون في حاجة إلى المال إذا قاموا بحملتهم الصليبية الثالثة".

أبدى صلاح الدين موافقته على ما سمع، ولكنه هزّ كتفيه استسلاما، ثم قام لكي يتحدّث إلى الأمراء. وللحظة، لم يكسر الصمت سوى طنين الحشرات في الخارج.

"أعرف ما يفكر فيه بعضكم. تتساءلون لماذا أؤخر الزحف إلى القدس. دعوني أشرح لكم الأمر. لا أريد أن تقع القدس أبدا في أيدي الكفار. لو أننا أخذناها غدا، ويمكن أن نفعل ذلك من دون عناء كبير إن شاء الله حيث إن الفرنج فقدوا أفضل فرسانهم في حطين، فإن ذلك سيكون خطأ فادحا. فكروا، وسوف تفهمون ما أقصده. سوف يحتل الفرنج المدن الساحلية. وستصل إلى تلك المدن والموانئ السفن من بلادهم البعيدة بالمزيد من الفرسان والأسلحة والصلبان والخمور.. سيجتمعون كلهم، بمن بقي هنا من الكفار، ويحاصرون القدس، هكذا.. ببساطة.

لهذا السبب، سنقوم بتقسيم قواتنا ونستولي على كل المدن الساحلية. أنا لا يسعدني تقسيم جيشنا، كما هو معلوم لكم، ولا تقسيم الأمراء لقيادة السرايا في معارك مختلفة. ولكن ذلك هو ما سوف نفعله قبل أن نصل إلى القدس. أريد أن أهزّ الشجرة بقوة لكي يسقط البرتقال كله على الأرض، ما عدا واحدة. هذه البرتقالة الواحدة سوف نقطفها مثل زهرة نادرة. فلنطهر الشاطئ من أولئك الكفار أولا.

بالنسبة لي، فإن صور أهم حتى من القدس. إذا استولينا على الميناء في تلك المدينة سنكون قد أمسكنا بالفرنج من رقبتهم إلى الأبد. الفرسان الذين سيأتون من البحر سيشعرون بقوة نيراننا وهم مازالوا في سفنهم. هل تريدون أن تعرفوا خطتي؟ بسيطة. اسمعوا جيدا. ها هي خطتي: عسقلان، ويافا، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وطرطوس، وجبلة، واللاذقية، وصور.. ثم القدس.

لو أن الفرنج هم عدونا الوحيد، لكنا قد طردناهم بعون الله من هذه البلاد قبل سنوات. لنا ثلاثة أعداء غير الفرنج. الزمن، والمسافة، وأولئك المؤمنون الذين يفضّلون البقاء في أبراجهم يرقبون المعركة من على بعد. إنهم أشبه بالضباع، تبقى في عرينها خائفة، فلا تخرج لرؤية النمور وهي تقتل بعضها بعضا. إنهم المؤمنون الذين لطّخوا بالعار والجبن والتخاذل اسم نبينا عليه الصلاة والسلام. دعوهم يعرفون أننا سننتصر وأن الاحتقار والعار، في أعين المؤمنين جميعا، سيلحق بهم".

أدهشت كلمات السلطان الأمراء. كانوا يبتسمون ويومئون برؤوسهم وهو يتكلم، وبمجرد أن انتهى من كلامه دوت صيحة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

كان كوكبري أول المتكلمين.

"يا أمير الانتصار، أثق أنني أتكلم باسم كل الحاضرين هنا حين أقول إن الله معك. لقد شعرت أنا أيضا بأننا ينبغي ألا نؤجل حصار القدس. لقد أقنعتني بخطئي، وبأن العجلة ليست مرشدا مفيدا أبدا في أثناء القتال".

"لو أذنت لي أريد أن أسأل سؤالا".

أومأ السلطان موافقا.

"الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نغزو بها الساحل على وجه السرعة هي تقسيم قواتنا، ولكن...."

"أعرف سبب قلقك يا كوكبري، وأوافق عليه، أنا أتردد دائمًا في إرسال أسرتي أو رفاقي المقربين في مهام بمفردهم. ولكن ليس أمامنا من بديل هذه المرة. السرعة ضرورية. أريد أن يغطي جنودنا الساحل مثل النمل. أنت يا كوكبري، وأنت محل ثقة، لا بدّ من أن تُخلي الطريق من طبرية إلى هنا في عكا. استولِ على كل قرية ومدينة، بدءًا من الناصرة حيث ولد عيسى. استولِ على قلعة فرسان الهيكل في الفولة، وحسام الدين يستولي على سيباسيتي ونابلس. وأنت يا بدر الدين، سوف تتقدم جنوبا وتستولي على حيفا وأرسوف وقيصرية، وتقي الدين سوف يزحف إلى تابنين وصور. وأنا سوف أستولي على بيروت وصيدا. لقد قام عماد الدين بعمل جيد، وسوف يقدّم لكل منكم تقديرا للمقاومة التي من المتوقع أن تواجهكم في كل مدينة من تلك المدن. أعتقد أن نابلس، حيث يفوق المؤمنون الفرنج عددا بنسبة مائة إلى واحد، هي المكان الوحيد الذي

ينبغي أن يستسلموا فيه. الفرنج يعلمون بنجاحاتنا، وقد يفضّلون التمادي في غيّهم في أماكن أخرى. إذا تفاوضوا من أجل الاستسلام يجب أن تكون كريما، فليست حياة الفرنج وحدها هي المعرّضة للخطر. كان الله معك. غدًا ننطلق".

في اليوم التالي، ارتدى صلاح الدين ثوب التشريفة وحول عنقه عقد من اللؤلؤ الأبيض والأسود وهو خارج من المدينة في موكب مهيب. رافقه كل أمرائه الذين جاءوا ليكونوا في وداعه قبل الرحيل. اختار السلطان رجاله من حملة السيوف والسهام من بين من حاربوا معه لسنوات. ركبنا أنا وعماد الدين إلى جواره. توقفنا أمام بوابات عكا، كي يتبادل السلطان بعض الكلمات مع الأمراء. توجّه إليه تقي الدين وكوكبري. نزلا من على حصانيهما ليقبلا رداءه. بدت تعبيرات وجهه أكثر هدوءا عند رؤية هذين الشابين اللذين كبرا في عينيه، وأصبح يثق فيهما ثقته في نفسه. ابتسم وأمرهما بالمضي في سبيلهما.

"نلتقي المرة القادمة أمام بوابات القدس".

بعد ذلك جاء ابنه الصغير، الأفضل، مرتديا درعه كاملة، مختالا بنفسه مثل كل مَن في عمره، جاء على حصان أسود يرمح. وجد صعوبة في أن يُلجم حصانه، فكتم والده ابتسامة. وثب الأفضل من على الحصان وقبّل رداء والده على نحو مبالغ فيه.

قال السلطان: "وفقك الله يا أفضل لحكم هذه المدينة جيدا. سأذهب أنا وأنت معًا إلى مكة ذات يوم، ولكن بعد أن نستولي على القدس. والآن.. عد إلى مدينتك، ولكن تذكر أننا كلنا لسنا مخلّدين، وأننا نحكم فقط، لأن الناس يدعوننا نفعل ذلك. إياك والجشع والعناد. الحكام الذين يفعلون ذلك إنما يخذلون أمتهم. لقد وضعت آمالي فيك، وأملي الأكبر هو ألا تخيب ظني".

بعد هذه الكلمات، رفع السلطان ذراعه اليمنى، وانطلق جيشنا من عكا.

(33)

• الترحيب بالفاتح العظيم صلاح الدين • رفضه الاستيلاء على صور رغم نصيحة عماد الدين بضرورة الاستيلاء عليها

كنا نمضي مستريحين. لم يكن السلطان يريد أن يرهق جنوده دون داع. أخذت المدن والقرى تسقط دون مقاومة فتُضاف إلى فتوحاته مثل عقد من اللؤلؤ تزداد وتتألق حباته. وكان أهالي البلاد، سواء من المؤمنين أو المسيحيين أو أبناء ديني يتجمّعون ليحدّقوا فيه بعيون كلها فضول. كثير منهم أحضروا أطفالهم بين يديه كي يباركهم بلمسة حانية على رؤوسهم الصغيرة. واشتد فرح المؤمنين ولكن دون شماتة. عادة ما يلعن الناس المهزوم وينشدون قصائد المديح للمنتصر. إنه أحد قوانين الحرب، وتلك هي الطريقة التي يتحصن بها الناس ضد المجهول.

غير أنه، في كل قرية ومدينة، هناك دائمًا مدّعو البطولات الزائفة. ولكي يعبّروا عن ولائهم للفاتح الجديد، يقومون بتلطيخ سمعة الحاكم السابق، ويشوّهون اسمه ويطلقون عليه النكات القبيحة. إنهم أشبه بالجيف بالنسبة للكلاب الضالة. أولئك هم دائمًا نفس الناس الذين لم يقاوموا الفرنج على أي نحو. وما إن يسقط عدوهم حتى تملأ حناجرهم الجو نباحًا مسمومًا قاتلًا، مُبدلين جلودهم بسرعة مذهلة.

يتباهى أحدهم بأنه التقى فارسا فرنجيا بمفرده بالقرب من جدول، فقتله لدرجة أن الماء استحال لونه إلى الأحمر. وغيره ينافسه برواية قصة أطول، كأن يقول مثلا إنه أمسك ذات ليلة بفرنجي يعتدي على شرف امرأة، من المؤمنات طبعا، فأغمد سيفه في قلبه ثم نزع أحشاءه وأطعمها للكلاب.

بعد ممارسات من هذا القبيل، أمر السلطان بأن يجلد علنا كل من يكذب بزعم أفعال

كتلك. انتشرت الأخبار عن السلطان الذي لا تأخذه رحمة بالكذابين فتناقص عدد المدعين. غضب صلاح الدين بشدة لمرأى أولئك المتبجحين الذين يتسلقون جثث هؤلاء الذين، مهما كانت أخطاؤهم، سقطوا في معركة.

عندما اقتربنا من صور دبّ الشقاق بيننا. كان من رَأيَ عماد الدين أن نستولي على المدينة فورا على الرغم من تحصيناتها، ورغم ما تبديه من مقاومة شرسة. يؤيده في ذلك معظم الأمراء. قالوا: "بما أن رأي السلطان أن الاستيلاء على صور أهم من الاستيلاء على أورشليم، فليس ثمة معنى إذن لتأجيل الهجوم".

ما زلت أتذكر جيدا ذلك المساء، عندما نصبنا معسكرنا وسط بساتين البرتقال والزهور البرية. ما زال عبقها يملأ أنفي كلما تذكرت تلك الليلة. كانت السماء ملبّدة بالغيوم السوداء، وصلاح الدين يذرع المعسكر جيئة وذهابا. لم يكن يتكلم مع أحد. أحيانا، يقطف برتقالة من شجرة، يقشرها ويأكلها. استولى صوت الرعد البعيد على انتباهه. فلمّا رفع بصره إلى السماء أخذ المطر يهطل بشدة.

انفرد بنفسه منذ أكثر من ساعة تقريبا، وبينما كان الأمراء وعماد الدين ينتظرونه أمام خيمته ركضوا احتماءً من دفقات المطر القوية.

فيم كان يفكر؟ نظر في وجوههم مدّة طويلة. يعرف فيم يفكرون. بعدها، سار عن قصد في اتجاه باب الخيمة ودقق النظر في الخارج. لا تزال تمطر. عاد ليبلغهم أنه قد قرر، في ظل تلك الظروف، أن يتجنّب طريق صور ويلتف من حولها. "سنتقدم نحو صيدا، وبعدها نتقدم إلى بيروت. صور لا بدَّ من أن تنتظر حتى عودتنا من أورشليم".

بدت خيبة الأمل على كل الوجوه، ولكن أحدا لم يناقش تقدير السلطان. حتى عماد الدين بلسانه الفالت دائمًا بقي صامتا. قال لي بعد ذلك إنه رغم معرفته أن قرار السلطان يجانبه الصواب، شعر بأنه لا يملك من الكفاءة العسكرية ما يمكنه من مناقشته. لم يكن لقرار السلطان علاقة كبيرة باحتياجات أو متطلبات الجهاد. كان قرارًا خالصًا لوجه العاطفة.

تلك الليلة، بعد أن تناولنا عشاءنا المكوّن من تسبيكة البازلاء المفضلة لديه، اعترف قائلا: "أعرف أنهم يعتقدون أنني على خطأ يا ابن يعقوب. الحقيقة أن صديقي القديم ريموند صاحب طرابلس مختبئ في قلعة صور. لقد تركته يهرب في حطين. كبرياؤه لن تجعله يستسلم، وما زلت غير راغب في قتله. لقد تآمر القدر كي يجعلنا أعداء،

ولكنني من جانبي ما زلت أشعر بالقرب منه. الصداقة ثقة مقدسة. لقد علّمني أبي وعمي ذلك منذ كنت صبيا، ولم أنس. الآن، عقلي يقول لي إنني على خطأ، ولكن قلبي لن يجعلني أخون الثقة. هل تفهم؟ أم تراك أنت أيضا مثل عماد الدين، قد غلبتك الانتصارات التي حققناها، وأصبحت الثقة والصداقة كلمات جوفاء لا أهمية لها عندك؟ هو الأمر دائمًا. نحن، الذين نقاتل، نفهم حدودها أكثر منكم يا من تجلسون في خيامكم تسجّلون ما يحدث".

انتهت الفرصة التي أتاحها لي للمقارنة بين آرائي وآراء عماد الدين، ولكنني قلت له إن العلامة الكبير لم يكن هو الوحيد الذي أبدى استياءه. رأى الأمراء وبعض الجنود كذلك أن عدم الاستيلاء على صور خطأ. هنا بدأ يفكر مرة أخرى وأعفاني من خدماتي بقية المساء.

كانت هناك نسمة لطيفة عندما خرجت من خيمته في الليل، وكان المطر قد توقّف. انقشعت السحب وكشفت عن بساط من النجوم المعلّقة في السماء. فجأة، غمر حواسي كلها خليط من عبق بساتين البرتقال والزهور البرية والياسمين والعشب والأرض المبتلة. لكل منها عطره الخاص، ولكنها آسرة وهي مجتمعة. قررت أن أذهب للتمشية بعض الوقت، ولكن عماد الدين ما كان ليتركني أستمتع بوحدتي. كان خادمه ينتظرني حتى أخرج من خيمة السلطان ليبلغني بأن سيده ينتظرني على أحر من الجمر. أي خيار يمكن أن يكون لكاتب ضئيل القيمة أمام ضغط كبير كهذا؟ تركت فكرة التمشية، وتبعت الخادم إلى خيمة عماد الدين. بدا في حالة غضب شديد. لم تكن الحروب وحياة المعسكر الخشنة لتناسب ذلك الرجل العظيم. كان يفتقد أسباب راحته.. وصبيانه ونبيذه وطعامه.. ودمشقه. بمجرد أن ظهرتُ أمامه زمجر.

"خيرًا؟"

تظاهرت بالحيرة لسؤاله.

"لماذا بحق الله، قرر صلاح الدين أن يتجاهل صور؟ هذا قرار أحمق!"

ابتسمت وهززت كتفي.

"أنا مجرد كاتب عنده يا سيدي، وهو لا يفضي إليَّ بأسراره".

"أنت خبيث وكذاب وابن..

رجوته ألا يكمل العبارة.

"قبل عدة سنوات، عندما قرر السلطان أن يستخدمني لديه أوضح لي أن كل ما يقال أمامي سر. كما أنه أبعدني عن اجتماعات مجلس الحرب، لأنه كان يخشى أن يقوم الفرنج باختطافي وتعذيبي كي يعرفوا أسرار خططه العسكرية. ليست لديَّ فكرة عن سبب عدم الاستيلاء على صور".

وقف عماد الدين، ورفع ساقه اليمنى، وضرط ضرطة قوية.

"لقد أصبحت غبيا، ولكن هذا لمصلحتك. ليس هناك سبب عسكري. العاطفة هي التي أملت هذا القرار. صديقه ريموند صاحب طرابلس هناك في صور. كلنا نعرف ذلك. وحتى لو أن ريموند عشيقه، سأظل ضد هذا القرار ولكن رفضي سيكون مفهوما. الصداقة لا مكان لها في غمرة الجهاد عندما يكون مستقبل عقيدتنا على المحك. لقد ضللته مشاعره. قراره مضلل. ما كان نور الدين ليسمح بمثل هذا الهراء".

قلت: "ربما يكون ما تقوله صحيحا، والمؤكد أن سلطاننا المخلص نور الدين، رغم توقعه بأن يفعل ذلك لم يستطع أن يستولي على أورشليم. أما سلطاننا فلن يفشل".

قال عماد الدين: "أتمنى ذلك، وأدعو الله أن يحدث ما تقول، وإن كنت غير متأكد. فليس في التاريخ حقائق يقينية".

بعد يومين، استسلمت صيدا ودخلنا المدينة. مؤقتا، بدا أن موضوع صور قد نُسي تماما. سُر السلطان لأننا لم نفقد أحدا. كان يريد أن يترك قوة صغيرة في المدينة ثم يواصل الزحف في اتجاه بيروت في نفس المساء، ولكن الأعيان أقنعوه بأن يشرِّفَ مدينتهم بالبقاء ولو لليلة واحدة.

بدا صلاح الدين مترددا في قبول الدعوة -كان يكره تلك الرسميات الفارغة- ولكن عماد الدين ترعبه مثل هذه الأفكار. انحنى ليهمس في أذن صلاح الدين بأن رفض العرض سيكون مهينا إلى حد بعيد. ومثلما كان يحدث في كل الأمور الدبلوماسية الأخرى، تجهّم السلطان للنصيحة ولكنه وافق في النهاية. الكل تنهد ارتياحا. كان الجنود مثقلين ومتعبين.. وصيدا مدينة مغوية.

أخذونا، السلطان والأمراء وعماد الدين كي نستريح في القلعة، ومن هناك رأينا الجنود وهم يركضون نحو الماء، يخلعون ثيابهم ويغمرون أنفسهم في أمواج البحر

الباردة. كان الماء الواصل للقلعة دافئا مقارنة بذلك الذي يستحمون فيه.

وبينما خلد صلاح الدين للنوم مبكرًا ذلك المساء، تناولنا أنا وعماد الدين العشاء ضيوفا على وجهاء صيدا. كانت وليمة فاخرة. لم أكن قد ذقت هذه الأنواع المختلفة من الأسماك منذ غادرنا القاهرة. رغم أن أسماك النيل من نفس النوع تقريبًا تطهى بطرق مختلفة. كان التنوّع رائعًا تلك الليلة. ليست أنواع الطعام فقط. إذ لم يتوقف تقديم النبيذ بأيدي فتيات جميلات لم يحاولن إخفاء مفاتنهن. لم يحرّك ذلك، بالطبع، في عماد الدين ساكنا، ولكن تأثيرهن كان طاغيا في الأمراء الدمشقيين الثلاثة. أخذوا يحلمون بالمتعة القادمة والليلة المنتظرة. أنا أيضا تمنيت أن أشاركهم متعتهم، ولكن العلاَّمة الكبير لم يكن لديه وقت لهذا النوع من التفاهات! بمجرد انتهاء الوليمة وشرب الشاي الساخن المعطر بزهر البرتقال، قام وشكر مضيفينا، وصمم على أن أصحبه إلى غرفته.

"آسف لإزعاجك هذا المساء يا ابن يعقوب، لقد كانت الشهوة واضحة في عينيك وأنت تنظر إلى أولئك البغايا، إلا أنني أود أن أناقش معك هذه الليلة شيئا أهم. الحقيقة أنني أريدك أن تساعدني. أنا قلق على صلاح الدين".

أنا أعرف أن عماد الدين لم يكن يعتبرني أكثر من مجرد كاتب يهودي عديم الشأن، تسلل إلى دائرة السلطان المغلقة. بدا ذلك واضحًا من معاملته الساخرة تارة والمتكبرة تارة أخرى. لماذا تغيّر الحال إذن؟ احترت، ولكنني فرحت في الوقت نفسه لأنه بدأ يعاملني كندٍ له.

"ولماذا أنت قلق على السلطان؟"

"صحّته تقلقني. يعاني من مغص في القولون، وقد يقبضه الله إليه في أي لحظة. إذا تأخّر طويلا في الاستيلاء على القدس فقد يظلّ ذلك الحلم يراوغنا إلى الأبد. بمجرد أن يقضي، سيمسك كل الأمراء برقاب بعضهم بعضًا. الكل سينسى العدو المشترك. إنها اللعنة التي تصيب عقيدتنا يا ابن يعقوب. وكأن الله الذي هدانا في أثناء حياة الرسول، يعاقبنا اليوم على جشعنا. لقد تكلمت مع السلطان ورأي الفاضل رأيي بألا نضيع وقتًا طويلًا على الشاطئ بعد أن نستولي على بيروت. لا بدَّ من أن يأخذ القدس. أريدك أن تنصحه نفس النصيحة".

أصابني الذهول. أيعني ذلك أنني أصبحت الأيقونة الثالثة في الثالوث؟

"لا وقت للتواضع يا ابن يعقوب. نحن نعرف أن السلطان يقدّر نصيحتك تمامًا. لا تخذلنا".

بعد يومين، كنا نعسكر بالقرب من أسوار بيروت التي تطل على البحر. كانت الرطوبة شديدة ذلك اليوم، وكان للطقس تأثير كبير على السلطان. بدا معتل المزاج نافد الصبر. كذلك مرض عماد الدين. اشتكى من ألم حاد في المعدة مع شعور بالغثيان. مروان، طبيب السلطان، وضع له نظاما غذائيا. عالجه بمزيج من الأعشاب والخضراوات، ومنع عنه اللحوم فبدأت صحته تتحسّن. ولكن في اليوم التالي عاودته الآلام ثانية. اقترح مروان على السلطان أن نرسل الرجل المريض إلى دمشق ليوضع تحت الملاحظة هناك، ويُعالَج على نحو أفضل. كان مروان نفسه متخصّصًا في علاج أمراض البطن.

أمر صلاح الدين، الذي تشغله صحة أصدقائه دائمًا أكثر من صحته، أن تحمله سريّة خَيَّالة إلى دمشق. اعترضه عماد الدين بوهن وإن بدا سعيدا. عندما كنت في وداعه غمز لي بطرف عينه:

"العزلة يا ابن يعقوب.. أريد العزلة.. الجهاد ضروري ولكن عملي تأثّر. من الصعب أن نتأمل ماضينا عندما يبدو الحاضر لنا غير مؤكد والموت يطاردنا في هيئة الفرنج. غيابي لن يرضي السلطان، ولكن فلتحاول أنت قدر استطاعتك".

أومأت برأسي وتمتمت ببضع كلمات متعاطفة متمنيا أن نلتقي قريبا في دمشق وقد شُفي تماما. إلا أنه وهم يحملونه على محفّة، تردد صوت شادي في رأسي:

"لا يحب الحياة في معسكرات القتال.. أليس كذلك؟ يريد العزلة، أليس كذلك؟ أنا مندهش. هذا اللوطي على علاقة بعدد لا يحصى من الجنود. مرضه هو الانغماس في الشهوة.. ولا أكثر".

ظن السلطان أن بيروت، مثل نظيراتها من المدن الساحلية، سوف تستسلم بهدوء دون قتال. ولكن رسوله عاد بأخبار سيئة. صمم الفرنج على القتال.

تنهّد صلاح الدين.

"كنت أتمنى ألا نشاهد المزيد من الجثث حتى نصل إلى استحكامات القدس. لماذا يريد أولئك الحمقى أن يقاتلوا يا ابن يعقوب؟"

يمكن أن يكون عند عماد الدين أو الفاضل إجابة حاضرة عن هذا السؤال، ولكنني كنت قد اعتدت الاستماع إليه وتسجيل أفكاره، ونادرًا ما كنت أُقحم آرائي إلا إذا ألحّ عليَّ. قطب جبينه.

"حسن! هل لديك تفسير لذلك؟"

ابتسمت في ضعف وهززت رأسي.

"الحمقى يعتقدون أنهم إذا قاوموني لمدة، وإذا ضحوا بعدد من فرسانهم، فسوف يكافئهم قادتهم. يريدون أن يظهروا أنهم لم يستسلموا بسهولة. أرسل إليهم ردًا مني يا ابن يعقوب. قل لهم إنهم إن لم يستسلموا فورا فسوف يلقون غضب الله. سنمطرهم نارا وندمرهم تدميرا. قل لهم إن صلفهم لن يجعلنا نعرض عليهم شروطا كريمة".

انحنيت ومضيت إلى خيمتي.

شرّفني السلطان بالقيام بدور عماد الدين، ولكنني لم أكن أعرف ما إذا كان عليَّ أن أقلّد أسلوب العلامة، أم أكتب بأسلوبي. كان عماد الدين قد أصبح خبيرًا في كتابة رسائل السلطان، لدرجة أن صلاح الدين كان عندما يقرؤها يقتنع بأنه هو الذي كتبها بالفعل. كان بالأحرى، على غير عادته، يطربه الإطراء الذي يلي تلقّي مثل تلك الرسائل. وحده، شقيقه العادل، هو الذي كان يجرؤ على مضايقته إلى حد ما. قبل أشهر قليلة، سأل العادل عماد الدين بعد العشاء عن رأيه في الرسالة التي بعث بها السلطان في ذلك اليوم إلى ريموند صاحب طرابلس. ففكر العلامة لحظة ثم قال:

"ليست إحدى أفضل كتابات السلطان".

وبينما بدا صلاح الدين مندهشا، رد العادل "كف عن ذلك يا عماد الدين! التواضع لا يليق بك".

أمضيت الليلة كلها أدبّج شروط الاستسلام. كانت الوثيقة قصيرة، ولكنني أعدت كتابتها عدة مرات إلى أن أصبحت مقتنعا بأنها متقنة. رآها السلطان بعد صلاة الصبح وتجهّم وجهه.

"بلاغية، متحذلقة، يحتاج المرء إلى وقت طويل كي يفهم ما نعرضه عليهم من شروط. اختمها وأرسلها الآن".

آلمني النقد، ولكنني أعرف أنه يحمل قدرا كبيرا من الحقيقة. أدركت أنني ما كان ينبغي لي أن أقلد أسلوب عماد الدين. قطع تفكيري في هذا الأمر وصول رسول من قبل العدو. لم يقبلوا شروطنا السمحة، ورفض نبلاء الفرنج استسلام المدينة.

أشعل غضب السلطان المعسكر كله. أمر بشنّ هجوم فوري على المدينة، وبدأنا ندفع إلى الأمام بأبراج الحصار كي تكون أقرب إلى أسوار بيروت. كنت راكبا إلى جواره، وكانت أول مرة يمنحني فيها هذا الشرف، وإن كنت لم أعرف سوى القليل مما كان يدور بعقله. كان صامتا. أساليبنا القتالية مجربة. يعرف الأمراء المسئولون عن السرايا واجباتهم. ومرة أخرى فاجأنا المدافعون، فبدلا من أن يبقوا داخل المدينة ومحاولة منع تقدمنا من الداخل، فتح الفرنج البوابات، وجاءوا لقتالنا خارج التحصينات الأمامية. كانوا يخشون واضعي الألغام ويريدون وقفهم بأي ثمن.

لم يكن صلاح الدين في حاجة إلى أن يشارك في المعركة بنفسه. أمراؤه أنزلوا بالفرنج خسائر كبيرة، وردوا المدافعين إلى ما وراء أسوارهم. كان لذلك التطور أثر مدمر في معنويات الأهالي الذين يعتقدون أننا دخلنا المدينة، فاندفعوا بجنون نحو الميناء يلتمسون الأمان في البحر. تحوّلت المدينة إلى مسرح للفوضى والسلب والنهب.

قادة الفرنج الذين انقسموا، بين نمور يريدون القتال وحملان يرغبون في الاستسلام، أدركوا أن الحملان أكثر حكمة. جاء رسولهم بقبول شروط الاستسلام التي صغتها قبل أيام. لو أراد السلطان لعاقبهم لإضاعتهم وقتنا، ولكنه ابتسم في كرم وتسلم المدينة.

"حسنا يا ابن يعقوب! يبدو أن الفرنج كانوا أقل انتقادا لرسالتك مني".

وهكذا دخلنا مدينة أخرى مهزومة، ولكن الناس هنا كانوا صامتين متجهمين. غضبوا للموت غير الضروري والدمار الذي حلّ بالمدينة. صحيح أن ما حدث، نتيجة أخطاء مقاومتهم، ولكنهم فضّلوا توجيه اللوم لنا.

دوى صوت منادي المدينة في الشوارع يعلن الكارثة.

"لقد دخل السلطان العظيم يوسف صلاح الدين بن أيوب مدينتنا، اسمعوا شروط الاستسلام".

في ذلك المساء، بعد أن استحم واستراح، وقفت معه على أسوار القلعة نرقب الأمواج وهي تضرب صخور الشاطئ من تحتنا. كانت الشمس تميل إلى الغروب. نظر إلى

الأفق. كان جلال البحر قد هدأ خاطره، وراح يفكر بعمق. لمدة طويلة لم ينبس أحدنا ببنت شفة، ثم استدار نحوي وفي عينيه نظرة غريبة.. شاردة.

"أتعرف يا ابن يعقوب.. إذا قدَّر الله لنا أن نستولي على هذا الشاطئ واستعدنا القدس، فسوف أقسم إمبراطوريتنا. سأتركها لإخوتي وأبنائي. سأذهب إلى مكة للحج وأتوكل على الله".

بعدها سوف أستعد لعبور هذا البحر الهائج رغم سكونه الخادع، سأذهب إلى حيث يعيش أولئك الفرنج، سوف أتعقب أولئك الأوغاد حتى يعلنوا الشهادة بالله ورسوله. سأفعل ذلك حتى وإن قضيت في المحاولة. هذا أمر مهم، حيث سيلتقط سيفي آخرون ويحققوا ما لم أتمكن من تحقيقه. إن لم نضرب جذور الفرنج، فسوف يواصلون نهش لحمنا مثل الجراد الذي يملأ السماء ويلتهم محاصيلنا".

(34)

● حليمة تموت في القاهرة، وشائعات خبيثة تلقي بالمسئولية على جميلة

لم يستقر السلطان طويلا في بيروت. بمجرد أن نزع سلاح الفرنج قام بتعيين أحد أمرائه وعدد من المختارين لحكم المدينة. الباقون منا مضوا إلى دمشق لا دليل لنا سوى النجوم. دخلنا المدينة مع تنفّس الصبح. ودَّعْتُ صلاح الدين عندما كان متجها إلى القلعة وأخذت طريقي إلى منزلي.

لم تكن راشيل في الغرفة. للحظة، بدأت دقات قلبي تتسارع عندما تذكرت ذلك اليوم المخيف في القاهرة، ولكن خادمنا أراحني عندما جاء وهو يدعك عينيه المليئتين بالنعاس. يخبرني أن راشيل عند ابنتنا، لأنها لم تكن تتوقع عودتي قبل شهور.

أرسلته لإبلاغ راشيل أن تحضر، بينما رحت أغتسل من البئر الموجودة في الفناء. كنت مرهقا من رحلة الليل الطويلة. وعلى الرغم من أنني أصبحت معتادًا على ركوب الخيل، فإنني لم أستطع الاسترخاء مثل صلاح الدين. كان ظهري يؤلمني وساقاي متخشبتان، وكان للماء مفعوله المفيد. دخلت واستلقيت على الفراش.

كنا في منتصف النهار عندما نبّهتني غمغمة طفل صغير بالقرب من وجهي. قمت لأجد ابنتي وزوجتي المبتسمتين. بدا الطفل كبيرًا، وتبدو عليه علامات الصحّة، ولكنه صرخ عندما حملته وقرَّبته من وجهي كي أقبّل وجنتيه. أخذته راشيل، ثم عانقت أمه وأمها التي همست في أذني: "هذا الطفل مكافأة أيام الألم والعناء، ما زلت حيًّا وبصحة جيدة. الحمد لله".

"ربما، ولكن انتصارات السلطان ساعدت إلى حد ما في ذلك".

رحنا نضحك، ثم تكلمت مرة أخرى.

"كنت أفكر أنا ومريم ما إذا كان من الأفضل أن نزور بيتنا في القاهرة، ونقضي الشتاء هناك هذا العام. زوجها سيأتي معنا. له أصدقاء كثيرون في القاهرة، ولم يسبق له أن رأى المدينة. كنا ننتظر موافقتك".

"موافق بالطبع، كنت أتمنى فقط أن أكون معكم، إلا أننا سوف نرحل في غضون أيام قليلة قاصدين أورشليم. السلطان لن يؤجل أكثر من ذلك. سيصلي في المسجد الأقصى قبل نهاية الشهر، وسأزور موقع الهيكل القديم، بعد ذلك، لو سمح لي ببضعة أشهر، سألحق بكم إلى القاهرة".

ابتسمت راشيل. كانت تظن أنني لا أتمنى أن تطأ قدمي ذلك المنزل مرة أخرى، بسبب ارتباطه بالذكرى المؤلمة لتلك الغرفة المقببة. إلا أن هناك حدودًا للغيرة، فإذا كنت قد سامحت راشيل، وإذا كنت، إلى حد ما، قد نسيت حجم خيانة ابن ميمون، فكيف يمكن أن أظل كارها للمنزل؟ ليس الخطأ في أحجار تلك الجدران، الخطأ فينا نحن. بعد ذلك عندما كنا وحدنا في المساء قلت ذلك كله لراشيل.. وأكثر منه. عاد الصفاء بيننا. كنا ننام في أحضان بعضنا شاعرين أن الماضي قد دُفن أخيرا.

للأسف وجدت أخبارًا سيئة في انتظاري عندما وصلت إلى القلعة ذلك المساء. اندفع الخصي أمجد يعانقني بشدة، وعندما انصرف شعرت ببلل على وجنتي.

حليمة ماتت في القاهرة قبل أيام. عبّر السلطان عن حزنه، وطلب من ابن ميمون أن يتحرى الأمر، ويرسل إليه تقريرا قبل نهاية الأسبوع.

أصابتني الأخبار بالذهول. لم تمرض حليمة يوما واحدا طوال معرفتي بها. ما الذي يمكن أن يكون قد أصابها؟ تداعت صورها في ذهني في تتابع سريع. رأيت وجهها شاحبًا وبلا حراك تحت البرقع. بكيت.

"وكيف كان وقع الخبر على جميلة؟"

بقي أمجد صامتا.

كرّرت السؤال عليه.

"نقلتُ الخبر إليها. نظرت في عيني ولكنها ظلت هادئة تماما. لم يظهر على وجهها أي أثر. لا شيء. ربما تخفي ألمها تحت قناع. ربما!".

سلبتني الأخبار المبتورة عن حليمة كل قدرة على التركيز. جلست في اجتماع مجلس الحرب مذهولاً. صوت السلطان الهادئ، تعليقات عماد الدين والفاضل الحماسية، ومشاعر الاهتياج والترقب التي بدت على الأمراء، كل ذلك كان أشبه بخلفية من ضجيج وضوضاء. كنت متلهفا على رؤية جميلة لتقديم العزاء، لكي نتذكر حليمة، لأبكي، لأعرف شعورها الحقيقي تجاه موت شخص كان يعني الكثير بالنسبة لها، وأثّرت في حياته بقدر كبير.

لأول مرة منذ عملي لدى السلطان، لم أقم بالواجبات المطلوبة مني. قارئي العزيز.. لم أسجّل شيئا عن ذلك الاجتماع الحاسم الذي قرّر مصير أورشليم. لا شيء في دفتري عن هذا الموضوع.

فيما بعد، كتبت عن ذلك الاجتماع بمساعدة عماد الدين، ولكنه، كدأبه دائمًا، نسب الدور الحاسم لنفسه، وزعم أن السلطان لم يكن حاسمًا إلى أن تكلّم هو. أعرف يقينا أن الأمر لم يكن كذلك، ولهذا السبب استبعدت شهادة ذلك العلامة باعتبارها لا تليق به. ما كشفت عنه الأسابيع التالية هو أنه كان هناك إجماع بين كل من حضروا المجلس في تلك الليلة الحاسمة على حتمية الاستيلاء على أورشليم.

شتت خبر الوفاة عقلي وتركه ممزقا. طلبت أن أرى جميلة ولكنها لم توافق إلا بعد يومين. جاء أمجد حزينا وصامتا على غير عادته إلى المنزل لإبلاغي.

انتظرتني في الغرفة الجانبية المعهودة، الغرفة التي التقيت فيها حليمة مِرارًا. للحظة، رأيت ملامح جميلة تذوي وتختلط بملامح صديقتها المتوفاة. انعقدت يداي بشدة لدرجة الألم. عدت إلى الحاضر. نظرت في وجهها وتذكرت وصف أمجد. لا أثر للحزن في عينيها.

"طلبت مقابلتي يا ابن يعقوب؟"

كان البكاء هو ردي الوحيد. أظن أنني أبصرت عينيها تومضان للحظة، ثم عادت لطبيعتها بسرعة. نظرت إليَّ نظرة غريبة.

"لقد جئت يا سيدتي السلطانة للتعبير عن حزني لموتها، أعرف أن فراقكما كان

محزنا، ولكن.."

قاطعتني بنظرة غضب.

"لقد افترقنا دون تبادل للاتهامات. أرادت أن نكون صديقتين ولم يكن ذلك ممكنا. إلا أننا اتفقنا على ألا تكون بيننا عداوة ومرارة. هل تعتقد أنني باردة عديمة المشاعر؟"

تنهدت.

"أحيانا يكون الحزن لا طائل منه يا ابن يعقوب. موتها مؤلم. وجهها يظهر لي وسرعان ما يختفي. القلوب يمكن أن تستحيل حجارة. دعني أفاجئك يا ابن يعقوب.."

لقد أثّرت فيَّ أخبار موتها وإن على نحو غريب. لقد ساعدتني على اكتشاف سعادة داخلية. أعتقد أنك ستصدم، ولكنها الحقيقة. أشعر مرة أخرى أنني متصالحة مع نفسي. انتهى فصل مؤلم إلى الأبد. ما يتبقى ذكريات. بعضها سعيد ومعظمها حزين. هكذا ترى يا صديقي أنني أمام خيار. رأيي فيها يتوقف عليَّ فقط، على حالتي النفسية، وهذا، أؤكد لك، يجعلني أشعر بالراحة التامة. كنت أجد صعوبة، منذ أن افترقنا أنا وحليمة، في أن أكتب. الآن، بدأت مرة أخرى، ويوما ما سأجعلك تقرأ ما كتبت".

أذهلتني قسوتها. كيف يمكن أن تكون لا مبالية بمصير حليمة إلى هذه الدرجة؟ رأت التساؤل على وجهي ورأيت عينيها تضيقان.

"أعرف ما يدور بعقلك يا ابن يعقوب. أنا في رأيك إنسانة بلا قلب، امرأة بلا رحمة. أنت تنسى أن حليمة ماتت بالنسبة لي قبل وقت طويل. بكيتها كثيرا، وظل ألم الفراق يعذبني شهورا. جفاني النوم، ولكن ذلك كله اختفى منذ مدة. عندما جاءني الخصي أمجد باكيا ليبلغني بخبر موتها، لم أشعر بأي شيء، أفهمت؟"

نظرتْ في عينيَّ وابتسمت.

"فهمت يا سيدتي السلطانة. أما بالنسبة لي فالشيء الحقيقي هو أنها لم تعد موجودة. لقد دُفنت تحت الثرى. لن نسمعها وهي تضحك مرة أخرى. من المؤكد أن ذلك مختلف عن الموت الذي يفرضه عقلك على قلبك".

أثرتُ غضبَها.

"لا! بل يفرضه قلبي على عقلي. آخر ما وصلني عنها من أخبار من القاهرة، كان عن أنها أقلعت، مرة أخرى، عن أحضان الرجال. وجدت امرأة أصغر سنا، أقرب إلى عمرها مني، أو هكذا أبلغوني. لم تكن الاثنتان تنفصلان عن بعضهما. دبت فيَّ موجة من الغيرة والغضب، ولكن لا أكثر من ذلك. لا شيء أكثر. انتهت تماما بالنسبة لي. ماتت. قالوا لي إن آخر عشاقها من الرجال دسّ لها السم. مملوك مسكين مضلل. سيعاني أكثر من ذلك لو اكتشف صلاح الدين الحقيقة".

المعلومات التي سمعتها من جميلة جعلتني أكثر انتباها ويقظة. قام ابن ميمون بتشريح الجثة وأفاد تقريره بوجود جرعة كبيرة من السم. الكل يشير بأصبع الاتهام نحو المملوك الذي يقول إنه بريء، ولكنه أُعدم بأوامر من القاضي. وحده الخصي أمجد غير مقتنع.

"لقد دسّوا لها السم يا ابن يعقوب. المسكينة ماتت مسمومة. ولكن من الذي أمر بذلك؟ لن نعرف الحقيقة. هذا المملوك البائس، مثلي، استخدمته لإشباع رغباتها الجسدية. لذا، أشعر بقدر من التعاطف مع ذلك المسكين. أشعر في قرارة نفسي أن جميلة هي التي أرسلت السم.. والتعليمات".

"كفى هراء يا أمجد. إن ما تفكر فيه أسوأ من السم الذي قتل حليمة. اطرد ذلك من قلبك الشرير قبل أن يقتلك".

شحب وجه الخصي.

"لم أبح بشكوكي لأي مخلوق آخر. أردت أن أشركك فيها، ولكن نصيحتك حكيمة. إذا لم أخمد هذه الأفكار فلربما أودت بي إلى التهلكة. اطمئن يا ابن يعقوب، سأخمدها. لست مفتونًا بفتنة الاستشهاد".

على الرغم من كل محاولاتي، لم أستطع أن أطرد كلمات أمجد من ذهني. لقد زرع ذلك الخصي البائس بذرة سم في عقلي كذلك. أيمكن أن يكون ذلك صحيحا؟ أيمكن أن تكون جميلة هي التي أمرت بقتل عشيقتها السابقة بالسم؟ فكرة مروّعة! بعد ساعات قليلة من الألم توصلت إلى استنتاج، يبرئ جميلة. الحزن هو الذي سمم أمجد. فجأة، قطع عليَّ أفكاري صوت عماد الدين المألوف.

"تبدو مهموما أيها الكاتب. آمل أن ترافقني هذا المساء في زيارة لأجمل بلابل

دمشق. هل تتذكر؟ زبيدة. المرأة التي غزت قلب صلاح الدين عندما كان صبيا، ولكنها رفضت أن تمنحه جسدها".

"وهل يمكن أن أنساها؟" هكذا رددت. "لقد أمسكت بي في لحظة غير مواتية. كنت أتفجع على الموت المأساوي للسلطانة حليمة".

تجهّم وجه عماد الدين.

"هناك شائعات مغرضة طافية على سطح النيل. الفاضل يقول لي إن المملوك الذي أُعدم بسبب هذه الجريمة، أصرَّ على أن يتحدث معه على انفراد. فلمّا وافق، همس المجرم في أذن الفاضل" "لقد دسست السم، ولكن السلطانة جميلة هي التي أرسلته بعد أن تعهدت برعاية أسرتي". بالطبع، لم يخبر الفاضل السلطانة ولا أي شخص آخر غيري. أنا أقول لك ذلك لأن الاثنتين عزيزتان عليَّ.

الحب يمكن أن يودي بنا كلنا للجنون، والغيرة هي طفله الشرير. ما فعلته جميلة لا يُغتفر، ولا يمكن أن يتصوره أحد. إلا أنني لكي أكون أمينا معك، لا بدَّ من أن أقول لك إن الأخبار لم تصدمني. لكي يفهم المرء جميلة لا بدَّ أن يكون قد جرّب فَقْدَ حبيب. من أسف أنك سمكة ماء بارد يا ابن يعقوب! لن يحدث لك ذلك. تعال معي.. نستمع إلى البلبل وهو يشدو. زبيدة كفيلة بأن تنسيك كل شيء".

وافقت على أن أصحبه، ولكنه كان مساء ثقيل الوطأة فاستأذنت كي أعود إلى المنزل لأستحم وأبدّل ثيابي. وحيث إن منزل زبيدة لم يكن بعيدًا عن مسكني، وافق على أن يأتي ليصحبني في غضون ساعة. لم تكن برودة الليل قد حلت، وكانت قلة النسيم تجعل عرقي يتفصّد غزيرا وأنا في طريقي إلى المنزل. أخبرت راشيل بقصة موت حليمة دون أن أذكر اسم من دس السم. خلعت ثيابي في الفناء وصببت دلوا من الماء البارد من البئر على رأسي. ثم جاءت راشيل بمنشفة.

ذهني شارد. شخص واحد أردت أن أراه تلك الليلة. جميلة. أردت أن أواجهها باتهامات أمجد والفاضل وعماد الدين. وددت لو ألقي بها في وجهها وأرى رد الفعل. كنت أريد الحقيقة، إلا أنني لم أكن أريد أن أفقد صداقة جميلة. كنت أريدها أن تبصق في وجه من يطلقون مثل تلك الافتراءات القذرة. بعد أن ارتديت ثيابي كتبت ورقة صغيرة وأرسلتها إليها أطلب لقاءها في اليوم التالي.

طرق خادم عماد الدين الباب. قدمتُ الشاي للضيف العظيم، ولكنه لمس خده الأيسر وهز رأسه. لم أكن قد لاحظت الورم ذلك المساء، وكان يبدو أنه يؤلمه.

قال متوجعا: "ضرسي يؤلمني يا ابن يعقوب. كنت أمصّ بعض القرنفل كي أسكن الألم، ولكن يبدو أنه لا بدَّ من خلعه غدا. الحقيقة أنني لست في حالة مزاجية لأي شيء هذه الليلة سوى العزلة في غرفة نومي. لكن زبيدة لم تغنّ من سنوات. إنها تجربة لن تنساها، شيء ستروبه لأحفادك".

سبقنا منادي المدينة في الشوارع، يفسح الطريق لنا وسط أسر وأطفال كثر، خرجوا يلتمسون نسمة هواء.

"الطريق.. الطريق.. أفسحوا الطريق لعماد الدين العظيم، مستشار السلطان يوسف صلاح الدين بن أيوب".

رأينا وجوها مألوفة أمام منزل زبيدة. رفع حرس السلطان الشخصي السيوف عندما اقتربنا، ولكنهم خفضوها عندما تعرفوا علينا. النوبي الأبكم، الذي يعمل لدى السلطان منذ أن عملت لديه، ابتسم ابتسامة عريضة عندما وصلنا وأسرع لفتح الباب المؤدي إلى الفناء.

كل شيء كان معدًّا لتكون مناسبة في الهواء الطلق. الفناء مضاء والأرضية مفروشة بالسجاد والحشايا. لم يكن هناك أكثر من خمسة عشر شخصا. المدهش أن السلطانة جميلة كانت حاضرة. ابتسمت سرورًا عندما رأتني، فتسارعت دقات قلبي.

انحنينا للسلطان، فابتسم وأشار لنجلس إلى جواره. قدمنا لزبيدة. كانت تقترب من عامها السبعين، ولكن وجهها يشع جاذبية أدهشتني. شعرها الأبيض يلمع في الظلام ويضيء وجهها. لم تكن قد صبغته بالحناء كي تخفي عمرها. ملامحها سمراء بخلاف ملامح جميلة التي كنت أحاول أن أنساها ذلك المساء، والتي هزني حضورها.

عينا زبيدة واسعتان.. كلهما حيوية دون أي أثر للحزن أو الندم. عاشت حياة راضية، ولكن هل تراها كانت حياة بلا ألم؟ وهل هناك حياة.. أي حياة بلا ألم؟ راقبتني وأنا أنظر إليها، ثم ابتسمت فجأة. فاندهشت لبياض أسنانها الثلجي. كيف استطاعت -بحق الله- أن تحافظ عليها هكذا؟

وكأنها سمعت ما يدور بداخلي من تساؤلات.

"لقد حدّثني عنك صلاح الدين يا ابن يعقوب". خرج صوتها عميقا وصافيا. "أعرف ما يدور بذهنك. لماذا روحي هادئة ونفسي مطمئنة؟ أنا لا أريد شيئا. لست نادمة على شيء. أتمنى أن يأتي الموت عندما يأتي سريعا سرعة سيف صلاح الدين عندما يهوي على رقاب الفرنج".

"أيتها الأم زبيدة، جئنا كي نسمعك تغنين".

خرج صوت السلطان ناعمًا أكثر من المعتاد.

كان هناك عازفان ينتظران بصبر. كلاهما أخذ يداعب العود بأصابعه. نظرت إليهما ووضعت أصبعا على شفتيها. بلا موسيقى أرادت أن تغنّي الليلة. ساد صمت وترقُّب.. ثم بدأت تغني.

كأنني أحلّق في السماوات مأخوذًا بسماع صوتها. صوت فريد. لا مثيل له. لم أسمع مثله لا من قبل ولا من بعد. غنت من تأليفها أغنية بسيطة وقصيرة. لكنها شدت بها على مدى نصف ساعة. أخذت تكرّر كل جملة عدة مرات بتنويعات مختلفة.

في ليلة دافئة، جلسنا نحتسي النبيذ،

داعبت نسمة ناعمة وجهي المُحمر،

أخذني للشرفة لأرى القمر،

يريد أن أصدق أنه يعشق أخرى.

ضحكت. بكيت.

ولم أصدق.

لا..لا لم أصدق.

"أيها الأحمق المسكين

أنت صغير.. تخلط الحقيقة بالأحلام.."

ابتسم وتركني.

دمعة مالحة وحيدة، بللت خدي

وعرفت أنني أنا من يخلط الحقيقة بالأحلام..

نعم.. أنا،

إنه أنا!

لم تُغنِّ زبيدة بعد ذلك تلك الليلة. لكن العازفين عزفوا لنا في أثناء تناول الطعام الذي أُعد في مطبخها بعناية. كان السلطان معتدلا في أكله، ولكن ضرس عماد الدين الموجوع لم يمنعه من الاستمتاع بأصناف اللحوم الأربعة التي وُضعت أمامنا.

بعد العشاء، عُزف المزيد من الموسيقى، وفي أثنائها تهيّأت جميلة للانصراف. طلبت مني أن أصحب المحفّة التي ستعود بها إلى القلعة. أومأ السلطان موافقا، وودعتُ المغنية العظيمة التي دعتني لزيارتها ثانية كي تقصّ على قصتها.

لم تنتظر جميلة حتى أتكلم.

"لقد سمعتَ إذن كل الحديث الشرير!"

"هل ذلك صحيح يا سيدتي السلطانة؟"

"أنت تعرف جيدا أن حبي خالص مثل كرهي تماما. الغيرة سم ينبغي القضاء عليه كي تفسح في رؤوسنا فضاء أوسع للأفكار النبيلة. هذا هو كل ما يمكن أن أقوله بهذا الخصوص".

مضيت صامتا بينما كان حملة المحفّة يعدلونها قليلا كي يسهل عليهم صعود المنحَنى المؤدي إلى القلعة. صرفتني بضحكة وحشية.

"يمكن أن تعود إلى زوجك يا ابن يعقوب. استمتع بحضنها لأنك مغادر إلى القدس غدًا، والله أعلم بما سيكون من أمركم كلكم".

بدت راشيل، ذات المزاج المعتدل دائمًا، مشدودة الأعصاب عندما عدت إلى المنزل.

قالت: "الفرنج سيدفعون السلطان ثمنًا باهظًا قبل أن يتخلّوا عن أورشليم. أخشى أن تكون جزءًا من هذا الثمن. لديَّ هاجس مرعب بأنني لن أراك ثانية".

هدأتُ مخاوفها. أخبرتها كيف أن صلاح الدين يحرص دائمًا على أن أكون بعيدا عن أي خطر حقيقي. سخرت من خزعبلاتها. حاولت أن أضحكها إلا أنني فشلت تماما. كان يبدو أن لا شيء يمكن أن يزيل ما تشعر به من قلق. كنت أريدها.. ولكنها كانت مترددة، وهكذا رقدنا صامتين، كلانا في حضن الآخر، إلى أن غلبني النوم.

"أيقظني رسول من القلعة قبل انبلاج الفجر. راشيل لم تنم. جلست في الفراش تراقبني وأنا أرتدي ثيابي، ثم وأنا أودّعها، كادت أن تخنقني وهي تعانقني بشدة وكأنها لن تتركني. بهدوء، خلصت نفسي من يديها، وقبّلتها في عينيها، وهمست في أذنها "بعد الانتصار في أورشليم سأجيئ إلى منزلنا في القاهرة لنحتفل معا. سأكتب لك باستمرار". لم ترد.

(35)

• عندما كتبت رسالة شوق ولهفة من ضواحي أورشليم إلى زوجتي الفاضلة في القاهرة

زوجتي العزيزة الغالية،

من الغريب أن أفكر بك، وقد عدت إلى ذلك المنزل القديم الذي يضم ذكريات معظمها سعيد. هذه الرسالة تأتيك مع الساعي الذي يحمل الرسائل الملكية من العادل إلى القصر، لذا سوف تصلك بأسرع مما لو كنت قد أرسلتها مع القافلة.

مرَّ شهر تقريبا منذ أن رحلت، وهذه هي أول فرصة تسنح لي لكي أجلس وأكتب إليك. نحن نقيم في خيام بالقرب من أسوار أورشليم. شعور غريب أن يكون المرء قريبًا هكذا من المدينة المقدّسة. لقد عرض عليهم السلطان شروطا معينة، ولكن بعض الحمقى يريدون أن يموتوا حاملين صلبانهم اللعينة.

لعلك سمعت من أصدقائنا في مصر لماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت. عندما سرنا من دمشق تملكت السلطان إحدى نوبات تردّده المعهودة. كان يريد أن تبقى القدس إلى أن ينتهي من تطهير الشاطئ. مرة أخرى كان يريد الاستيلاء على صور، ولكن المقاومة كانت شديدة، وكان الأمراء مصممين على الاستيلاء على المدينة أيا كانت الخسائر. كانوا يشعرون أنها أصبحت رمزا لمقاومة الفرنج وينبغي محوها من على الخريطة، وكان صلاح الدين غاضبًا لأنها استهلكت الكثير من وقته بالفعل. ثم قرر أن نمضي في طريقنا وأن نحاصر عسقلان.

صمد الفرنج أربعة عشر يومًا تقريبًا، ولكن السلطان جاء بملكهم جي من دمشق،

وعرض عليه أن يطلق سراحه إذا استسلموا، وهم فوّضوا جي كي يتصرّف نيابة عنهم ويتفق مع السلطان على الشروط. لم نخسر كثيرا من رجالنا. يوم أن استولينا على المدينة، تغيّر الطقس فجأة إلى برودة شديدة، عندما اختفى وجه الشمس تماما. في ذلك اليوم، وصلت جماعة من وجهاء أورشليم إلى عسقلان، وعرض عليهم السلطان شروطا جديدة إن هم سلّموا المدينة المقدسة. وبدورهم وعدوا السلطان أن يشجّعوا الفرسان على قبول العرض. لكن البطرك وبّخهم بشدة فور عودتهم. لم تكن الكنيسة تريد أن تسلّم المدينة التي صُلب فيها المسيح دون قتال.

لم يسمح السلطان لليأس أن يتملكه عندما سمع تلك الأخبار. استرد ثقته بنفسه رغم أحداث صور. يعود الفضل في ذلك إلى وجود العادل، أقرب أشقّائه إليه منذ طفولتهما. بالنسبة للباقي، فإن صلاح الدين مقتنع الآن بأنه سيكون في أورشليم قبل مطلع الهلال الجديد. أي بعد سبعة عشر يوما تقريبا.

عندما علم أن البطرك، وفرسانًا مثل باليان صاحب إبلين يستعدون لحمل السلاح ثانية، أمر السلطان كل جنودنا في المنطقة أن يتبعوه، وأن ينصبوا خيامنا أمام أورشليم. وذلك رغبة في استعراض قوة جيوشه. ولكنه، في الوقت نفسه، كان مستعدا للحرب لو لم يكن هناك خيار آخر. بالأمس، نقلنا خيامنا إلى الحد الشرقي للمدينة. ظنَّ الفرنج أننا نترك المكان بلا رجعة، ولوَّحوا لنا ساخرين من على الأسوار، فضحك العادل من حسن ظنونهم. بدلا من ذلك، وضعنا أبراجنا في أماكنها فوق الوادي الذي يطلقون عليه اسم كدرون. تبدو الأسوار هنا أقل حصانة. من هذا المكان الذي أكتب منه الآن هذه السطور، يمكنني أن أرى رايات السلطان ترفرف على جبل الزيتون. عمل رجالنا، طوال الليل، للتأكد من تلغيم البرج المؤدي إلى المدينة.

عشرة آلاف من جنودنا جعلوا من المستحيل على الفرنج أن يستخدموا اثنتين من أهم بواباتهم. رماة سهامنا موجودون تحت الأبراج مباشرة يترقبون قواتهم. القاضي الفاضل يصف سهامهم بأنها تشبه "أعواد تسليك فتحات إطلاق النار"، وهو وصف دقيق اعترف به حتى عماد الدين، الذي كان يتمنى أن يبقى الفاضل في القاهرة ليكون هو المؤرخ الوحيد للانتصار.

وكما تعرفين يا عزيزتي راشيل فإنهم، حتى، لا يتعطفون لكي يعتبروا زوجك خصما أو منافسا، بالنسبة لهم أنا لست سوى صاحب قلم لفت نظر السلطان في لحظة حظ. هذا هو موقف عماد الدين مني عموما. عادة ما يقص عليّ ونحن على انفراد

حكايات يتمنى أن أسجلها منسوبة إليه ليضمن أن يذكر اسمه في الكتاب العظيم لصلاح الدين. القاضي الفاضل أكثر غموضا. وأكثر حذرا. ولكن عمله هو اهتمامه الرئيسي. نادرا ما يأخذني بجدية، ولكنه مفيد عندما أحتاجه للتأكد من أمر أو لتدقيق شيء ما.

بالأمس جاء باليان صاحب إبلين لزيارة السلطان. كان السلطان قد أبقى على حياته في حطين وتعهد ألا يحمل السلاح ضده مادام حيا. الآن، قال لنا إن البطرك قد أحله من قسمه.

سأله السلطان: "وربك؟ هل سيسامحك هكذا ببساطة؟"

بقي باليان صامتا وحوّل بصره بعيدا، ثم توعد صلاح الدين مهددا، بأنه إن لم يسحب جنوده فإن الفرنج سوف يحرقون نساءهم وأطفالهم، ثم يشعلون النار في المسجد الأقصى قبل هدم الصخرة المقدسة. بعد ذلك سيقتلون الآلاف من المؤمنين في المدينة ثم يخرجون إلى السهل بسيوفهم مرفوعة ليموتوا في الحرب ضد الكفار.

ابتسم السلطان. فقد أقسم أن يستولي على هذه المدينة بالقوة، وعلى الرغم من ذلك عرض على الفرنج صفقة كريمة. سوف يسمح لكل المسيحيين بالمغادرة بشرط أن يدفعوا فدية للخزينة. الفقراء المسيحيون سوف يطلق سراحهم مقابل أموال من خزينة الملك التي تركها له الاسبتارية، وأمهلهم صلاح الدين أربعين يوما لتدبير الأموال اللازمة لذلك.

"اسمع يا باليان، عندما استوليتم على هذه المدينة ذبحتم اليهود والمؤمنين ذبح الماشية. يمكننا أن نفعل بكم الشيء نفسه، ولكن الانتقام الأعمى شراب خطر. لذا سنترك شعبكم يعيش في سلام. هذا هو عرضي الأخير لقادتكم. ارفضوه، وسوف أحرق هذه المتاريس ولن أبدي أي رحمة. الخيار لكم".

اليوم جمعة، وهو اليوم المقدس عند المسلمين. الثاني من أكتوبر والسابع والعشرين من رجب في التقويم الإسلامي. في ذلك اليوم حلم نبيّهم حلمه الشهير، وزار هذه المدينة في منامه. واليوم، وكما كان حتى أقلّهم تديّنا يقول لنفسه وللآخرين منذ الفجر: لقد استسلم الفرنج ووقعوا شروط الاستسلام. عندما انتشر الخبر، دوَّت صيحة "الله أكبر"، وكان ذلك المشهد المثير لألوف مؤلفة من الرجال يسجدون نحو مكة شكرا لله.

ثم ساد صمت. صمت من لا يصدق. كنا ننظر إلى بعضنا بعضا في دهشة متسائلين

ما إذا كان ذلك قد حدث بالفعل، أم تراه حلمًا؟ بعد تسعين عامًا، أصبحت أورشليم أو القدس لنا مرة أخرى. لنا كلنا.

في غضون ساعة بالضبط، سوف يدخل السلطان المدينة على حصانه، وسأكون إلى جواره يا عزيزتي راشيل. في هذه اللحظة سأفكر فيك وفي أسرتنا الصغيرة، ولكنني الآن أفكر في صديقي القديم شادي. كان يتمنّى أن يشهد ذلك اليوم، وأعرف أن طيفه سيكون على حصان خلف صلاح الدين يهمس في أذنه، كما كان يفعل دائمًا.

"انظر أمامك، أنت حاكم. لا تخفض عينيك. تذكر أنك السلطان الذي استعاد قدسنا وليس الخليفة في بغداد، حتى ونحن نسير سيكون ذلك الخليفة المزعوم غارقا في ملذاته".

يمكن لشادي أن يقول ذلك كله للسلطان، ولكنني لا أملك من النفوذ ما يجعلني أقوله. عماد الدين في طريقه إلى دمشق، والفاضل ليس هنا. ترى بم سينصحانه بعد أن استولى على المدينة؟

أنا معه وحدي والمسئولية جسيمة. ماذا أقول له لو طلب مشورتي؟ في أوقات كتلك أشعر بالضعف، وأدرك أنني لست سوى كاتب أجير.

أقبّل وجنتيك وأتمنى أن أراك قريبا. قبلاتي لابنتنا ولحفيدنا، أنا سعيد لأن هناك حفيدا آخر في الطريق. ربما يجب أن تأتي إلى أورشليم، أعتقد أنني سأبقى هنا بعض الوقت.

زوجك

ابن يعقوب

(36)

● صلاح الدين يستولي على القدس ● عماد الدين يضع عينيه على مترجم قبطي جميل ● جميلة تتصالح مع ذكرى حليمة

دخلنا المدينة من باب داود. لم يكن السلطان في حاجة إلى شادي كي يقول له إن رأسه ينبغي أن يكون مرفوعا. ذهب إلى المسجد مباشرة. ملأت أنفه رائحة الفرنج ورائحة حيواناتهم الكريهة، حيث كان الاسبتارية وفرسان الهيكل يستخدمونه إسطبلا لخيولهم. قفز من فوق حصانه وأدّى صلاة شكر لله.

عندما خرجنا بدا صلاح الدين شديد التأثر لرؤية منظر المسيحيين المثير للشفقة وهم يئنون ويبكون. نساء يندبن، ورجال يقبّلون الجدران، وأطفال يتشبّثون بأمهاتهم وجدّاتهم. أوقف حصانه وأرسل في طلب باليان الفارس الفرنجي.

بينما كنا ننتظر، رفع السلطان بصره وابتسم. كان عَلَمه مرفوعًا يخفق على القلعة، وهتاف الجنود وتهليلهم يعلو على ضوضاء المسيحيين من وقت لآخر. مرة أخرى، فكرت في شادي، وكذلك صلاح الدين. استدار نحوي وفي عينيه دمعة.

"ما كان أبي أو عمي شيركوه ليصدّق أن هذا يمكن أن يحدث. لكن شادي كان يعرف دائمًا أن راياتي سوف ترتفع يوما ما على القدس. الآن.. في هذه اللحظة.. أفتقده أكثر من أي شخص آخر".

قطع مجيء باليان حديثنا.

سأله السلطان "لماذا يبكون بحرقة هكذا؟"

"النساء يبكين يا سيدي على أزواجهن القتلى أو الأسرى، الكبار يبكون خوفا لأنهم لن يروا هذه الجدران المقدسة مرة أخرى، والأطفال في حالة ذعر".

قال صلاح الدين "قل لشعبك إننا لن نعاملهم كما عاملنا أسلافكم عندما استولوا على هذه المدينة أولا. عندما كنت طفلا، عرفت ما صنعه جودفري وتانكريد بشعبنا. أراك تدير عينيك يا باليان، وينبغي عليك ذلك. أنت كذلك كنت قد أقسمت. القسم أمام الله لا يمكن أن يحنث به أحد سواء أكان بطركا أو بابا. إذا كان ذلك مفهوما فسنكون كرماء معكم. لو سمعت بأن أيا من جنودنا انتهك شرف أي مسيحية تعال وأخبرني. لو سمعت بتدنيس أي من مقدّساتكم من قبل رجالي دعني أعرف فورًا. لن يكون مسموحا بذلك. هذا عهدي بصفتي السلطان".

ركع باليان على ركبتيه وقبّل رداء صلاح الدين.

"لقد أبديت كرما لا نستحقه أيها الملك العظيم، لهذا فقط، لن ننساك. أنا، بالأصالة عن نفسي، أقسم أمام الله أنني لن أحمل السلاح ضدك مرة أخرى".

أومأ صلاح الدين برأسه، وسارت جماعتنا عبر الشوارع نحو القلعة. كان منادو المدينة يعلنون شروطنا ويقولون للمسيحيين إنهم أحرار، في إقامة شعائرهم في كنائسهم وأضرحتهم. بدا الناس صامتين ونحن نمرّ بهم، ينظرون إلى صلاح الدين بفضول يشوبه الخوف.

تلك الليلة، تلقيت رسالة موقّعة من جون صاحب أورشليم. كان حفيد يهودي عجوز، أنقذ نفسه قبل تسعين عاما بأن حلق رأسه ولحيته وادّعى أنه مسيحي. لكنه بقي على عقيدته سرًا، وربّى ابنه على اليهودية.

كتب جون صاحب أورشليم: "لم أُختتن، ولكن أبي كان مختتنا. وكان فخورًا بعقيدته. كان من المستحيل أن أكون مثله خوفا من اكتشاف ذلك. عندما علمت أن كاتب السلطان ينتمي لعقيدتي قلت لا بدَّ أن أكتب له. سيكون شرفًا كبيرًا لأسرتي أن نستقبلك لنتناول الطعام معًا في يوم من أيام هذا الأسبوع".

وهكذا وجدت نفسي في منزل صغير مكوّن من غرفتين، أرتشف النبيذ مع جون والشقراء الجميلة مريم وابنهما، الذي كان في العاشرة تقريبًا، كان يراقبني في صمت خائفا.

"بدا خوفنا واضحًا. في المرة السابقة، كما لا بدَّ من أنك تعرف أكثر مني يا ابن يعقوب، عانى شعبنا كثيرا. الفرنج قتلونا كلنا. لا ننسى أبدا ذلك اليوم الرهيب ولا هم نسوه. ظنوا أن السلطان وجنوده الموجودين أمام أسوار المدينة سينتقمون انتقامًا رهيبًا. تدفّقت دموع الذنب والرعب. لقد وصلوا إلى السلطة على ركام من الجثث والأشلاء، ويخشون أن يصبحوا هم كذلك جزءًا من هذا الركام.

عندما جاءت الأخبار بأن أعيان الفرنج قبلوا شروطكم، ران صمت غريب على الشوارع. سكن كل شيء. لم يكن يكسر الصمت سوى صوت الخيول ووقع الأقدام وأصوات جنودهم الحادة، الذين فقدوا توازنهم الداخلي. كانوا يتحدثون ويضحكون بصوت عال، ولكن دون شعور بالإثم. حمقى.. مساكين! حاولوا إقناع أنفسهم بأنه يوم مثل غيره من الأيام. هل لاحظت أن من لا يشعرون بالأمان يتحدّثون بصوت عال، ويكونون أكثر قسوة على من يظنونهم دونهم مستوى؟

عندما دخل سلطانكم من باب داود سرت في المدينة موجة خوف ورعب. ما زالوا في حالة صدمة. لقد خذلهم الرب وانتصر الله. ما زال من الصعب عليهم أن يصدّقوا أنهم ما زالوا أحياء ويعاملون معاملة حسنة. بعضهم يعتقد أن تلك حيلة، وأنه سيتم إعدامهم عاجلا. شعوري الخاص، الذي ربما لا يكون مهما وعلى الرغم من ذلك أريد أن أوصله للسلطان، هو ألا يثق بالفرنج. لقد عشت عمري كله بينهم. أعرف كيف يفكرون وبما يشعرون. إنهم شعب نكد وممرور. من الأفضل أن يبقوا رهائن، تحسبا لما سيأتي من مصائب مؤكدة تتعاقب تعاقب الليل والنهار، من وراء البحار. لن يرحموكم. أرجو أن تنقل ذلك للسلطان من أحد المعجبين به. لقد كنت أصلي سرًا من أجل أن يجيء هذا اليوم".

مع انتشار أخبار انتصارنا، عمّ الفرح وصلوات الشكر كل أرجاء الخلافة. بدأ القضاة والعلماء يتوافدون على أورشليم بأعداد متزايدة.

كانت جميلة أول من وصل من زوجات السلطان. هذه المرة لم تسافر وحدها ولا تنكّرت في لباس رجل، وإنما دخلت المدينة بصحبة حاشيتها من الحراس المسلّحين والخصيان والوصيفات، وكأنها كانت قد عقدت العزم على أن تُري أورشليم أنها - وليس سواها - هي السلطانة الأقرب إلى فاتح المدينة المقدسة.

من جانبه، أشرف صلاح الدين بنفسه على تنظيف قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

حيث سُتلقى أول خطبة جمعة في غضون الأسبوعين التاليين. كثير من المسيحيين قرروا البقاء في المدينة، رغم أن معظمهم كانوا إما قبطا وإما ينتمون إلى الفئات التي لم تطلب أو تحظى بالموافقة على التعاليم الدينية التي يفضّلها الفرنج.

أما عماد الدين فقد كان في عالمه الخاص، يحيط به ستة من الكُتّاب، مشغولا بإملاء الرسائل إلى حكام العالم الإسلامي. ذهبت ذات مساء كي أبلغه أن السلطان في حاجة إلى مشورته بخصوص رسالة وقحة، وصلت مؤخرا من فردريك الأول باربا روسا، الإمبراطور الروماني. أخذ يحذّر السلطان فيها من مجرد التفكير في الاستيلاء على أورشليم. الرسالة، التي كانت مكتوبة باللاتينية، قرأها بالعربية بصوت عالٍ المترجم الجديد للسلطان. اسمه طارق بن عيسى. قبطي في الثامنة عشرة من عمره. وكان أسلوب أدائه الفكاهي قد أثار حالة من المرح. سحر القبطي، بوجهه الجميل، كل الحاضرين، حتى الذين لم يكونوا قد سبحوا نحو الشاطئ الآخر منّا. كنت أعرف أن العلامة العظيم سيكون من الصعب عليه أن يتحكّم في نفسه. وصفت المشهد لعماد الدين فضحك. ولكنه أراد أن يستفسر عن القبطي الجميل!

"ثمانية عشر عامًا فقط؟ مدهش! هل هو صبي محلّي؟"

هززت كتفي، "لا أعرف".

تطايرت في الجو بوادر البهجة والسرور عندما دخلنا غرفة السلطان. تناول عماد الدين الرسالة من طارق بن عيسى وراح يضحك.

سأله السلطان: "ما الذي يضحكك يا تُرى؟"

"تهديداته يا أمير الانتصار. اسمع يا سيدي:

"إذا لم تكفّ، فلسوف تعرف معنى الغضب التيوتوني، وغضب أبناء الراين والبافاريين الكبار، والسواب البارعين، والفرنج الحذرين، والساكسون الذين يلعبون بالسيوف، وأبناء وستفاليا، وغضب الشرسين من بورجندي، ومتسلقي الجبال أصحاب الأقدام السريعة من الألب. ستعرف غضب الفريزيان برماحهم، والبوهيميين الذين يموتون مبتسمين، والبولنديين الأكثر ضراوة من وحوش الغاب، كما ستعرف قوة ذراعي اليمنى التي لم يوهنها كبر السن ولم تعجز بعد عن حمل السيف".

المثير للاهتمام في هذه الرسالة، أنه لم يجد كلمات مرعبة ينسبها للتوسكانيين

والبيزيين.. ربما نسأله في ردنا عن هذا السهو. أما فيما يتعلق برجال بورجندي الشرسين، فهل تذكر سموكم ذلك الفارس البورجندي الذي التقيناه منذ سنوات؟ كان ضراطه أشرس ما في شخصيته، حتى أجبرتك الرائحة على مغادرة الخيمة تاركًا أنفي يتحمل حرائق الانفجار".

عندما تذكّر السلطان ذلك أخذ يضحك.

"أعتقد أن لا حاجة لتذكير الملك الألماني بذلك الحدث البائس. اكتب ردا الآن يا عماد الدين. هذا الشاب كاتب أيضا وسوف يدوِّن كلماتك".

نظر عماد الدين إلى الشاب وقد تملّكته الرغبة. نظر إلى عينيه، ولكن الكاتب القبطي حوَّل بصره بسرعة. بدأ مساعد السلطان في الإملاء وهو يتأمل جسد الشاب الرشيق دون خجل.

"إلى الملك العظيم فردريك صاحب ألمانيا:

بسم الله الرحمن الرحيم القوي القادر الناصر،

نشكرك على رسالتك، ولكن من أسف أنها جاءت متأخرة. بفضل الله، القدس الآن في أيدينا، تلك المدينة التي تدعونها أورشليم. هناك ثلاث مدن هي المتبقية في أيدي المسيحيين، صور وطرابلس وأنطاكية. ولكن اطمئن أيها الملك القوي فسوف نستولي عليها كذلك. لم نستطع إلا أن نلاحظ أنك لم تجد كلمات تصف بها بسالة التوسكانيين والفينيسيين والبيزيين، وهذا مما يزعجنا، لأننا على علم بصفات الرجال الذين يجيئون من تلك المناطق. إنهم جميلو الأجسام والعقول، ويحققون كثيرا من المتعة للبدو المتعطشين للحب والحياة في الصحراء. إننا نتطلع إلى رؤيتهم مرة أخرى.

أما إذا كنتم تريدون الحرب، فنحن في انتظاركم، ولكن لتفهموا ما يأتي: بمجرد أن تصبحوا هنا، سيكون بينكم وبين بلادكم بحر. لا شيء يفصلنا عن شعبنا وممتلكاتنا. لذا سوف نهزمكم حتى فجر يوم القيامة. هذه المرة لن نكتفي بمدنكم الموجودة على ساحل بحرنا، وإنما سنعبر الماء وسيكون من فضل الله علينا أن نستولي على أراضيكم، حيث سيدفن رجالكم هنا تحت الرمال.

كتب في عام 584 بفضل من الله ورسوله

ويحمل توقيع: فاتح القدس: يوسف بن أيوب

نظر عماد الدين إلى الجمع مستمتعا بتقريظ رسالته. أكثر ما أدخل السرور على نفسه كانت تلك الابتسامة الخجول على وجه طارق، ولكن السلطان كان يريد شيئا ما أكثر جدية في أسلوب الرسالة. أصبح صلاح الدين أكثر وعيا بمكانه في التاريخ. وفود العلماء الذين تجمّعوا في المدينة والرسائل التي تلقاها من المؤمنين في أنحاء العالم. ولا ننسى بالطبع التهاني التي جاءت من الخليفة وبلاطه في بغداد. كل ذلك أكّد له ثقته بنفسه. لهذا السبب، أراد أن تحمل كل الرسائل المرسلة باسمه لقبه الجديد: مُنقِذ العقيدة. انصرف عماد الدين إلى مكتبه كي يعيد كتابة الرسالة على نحو أكثر رصانة، ويقدّمها صباح اليوم التالي للسلطان لختمها.

بينما كنت أغادر الغرفة، شعرت بيد على كتفي. كانت يد الخصي النوبي صاحب الشعر الأبيض الذي سبق أن رأيته عدة مرات في القلعة في دمشق. طلب أن أتبعه بإشارات مبالغ فيها من يده. أخذني وتركني أمام إحدى الغرف وانسحب.

"ادخل يا ابن يعقوب"، قال الصوت المألوف من وراء الباب. صوت السلطانة جميلة.

دخَلْتُ وانحنَيْتُ. سبقت سؤالي الأول.

"أمجد للأسف لم يعد معنا. لقد نشر افتراءات كثيرة لأناس كثيرين، لدرجة أنني طلبت إبعاده. القهرمان تولّى الأمر. لا داعي للاضطراب. ما زال على قيد الحياة".

قبل أن أعبّر عن ارتياحي انتقلت إلى موضوع آخر.

"هل هناك لغة للقلوب يا ابن يعقوب؟"

ابتسمت، ولكنني لم أستطع أن أجيب. ألجمتني النقلة المفاجئة من خبر التخلّص القاسي من الخصي أمجد إلى عالم فلسفتها الحميم.

"فكّر جيّدًا أيها الكاتب. لا. لا يوجد؟ لعل قلبكم أبكم. معظم القلوب تتحدث بخليط من الحقيقة والأحلام، رغم أن النسبة الدقيقة بينهما مختلفة دائمًا، بما أن الظروف الخارجية هي التي تقرر كل شيء في نهاية الأمر. القلب ليس كتابا تستطيع أن تفتحه دائمًا عند نفس الموضع. إذا كان القلب ممزقا إلى قطع فإنه سيظل ينزف عدة أيام، وفجأة، يتحوّل

إلى حجر. أتوافقني؟"

أومأت برأسي. كنت أعرف جيدا ما جعل عقلها يمضي في هذا الاتجاه، ولكنها طلبت مني أن أسأل، ولذا طرحت السؤال.

"ما الذي جعلك تفكرين في ذلك كله في وقت كهذا يا سيدتي السلطانة؟ إننا نحتفل بسقوط أورشليم، ويدهشني أن أراكِ تنسحبين إلى ذاتك".

"لقد مرَّ قلبي بتحوّلات عدّة يا ابن يعقوب. ظل خفيفا لعدة شهور، ولكن تملكه ثقل كبير مرة أخرى. اليوم مثلا، الندم يمزقني. كان لا بدَّ من أن أتصالح مع حليمة قبل أن تجد نفسها مضطرة للهرب من غضبي واللجوء إلى القاهرة. جاءتني ذات مرة، وعيناها ممتلئتان بالحزن، وطلبَتْ أن نعود أصدقاء. كنت قاسية القلب يا ابن يعقوب. رفضتها. ازدريتها. لماذا؟ لأن الصداقة التي تعايشت مع الحب والعاطفة لا تفيد وحدها. السعي إليها وحدها دليل على عقل غير سليم. أولئك الذين يعتقدون أنهم نجحوا، يصرعهم الحزن عاجلا أو آجلا.

ثم ماتت. الألسن الشريرة اتهمتني بأنني أرسلت السم القاتل. كذبة حقيرة. أطلقها رجل على وشك أن يلقى وجه خالقه. رجل مجنون بالغيرة. ذلك المملوك الذي لم يستطع أن يتحمل حب حليمة لامرأة أخرى، اختار أن يلومني على عمله الأحمق. كما تعرف، أنا أيضا استأت جدًا عندما سمعت أن حليمة وجدت لنفسها امرأة أخرى. ولكن عقابها بالموت شيء لا يمكن تصوره. كنت أفضل أن تطول حياتها حتى أجد طريقة أفضل لتعذيبها. رغم أنني سأقول شيئا يمكن أن يكون صادما لك يا ابن يعقوب، ذلك كله جزء من لغة قلبي. ولكن عندما جاءني خبرُ موتها، كيف ماتت، لم أشعر بالاستياء.

لقد سمَّمْت حبنا. قتلتْ كل ما كان أثيرا بالنسبة لكلينا. بالسم قُتلتْ في مقابل ذلك. كان ردُّ فعلي قاسيا وجائرا، ولكن ذلك ما كان قلبي يقوله آنذاك. هذا هو السبب الذي جعلني أتقصّى العلاقة بين القلب والعقل. سوف أنتهي من الورقة التي أكتبها عن منطق القلب قبل أول خطبة جمعة في المسجد الكبير. لا تكن قاسيا في حكمك عليَّ. هذا وقتٌ للاحتفال. لقد استولى صلاح الدين على القدس. قلبي يعمُره الفرح".

استيقظت متأخرا في الصباح التالي لأجد حرارة الشمس تحرق وجهي. لم أنم جيدا. مرّت كلمات جميلة أمس على عقلي وتركتني مذهولًا. قسوتها على حليمة أغضبتني كثيرا. على الرغم من ذلك أعجبني جَلدها وأمانتها. كانت بالفعل امرأة، على خلاف

زوجها المحترم المحبوب، لا تؤمن بأن يكون لديها أسرى.

تمنيت أحيانًا لو أن جنًّا طيّبا يحوّل هذه السلطانة لتصبح سلطانًا.. ولو لأشهر قليلة.

(37)

• قاضي حلب يخطب في المسجد • السلطان يتلقّى رسالة من برتراند صاحب تولوز • أسرتي تموت حرقًا في غارة للفرنج على القاهرة

اجتمعنا بعد عشرة أيام في المسجد الأقصى العظيم. وذلك بعد أن تم تنظيفه، وأصبحت الحجارة تشع ببريق الجنة. حضر كل الأمراء والقضاة في إمبراطورية صلاح الدين. كذلك ابنه الأفضل وابن عمه تقي الدين وقائده المفضل الأمير كوكبري.

جاء المنبر، الذي صُنع لهذا الغرض، من دمشق. صعد قاضي حلب، بردائه الأسود وعمامته الخضراء الكبيرة، درجات المنبر مترددا. وعندما أمسك بحاجزه الخشبي ليوازن نفسه، لاحظ الجالسون منا في الأمام ارتعاشة يديه. يعرف أن كلمات اليوم سوف تبقى في الذاكرة لمدة طويلة قادمة. يعرف كذلك أن صبر السلطان قليل، وأن المواعظ الطويلة لا تروق له. تحدث القاضي بنبرة جهورية، وبدأ بما يلائم المناسبة، فسرد تاريخًا موجزًا للانتصارات التي حقّقها أتباع النبي في وقت قصير.

"نبدأ باسم الله الرحمن الرحيم ونبيّه الذي رسم لنا الطريق القويم. لقد أعاد سلطانُنا صلاح الدين بن أيوب الهلال إلى هذه المدينة المقدسة. إنه عماد ديننا، وقاهر أولئك الذين يعبدون صليبا وصورا منقوشة. لقد أَحيَيْتَ إمبراطورية أمير المؤمنين في بغداد. ندعو الله أن ترفرف الملائكة حول راياتك وتحميك من أجل مستقبل ديننا. حفظك الله وذريتك على مر السنين.

هنا رفع عمر، الذي لن تنساه ذاكرتنا، رايات ديننا بعد وقت قصير من وفاة النبي عليه الصلاة والسلام. هنا، بُني هذا المسجد العظيم. بارك الله فيكم جميعا يا من قاتلتم

من أجل أن يأتي هذا اليوم. لقد أعدتم روح بدر، لقد كنتم صادقين مثل أبي بكر، جسورين وكرماء مثل عمر، إنكم تذكروننا بقوة عثمان وعلي. إن الخلفاء الأربعة الأوائل ينظرون إلينا من السماء اليوم وهم يبتسمون. والجنة مثوى كل من قاتل من أجل هذه المدينة.

بعد ذلك، سرعان ما حملت جيوشنا القرآن الكريم على أسنّة الرماح عبر صحارى إفريقيا وإلى جبال الأندلس وأراضي الفرنج، ومن هناك، انتقلت رسالتنا إلى بلاد عبدة النار. وبمجرد أن شاركنا شعب فارس معرفتنا بالطريق القويم الذي شرعه الله، كان أول من تحوّل إلى قضيتنا. وكما سمع السلطان عدة مرات، فإن أحد أسباب سقوط فارس في أيدينا مثل ثمرة مشمش ناضجة هو أن أشد الناس فقرا، المسحوقين والمستغلين من الكهنة الأنجاس، دُهشوا لرؤية كبار قادتنا يشاركون الجنود العاديين طعامهم من الإناء نفسه. لقد رأوا بأعينهم أننا كلنا سواسية أمام الله.

لقد وصلنا إلى نهر الهند العظيم، وهناك أيضا تجمّع الفقراء خلف رايتنا. حتى ونحن نتكلم هنا الآن، فإن تجّارنا يحملون رسالتنا إلى جنوب الهند وجزر جاوة، وهم في طريقهم إلى الصين. أسألكم جميعا، أليست تلك إشارة من الله بأنه وفقنا لكي نصل إلى كل أركان الدنيا في وقت قصير كهذا؟

لذلك، كان من العار ترك الفرنج يحتلون ساحلنا وهذه المدينة المقدسة كل هذا الوقت دون خوف من عقاب. بفضلك يا صلاح الدين بن أيوب، وبفضل مثابرتك وشجاعتك واستعدادك للتضحية بحياتك الغالية من أجل المؤمنين في كل مكان، نصلي اليوم ثانية في الأقصى. ندعو الله أن يطيل عمرك وحكمك في هذه البلاد. إنك تحمل سيفا بتّارا في يد، وفي الأخرى مصباحا منيرا".

استمرّت الخطبة نحو الساعة. لم يكن حديثا تذكاريا بحد ذاته. ولكن جلال المناسبة سيطر على الجميع. وبعد أن انتهى الخطيب أقيمت صلاة الشكر. بعدها نزل قاضي حلب من على المنبر فعانقه صلاح الدين وقبّله.. ثم القاضي الفاضل وعماد الدين. شعر الفاضل بالابتهاج. وعندما سأله صلاح الدين رأيه في الخطبة، جاء رده شعرا.

"بكت السماء بدموع الفرح عند سماع الخطبة يا أمير الانتصار، أما النجوم فقد تركت مواضعها في قبة السماء، لا لكي تقتل الأشرار، وإنما لتحتفل معنا".

أما عماد الدين الذي اعترف فيما بعد بأن الخطبة كانت مملّة وغير ملهمة بالمرة،

فإنه يثني الآن على قول الفاضل ويبتسم بدفء لقاضي حلب.

في ذلك المساء نفسه، استدعى السلطان مجلس الحرب. كان الحاضرون هم تقي الدين وكوكبري والأفضل وعماد الدين وشخصي المتواضع. بدا السلطان في حالة كرم وتبسط شديدين.

"دعونا أولا نشكر عماد الدين الذي أكّد دائمًا أهمية الاستيلاء على المدينة. لقد كنت محقا، كشأنك دائمًا أيها الصديق الكبير، كما أن كوكبري هو الذي صمّم على ألا نرفع الحصار عن صور. أنت كذلك كنت محقا. أريد أن يستولي الجيش على صور دون إبطاء. دعوهم يستريحون ويحتفلون وبعد ذلك نستولي على صور. لقد وصلتنا هذا الصباح رسالة من برتراند صاحب تولوز.. أتذكرونه؟ ذلك الفارس الذي أنقذنا حياته من أيدي فرسان الهيكل وعاد إلى بلاده سالما بفضل تجارنا. عماد الدين سوف يقرأ عليكم رسالته الآن. أعرف أننا كلنا كنا نفضل حضور ذلك القبطي الجميل الذي يترجم من اللاتينية إلى لغتنا بكل ذلك الحسن والجمال، لدرجة أنه حتى من لا يسبحون منا على الشواطئ الأخرى مثل عماد الدين، لا بدَّ وأن يعجبوا بجماله. من أسف أنه بعيد، أيها المعلّم الكبير، ومن الملائم أن تحلّ محله".

إذا كان عماد الدين فوجئ ببعض خشونة من السلطان، إلا أنه استطاع أن يخفي مشاعره على نحو ممتاز. تبادل الآخرون ابتسامة العالمين بالأمور. كان من المعروف وبشكل عام، أن عماد الدين متيّم بطارق بن عيسى، يتبعه مثل ذئب ليلة اكتمال القمر بدرا. قام عماد الدين بقراءة رسالة برتراند التولوزي بنفسه.

"إذا سمح لي السلطان والأمراء فسوف أقوم بتلخيص مضمونها. لأني، على خلاف القبطي، مترجم ضعيف. يقول صديقنا في تولوز إنهم يجهّزون جيشا كبيرا لاستعادة أورشليم. ويقول إن البابا قد دعا ملوك إنجلترا وفرنسا وألمانيا كي يوحدوا جيوشهم لإنقاذ شرف عبدة الصليب. يقول إن من بين الملوك الثلاثة اثنين من ذوي العقول الحمقاء التي تملؤها أبخرة إمبراطورية. واحد فقط هو الذي يُخشى منه.. فهو مثل الحيوان. يشير إلى ريتشارد ملك إنجلترا الذي يصفه في رسالته بأنه ابن ضال وزوج أسوأ، لا يستطيع أن يشبع زوجه ولا أي امرأة أخرى، ولكنه مُغرم بالشبان، كما أنه حاكم رديء وإنسان حقود شرير، وإن كان لا يعدم الشجاعة. يقول إنه لا يعرف متى يبحرون، وإن كان يعتقد أن ذلك قد يكون بعد عام أو أكثر قليلا، حيث إنه لا بدَّ من حشد الدعم والتبرعات. وينصح بأن نستولي هذه المرة على كل الموانئ حتى ندمر سفنهم

وهي ما زالت في البحر. كما يشير على السلطان بإعداد أسطول للنزال في الماء، ويشعر بأن نقطة ضعفنا أننا لا نأخذ الحرب البحرية بالجدية نفسها التي نأخذ بها الحرب البرية. ووقع رسالته بالخادم الذليل وتابع السلطان، ويصلي لكي يأتي اليوم الذي تعبر فيه جيوشنا البحر وتأخذ البابا أسيرا، كما يبلغنا بأن أحد الفرسان المرافقين لريتشارد وهو روبرت صاحب سان ألبانز، منشق عن العقيدة سرًا، أي أنه مؤمن حقيقي وسوف يكون مفيدا لنا".

ابتسم السلطان.

"أعتقد أننا ينبغي أن نطلب من صديقنا أن يعود إلى صفوفنا. إنه مفكر شديد الفطنة، وهذه الرسالة تجعل الاستيلاء على صور أهم أهدافنا. متفقون؟ هل سجلت كل ذلك يا ابن يعقوب؟"

أومأت برأسي.

بعد ظهيرة اليوم التالي، وبينما كنت أستعد لمرافقة جون صاحب أورشليم إلى موقع المعبد القديم حيث تجمّع آخرون من ديننا عادوا إلى أورشليم لأداء صلاة الشكر لعودة المدينة للسلطان، فاجأني خادم بإلحاحه أن صلاح الدين يريدني. اندهشت لذلك لأنه سمح لي بالمشاركة في الاحتفال، إلا أنني تبعت الخادم إلى الغرفة الملكية.

كان السلطان جالسا على فراشه، تبدو على وجهه علامات القلق. لا بدَّ من أن يكونوا قد أبلغوه قبل أي شخص آخر. بمجرد دخولي، قام من على الفراش، وعجبت لما وجدته يعانقني ويقبّل وجنتي. وامتلأت عيناه بالدموع. وأدركت أن شيئا رهيبا لا بدَّ من أن يكون قد وقع لراشيل.

"لقد تلقينا رسالة من القاهرة يا ابن يعقوب. والأخبار مؤسفة، ولا بدّ من أن تتحلّى بالشجاعة. إن مجموعة صغيرة من فرسان الفرنج استبدّ بهم الغضب لفقدان هذه المدينة وأفقدهم رشدهم، فذهبوا إلى القاهرة وأغاروا على الحي الذي يعيش فيه أهلك. أحرقوا بعض المنازل وقتلوا كبار السن قبل إطلاق صفارة الإنذار، وقد ألقى جنودنا القبض عليهم كلهم، وتم إعدامهم صباح اليوم التالي. منزلك يا صديقي كان أحد تلك المنازل. لم ينج أحد. لقد أعطيت توجيهاتي للفاضل بأن يقوم بكل الترتيبات لتعود إلى القاهرة غدا صباحا. يمكنك البقاء هناك كما تشاء".

انحنيت واستأذنت. عدت إلى مسكني. لمدة تزيد على الساعة، لم أستطع أن أبكي. جلست على الأرض أحدّق في الجدران. لقد حلّت بي كارثة. أصابني ما أنا فيه من كرب بالخرس. لا الكلمات ولا الدموع يمكن أن تعبّر عما يعتصرني من ألم. فكرت في راشيل ومريم وابنها وهو متشبث بحضنها، وثلاثتهم نائمون في سلام والبرابرة يضرمون النار في المنزل.

وجدت نفسي أجهش بالبكاء بصوت عال وأنا أحزم متاعي. رحت أفكر بكل ما كنت قد فكرت به ولم أقله لراشيل. لقد ماتت دون أن تعرف عمق حبي الذي لم أبُح به لها. وماتت مريم الصغيرة التي تمنّيت أن تعيش من دون مكروه، وأن تربّي أطفالها في سلام هي وزوجها.

لم أنم. خرجت وسرت على جدار الحصن أراقب حركة النجوم الأبدية وأنا أذرف دموعي في صمت. شعرت بالأسى والغضب. كنت أريد أن أنتقم. كنت أريد أن أشوي فرسان الفرنج على نار هادئة، وأضحك وأضحك من عذابهم وهم يموتون.

في أثناء مغادرتنا مبكّرين صباح اليوم التالي، سمعت أنشودة طائر الصفار الحزينة، فملأت الدموع وجهي مرة أخرى. لا أتذكر شيئا عن الرحلة من أورشليم إلى القاهرة. لا أعرف كم مرة توقفنا ولا أين نمنا. كل ما أتذكره هو ذلك الوجه الطيب لساعي السلطان الذي أعطاني قِربة مليئة بالماء كنت أشرب منها وأستخدمها لغسل وجهي من التراب. أذكر كذلك أنني في لحظة معينة في أثناء رحلة الآلام تلك، كنت أريد أن أعود إلى السلطان. كنت أشعر أنه لا معنى لتحريك جمر المأساة. كنت أريد أن أنسى. لم أكن راغبًا في رؤية الرماد! وبقايا المنزل القديم بغرفته المقببة. لكن الوقت كان قد فات.

كان ابن ميمون في انتظاري أمام أطلال المنزل. تعانقنا ونحن نبكي. لم تكن هناك كلمات. الحزن أذاب كل العداء والضغائن القديمة. أخذني إلى بيته. عشت شهورا في ذهول تام. فقدت الشعور بالزمن. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما يدور في العالم الخارجي. فيما بعد، أصبحت أصحب الرجل الكبير إلى القاهرة. كان يُعنَى بمرضاه في القصر. عاودت زيارة الأصدقاء القدامى في المكتبة وقراءة الكتب التي سبق أن قرأتها عندما أصبحت كاتبا للسلطان. أحيانًا تثير الكتب ذكريات أليمة. كما كانت راشيل تشغل فكري، وتشتت تركيزي دموع جديدة.

عاملني ابن ميمون كصديق وكمريض خاص. كان يطعمني سمكا نيليا طازجا مشويّا على الفحم مقدّما على طبق من الأرز البُنّي. جعلني أشرب مزيجا من الأعشاب كل ليلة يهدئ أعصابي المشدودة ويساعدني على النوم. مرّت أيام كاملة لم أتكلم فيها كلمة واحدة مع أحد. كنت قد اعتدت السير حتى الجدول القريب من منزل ابن ميمون، والجلوس على صخرة أراقب الأولاد الصغار وهم يصطادون السمك، وكنت أنصرف عندما يضحكون بصوت عالٍ، إذ كنت أجد لهوهم مزعجا.

فقدت العالم. واختفى الشعور بالزمن. كنت أعيش يومًا بيوم، لا أتوقّع شيئا ولا أقدّم شيئا. وأنا أكتب هذه السطور، لا أذكر ماذا كنت أفعل كل يوم غير قراءة الكتب في مكتبة ابن ميمون الكبيرة حيث تبهرني الرسائل الطبية. قرأت جالينوس وابن سينا عدّة مرات، واكتشفت معاني خفية في أعمالهم. كنت عندما أفشل في استجلاء مقاصدهم أستشير ابن ميمون الذي أثنى على عملي، واقترح عليَّ أن أصبح طبيبا وأساعده في عمله.

مرّت شهور كثيرة. فقدت الصلة بعالم السلطان. لم أكن أعرف ماذا يدور في مجال الحرب ولم أعد مهتما بذلك.

ذات يوم، أبلغني ابن ميمون بأن جماعة جديدة من الفرنج رست على الشاطئ، وبأنهم يريدون استعادة أورشليم. كانت عيناه ممتلئتان بالدموع.

"لا يجب أن نسمح لهم أبدًا بالاستيلاء على هذه المدينة مرة أخرى يا ابن يعقوب. أبدا".

ربما كانت لهجة الإصرار في صوت صديقي هي التي أيقظت اهتمامي بالعالم. ربما كانت إفاقة لأي سبب آخر. أيا كان الأمر، فإنني عدت أشعر بنفسي. كان الشعور بالفقد ما زال حاضرا بداخلي، ولكن الألم زال. أرسلت خطابا إلى عماد الدين أسأله ما إذا كان يمكن أن أعود للالتحاق بخدمة السلطان.

بعد أربعة أسابيع، عندما عاد الربيع إلى القاهرة مثل ضحكة ناعمة ترددت، وصلت رسالة من دمشق. السلطان يأمر بعودتي دون تأخير. كنتُ جالسا في الفناء أستمتع بدفء الشمس تحت شجرة كثيرة العقد ذات أغصان ملتوية، لا يتغيّر حالها طوال فصول السنة، ارتبطت بها لأنها تذكرني بنفسي. أنا، أيضا، لم يغيّرني قدوم الربيع.

ودَّعْتُ ابن ميمون. كان وداعًا عاطفيًا. نحن اللذان كنا ذات يومٍ قريبٍ غريبين، أصبحنا معًا مرة أخرى. استعدت جزءًا صغيرًا من السعادة في قلب المأساة التي حلّت بي. تعاهدنا على ألا نقطع الاتصال ثانية. لم تكن بي رغبة حقيقية لمواصلة تسجيل قصة صلاح الدين، ولكن ابن ميمون ذُعِر لتلك الفكرة. نصحني بالاستمرار.

"اكتب لي بكل شيء يا ابن يعقوب إذا كان ذلك سيساعدك. سأحفظ رسائلك هنا في أمان، بجوار تلك الكتب التي ائتمنتني عليها".

رسائل إلى ابن ميمون

(38)

• السلطان يرحّب بعودتي • ريتشارد ملك بريطانيا يُهدّد صور • عماد الدين مريض بالعشق

صديقي العزيز..

ليتك كنت هنا كي نتحدّث معًا، بدلا من الاعتماد على خدمات سعاة البريد التي لا يعوّل عليها دائمًا. كما تعرف، فقد كنت متوتر الأعصاب من فكرة العودة إلى دمشق، إلا أن الجميع رحّبوا بي. حتى بعض الأمراء كانوا يقولون إنهم يعتبرون عودتي فألا حسنا، لأن السلطان لم يخسر أي معركة عندما كنت بجانبه.

لقد تغيّر كل شيء. المصائر تتقلب مثل أسعار اللؤلؤ في سوق القاهرة. عندما تركت السلطان قبل عامين تقريبا، كان قد استولى على كل الأبراج. كانت عيناه تلمعان والشمس منحت لونها لوجنتيه، وكان صوته هادئا وسعيدا. النجاح يبدد الإرهاق. عندما قابلته هذا الصباح كان من الواضح أنه مسرور لرؤيتي، قام وقبّل وجنتي ولكن مظهره فاجأني. عيناه ضاقتا، وفقد الكثير من وزنه، وكان يبدو شاحب الوجه. وهو نفسه لاحظ اندهاشي.

"أنا مريض أيها الكاتب. الحرب ضد أولئك الكفار الملاعين بدأت ترهقني، إلا أنني تأقلمت. ليس العدو وحده هو ما يقلقني. جانبنا أيضا يقلقني، فإيماننا عاطفي وطائش. الانتصار في معركة له تأثير البانجو في المؤمنين، سيقاتلون دون توقف لتكرار النجاح، ولكن إذا ما ضللنا السبيل لأي سبب من الأسباب، لأن الصبر والمهارة مطلوبان أكثر من مجرد الشجاعة، فسوف يبدأ رجالنا في فَقْد الدافع، وتظهر الانشقاقات، وقد تتملك بعض الحمقى من الأمراء وساوس بأن "صلاح الدين ليس

محصننا ضد الهزيمة كما كنا نتصور، ولعلي أستطيع النجاة بنفسي وبرجالي"، وربما عندما تخطر لهم مثل هذه الأفكار الحقيرة، يتركون ميدان القتال. وربما تصور أمراء آخرون، ممن يوهن روحهم عدم النجاح، أنهم لم يفيدوا هم ورجالهم من غنائم الحرب في الشهور الستة الأخيرة. قد يتصورون أن إخوتي وأبنائي وأبناء عمومتي هم المستفيدون، فيدبّ الخلاف والنزاع بينهم، ويعودون إلى حلب. إنه أمر مضن يا ابن يعقوب".

عليَّ أن أحارب على جبهتين طوال الوقت. لذا لم أستولِ على صور على مدى الأشهر الماضية عندما كنت إلى جواري. كنت أعتقد أن الرجال لن يتحمّلوا حصارا طويلا. اتضح أنني كنت مخطئا. لقد بالغت في تقدير حجم وجود الفرنج في المدينة، ولكنني لو كنت واثقا من جنودي لغامرت. النتيجة يا صديقي ورطة. ملوك الفرنج قادمون عبر البحر بالمزيد والمزيد من الذهب. إنهم لا ييأسون. أليس كذلك؟ مرحبا بك في بيتك الذي عدت إليه يا ابن يعقوب. افتقدت وجودك. هذا الصباح، غادر الفاضل إلى القاهرة، وعماد الدين لم يأت لمقابلتي منذ أسبوع. يدّعي أن ضرسه يؤلمه، ولكن عيوني يقولون إن قلبه موجوع. أتذكر شادي؟ كان يشير دائمًا إلى عماد الدين بأنه ذلك الذي ابتلع قضيب حمار!"

راح السلطان يضحك بصوت عالٍ للذكرى، وأنا مثله. لقد أثلج صدري سروره بعودتي.

بعد ذلك، ذهبت في المساء لزيارة عماد الدين. استقبلني بحفاوة بالغة. صدق جواسيس السلطان. كان المعلم الكبير يعاني من آلام حب مرفوض. شكا مر الشكوى من أن الخزينة لم تدفع له راتبه منذ عدة شهور. لذلك السبب قرّر ألا يزور السلطان.

دُهشت، وعندما ضغطت عليه اعترف بالسبب الحقيقي لحالته. أفضى إليَّ بمتاعبه. لا يوجد أكثر إملالا يا ابن ميمون من الاستماع إلى شخص راشد يجأر من قلبه الممزق بالشكوى، وكأنه ابن الخامسة عشرة. لا تزال زيارته عالقة بذهني منذ أن ذهبت إليه.

أنا واثق من أنك سوف تتذكر ذلك المترجم القبطي الذي ذكرت اسمه لك. طارق بن عيسى. ذلك الذي لفت عين المعلم الشبقة في أورشليم بعد أن دخلنا المدينة بوقت قصير. كان السلطان سعيدا بقدرات الصبي، وبتوصية من عماد الدين أصبح القبطي جزءًا من حاشية صلاح الدين. هكذا كان مجيء طارق إلى دمشق. هنا، كان عماد الدين يطارد

الصبي الجميل دون خجل وهو يتحرّق لإشباع شهوته. كتب فيه شعرا. استأجر مغنين يغنون تحت شباكه في الليالي القمرية. هدّد حتى بطرد الصبي من خدمة السلطان إن هو لم يرضخ لرغباته. الآن، اختفى الصبي، والبلاط كله في حالة رعب. أما الرجل العظيم فلا يجد من يواسيه.

ليس هكذا بالطبع يرى مساعد السلطان المشهد العاطفي. إنه يروي حكايته بصور مختلفة، أما أنت فلتحكم يا ابن ميمون بما لك من حكمة.

قال، متحدثا بتلك النغمة الرنانة التي أعرفها جيدا، والتي كانت ذات وقع محبب على أذني، لأنني لم أكن قد سمعتها منذ مدّة:

"ما لم أستطع أن أفهمه يا ابن يعقوب، بكل بساطة، هو تلك المقاومة العنيدة من قبل ذلك الصبي الضحل. أترفع حاجبيك استغرابا؟ أعرف ما يدور بعقلك. ربما لم يكن ذلك الصبي يميل إلى الرجال. فكّرت في ذلك، ولكنك ستكون مخطئا لو أنك افترضت هذا. أمرت بتتبعه واكتشفت أنه على علاقة حب برجل لا يصغرني كثيرا، ولكن هناك فرقا مهما.

كان عشيق طارق مهرطقا، مجدّفا، متشككا. رجل جاء من حلب وكان يبث شروره في أطهر مدننا. كان يزعم أنه من نسل ابن أوجل. أنت تعرف ديننا جيدا يا ابن يعقوب. هل سمعت بابن أوجل هذا؟. لا؟ لا بدَّ من أن أقول إنك تدهشني بذلك.

كان يعيش في الكوفة بعد وفاة النبي، وكان قد تحوّل عن دينكم إلى ديننا، ولكنه كان يريد بشتى الطرق أن يصبح مشهورا. أراد أن يكون رجلا عظيما. نشر أربعمائة حديث، وكان يعتبر نفسه عالما، ولكن أحاديثه كانت منحولة. كلها كانت من تأليفه، وضع فيها لغة تجديفية وشبقية على لسان نبينا. يقال إنه زعم في أحد أحاديثه أن النبي قد قال إن أي امرأة تسمح لأي رجل بأن يراها عارية، عليها أن تُعطي نفسها له، وإن هي رفضت كان من حقه أن يأخذها رغما عنها. عسى الله أن يحرق ابن الزانية هذا في نار جنهم. كانت هناك أحاديث أخرى من هذا النوع، كذلك الذي يقول ائت ناقتك على أي نحو تريد، ولكن ليس في الطريق العام. وأحاديث أخرى كثيرة مثل هذه الترّهات المخبولة لا يمكن أن تمر هكذا دون عقاب. إن الإساءة إلى نبينا على هذا النحو لا يمكن أن تكون مقبولة. أُلقِيَ القبض على ابن أوجل هذا من قبل قاضي الكوفة، واعترف بتأليف تلك الأحاديث. فكانت العدالة ناجزة، وتم إعدامه فورا بعد المحاكمة.

ادّعى عشيق طارق أنه من نسل ذلك الرجل، وبدأ يقول لأتباعه إن الكثير من الأحاديث التي حدث بها سلفه المجدِف كلها صحيحة. عندما سمعت ذلك من أحد القريبين من ذلك المهرطق، لم أصدّق. أبلغت القاضي، فأمر بإلقاء القبض عليهم جميعا ما عدا طارق. لكن ذلك الخنزير أنكر، بخلاف سلفه الشجاع، معرفته بكل التهم التي وجّهتها المحكمة إليه. بلغت به الوقاحة أن يقول إنني زيّفت دليلا كاذبا لأتخلّص منه لأسباب أنا أعرفها. لكن القاضي لم يرحمه. وافق السلطان على الحكم، فتم إعدامه. في اليوم نفسه اختفى طارق إلى الأبد. لم يره أحد. هناك شائعات تقول إنه انتحر، ويقول آخرون إنهم شاهدوا جثته طافية فوق سطح النهر.

سمعت أن صديقتك جميلة استشاطت غضبا عندما علمت بخبر الإعدام. دخلت غرفة صلاح الدين مندفعة كالعاصفة وسلقته بلسانها الحاد. هذه المرأة لم تكن أبدا غامضة ولا متحفظة، أليس كذلك؟ أرسلت لي خطابا تتّهمني فيه بأنني زان وفاسق شرير، وتقول إن هذه المدينة ستكون أكثر نظافة لو تم إخصائي. تلك هي الأسباب الحقيقية لحزني واكتئابي يا ابن يعقوب، رغم أنه سيكون من الزيف لو أنني أنكرت أن الخزانة قد نسيت أنني موجود، وأن ذلك قد سبّب لي الكثير من الضيق".

غرقت في تفكير عميق عندما تركت منزل عماد الدين. سرت ببطء نحو منزلي، أخشى ذلك الصمت الذي سيقابلني عندما أدخل إلى الفناء. هذا المنزل مليء بذكريات راشيل، وأعتقد أن عليَّ أن أنقل كل متعلقاتي إلى القلعة. كنت، في ذهني، أحاول أن أبلور خطابا بهذا المعنى، أرسله إلى القهرمان، عندما اقترب مني ذلك النوبي الأصم وأعطاني ورقة صغيرة من السلطانة جميلة تطلب أن أذهب إليها. لا شيء تغيّر في المدينة. ابتسمت في وهن، وتبعت الأخرس عائدا إلى القلعة. غريب! أليس كذلك يا ابن يعقوب؟ كيف يمكن أن يعود المرء إلى مكان بعد غياب طويل ليجد أن النظام القديم كله ما زال كما هو؟ السلطان يخوض حروبه، وعماد الدين معتكف في مسكنه، والسلطانة تطلبني لنتحدث معا!

استقبلتني بوصفي صديقا عزيزا. لأول مرة أجدها تلمسني. مسّدت رأسي، وعبّرت عن أسفها لفقد أسرتي، ثم همست في أذني: "كلانا فَقَد أحبّة، وهذا يقربنا من بعضنا، ينبغي ألا تتركنا مرة أخرى... أنا والسلطان نحتاجك الآن".

لم يكن مفاجئا لي أن أجدها قد سمعت بزيارتي لعماد الدين. هذه المرأة لا يخفى عليها شيء، حتى تلك الثرثرة التافهة الخاصة بالسلطان أو القريبين منه.. كل شيء يُنقل إليها.

هذا يجعلها واحدة من أهم العالمين ببواطن الأمور في المملكة. سلطتها من القوة التي تجعل الكل، تقريبا، ينقلون إليها كل ما تريد من معلومات.

طلبت جميلة تقريرا كاملا عن حديثنا. كنت على وشك أن أتكلّم، قبل أن أتبين أنها لم تكن بمفردها. على مقعد خلفها جلست امرأة شابة ذات جمال فائق. بدا وجهها بعينيها الحزينتين مألوفا. كانت ترتدي ثوبا من الحرير الأصفر ووشاحا من لون ملائم يغطي رأسها. الكحل في عينيها زادها حسنًا على حسن. نظرت في دهشة إلى جميلة.

"هذه زينب. كاتبتي. تقوم بتدوين كلماتي بسرعة لدرجة أن أفكاري لا تكاد تلحق بيدها. سرعتها تخجلك من نفسك يا ابن يعقوب.. والآن.. تكلّم. ماذا قال لك ذلك الشيخ؟"

رويت لها ما دار بيني وبين عماد الدين، وفي أثناء ذلك تبادلت المرأتان النظرات في لحظات مختلفة. ثم تكلمت جميلة بصوت غاضب، رغم أن لغتها أدهشتني.

"لم يكن شادي مخطئا بخصوص ذلك الذي بلع قضيب حمار! كل ما قاله لك كذب. لقد جعلهم يُعدمون رجلا بريئا، كل جريمته أنه كان متشككا. ولكنني كذلك، وأيضا عماد الدين.. حتى أنت.. معروف أنكما تعبّران أحيانا عن أفكار شكوكية. وحدهم المغفلون والسذج هم الذين يرفضون أن يتشككوا في كل شيء. إن عالما لا يمكن أن يتقدم من دون الشك. عندما كان صلاح الدين صغيرا كان هو أيضا متشككا. هل يدهشك ذلك؟ لماذا لم يذهب إلى مكة في رأيك؟ الآن، هو مشوق لإرضاء خالقه، ولكن عندما جاءت الفرصة رفض. عماد الدين حكم بالإعدام لأنه كان يشعر بالغيرة. عجوز لم يستطع أن يتحمل فكرة أن يكون مرفوضا فراح يبحث عن كبش فداء. هذا شيء مقرف. لقد قلت لسلطانك: أن يأمر بخصي مساعده. لا أحد في دمشق سيكون آمنا عندما يجري النسغ في ذلك الجذع القديم!"

توقفت عند هذه النقطة لتضحك، ثم نظرتْ نحو زينب تنتظر موافقتها، إلا إنني رأيت الدموع تترقرق في عيني المرأة الشابة، وهو ما أغضب جميلة ثانية.

"انظر عن كثب إلى زينب أيها الكاتب. تخيلها في ثياب رجل تترجم خطابا من اللاتينية للسلطان".

ذُهلت. الآن.. تذكرت أين رأيت هذه السحنة. في أورشليم! لا بدّ وأن تكون هذه توءم طارق بن عيسى!

"ليست أخته يا أحمق! إنها طارق بن عيسى. أبو زينب عالم قبطي عجوز ربّاها كصبي. كانوا يعيشون في أورشليم ولكنهم كانوا يصلون من أجل الخلاص. لم يكن فرسان الفرنج يهتمون كثيرا بالقبط الذين اعتبروهم مسيحيين فاسدين مهرطقين. عندما نادى قهرمان صلاح الدين طالبا مترجما، ألبسها أبوها ثياب رجل، وأرسلها إلى البلاط، والباقي أنت تعرفه. دع عماد الدين يعتقد أنه سبب موت طارق بن عيسى. دعه يعاني بقية حياته. إننا نفكر في أن تتنكر زينب كشبح ونرسلها إلى غرفة نوم عماد الدين. هل تعتقد أن ذلك يمكن أن يقتله؟"

نظرت إلى زينب. كانت قد استعادت سكينتها، وكانت سعيدة لأن قصتها أدهشتني. رأيت في عيني جميلة كذلك أنها وجدت بديلا لحليمة المفقودة.

تقلبات قلب المرأة، على عكس كل ما يقال يا ابن ميمون، أمر لا يمكن تخيّله. تحياتي القلبية لأسرتك.

صديقك القديم

ابن يعقوب

(39)

• وباء الفرنج يعود إلى عكا • صلاح الدين يصاب بالاكتئاب ويُفضي إليَّ بشكوكه الدفينة

أحسدك يا صديقي العزيز ابن ميمون على بيتك الجميل بالقرب من القاهرة. وأحسدك أيضا على خلو بالك، وأتمنى لو أنني لم أغادر ذلك الملتجأ الذي أنعمت عليَّ به لحظة احتياجي إليه.

أنا الملوم. لم أكتب لك منذ شهور، ولكنني كنت أتنقل طوال الوقت وراء السلطان. كم تغيّر كل شيء مرة أخرى! إن مصائر هذه الحرب لا تبقى على حال. أكتب إليك من عكا التي يحاصرها الفرنج الذين فاجأونا بقرار الهجوم على المدينة. كان صلاح الدين بعيدا منذ يومين، ولكنه عاد مع جنوده الذين يفوقون الفرنج عددا.

أخبار مقدم السلطان روّعت العدو. لم يحاربوا وإنما انسحبوا إلى معسكرهم. أعدنا بعض جنودنا إلى عكا وأرسلنا في طلب المساعدة. ترك تقي الدين حراسه خارج أنطاكية ولحق بنا، وكذلك فعل كوكبري، وكما تعرف فإن السلطان يثق تمام الثقة في هذين الأميرين بالتحديد، وقدومهما يرفع من روحه المعنوية.

جاءت الاستجابة من المناطق الأخرى محدودة. كان القتال الداخلي بين حكام حمدان وسنجار وغيرهما من المدن يعني أن أهدافهما لم تعد متسقة مع أهداف صلاح الدين.

عندما عاد الفرنج للقتال مرة أخرى لم تكن النتائج واضحة. لم يكن هناك انتصار ولا هزيمة لأي من الطرفين. موقفنا يضعف من يوم إلى يوم والفرنج يزدادون تهورا، ولكن النصر النهائي قد يكون من نصيبنا. الموقف وأنا أكتب إليك كما يلي: تصوَّرْ الفرنج

يحاولون حصار عكا ويفاجئوننا. الآن، أغمِضْ عينيك وتخيل كيف جاء صلاح الدين بهدوء من خلف الفرنج وحوَّلَ المُحاصِرين إلى مُحَاصَرِين! وبعبارة عماد الدين المأثورة: "بعد أن كانوا مثل الحاجب حول العين، أصبحوا الآن مثل العين يحيط بها الحاجب". تصويره قوي، وإن كنت أعتقد أنه يحاول أن يخفي ما يشعر به من يأس. وبدأنا هذا اليوم مع اعتراف بالسلطان باعتباره صاحب فلسطين، والآن عدنا نحارب من أجل البقاء، وأحيانا يتمنى السلطان لو أنه لم يغادر القاهرة.

لا يتوقف أبدا لكي يستريح قليلا. لا ينام عادة أكثر من ساعتين أو ثلاث كل ليلة. ليتك كنت هنا كي تنصحه بالحفاظ على صحته. من ينظر إليه اليوم يجده كالشمعة التي ما زالت تضيء ولكنها تحرق نفسها ببطء. إنه فوق الخمسين ولكنه يقود جنوده في المعركة وكأنه ابن العشرين. سيفه مشرَع لا يبالي بشيء. إلا أنني أعرف أنه قلق على حالة الجيش، وأن القلق بدأ يؤثر في صحته النفسية والجسدية. لم يذق طعم النوم على مدى الأيام الثلاثة الماضية. وجهه شاحب، وعيناه اللتان كانتا في العادة مليئتين باليقظة والحيوية، يبدو عليهما الآن السهد والفتور. أعتقد أنه في حاجة إلى من يشاركه أفكاره المرهقة. وكالعادة، أتمنى لو أن شادي كان هنا. وحتى عماد الدين أو القاضي الفاضل يمكن أن يكون حضورهما مفيدا. لا بدَّ من أن تنقل قلقي هذا إلى الفاضل إن وصلتك هذه الرسالة. أنا لست بديلا جيدا لأي من أولئك الرجال الثلاثة، إلا أنني الوحيد هنا الذي يعرفه جيدا وكان قريبا منه على مدى أكثر من عشر سنوات. الآن، مرّت عشر سنوات بالضبط، منذ أن رشّحتني له يا ابن ميمون. يالقسوة الأيام!

يتكلم معي كثيرا هذه الأيام، وأحيانا أشعر بأنه يريدني أن أكف عن أن أكون كاتبا. ينظر في عيني وكأنه يطلب ردا يريحه ويُسكِّن مخاوفه، ولكنني كما تعرف جيدا، ليست لديَّ معرفة جيدة بالأمور العسكرية، كما أن معلوماتي عن أمراء دمشق وخصوماتهم محدودة للأسف. لم يسبق أن أدركت عيوبي مثلما حدث في هذه الرحلة تحديدا، فعندما كان صلاح الدين في حاجة إليَّ، لم يكن لديَّ ما أقدمه له.

أتذكر وأنت تشرح لي قبل مدة طويلة أن العقول عندما تكون مضطربة، فكل ما يمكن أن نقدمه لأصدقائنا هو أن نجلس ونستمع إلى همومهم في هدوء. الناس في هذه الأحوال لا يستمعون إلى نصح أحد، وربما زاد رفضهم لو قال الواحد منا شيئا لا يريدون أن يسمعوه. قلت ذلك فيما يتعلق بالحب، ولكن الشعور الذي أصاب السلطان هو التردد أمام العدو. إنه يفكر في بديلين أو ثلاثة ولا يستطيع أن يحسم أمره.

أجلس أحيانا وأستمع إلى صوته الحزين. بالأمس استُدعيت إلى خيمته وكان القمر بدرا. كنت أشعر بالنعاس إلا أنني عندما كنت أسير إلى خيمته أيقظ الهواء المنعش تفكيري. فيما يأتي كلمات السلطان كما قالها بحذافيرها.

"لا تكاد تمر ليلةً يا ابن يعقوب دون أن أشعر بأن الله يدعوني إليه. عمري ليس طويلا في هذه الحياة أيها الكاتب. لقد أمضيت خمسين عاما في هذه الدنيا وتلك نعمة من الله. بعد الخمسين، يحدث للمرء شيء غريب. يتوقّف عن التفكير في المستقبل ويُمضي المزيد والمزيد من الوقت وهو يفكر في الماضي ويبتسم للذكريات الجميلة، ويأسف مرة أخرى على الحماقات التي اقترفها.

في هذه الأسابيع القليلة الأخيرة، أجدني أفكر كثيرا في أبي "أيوب". على مدار حياته، أسكنه الله فسيح جناته، لم تكن هناك مرة واحدة ركع فيها إرضاء لحاكم. كان رأسه مرفوعا دائمًا. كان يكره أن يسمع مديح فضائله، وكان يصمّ أذنيه أمام النفاق الذي هو جزء من الحياة اليومية في القلعة. كان يسعده دائمًا أن يخدم الآخرين.

كان رجلا كريما. لا بدَّ أن يكون شادي قد قال لك ذلك كله، ولكنه كان ضعيفًا أمام الخادمات. تبدو عليك الدهشة يا ابن يعقوب. هل تعتقد أن ذلك بقي سرًا عليك من قِبَل شادي صاحب اللسان الفالت؟ اللهم احفظنا!

أنا مندهش. لم يكن ذلك سرًا. كلما كانت تأتي خادمة جديدة كان أبي يشعر بالنسغ يجري في عروقه ولا يضيع بذرته قط. ذات مرة وبخَّتَه أمي على ذلك، وألقى على رأسها بحديث ما معناه، أن نصيب كل امرئ من المعاشرة الجنسية مقدّر له، وسوف يقوم به في كل الأحوال. سألته أمي، وكانت امرأة صريحة، بعد فاصل من السباب الكردي المنتقى، كيف يجد الرجال من الأحاديث ما يبرر لهم كل ما يفعلونه مع النساء، بينما لا تجد النساء العكس. لماذا أتحدث عنه هكذا؟ لقد استدعيتك لأناقش معك أمورا كثيرة أكثر إلحاحا، ولكن وجودك يذكرني دائمًا بشادي العجوز، وأجد نفسي أتحدث معك كما كنت أتحدث معه، على نحو لا أستطيع أن أفعله مع الفاضل أو عماد الدين، ولا حتى مع إخوتي.

إن معظم أمرائي وجنودي يتصوّرن أن لديَّ حل لكل مشكلة. إن الحاكم قد يكون قويا أو ضعيفا ولكنه وحيد دائمًا. حتى آخر الخلفاء الفاطميين في القاهرة، الذي كان محاطا بالخصيان ومدمنا للبانجو الذي كان يُبعده دائمًا عن الواقع، حتى ذلك الخليفة بكى ذات

مرة أمامي وهو يعترف بأن عدم وجود صديق حقيقي واحد، يحزنه أكثر من أي شيء آخر، بما في ذلك فقدان السلطة الحقيقية. لكني محظوظ. لديَّ أصدقاء ومستشارون جيّدون. ولكن هذه الحرب دائرة منذ مدة طويلة. أنا لا أنكر أخطائي. كان لا بدَّ من الاستيلاء على صور بعد القدس. كان خطأ فادحا من جانبي أن نتحرّك على امتداد الساحل، ولكن تلك لم تكن مشكلة عصيّة على الحل. لقد بدأت أعتقد أن هناك شيئا ما في أعماق كل من يؤمنون بالله ورسوله، وكأن هذه العقيدة متجذّرة فينا، لدرجة أننا لا نشعر بأي ضرورة للاعتقاد في أي شيء آخر، وإلا كيف يمكن أن يفسر المرء ذلك التدهور الحاصل في بغداد؟ ولا حتى أمير المؤمنين نفسه يمكن أن يقارن نفسه بالخلفاء الأربعة الأوائل.

إن ديننا الذي ألهمنا في سابق الأيام أن نبني إمبراطورية تتجاوز البحر والصحارى، قامت على ثلاث قارات، يبدو هذا الدين اليوم وكأنه قد نزل من عليائه إلى حد كبير. نحن نعشق المبالغة، فعندما يهبنا الله النصر نفرح كالأطفال الذين فازوا في لعبة ما، ونبقى فرحين بهذا الانتصار شهورا، نحمد الله.. وكفى.

وبعد كل هزيمة نغرق في الأحزان. ما لا نفهمه هو أنه ليست هناك انتصارات دون هزائم. كل فاتح في التاريخ واجه انتكاسات. نحن لسنا قادرين على أن نكون متماسكين. بعد قليل من الفشل تهبط معنوياتنا وتضعف أرواحنا ويختفي انضباطنا. هل هذا هو قدرنا؟ ألن نتغيّر؟ هل مكتوب علينا أن نظل على هذه الحال من عدم الاستقرار؟ كيف سنردّ على جبريل يوم القيامة عندما يسألنا: يا أتباع النبي العظيم محمد، لماذا لم تعاونوا بعضكم بعضًا في وجه العدو وقت الشدة؟

سرعان ما تنخفض معنويات أمراؤنا وتثبط همتهم. الانتصارات سهلة جميلة، ولكن عندما يعترض الكفار على مشيئة الله، يصاب أمراؤنا بالذعر، وعندما يرى جنودهم ذلك يصابون هم أيضا بالقنوط ويقولون لبعضهم بعضًا: "أميرنا يفتقد خمره ونساءه، وأنا كذلك أفتقد أسرتي، ولم نحصل على أية مكافآت منذ شهور، وربما بعد أن ينام المعسكر يكون علينا أن نعود إلى قرانا".

ليس من السهل أن تحافظ على معنويات جيش كبير لكي يكون على استعداد دائم. يتفوّق الفرنج علينا في ذلك، وجنودهم يجيئون عبر البحار، ولا يستطيعون الهرب بسهولة مثلنا. كل ذلك يجعلني أعرف أن الناس يحاربون من أجل قضية أكبر من مصالحهم الخاصة، عندما يكونون مقتنعين فحسب بأن ما يحاربون من أجله سوف

يكون لصالح الكل دون استثناء.

عندما كنت صبيّا في بعلبك، وكانت الشمس تضيء سماء زرقاء صافية، كنت أخرج مع إخوتي لنلعب بالقرب من النهر. وأحيانا كانت السُّحب السوداء تغطّي السماء مثل ستار كثيف، وقبل أن نعود مسرعين، تهب عاصفة رعدية تخيفنا بومضات البرق المفاجئة. وعندما يكون جنودي مثل العاصفة الرعدية ساعتها فقط يمكن أن أكون أنا البرق. هذا ما لا يفهمونه، وما لا يستطيع الأمراء، باستثناءات قليلة، أن يعلِّموهم إياه. والنتيجة هي ما تشاهده من حولك. جيش في حالة فوضى. والخوف والقلق يسيطران الآن على صديقنا عماد الدين. ويكتب ليبلغنا بأن الفرنج، مثل الطاعون، لم يعودوا تحت سيطرتنا، ومادام البحر يمدّهم بالمزيد من الرجال، وأراضينا مستمرة في توفير الراحة المستمرة لهم فسوف يهزمون كل شيء. علامتنا الكبير يبدي ثقته في قدراته بالقفز فوق حصانه والفرار إلى أمان دمشق، ويقترح أن ألحق به على وجه السرعة. أعتقد أنه يريد أن يهنئوه على سلامته أكثر من رغبته في أن يمدحوا وفاته بعد استشهاده. من أسف أن هذا هو الطريق الخاص بعلماء زماننا، ولكنه ليس الطريق الذي يمكن أن يسلكه أمثالي".

لقد كتبت لك كلماته كما نطق بها بالضبط، وهو ما سوف يوضّح لك حالته النفسية. ما يقلقني هو أنه إذا ساءت صحته أو تدهورت فستنهار، كذلك، قضيتنا، وقد يستعيد الفرنج أورشليم ويحرقون شعبنا مثلما فعلوا في المرة الأولى.

أتمنى أن تصلك هذه الرسالة وأنت في صحة جيدة، وأن تكون أسرتك المحترمة قد استطاعت أن تتحمّل صيف القاهرة.

تلميذك المطيع

ابن يعقوب

(40)

● سقوط عكا ● رواية عماد الدين عن ريتشارد "مؤخرة الأسد" ● وفاة تقي الدين

صديقي العزيز المبجّل..

هناك أسباب كثيرة لانقطاعي عن الكتابة إليك عدة شهور. لقد كنت أتنقل من معسكر لآخر خلف السلطان، مثل كلب مطيع، سعيدًا بوضعي. فيما مضى من أيام قبل ذلك الحريق الذي التهم أسرتي كنت أشعر بالاستياء أحيانا لاستدعائي للمثول بين يدي السلطان دون سابق إنذار، الآن، أشعر بأنه يحتاجني بالفعل. عندما أكون إلى جواره أجدني مشغولا عن الماضي. ولا بدَّ من أن يكون ذهني صافيًا لكي أفهم ما يقع من أحداث كل يوم.

أحيانا، تُذكِّرني الكتابة إليك بمنزلي القديم في الحي اليهودي فأبكي. يحدث ذلك على نحو خاص في ليالي البرد، مثل هذه الليلة حيث أجلس متدثّرا بعباءة، أدفئ يدي على مدفأة أمامي. الذكريات كثيرة عن ليالي شتاء القاهرة في تلك السنوات. كان ذلك أحد أسباب التأخير، وكان هناك سبب آخر. لم أكن متأكدا مما إذا كنت قد تسلّمت رسائلي السابقة، ولم تكن هناك فرصة للاستفهام عنها بسبب الكارثة. كلنا كنا في حزن شديد بسبب فقدان عكا.

سعدت باستلام رسالتك ضمن بريد السلطان، كما سعدت لوصول رسائلي السابقة إليك، وهزّني اهتمامك بأمر صحتي، ولكن ليس هناك ما يدعو للقلق بهذا الخصوص. إن صحة السلطان هي ما يقلقني. الرجل يمكنه أن يبقى على ظهر حصانه لمدة خمسين يومًا، لا يستريح سوى ثلاث ساعات في الليلة تقريبا. يحثّ رجاله ويبثّ فيهم الحميّة،

ولكنني أخشى أن يسقط ميتا ذات يوم ويتركنا وحدنا لحزننا مثل الأيتام.

أفهم سبب غضبك بخصوص عماد الدين، ولكنك لست دقيقا تماما في تقييمك له. كما تناقشنا من قبل، للرجل عادات سيئة كثيرة. فطبعه تغلب عليه العجرفة، وحركات جسده أحيانا تثير الاشمئزاز والقرف، وخاصة عندما يرفع فخذه الأيسر قليلا ويطلق ريحا. ولكن ذلك كله يجد ما يقابله من صفات حسنة ربما تفوق عيوبه. فهو شخص عاطفي طيّب المعشر، ولكن دعنا منه الآن وسوف أعود إلى هذا الأمر فيما بعد.

لا يمكن التهوين من شأن الكارثة التي حلّت بنا في عكا، في النهاية استولى فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك إنجلترا على المدينة. لم تكن لدينا سفن لمقاومة سفنهم، كما فشلت محاولات صلاح الدين لتحويل اهتمامهم بهجوم مفاجئ على معسكراتهم. كان مستودع الأسلحة الكبير في عكا يحتوي على كل أسلحة الساحل وغيرها من دمشق وحلب. والأمراء في القلعة أرسلوا عدة رسائل للسلطان يطلبون المساعدة، ويقولون له إن لم يخفف الضغط عنهم، فلن يكون أمامهم سوى أن يطلبوا الرحمة من الفرنج.

كان تتابع الأحداث كما يلي. مع تدهور الموقف، فَرَّ ثلاثةُ أمراء من المدينة تحت جنح الليل في قارب صغير. لم يعرف أحد بفعلتهم الجبانة سوى صباح اليوم التالي، مما أدى إلى المزيد من الانهيار في معنويات الجند. بعد شعوره بالهزيمة، طلب القائد قراقوش الذي تعرفه أكثر مني منذ أيامه في القاهرة، أن يقابل ملوك إنجلترا وفرنسا ليتفاوض على التسليم وانسحاب كل جنودنا. كان فيليب مستعدًا لقبول شروط قراقوش، ولكن ريتشارد كان يريد أن يمتهن جيشنا، ولذلك رفض. فبعث صلاح الدين برسالة يحظر الاستسلام. وحتى مع التعزيزات التي وصلت إلى جيشنا لم نستطع أن نكسر الحصار. استسلم قراقوش دون إذن السلطان، ولكن ريتشارد أصرّ على شروط أكثر تشدّدا. شعر قراقوش بأنه ليس أمامه سوى أن يقبل العرض.

كانت تلك أكبر انتكاسة يواجهها صلاح الدين. لم يكن قد لقي هزيمة واحدة على مدى أربعة عشر عاما، فكان يبكي مثل الأطفال بدموع غضب ويأس وقنوط. كان يشعر بأنه لو كانت هناك قيادة قوية في المدينة لما سقطت. لام نفسه كثيرا. شجب حماقة وهذيان التشاور العبثي، ولعن الأمراء الجبناء. تعهد ألا يتخلى عن كفاحه لاختبار روح وإيمان المؤمنين. وتحدّث عن ذلك الضوء الخالد الذي تحجبه سحابة إلى حين، وأقسم بالله أن النجوم سوف تسطع مرة أخرى قبل انبلاج الفجر. فكان من المستحيل ألا تهزّك دموعه أو كلماته.

أرسل ريتشارد ملك إنجلترا يطلب مقابلة صلاح الدين على انفراد مع مترجم، ولكن أمير الأوفياء رفض الطلب بازدراء. قال للرسول: قل لملكك إننا لا نتكلم اللغة نفسها.

كان ريتشارد قد حنث بعهوده في أكثر من مناسبة. إذ كان قد وعد صلاح الدين بإطلاق سراح أسرانا، إذا أوفينا بالتزاماتنا في التسليم. وفعلنا، حين أرسلنا أول قسط من الأموال. فرد القادة الفرنج، بعدم أمانة هي من شيمهم، منذ أن وطأت أقدامهم هذه الأرض.

في يوم جمعة، وهو يوم مقدس عند المسلمين، أمر ريتشارد بإعدام ثلاثة آلاف أسير علنا. كان فرسانه يركلون رؤوسهم بأقدامهم في التراب. عندما وصلت الأخبار إلى معسكرنا أخذ النحيب يهز السماء. أقام الجنود الصلاة على أرواح إخوانهم. تعهد صلاح الدين بالثأر وأقسم على ذلك وأمر بألا يتم الإمساك بفرنجي حيا. لقد قرر أكثر القادة نبلا وشهامة أن يكون السن بالسن والعين بالعين.

أسبوع كامل، لم يذق لسان السلطان طعاما. وذات صباح، بعد تشاور سرّي ذهبت إليه أنا وتقي الدين وكوكبري، وركعنا أمامه توسلا لكي يكسر صيامه، فتناول وعاء الحساء من يدي وراح يرتشف منه في هدوء. نظرنا إلى بعضنا بعضا وابتسمنا ونحن نشعر بالارتياح. بعد أن انتهى، تحدَّث بشكل مباشر إلى ابن أخيه تقي الدين الذي يفضّله على أبنائه، والذي يرغب في قرارة نفسه أن يخلفه سلطانا، ولكنه يخشى صراعا داخليا بين الأهل لو أنه أصرّ على ذلك.

قال صلاح الدين بصوت يشوبه ضعف: "لن أقول لكم ذلك علنا، ولكن ثلاثتكم من بين أقرب أصدقائي الذين أثق بهم. لست حزينا بسبب عكا. لقد فقدنا مدنا أخرى من قبل، كما أن هزيمة واحدة لا تغيّر الأمور كثيرا. إن ما يحزنني هو غيبة الوحدة بين صفوف المؤمنين. فأصدقاء عماد الدين المقربون في بلاط الخليفة في بغداد، أبلغوه بأن الخليفة في قرارة نفسه سعيد لأننا فقدنا عكا. لماذا صدمكم ذلك كلكم؟ منذ أن استولينا على القدس، وأمير المؤمنين وأقرب مستشاريه إليه ينظرون إليَّ بعيون يملؤها الخوف. يعتقدون أنني أقوى مما ينبغي لأن العامة من الناس يحبّونني أكثر من الخليفة. عقولهم المريضة التي أتلفها البانجو تجعلهم يرون انتصارهم في هزيمتنا".

تلك هي المرة الأولى التي يتشكك فيها صلاح الدين في مدى إخلاص وقيادة الخليفة في حضوري. صُدمت، ولكنني فرحت لأنني أصبحت مستشارا محل ثقة على نفس

مستوى عماد الدين وصديقك الفذ القاضي الفاضل.

منذ سقوط عكا، لقينا هزيمة كبرى أخرى في أرسلوف، ويركّز السلطان الآن على الدفاع عن أورشليم. فلم تكن هناك أي انتصارات سهلة أمام الفرنج. فلقد تكبّدوا خسائر فادحة، وكان بعض الجنود الذين جاءوا بهم عبر البحر مباشرة يجدون صعوبة بالغة في تحمّل حرارة أغسطس في فلسطين. وطلب ريتشارد مقابلة السلطان. فرفض طلبه، ولكن العادل قابله وتحدثا طويلا. وكان ريتشارد يريد تسليم فلسطين، ولكن وقاحة الطلب أغضبت العادل فرفض.

على مدى الأعوام التسعين الأخيرة، حتى عندما كانت هناك فترات هدوء مؤقت في الحرب الطويلة، لم نكن نشعر بأن أولئك الناس أكثر من أجانب مغتصبين، وجودهم هنا على غير رغبة منا، وبسبب ضعفنا. ريتشارد لم يكن سوى الأخير في سلسلة من الفرسان الأوغاد الذين رسوا على هذه الشواطئ. ومن جانبنا فإن عباءة الدبلوماسية تخفي خنجرا فضيا. وكثيرا ما كان السلطان يسأل نفسه ما إذا كان ذلك الكابوس سينتهي أم أنه قدرنا، نحن سكان منطقة هي مهبط موسى والمسيح ومحمد، أن نبقى في حرب دائمة. بالأمس سألني ما إذا كنت أعتقد أن يهوه والرب والله يمكن أن يعيشوا معا في سلام. لم أستطع أن أقدّم له إجابة، فهل تستطيع أنت يا صديقي العزيز؟

لقد وصل عماد الدين من دمشق في ذلك الصباح الذي أعلن فيه العادل رفضه لشروط ريتشارد باحتقار. وأمضى معظم اليوم يتحدث مع بعض الفرسان الفرنج الذين فاجأناهم، عندما علموا بأنه سيتم إعدامهم في المساء. ثلاثة منهم تحوّلوا إلى الإسلام، وتم استثناؤهم، وطلبوا جميعا أن يتحدّثوا مع عماد الدين.

في الصباح التالي كنت أقضي حاجتي في آخر المعسكر عندما جاء. وبعد أن اغتسلنا وجلسنا لتناول الفطور، بدأ يروي حكايات عن ريتشارد لم تكن قد رُويت من قبل.

"كان أحد الفرسان الفرنج يقول: إن ريتشارد يحارب بضراوة أسد، وإنه يشار إليه بقلب الأسد لذلك السبب. هذه الحكاية أكدها الآخرون وأعتقد أن معلوماتنا عن نشاطه في الحرب تؤكد ذلك الجانب في شخصيته. إنه يحارب مثل الحيوان. وهو حيوان. والأسد، كما تعرف جيدا يا صديقي ابن يعقوب، ليس الأعلى منزلة بين مخلوقات الله"

لكن، حتى لو قبلنا اللقب باعتباره مديحا، فإن ذلك الرأي لا يحظى بإجماع بين الفرنج. ثلاثة من الفرسان الذين تحدثت معهم مؤخرا رأيهم مختلف. إنه يحارب، كما

يقولون، بضراوة فقط عندما يكون محاطا بفرسان آخرين. إنهم يعتقدون يقينا أنه داهية حقير وخائن جبان، معروف بالهرب من الميدان قبل أي من جنوده عندما يخشى الهزيمة. كابن آوي كان وليس أسدا عندما أعدم جنودنا في عكا.

سنذكر هذا الملك باعتباره مؤخرة الأسد وليس قلب الأسد. أنا مسرور لأن ما أتنبأ به يعجبك يا ابن يعقوب، ولكنه مقصود بكل جدية. لقد تصادف أن رأيت مؤخرة أسد مقتول أكثر من مرة، وكل مرة كان ما يلفت انتباهي حجمها الضخم. أحد أسرار الطبيعة غير المفهومة.

عجيزة ريتشارد، على العكس من ذلك، لم تكن كبيرة بطبيعتها. ولقد مرت جيوش كثيرة من هنا، لكن ريتشارد لم يشبع بعدُ حسب علمي". عندما نقلوا ذلك لصلاح الدين ضحك، وألمح، في حضوري، لأخيه: "أخي العزيز العادل، لكي تعزز قضية الله، أطلب منك أن تقوم بواجبك وتقدّم أكبر تضحية".

ضحكت بصوت عال للمزحة، وذلك جعل الرجلين يصمتان، وينظران إليَ، ثم إلى بعضهما. عرفت ما كان يدور بعقليهما. كانا يفكران. ربما أكون أنا الشخص الذي سيقدّم تلك التضحية الكبرى ويدخل مؤخرة الأسد. وكما تتخيل يا صديقي العزيز، لم أسمح لتلك الفكرة الحمقاء أن تكبر. استأذنت، مدّعيا أنني أريد أن أقضي حاجتي، ولم أعد إلى خيمة السلطان".

... ...

... ...

مرّت ثلاثة أيام على كتابة السطور السابقة. حدثت مأساة أخرى. فقد قُتل ابن شقيق السلطان المفضّل، الأمير الشاب تقي الدين، في نزال غير ضروري مع الفرنج. تلقى صلاح الدين الخبر بحزن شديد وما زال. حقا! كان يحب تقي الدين أكثر من أبنائه. كان والد تقي الدين قد مات قبل مدة طويلة، وتبنّاه السلطان ورعاه كابن له، والأهم من ذلك كله أنه كان يعامله كصديق.

وإليك ما حدث. استُدعيت مع العادل وعدد قليل من الأمراء من دمشق إلى خيمة السلطان. عندما وصلنا وجدناه يبكي. كان ينتحب بشدة، وجعله حضور العادل ينتحب بصوت أعلى. كنا كلنا في غاية الحزن لرؤيته على تلك الحال دون أن نعرف حتى سبب

ذلك، وبدأنا نحن نبكي أيضا. عندما عرفنا السبب أصابنا الذهول. لم يكن تقي الدين مجرّد ابن أخ له، وإنما أحد الأمراء الثقات الذين يعرفون معنى تلك الحرب، وكان السلطان يأمل أن يشهدها تقي الدين حتى نهايتها. كانت شجاعة ذلك الأمير مصدرا لإلهام عمه ورجاله، وبثّ الحمية فيهم، ولكن عمه كان يعرف أن روحه رقيقة، وذلك ما جعله يحبّه بشدة. دون تقي الدين، أصبح من الضروري تحقيق أكثر ما نستطيع من الانتصارات لكي نوهن روح العدو ونجعل قادتهم يعودون من حيث أتوا.

في الصباح التالي أعطاني السلطان قصاصة عليها رثاء لابن شقيقه. كان يريدني، في غياب عماد الدين، أن ألقي نظرة على الشعر الذي كتبه، وأقوم بتنقيحه قبل إرساله إلى أشقائه وأبناء أخيه. كان العلامة الكبير قاسيا باستمرار على كتابة صلاح الدين. إلا أنني لم أكن من السلطة أو الثقة بالنفس بما يجعلني أجري أي تعديل. الحقيقة أن الشعر أعجبني يا ابن ميمون، وأرسلته كما هو إلى جهات عدّة. ألست معي؟

وحيدًا في الصحراء

أحصي مصابيح شبابنا المطفأة،

كم منهم قضى محكوما بالإعدام؟

كم سيلحقون بهم؟

حتى صوت الناي لا يستطيع استدعاءهم،

ولا الأغاني التي نكتبها.

ولكن، كل صباح،

مع كل إشراقة شمس،

سأذكرهم في صلاتي.

لقد اغتال سهم الموت الغادر تقي الدين،

وضاق عليَّ العالم،

ساد الظلام وعمّ الأسي،

فهل نستطيع أن نضيء الطريق مرة أخرى؟

صديقك: ابن يعقوب

الكاتب الشخصي للسلطان صلاح الدين بن أيوب

(41)

●"مؤخّرة الأسد" يعود إلى إنجلترا ● السلطان يعتكف في دمشق

كنا في حيرة شديدة. الانشقاق الكبير بين صفوف الأمراء مكَّن ريتشارد من إحكام حصاره على أورشليم بنجاح.

أحيانا، يذهب السلطان إلى الأقصى، ويغرق سجادة الصلاة بدموعه. لم يكن يثق في قدرة أمرائه وجنوده على مقاومة الهجوم.

في اجتماع لمجلس الحرب، خاطب أحد الأمراء صلاح الدين بلغة خشنة وقال بإصرار: "إن سقوط أورشليم لن يدمر ديننا، فقد عشنا سنوات طويلة دونها. إنها مجرد مدينة، وفي العالم الذي نعيش فيه ثمة أحجار كثيرة". لم يسبق أن رأيت السلطان غاضبًا هكذا. نهض وقمنا كلنا معه، سار نحو ذلك الأمير ونظر في عينيه. أدار الأمير بصره وركع على ركبتيه. لم ينبس السلطان بكلمة. عاد إلى مكانه وقال بصوت هادئ: "سندافع عن أورشليم حتى آخر جندي، وإذا سقطت فسوف أسقط معها، كي يتذكر ويفهم أطفالنا في المستقبل أن أورشليم ليست مدينة عادية من الحجر، إنما مكان تقرر فيه مصير ديننا". ثم غادر القاعة. لم يتكلم أحد بعده، وخلت القاعة ممن كانوا فيها.

جلست وحدي أفكّر في أحداث السنوات القليلة الماضية الجسام. تضخّمت ثقتنا بأنفسنا أكثر من اللازم بعد انتصارنا في أورشليم. أحببت السلطان كأبي، ولكن كان هناك عيب في شخصيته. أحيانا، عندما يريد أن يكون حاسما، يقوم باختبارات علنية معتقدا أن حدسه صحيح، وفي مثل تلك الأحيان يضعف ويترك من هم أقل منه يؤثرون فيه. في أوقات كثيرة، كنت أريد أن أتجاوز وضعي وأتحدّث معه كصديق، كما كنت تتحدث أنت معي أحيانا. هل تتصور ماذا كنت أتمنى أن أقول؟

أنا نفسي لست متأكدا.

لعلني كنت أريد أن أهمس في أذنه: "لا تفقد شجاعتك إذا خذلك بعض الأمراء الآن، أو إذا أهمل المزارعون توجيهاتك وزوّدوا الفرنج بالحبوب. إن إحساسك صادق، وأنت على حق، ولكن ضمان انتصارنا النهائي يكمن في الإصرار على عدم الاستسلام، وعلى الحسم عندما نتحدث مع الجند، ورفض أي مساومات مع المترددين في صفوفنا. في هذه المباشرة، وبتلك الحدة مثل الرمح في القتال، كان يكمن سر انتصارات عمك شيركوه".

لحسن حظنا، كان ريتشارد يخشى الهزيمة. كان يخاف الشمس، وكان يخاف الآبار المسمومة، وكان يخاف غضبنا، وفوق كل شيء كان يخاف السلطان. كان، كذلك، متلهفا على العودة إلى بلاده. إحدى المرات القليلة التي سمعت السلطان يضحك فيها، كانت عندما أبلغنا أحد جواسيسنا بوجود انشقاقات في معسكر العدو. لم يكن ريتشارد والملك الفرنسي يتفقان على أي قضية. كُرْه أحدهما للآخر كان شديدا لدرجة أنه فاق الرغبة في هزيمتنا.

ضحك السلطان وهو يقول: "الحمد لله، لسنا وحدنا الذين تقسمهم صراعات تافهة وطموحات متنافسة".

كان يعتقد أن ذلك هو الوقت المناسب لعقد صلح. الفرنج يحتفظون بمدنهم الساحلية. فليأخذوا صور ويافا وعسقلان وعكا. تلك كلها لا تساوي شيئا مقارنة بما تحت أيدينا الآن، وعلى الرغم من أننا لم نطردهم إلى البحر، فإن الوقت في صالحنا. هكذا كان يفكر السلطان وأحسبه محقا في ذلك.

رحل ريتشارد عن شواطئنا. بقي هنا عامين ولكنه فشل في الاستيلاء على المدينة المقدسة. لم تحقق حملته شيئا. ربما يكون قد استمتع بإعدام أسرى لا حول لهم ولا قوة، ولكن حملته فشلت، وفي ذلك انتصارنا.

يظل سلطاننا هو الحاكم الوحيد صاحب السيادة في هذه المنطقة. أعرف أنك لن تندهش حين تسمع أننا بمجرد مغادرة ريتشارد شواطئنا، بدأنا نستقبل وفودًا من نبلاء الفرنج يطلبون من السلطان حمايتهم من بعضهم بعضا. يريدون أن يشتروا أمنهم بأن يكونوا تابعين له.

وهكذا عدنا إلى القلعة في دمشق حيث أكتب لك هذه الرسالة. لديَّ ثلاث غرف تحت تصرفي، وأعامَل كضيف أكثر مني خادمًا. القهرمان يزورني بانتظام ليطمئن على أن احتياجاتي ملبّاة، وهو يفعل ذلك بالطبع بتعليمات من سيّده. وكأن صلاح الدين قد قرر أن يكافئني على اجتهادي على مدى السنوات، بالتأكد من أن سنواتي الأخيرة سعيدة ولا تنقصها الراحة.

أرى السلطان يوميا يتحدث كثيرا هذه الأيام عن أبيه وعمه، ولكن الشخص الذي يفتقده أكثر من الجميع هو صديقنا القديم شادي، ذلك المقاتل الكردي الذي كان عمّه بالدم أيضا، والذي لم يكن يتردد في قول الحقيقة. بالأمس ذكّرني بقدرة شادي على "تحويل الخطاب إلى منطق"، وضحكنا معا، ليس بصفته حاكما وبصفتي خادما، وإنما كصديقين يتحسّران على فقد شيء عزيز.

أنا قلق على السلطان جدا يا ابن ميمون، وأتمنى مخلصا لو أنك تستطيع أن تأتي إلى دمشق لتكون طبيبه. إنه في حاجة إلى رعاية. وجهه متغضّن، وتبدو عليه علامات الإرهاق الحقيقي، والشعر الأبيض يغزو لحيته، والإجهاد يرهقه ويجد صعوبة في النوم ليلا. هل توصي بأعشاب معينة؟

بالأمس، بعد راحة ما بعد الظهيرة، ولمجرد نزوة، أرسل في طلب عماد الدين، وتأخّر الرجل طويلا.. إلى ما بعد انتهائنا من العشاء. اعتذر متعلّلا بأنه لم يُبلغ برسالة السلطان سوى قبل نصف الساعة. ابتسم صلاح الدين ولم يناقش ذلك الادعاء الزائف. معروف للكل أن عماد الدين يتجنّب الأكل مع السلطان بسبب تقشّف الأخير وزهده في الطعام.

سأله السلطان دون أن يبتسم: "ماذا أكلت الليلة يا عماد الدين؟ وأين؟"

اهتزّ المساعد لهذا السؤال المفاجئ، ورفع جفنيه المتهدلين وأصبح أكثر انتباها.

"كانت وجبة بسيطة يا سيدي، قليل من لحم الضأن المشوي، وبعده أحد أطباقي الخاصة، سمّان مطهو في خثارة لبن الماعز المتبّل بالملح والثوم.. هذا كل شيء".

ضحكنا وانضم إلينا، وبعد تبادل المزاح أعلن السلطان عن رغبته في الحجّ إلى مكة، وطلب من عماد الدين أن يقوم بترتيب الأمر، فتجهّم وجه المساعد .

"قد لا أوصي بذلك الآن، فالخليفة ناقم عليك بالفعل، ويعرف أن الناس يحبّونك،

وسيعتبر زيارتك لمكة تحدّيا لسلطته في بغداد".

قال السلطان مقاطعا مستشاره لشئون التشريفات: "هذا حديث من يهرف بما لا يعرف يا عماد الدين، على المؤمن أن يزور مكة مرة كل عام".

"أعرف ذلك يا سيدي السلطان، ولكن الخليفة ربما يسأل عن اختيارك هذا التوقيت بالتحديد لزيارتك. وربما استمع إلى ألسنة السوء التي تثرثر بأنك كنت ذات يوم من المتشككين، ولذلك لم تكن تكترث بتعاليم ديننا".

جاء رد السلطان حاسمًا: "افْعل ما أقوله لك يا عماد الدين. سأزور مكة قبل نهاية هذا العام، فلتبلغ الخليفة برغبتنا، وسل بطريقة مهذبة ما إذا كان بالإمكان أن نتوقّف ونحن في طريقنا للسلام عليه".

بمجرد أن تقرّر الأمر، تأهب عماد الدين للانصراف ولكن السلطان أشار له بالبقاء.

"لا نحظى بحضورك كثيرا هذه الأيام يا عماد الدين. قل لي، هل وجدت عشيقا جديدا؟"

لم يكن من عادة صلاح الدين أن يكون حميما لهذه الدرجة، ودهش المساعد لتلك الألفة التي أبداها سيده. تفادى السؤال بمزحة، ولكنها لم تبهج السلطان ولا أبهجتني. أصبح صلاح الدين أكثر جدّية بعد أن ساءه إصرار عماد الدين على التكتم.

"أعرف أنك درست الديانة المسيحية جيدا يا عماد الدين، أليس صحيحا أن المسيحيين الأوائل الذين يزعم القبط أنهم من نسلهم، كانوا يكرهون الأيقونات والصور مثلنا؟ هنا أنا أضيف إليهم ابن يعقوب وأتباع موسى، الذين يقوم دينهم مثلنا على رفض عبادة الصور. كيف حدث أن تخلّى المسيحيون الذين جاءوا بعد ذلك عن معتقداتهم القديمة، وبدأوا يعبدون الأيقونات؟ وإذا كان ذلك قد جرى عليهم، أفلا يمكن أن يجري علينا؟"

غرق عماد الدين للحظة في أفكاره وهو يمسّد لحيته. وبمجرد أن بلور إجابة في ذهنه، راح يتكلم ببطء كما لو كان يملي على تلميذ.

"المسيحيون الأوائل كانوا بالفعل مستائين من عبادة الصور، وكانوا في غالبيتهم من نسل قوم موسى، وعليه فقد حملوا بداخلهم الكثير من تعاليم اليهودية القديمة. وكانوا

كذلك معادين للإغريق. والواقع أن بعض المسيحيين القدامى كانوا يسخرون من الوثنيين بقولهم إذا كانت التماثيل والصور قادرة على التفكير والشعور، فإن الشخص الوحيد الذي يستحق حبهم سيكون من خلقهم.

التغير جاء بعد ثلاثمائة عام، عندما هُزم الوثنيون هزيمة ساحقة. كان زعماء الكنيسة يعتقدون أن صور عيسى والقديسين ورموزا مثل الصليب، هي بمثابة جسر بينهم وبين أغلبية متشككة تستدعي الماضي بحب، وذاكرتها ما زالت عامرة بجوانب كثيرة من الطقوس الوثنية. وإذا كان أتباع فيثاغورس يمكن التغلّب عليهم فقط بصور عيسى وهو على الصليب، فإن الأساقفة مستعدون للسماح بذلك لإبعادهم عن ماضيهم.

وعندما ذكّرهم الوثنيون الذين تحولوا حديثا بأن دينهم تُعوْزهُ أثينا وديانا وفينوس، أراحوا عقول أتباعهم الجدد بترقية أم عيسى لتكون واحدة من أكثر الصور شعبية في ديانتهم. فكان وجود صورة أم، أمرًا ضروريًا بالنسبة لهم، حيث إنهم كانوا يحكمون دولا عُبدت فيها الإلهات على مدى قرون. وكان نبينا عليه الصلاة والسلام يعي هذه المشكلة، ولكنه قاوم إغواء الشيطان بهذا الخصوص.

تساءل السلطان عما إذا كنا سنفعل الشيء نفسه. فأجاب: لا أعتقد ذلك. إن نقاء ديننا مرتبط تماما بعبادة الله. الله وحده. فعبادة صورة شخص لن يكون عملا تجديفيا فحسب، وإنما سيكون كذلك تحدّيا لسلطة أمير المؤمنين. وفي النهاية، إذا كانت السلطة ممثلة برمز أو صورة فلماذا لا نقبل قوة بشر؟ أعرف فيما تفكر يا سيدي. البابا الموجود في روما؟ فكرت كثيرا، ولكن مع مرور السنوات سوف يشهد دينهم انشقاقات وتحديات لسلطة البابا. هذا هو منطق عبادة الصور.

إذا مضينا في هذا الاتجاه، فإن ديننا، على خلاف ديانة المسيحيين، لن يقدر على الصمود أمام هذه النزعة، وسينهار".

راح السلطان يمسّد لحيته وهو يفكر، ولكن منطق عماد الدين لم يقنعه.

"إن سلطة البابا عندهم أو الخليفة عندنا يمكن تحدّيها يا عماد الدين. أنا أصدقك في ذلك، ولكن ما لا أوافقك عليه هو أن ذلك كله ناتج عن عبادة الصور والأيقونات. وأنت لم تبرهن على ما تقول، وعلى الرغم من ذلك فالموضوع يثير اهتمامي. تكلم مع القهرمان، ودعنا نعقد مؤتمرا للعلماء في الأسبوع القادم لمناقشة الأمر على نحو أعمق. لن أستبقيك أكثر من ذلك. أنا واثق من أن شابا جميلا في انتظارك الآن في مكان ما في

قلب دمشق لتدخل إلى فراشه".

لم يرد المساعد، ولكنه اغتصب لنفسه ابتسامة، وقبّل عباءة السلطان قبل أن ينصرف. لم يكن الوقت قد تأخر ولكن السلطان كان متعبا. جاء خادمان يحملان الشراشف والصابون والزيوت ليصحباه إلى الحمام. نظر إليَّ وعلى وجهه ابتسامة واهنة.

"جميلة ستغضب. لقد استبقيتك طويلا اليوم. إنها متلهفة على الكلام معك. لقد اعتادت مثلي صداقتك العزيزة. ووجودك يطمئنها. فمن الأفضل أن تمضي يوم الغد كله معها".

انحنيت وهو ينصرف. كان يريح ذراعيه على كتفي خادميه. كان كلاهما يحمل مصباحا في يده اليمنى وهو يسير بينهما وعلى وجهه ضوء خفيف، للحظة، بدا وكأنه ضوء من عالم آخر، من الجنة. يتحدث أحيانا عن النعم التي لم تكن متوقعة، وأنعم بها عليه القدر. يتحدث عن نفسه بصفته مجرد أداة من أدوات الله. إنه مدرك لحقيقة كونه غير مخلّد. السلطان ليس في صحة جيدة يا ابن ميمون وهذا ما يُحزنني.

في اليوم التالي، عملا بتوجيهات السلطان، ذهبت لزيارة السلطانة جميلة. استقبلتني بمفردي ورحّبت بي بشدة. ناولتني مخطوطة، وبينما كنت أقلّب صفحاتها بدأت أرتعد لأجلها ولأجل نفسي. كلانا يمكن أن يُقطع رأسه. هي، لأنها كتبت تلك الصفحات المزعجة، وأنا لأنني قرأتها بموضوعية ولم أبلغ القاضي بها. احتوت الصفحات على تجديف واضح، لدرجة أن السلطان نفسه كان يمكن ألا يجد طريقة لحمايتها من غضب العلماء. عندما نلتقي مرة أخرى، سأناقش ذلك معك يا ابن ميمون. وأخاف أن أعبّر لك عما في تلك الصفحات أو أن أبوح بما فيها في رسالة يحملها إليك رسول. وهناك احتمال كبير أن رسائلنا تُفتح وتقرؤها عيون متطفلة، ويُنقل محتواها للفاضل وعماد الدين ثم تنتشر.

"الورق يمكن أن يحرق يا ابن يعقوب"، قالت وفي عينيها نار، "لكن أفكاري لن تتركني. ما لا تفهمه، أن شيئا رهيبا قد حدث لي، وأريد أن أذهب إلى الجنوب إلى الأبد. لم أعد قادرة على الابتسام. الرياح أحرقت شفتي. أريد أن أموت حيث ولدت. وإلى أن يأتي ذلك اليوم، سوف أواصل نقل أفكاري إلى الورق. ليس لديَّ النية لتدمير هذه المخطوطة. سأودعها مكانا أمينا لكي يقرأها بعد ذلك من يفهمون بحثي عن الحقيقة".

على الرغم من أنني كنت أستطيع أن أقرأ الإجابة في عينيها، فقد سألتها عن طبيعة

الكارثة التي حلّت بها. لقد سئمت تلك الفتاة القبطية الجميلة. قلبها المتخم شعر فجأة بالاشمئزاز. لم تقدّم سببا ولم أسألها عن سبب. كانت تبحث عن حليمة ولم تجدها في القبطية. هل سيستمر البحث عندما تعود إلى الجنوب، أم تراها نذرت حياتها للعلم؟ كنت على وشك أن أسألها عندما فاجأتني بعرض لم أكن أتوقعه.

"حياتك أنت كذلك تأثرت بالحظ التعس. لقد كسبت احترام وتقدير الجميع، ولكننا أنا وأنت أشبه بالمتسولين. ليس لدينا شيء. صحيح أنني أمّ لابنين قويين ولكنهما بعيدان. سيموتان وهما يحاربان ويدافعان عن قلعة ما في هذه الحرب اللعينة. أشك حتى في أنهما سيهبانني أحفادًا يؤنسون شيخوختي. أتوقّع حياة فارغة بعد رحيل السلطان، وكذلك بالنسبة لك. لماذا لا تصحبني إلى الجنوب؟ في مكتبة أبي مخطوطات نادرة تضم بعض أعمال المتشككين الأندلسيين. لن تعدم مادة للقراءة. ما قولك أيها الكاتب؟ أتحتاج وقتا للتفكير؟"

أومأت برأسي وأنا أعبّر عن امتناني لها لأنها فكرت في أمري على هذا النحو العطوف. الحقيقة يا ابن ميمون، أنني أفضل العودة إلى القاهرة والبحث عن غرفة صغيرة في مكان ما، لكي أكون قريبًا منك.

صديقك المخلص

ابن يعقوب

(42)

• وداعا للسلطان

صديقي العزيز..

يخيّم على القلعة وأنا أكتب لك هذه السطور ضباب كثيف، ولكن أين منه تلك السحب السوداء التي غطّت قلوبنا على مدى الأيام السبعة الماضية. ذلك الذي كان معتادًا على الحرب يرقد الآن في سلام في ظل المسجد الكبير.

مستقبلي غامض. الأفضل، ابن السلطان، خلفه، ويريدني أن أبقى هنا كاتبا له. وجميلة تستعد للرحيل إلى الجنوب وتريدني أن أصحبها. أعتقد أنني سوف أتعلّل بسوء الصحة وأعود إلى القاهرة لأستعيد أفكاري، وأفكّر بعض الوقت في حياة ذلك الرجل الذي تركنا رحيله في ظلام.

صحّته، كما كتبت لك من قبل، لم تكن على ما يرام. في الأسابيع الأخيرة لنا في أورشليم كان يتنهّد كثيرا ويشكو قلة النوم، ولكنه كان مُصرّا على الصيام الذي حذّره منه أطبّاؤه. كان الصيام يزيده ضعفا على ضعف، وكنت أعوده كل يوم فأرى رأسه معلّقا في وهن بالغ وهو ينظر إلى الأرض.

ولكن العودة إلى دمشق نشّطته بعض الشيء. كان موته هو أسوأ ما في الأمر لأنه لم يكن متوقّعا. في الشهر الأخير، كان يُمضي وقتا طويلا مع شقيقه العادل وأبنائه. كان يبدو كأنه استعاد صحّته. كان يأكل جيدا، وعاد الدم إلى وجنتيه. كنا نسمع ضحكا كثيرا وهم خارجون للصيد.

ذات مرة، وكنا جالسين في الحديقة، جاء الأفضل، ابنه الأكبر لتحيّته. وصمت

السلطان الذي كان قد تحدّث معي عن الراحل تقي الدين ابن شقيقه، صمت عندما جاء الأفضل وقبّل يده. نظر إليه السلطان بحدة.

"لقد تركت لكم كلكم إمبراطورية ممتدة من دجلة إلى النيل. لا تنسوا أن نجاحاتنا تعتمد على الدعم الذي قدّمه شعبنا لنا. إذا انعزلتم عنه فلن تستمروا طويلا".

في مناسبة أخرى سمعته يناشد العادل أن يُؤَمِّنَ مصالح أولاده. كان يعرف، كما كان يعرف أخوه، أنه لا يوجد اعتبار خاص للتوريث بين عشائر الجبل. كانت العشيرة تختار الأقوى من بين أبنائها ليقودها ويحمي مصالحها. كان العادل، الشقيق الأصغر للسلطان يحمل شبها كبيرا من عمهم شيركوه، كما أن صفاته وشهيته للأكل لم تكن تختلف عنها لدى عمه. كان صلاح الدين يعرف، كما كان شقيقه يعرف، أنه لو أُعطي الخيار للجنود والمساعدين، فإنهم سيختارون العادل ليكون هو السلطان. طلب من العادل أن يحمي الأفضل والعزيز والظاهر من المؤامرات. انحنى الأخ الأصغر وقبّل وجنتي السلطان متمتما: "لماذا روحك واهنة هكذا؟ إن الله سيقبضني إليه قبلك. إنه في حاجة إليك لكي تطهّر شواطئنا من الكفار".

عندما قال العادل ذلك أثنيت على كلماته. وكانت معنويات السلطان مرتفعة، وكان يذكّرني بالأيام الأولى في القاهرة عندما كان يتعلّم فنون إدارة الدولة، ولكن لا بدَّ أنه كان لدى السلطان هاجس سوء.

ذات صباح باكر، أمر بإيقاظي والذهاب إليه. أراد أن يذهب لاستقبال الحجّاج العائدين مهنّئا أمام أسوار المدينة بعد عدم تمكّنه من الذهاب إلى مكة. أعتقد أنه كان حزينًا لعدم قدرته على الحج. في شبابه كان عملا فيه تحدٍ، ولكن عندما كبر أحس بالخسارة، على الرغم من أن الحرب ضد الفرنج شغلته عشرين عامًا، ورغم أنه كان مرهقا ولا يستطيع القيام برحلة كهذه. حتى إن عماد الدين منعه بحجة خصومة الخليفة. ولكن المساعد، في الحقيقة، أفضى إليَّ بسر، وهو أن السلطان ربما لا يستطيع أن يتحمّل تلك الرحلة، وأنه قد يموت في أثنائها. أكّد له الأطباء أن ذلك بالفعل هو السبب الذي جعلهم يمنعونه من بذل جهد كبير. فتقبّل قرارهم حزينا. وكانت رغبته في الذهاب لاستقبال الحجيج تعويضًا عن ذلك.

وعندما خرجنا، بدأت السماء تُمطر دون سابق إنذار. كان مطرًا شتويًا باردًا جمّد وجوهنا. رأيته يرتعد، وأدركت أنه جاء دون سترته المبطّنة، فخلعت عباءتي وحاولت

أن أضعها حول كتفيه، ولكنه ضحك ورماها لي. استغرب أن أحاول أنا، الذي يعتبرني ضعيفًا، حمايته من قسوة الطقس.

كان المطر غزيرًا لدرجة أن الطريق تحوّلت إلى جداول ماء وأصبح السير بالغ الصعوبة، وبدأت الخيل تنزلق في الطين ولكنه بقي فوق صهوة حصانه ونحن خلفه. كنت أراه وثيابه ولحيته ملوّثة بالطين عندما كان يُحيّي الحجيج الغارقين بماء المطر.

عندما عُدنا، كان المطر قد توقّف وانقشعت السحب. وقام أهل دمشق، بالخروج في أزهى حللهم إلى الشوارع لتحية السلطان واستقبال القافلة العائدة من مكة. تجنّبنا الزحام، واتخذنا طريقا جانبية عائدين إلى الجسر المتحرّك.

بعد ذلك، في وقت متأخر من تلك الليلة، تملكته حمّى شديدة. أشك أن أي طبيب، حتى بمثل مهارتك، كان يمكن أن ينقذه يا ابن ميمون. زادت الحمّى، وفقد السلطان الوعي تقريبًا. كان يرى العادل وأبناءه كل يوم، ولم أبرح جانبه، معتقدا أنه قد يفيق في أي لحظة ليملي عليَّ وصيّته الأخيرة، ولكنه في اليوم العاشر نام.. ولم يستيقظ. كان بالكاد قد أكمل خمسًا وخمسين سنة.

ظلّت المدينة تبكي ثلاثة أيام كاملة. أغلقت المحلات أبوابها دون تعليمات من أحد، وهجر الناس الشوارع. لم أشهد في حياتي حزنًا عامًا مثل هذا الحزن. خرجت المدينة كلها لتشيّع جثمانه إلى مثواه الأخير. كنّا نسير في صمت تام، وهمس طبيبه عبد اللطيف، وهو نفسه شيخ مسن، في أذني بأنه لا يتذكّر أن موت سلطان ما، قد مزّق قلوب الناس على هذا النحو.

عماد الدين، الذي شوّه الألم وجهه، ودموعه انثالت على خديه، أخذ يدعو الله بصوت عالٍ: "اللهم تقبّل روحه، وافتح له أبواب الجنة، وانصره بذلك نصره الأخير الذي كان يتمنّى".

عندما عدنا إلى القلعة، ساد صمت تام. كان يبدو وكأن الأمراء والتابعين غير قادرين على تحمّل الاستماع إلى أصواتهم. جاء الأفضل ابن السلطان وعانقني دون أن نتبادل كلمة. في ذلك المساء، شعرت بمغص وغثيان. كنت أرتعد وسخن جسمي بشدة. شربت ثلاث زمزميات من الماء ثم نمت.

عندما صحوت في الصباح التالي، كان المرض قد فارقني، ولكنني أحسست بضعف

شديد.. وبفداحة الخسارة التي حلّت بنا.....

لقد مات السلطان.

اكتمل عملي، ولم يبق هناك ما أكتبه.

السلام عليك إلى أن نلتقي .

صديقك الوفي

ابن يعقوب

(كاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب)

هوامش الكتاب

(1) لعبة تمارس من على متون الخيل بالكرة ومضارب من جريد النخيل، كانت تسمى الكرة أو الأكرة. المترجم.

(2) وردت في الأصل عبارة منسوبة إلى علي بن أبي طالب، رأينا عدم ترجمتها، لكنها تفسّر الحرج الذى ينتاب ابن يعقوب فور سؤال المرأتين له. المراجع.

(3) هي ولادة بنت عبد الرحمن المستكفي، التي هام الشاعر الأندلسي ابن زيدون بحبها. المراجع.

(4) كانت خطة رينولد دو شاتيون (أرناط) أن يفعل هذا لكن تم تدمير أسطوله، والقبض على رجاله في الحجاز..المترجم

(5) الاسبتاري عضو في "الاسبتارية" وهي منظمة دينية عسكرية تكونت في بيت المقدس في القرن 12 الميلادي. المترجم.

الكتب خان للنشر والتوزيع®

13 شارع 254 – دجلة – المعادي – القاهرة.

تليفون : 20225196569+ - 20225170678+

بريد إلكتروني:info@kotobkhan.com

موقع إلكتروني:www.kotobkhan.com

في ليلة باردة من ليالي الشتاء، قرّر صلاح الدين أن يكتب سيرته الذاتية، فرشّح له الطبيبُ والفيلسوفُ اليهوديُ المعروف ابن ميمون صديقه ابن يعقوب. وبينما كان صلاح الدين يملي على كاتبه ذكريات شبابه، ونزواته، ومغامراته، كانت حوادث يومه وأحداثه تقطع عليه خيطَ الذاكرة المنساب. وبين هذا وذاك، نستمع إلى قصة حليمة، تلك الجارية الفاتنة التي أغوت صلاح الدين، فرفض أن يُسلمها للرجم، بعد أن ارتكبت جريمة الزنا. نتعرّف إلى السلطانة جميلة، وعالمها الذي يجري بين ابن سينا، فيلسوف المشرق، وابن رشد، فيلسوف المغرب. بل يفتح السردُ أبوابه على عالم الحريم في القرون الوسطى، ذلك الزمن الذي لا يزال غارقًا في الظلام. وسط هذا كله سنرى بأعيننا قاهرة صلاح الدين، سنشاهد خيال الظل، وسنمضي في شوارعها وبين أهاليها، لنشاركهم احتفالات عيد النيروز. لكننا، مع ذلك، لن نفقد خيطَ التاريخ وهو يمدّ، سنحضر جلسات الحرب، ونشهد مناوراتها، ونرى عن قُرب أعظم معارك التاريخ وهي تُصنَع. بمثل هذه الروعة، يجمع طارق علي، في الخيال، بين جلال الحقيقة وصدقها، وسحر الخيال وفتنته.

الناشر

• • •

طارق علي يقلب ــ رأسا على عقب ــ تلك الصور النمطية التي تحول صلاح الدين إلى شيطان، ويصور، بدلا من ذلك، الغزاة "البرابرة" الغربيين. وسواء أكان العمل يصور مكائد الحريم المشحونة بالشبق أو حروب الحصار، فهو عمل فذ من إبداع القص الممتع الذي يعيد كتابة التاريخ

سيمون كارتيل – صنداى تايمز

• • •

"رواية طارق على التاريخية الجديدة... مروية بأسلوب يجمع بين قص التعاويذ والرقى فى الأنطولوجيات الشرق أوسطية، ورصانة البحث التاريخى"

فيليب هنشر – ميل أون صنداى

• • •

"غنائية قوية. نسيج يجمع بين المكائد السياسية والحب الشاذ والحب الصحيح والخيانة والمصائر المتقاطعة والاغتصاب والاغتيال وجرائم العاطفة المشبوبة.
رواية طارق على تموج بتماثلات ضمنية مع زماننا"

بابليشير ووكلي

ISBN 978-977-6306-06-6